روبير شوسوا

المعارك البحرية الكبرى في التاريخ

ترجمة الدكتور
عبد الرحمن حميدة

Bibliotheca Alexandrina
0138163

مركز الدراسات العسكرية
١٩٨٤

روبير شوسّوا

كتاب ثقـافي عسكري

المعارك البحرية الكبرى في التاريخ

ترجمة
الدكتور عبد الرحمن حميدة
أستاذ في جامعة دمشق

مركز الدراسات العسكرية
دمشق ١٩٨٤

تقــديــم

يقدم مركز الدراسات العسكرية لضباط قواتنا المسلحة كتاب :

((المعارك البحرية الكبرى في التاريخ)) وهو ترجمة عن اللغة الفرنسية ٠

يتعرف القارىء من خــلال هذا الكتاب على احــد ميادين القتال بــين القــوى المتصارعة في العالم منذ الأزل ، ويجدر في هذا الصدد أن نذكر ان امتنا العربية لم تكن أمة بحرية بمعنى الكلمة ، ولكنها أمة ركبت البحر في ماضيها التالد ، وجابت محيطاته خلال الفتوحات وقاتلت على متنه أعداءها والطامعين بها في معارك بحرية كثيرة ٠

في قراءة هذا الكتاب فائدة لقادتنا وضباطنا في القوات المسلحة ٠

حزيران ١٩٨٤

مركز الدراسات العسكرية

العرب والبحر

ليس هناك من زعم أكثر مجافاة للصواب وبعدا عن المنطق مـن الرأي القائل بأن العرب في جاهليتهـم وصدر اسلامهم كانوا يحجمون عن ركوب متن البحر ، والحقيقة ان للعرب حضارة وتقاليـد بحرية موروثة راقية ، اكتسبها ، خلال مئات السنين الخالية ، عرب اليمن من حمير وسبأ وسواهم ، شهدتها سواحـل البحر الاحمر والبحر العربي المطل على المحيط الهندي ، منـذ أيام التبابعة ، كما اشتهر عرب الخليـج ، ولاسيما سكان البحرين في الملاحـة ، شـأن ساحـل الاحساء ، ولاسيمـا في مينائهـم الشهير « الجرعاء » الذي لعب دورا كبيرا في الالف الاول قبل الميلاد ، ويؤيد ذلك قول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم :

ملأنـا البـر حتى ضاق ذرعـا وظهـر البحـر نملؤه سفينـا

ولقد تأكد بشكل جازم ان العرب المعينيين ، في اليمن، كانوا يتمتعون بمكانة تجارية مرموقة في المحيط الهندي ، منذ القرن العاشر قبل الميلاد وان نفوذهم في البحار المواجهة لليمن ، كسواحل القرن الافريقي، لم يكن بأقل من نفوذ وشأن العرب الكنعانيين « الفينيقيين » في البحر الابيض المتوسط . ويصف سترابون في كتابة « جغرافيا » باسهاب واعجاب مـدى ما كان للعرب من سلطان في البحر العربي والمحيط الهنـدي وسواحل افريقية الشرقية والحبشة ، حتى ان مدينة « الشحر » ، على الساحـل الجنوبي مـن جزيـرة العرب ، كانت ملتقى سفن الهند ومصر وفارس . ويذكر پلـين ، المؤرخ الروماني في القرن الاول الميلادي : « ان التبابعة ، ملوك اليمـن ، كانوا يتصلون بشواطىء افريقيـة الشـرقية بحرا ويبسطون أيديهـم على تجارتهـا ».

إذن فالقول بخشية العرب من ركوب البحار قبل الاسلام لا يصح الا على فئة من عرب قلب الجزيرة من الذين كان جل نشاطهم الاقتصادي منحصرا بالرعي أو بتجـارة القوافل ، حتى أن عرب الحجـاز الذين اتخذوا البر طريقا لتجارتهم ما كانوا يجهلون البحر .

ويؤيد ذلك ان المسلمين الاوائل قد هاجروا باذن من الرسـول العربي الكريـم الى الحبشة فرارا بدينهم واتقاء تعسف وظلم مشركي قريش ، وكانت هجرتهم على دفعـات متوالية في سفن تقصد الحبشة ، ولولا أن أهل مكة كانوا يترددون على سواحل الحبشة في العصر الجاهلي لما فكروا بالهجرة اليها لاجئين الى النجاشي من مظالم اخوانهم في الـدم .

وقد تعرضت جزيرة قبرص اكثر من مرة لغارات الاسطول الاسلامي الناشيء في عهد الخليفة الاول ابي بكر ، وكانت أهمها ذلك الهجوم على ميناء كيتيون (لارنكا الحالية) في عام ٦٤٢ م وكان القصد منه الدفاع الوقائي عن الثغور الاسلامية وصد العدوان المتكرر من جانب الروم الحانقين بعد بتر شطر من امبراطوريتهم على أيدي العرب الفاتحين .

وقد حاول معاوية بن أبي سفيان والي الشام في عهد الخلفاء الراشدين غزو جزيرة قبرص وفتحها، لانها كانت تؤلف قاعدة بيزنطية وشوكة في خاصرة دار الخلافة،ونقطة لانطلاق اسطولهم الذي ما فتيء يداهم سواحل بلاد الشام بين الفينة والاخرى ، ولهذا استاذن الخليفة ابا بكر في غزو الروم بحرا من الشام فلم ياذن له، وكرر محاولته في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فكان الجواب : « لا والذي بعث محمدا بالحق لا احمل فيه مسلما » . وبذلك لم ياذن لاحد من أمراء المسلمين بركوب البحر غازيا ، حتى انه كتب الى الوالي عمرو بن العاص : « لا تجعل بيني وبينك ماء ، وانزلوا موضعا متى اردت أن أركب راحلتي واصير اليكم فعلت » .

ولكن العلاء الحضرمي ، والي عمر بن الخطاب على البحرين ، آحب أن يفعل بالعجم ما فعله سعد ابن أبي وقاص في القادسية ، فندب عرب الخليج الى حرب الفرس بحرا ، فلبوا النداء ، وتسرعوا الى ذلك ،ففرقهم اجنادا ، ثم حملهم في البحر ، دون اذن من عمر بن الخطاب ولا موافقته ، فعبروا الخليج ونزلوا الى البر الفارسي ، واوغلوا فيه حتى وصلوا الى اصطخر ، وكانت قصبة الملك في تلك البلاد حينا من الدهر ، وقاتلوا الفرس قتال المستميت ، فظفروا بهم) .

وكان من أهم ما حدا بالعرب الى الاهتمام بركوب متن البحر الابيض المتوسط هو الدفاع عن بلادهم في وجه الاطماع البيزنطية والاوروبية التي لا تحد، وهذا ، بالذات ، ما جعل الخليفة الثالث عثمان بن عفان يسمح ببناء اسطول عربي بعد أن تعرضت مصر ، بعد فتحها ، لغارة بيزنطية عن طريق البحر ، فاحتلوا الاسكندرية ، ولم يتمكن العرب من استردادها الا بعد الكثير من الجهود والتضحيات في الارواح .

ولما كانت الدولة البيزنطية دولة بحرية تملك أقوى أسطول في البحر الابيض المتوسط الشرقي اقتضت الضرورة الحربية أن يكون للدولة العربية الاسلامية قوة تقف منها موقف الند للند . واستطاع اخيرا والي الشام معاوية بن أبي سفيان أن يقنع الخليفة عثمان بعد محاولته الاولى مع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وللمرة الثانية ، في أوائل عهد الخليفة عثمان بن عفان ، بالفائدة التي تعود على دولته من انشاء بحرية اسلامية ، فاجابه الى طلبه ، وبذلك استحالت المانعة في ركوب البحر ، في أيام عمر ، الى ترحيب في اواخر ايام عثمان ، وبذلك أصبح لدى الدولة العربية اسطول تتالف طواقمه من ملاحين يمنيين ومن اهل سواحل بر الشام ومصر ممن ثقفوا فن التوغل في البحر ولهم تقاليدهم في بناء السفن المختلفة الانواع والمقاييس .

وكان معاوية اول من وضع للدولة العربيــة سياسة خارجية واضحــة المعالم تتبناها آزاء الدولــة البيزنطية ، وكان مما دفعه الى توجيه نشاطه الى هذه الدولة رغبته في دفع خطر الروم عن الدولةالعربية، هذا الى جانبتطلعاته الى بلوغ ذروة المجد عنطريق فتح القسطنطينية بعد أن فاتته فرصة إظهار شخصيته في الفتوح العربية الكبرى .

ومن ثم بدأ فيغزو جزر البحر الابيضالمتوسط الخاضعة لنفوذ الروم بعد أنأصبحللدولةالاسلاميةالناشئة اسطول يساند قواتها البرية فغزا جزيرة قبرص سنة ٢٨ للهجرة أو ٦٤٩ م بعــد أن عهدت اليه الخلافــة بمهمة فتحها ، ولكن دون أن يترك حامية أو جالية عربية مستوطنة فيها لان المعركة الحاسمة مع الاسطــول البيزنطي لم يحن أوانها بعد ، وأخيرا خضعت قبرص بعد حملات متواليات وفرض عليها معاهدة عام ٦٨٨م التي قضت بأن تدفع جزية سنوية الى الخلافة فضلا عن جزيتها التي ظلت تدفعها الى بيزنطة .

معركة ذات السواري :

لقد وقعت أول معركة بحرية هامة بتاريخ ٢٩ آب ٦٥٤ أو ٣٤ هـ . في خلافة عثمان بن عفان ،وهو يــوم « البحرية العربية » التقليدي تخليدا لذكرى انتصارهم المظفر ، بقيادة عبــد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وفيها تم القضاء على اسطورة الاسطول الرومي ، وقد سبق لهــذا القائد القرشي فتــح افريقيــة الشمالية الوسطى أو « ليبيا » الحالية ، بعد أن سيطر على ما بين برقة وطرابلس ، وقد بلغ اسطولهذا القائد في مصر مبلغا من القوة والكثرة جعله يسيطر على طرق الملاحة في البحر الابيض المتوسط ويوقعالرهبة في نفوس الروم .

وكان أسطوله يتألف من مائتي سفينة تصدى لاسطول بيزنطي أكثر منــه عــددا ، بالقرب من ثغــر الاسكندرية وأوقع باسطولهم الذي كان يقوده الامبراطور قسطنطين الذي خلف هرقل . وعمد العرب الــى ربط كل سفينة عربية ، بعد الالتحام، بواسطة خطاطيفمعدني بسفينة رومية، فحولوا بذلك المعركة البحرية الى التحام وقتال بالسلاح الابيض ، فأبادوا الاسطول الرومي عن بكرة ابيه ، كما سبق لهم أن فعلوا فــي معركةاليرموك البرية التي كان يقود جيوش الروم فيها ماهان الارمني ، ويــذكر الطبري ان ميــاه البحــر اصبحت مشبعة بالدمــاء .

واندفع بعد ذلك لمهاجمة القسطنطينية سنة ٦٧٤م ولكن الاسطول العربي انسحبعلى أثر استعمال البيزنطيين النار اليونانية ، فعقد صلح بين الفريقين .وهاجم مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية براً،بينما كان الاسطول العربي يغلق مدخل البوسفور وذلك في شهر ايلول ٧١٧ م ، ولكن مسلمة انسحب إثر وفــاة اخيه الخليفة سليمان سنة ٩٩ هـ/٧١٨ م .

وظلت الاساطيل العربية تتراوح بين القوة والضعف حسب قوة الدول التي نشات بعد انفراط عقد الخلافة ، وراحت كل دويلة عربية تحارب لحسابها على انفراد . فنشأ اسطول عربي قوي أيام المماليك استطاع أن يحتل جزيرة قبرص ، لوقت ما ، وان يرد غارات البرتغاليين عن الموانىء العربية في البحر الاحمر . هذا كما بلغ اسطول خير الدين بربروس الجزائري مبلغا من القوة جعله سيد البحر الابيض المتوسط الغربي الى أن تم القضاء عليه في معركة ليبانت بعد أن جاء لنجدة الاسطول العثماني الذي خاض معركة ضارية ضد الاساطيل الاوربية المتحالفة ، وقد استطاع اسطول طرابلس الغرب أن يفرض الجزيةعلى السفن الاوروبية ، وحتى الامريكية، التي كانت تمخر عباب البحر الابيض المتوسط خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، مثلما فني الاسطول المصري المتحالف مع العثمانيين في معركة نافارين فيأيام محمد علي باشا.

وأخيرا تم القضاء على الاسطول المغربي ، الذي ظل صامدا خلال عدة قرون في وجه البرتغاليين والاسبان ، اذ لجأت فرنسا الى بيع قطعه بالمزاد العلني ، بعد أن فرضت حمايتها على المغرب الاقصى ، الذي لم يعرف في تاريخه ان ذاق مرارة الحكم الاجنبي .

ولنا وطيد الأمل والرجاء أن يستعيد العرب مكانتهم البحرية وان تخفق راياتهم فوق المحيطات والبحار بفضل أساطيلهم الحربية والتجارية الناشئة كي يستردوا عزتهم التي كانت لهم ، والتي لا حياة كريمة من دونها .

دمشق في ٢٥ رجب ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٥ أيار ١٩٨٤ م .

المعرب : عبد الرحمن حميده

دكتوراه الدولة بالآداب من السوربون .

تمهيـــد

من الطبيعي أن يبذل بنو الانسان جهودا أكبر لضمان السيطرة على البحار من تلك التي يضطرون للقيام بها للاستيلاء على أجزاء من القارات •• ولكن ما بالــك بالمحيطــات ؟

فالبحار تقدم طريقا رحبا خاليا من العوائق الهامــة ، طريقا يسمح بالتغلب على كل المصاعب ، وبنقل منتجات الأرض ، مهما كانت ، نحو أكثر بقاع الأرض بعدا ، ولكن على أن يتوفر شرط بدهي ، هــو أن لا تكون هناك منافسة • وعندما كانت تظهر هذه المنافسة ، في الماضي ، كان من الضروري القضاء عليها دونما تأخير ، ولهذا كانت هناك ضرورة اقتناء اسطول حربي قدير ، رغم ارتفاع كلفة ذلك ، ولكن ليس هذا عبثا ، وذلك لكي يقوم هــذا الاسطول بحراسة الأساطيل التجارية ، ولتأمــين حــرية التجــارة • فالحربان العالميتان ، بعــد الاستعانة بقطع اسطــول السطح ، وبالغواصات ، وبالطيران المحمول ، برهنتا ، الى أقصى حــد ، على ضرورة أخرى من أجل الهيمنة على البحــار لضمان الانتصار على البر : وهي ضــرورة الاحتفاظ بطرق المواصلات • فلو خسر الأميرال جلليكو في عام ١٩١٦ معركة جوتلند البحرية تجاه الساحل الدانمركي ، لما أمكن تحقيق الانتصار على الجبهة الغربية ، ابتداء من دنكرك الى جبال الفوج • ولو لم يكن بالامكان ابادة اسطول الغواصات الالمانيــة الهائل في عام ١٩٤٣ ، لاضطر التحــالف الانكليزي الامريكي للجلوس على مائــدة المفاوضات مع الفوهرر •

وكانت أوائل المعارك البحرية تنشب بين أساطيل صغيرة مدفوعة بالمجداف ، وبعدئذ بواسطــة الشراع • ولم يكن المدفــع معروفا بعد ، وكانت المشكلة تحسم باقتحام السفن المعادية ، والى احراق هيــاكل السفن الخشبية • وبعدئذ ظهرت على سائر المحيطات سفن عاليــة الجوانب كانت خواصرها مجهزة بمدافع بحرية ، والتي

كانت تؤلف القــوة الضاربة في ذلك العصر وتتمتع بحماية سفن أخرى أقل تسليحا، مثــل الفرقاطات والحراقات • وكانت هــذه السفن الصغيرة تستخــدم في عمليــة الاستكشاف وكان أمــراء البحر يقيمون استراتيجيتهــم البحرية على أساس مــن المعلومات التي يجمعونها • وكثيرا ما كانت هذه المعلومات هزيلة ، متناقضة ، ممــا يقودهم لتجشم عنــاء أسفار متباعدة عبر الفيافي البحرية المقفرة في أغلب الأحيان ، والمؤلفة من تلك السهول السائلة وحيث تتلاعب العواصف بهذه الزوارق النحيلة • فقد ظل نلسون خلال شهور كاملةيبحث عن الاسطول الفرنسي ، بقيادةفيللينوف،الى أن حصره في الطرف الأغر علىالساحل الاسباني وكسب لمصلحة انكلترا تلك الحرب التي كان نابوليون يشنها ، دون أمل ، من اسبانيا حتى موسكو ، لأنه كان يفتقر الى القوة البحرية •

ومع تطور المدفعية ، وتزايد مدى قذائفها ، أصبحت السفينة الحربية بعد قليل بحاجة الى درع • وبعد ان كان هــذا التصفيح رقيقا جدا ، أصبحت الحاجة ماسة لتقويته ، مما أدى الىتخفيف سرعة السفن الحربية ، بيد أن الأجهزة المحركةتحسنت أيضا بدورها ، ولم تعد الملاحــة تعتمد على الشراع بل على قوة البخار ، وذلك على مسافات هائلة ، وبسرعة تراءت مذهلة في مطلع هذا القرن •

ذاك هو عصر الدارعات ، وبعد قليل جاء دور سفن الدريدنوت وهي سفينــة حربية من طراز جديد ، ظهرتلأول مرة عام١٩٠٦ مجهزة بصوار ثلاثية القوائموذات مدفعية كبــيرة المقياس يديرهــا ضابط مدفعي ويوجهها اوتوماتيكيا • وســرعان ما أصبحت سفن الدريدنوت بعبح البحار ، في حــين كانت الطرادات الخفيفة ، التي كانت تفوقها سرعة تشن حرب القرصنة وتهاجم السفن التجارية الى أن تــم القضاء عليها بواسطة سفن أكثر منها قوة •

وقد حققت الملاحة التحتمائية ، بدورها ، خطوات جبارة بعد ظهور غواصات اوبوت الألمانية التي زرعت الذعر على الطرق البحرية •

ولقد اقتضى القضاء عليهــا ، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التحري عــن

الغواصات بدائية ، اللجوء الى استخدام السفن ــ الأفخاخ • وأثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ دارت معركة كبيرة هي معركة جوتلند ، التي أعطت الدليل القاطع على سمو التفوق الجوي لدى انكلترا ، والتي قررت مصير ألمانيا خلال بضع ساعات • وبعد قليل ظهرت ، أوائل طائرات الاستكشاف •

ولقد كان الرادار وحاملة الطائرات ، والقذيفة التحتمائية ، أهم الاكتشافات الكبرى التي كونت وسائل الحرب الجديدة فوق البحر خلال الحرب العالمية الثانية في فترة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ • وراحت أساطيل ضخمة تمخر عباب البحار• وأصبحت البوارج الكبرى المدرعة والتي قامت بدورها الأخير ، عبارة عن سفن عملاقة ترسل لمسافة ٣٠ كيلو مترا أو أكثر قذائف تزن ٩٠٠ كيلو غرام ، مثلما راحت تتمتع بحماية « مظلة جوية » تتألف من الطائرات المحمولة• ولم يكن لدى ألمانيا حاملات طائرات، لهذا لم تتمكن، رغم تميز سفنها السطحية، وأهمية عدد غواصاتها ، أن ترقى لمستوى الأساطيل البريطانية • أما في المحيط الباسفيكي فقد نشبت حرب حياة أو موت بين البحارة اليابانيين وبين رجال البحر الامريكان •

وعندما أخذت الصناعة الثقيلة الأمريكية تعمل بكل طاقتها تفوقت بدرجة لاتقبل الموازنة ، على الصناعة اليابانية الفقيرة • وراحت الولايات المتحدة تضاعف من عدد حاملات طائراتها ، وأخذت المعارك البحرية تنشب«فيما وراء الأفق»بضربات الطائرات القاذفة ، وبقوة الطرابيد ، التي أصبحت أكثر دقة واحكاما يوما بعد يوم•

بدأت أجهزة الرادار تنبىء بصورة لا تقبل الشك عن اقتراب أية قوة بحرية ، كما أخذت السفن المختصة تطارد الغواصات في الاعماق البحرية التي كانت تحاول أن تجد ملجأ لها في عبابها • وفي أيامنا هذه وان كنا لا نزال في عصر حاملات الطائرات ، فان البواخر المدرعة اختفت كي تترك مكانها لسفن صغيرة سريعة قاذفة الصواريخ التي تؤمن سلامة البحار لأواخر أساطيل السطح ، والمؤلفة من الطرادات النووية •

أما الغواصات فقد أصبحت هي أيضا نووية وتسلحت بصواريخ قوية تسمح

لها باصابة أي هدف كان في أي بقعة من سطح كرتنا الأرضية بثقة تامة . وهناك العديد من الغواصات التي تستطيع أن تظل غاطسة مدة أسابيع كاملة وحتى لمدة شهور برمتها ، كي تقوم بدور الديدبان في قاع المحيطات ، تترصد ساهرة تنتظر فريستها ، سواء من هذا الجانب أو من الجانب الآخر من الكتل المتصارعة على سيادة العالم . غير أن هناك سفن تجسس تحاول كشف سر المنشآت المعادية . وتظل الولايات المتحدة حتى هذه الساعة سيدة البحار ، وقد اكتشف الاتحاد السوفييتي بعد لأي بأنه أهمل بناء حاملات الطائرات بأعداد كافية .

يسرد لنا الكاتب المتخصص بالشؤون البحرية ، روبير شوسوا ، باسلوبه الشيق المعهود ، تفاصيل المعارك التي دارت على البحار منذ أقدم العصور حتى أواخر الحرب العالمية الثانية . ففي الطرف الأغر ، وفي خلال يوم واحد بلغ عدد قتلى الاسطول الحليف الفرنسي الاسباني الألفين . وفي شهر أيار ١٩٤١ وفي خلال بضع ثوان انفجرت البارجة البريطانية هود بعد أن أصابتها مدافع البارجة الالمانية بسمارك ، واختفت وجرّت معها نحو الاغوار البحرية كل طاقمها باستثناء ناج واحد ... وفي بضع دقائق وتجاه السواحل الماليزية غرقت بارجتان من أفضل قطع الاسطول البريطاني وهي « البرنس اوف ويلز » و « ريفنج » نتيجة اصابتهما بوابل من قذائف الطائرات اليابانية ، وشيئاً فشيئاً . ومنذ معركة ميداوي ، راحت حاملات الطائرات اليابانية الضخمة تذهب في اتجاه الأعماق ، وكذلك البوارج من حمولة ٦٠٠٠٠ طن ، والتي كانت تخرج سراً من الترسانات اليابانية ، والتي تعرضت بدورها للدمار قبل أن تتمكن من القيام بأي دور يذكر .

وسنبدأ بمعركة سالامين .

لويس غارّو

★ ★ ★

سالامين

٤٨٠ قبل الميلاد

ثيميستوقل ، قائد الاسطول الاغريقي يسجل انتصارا باهرا على اسطول كيخسرو و (١) ، في أول معركة بحرية كبرى في التاريخ

لقد دفع اكتشاف عرق صخري غني بخامات الفضة ، حوالي العام ٤٨٣ ق م في أقليم لوريوم في جنوب شرق أثينـا ، دفع بثيميستوقل ، زعيم الحزب الديموقراطي في أثينا ، الى أن يشعر أن ساعة تحقيق طموح ظل يخفيه منذ أمد طويل قد أزفت • ترى هل سينصح باقتسام هذه الموارد غير المنتظرة بين أفراد الشعب الأثني بسخاء• لتحقيق رفاه الجميع ؟ لا معنى لذلك • فالمصادر المالية كانت على درجـة من الوفرة لا بأس بها ، وهناك عمل أكثر نفعا من القيام بعمل انساني سرعان ما يتلاشى مفعوله• وهكذا ارتأى رجـل الدولة هـذا ، والذي كانت أنظاره مشدودة باستمرار نحـو البحر ، أن الوقت قد حان لكي يجعل من بلده دولة بحرية كبرى ، فقد حاول جاهداً اقناع الأثينيين بجدوى بناء أسطول بحري يستحق هذه التسمية • ولم تكن حججه تفتقر الى الوزن ، لان انشاء هذه القوة البحرية ، بادىء ذي بدء ، لن يلحق الافلاس بأي مواطن اذ سيكون الانفاق على هذا المشروع من موارد اضافية ، وسيساعد هذا الاسطول ، ثانياً ، على ردع الإيجنتيين ، وهـم سكان جزيرة تقع في عرض البحر ، تجاه أثينا ، أو سيعمل على تحييدهم على الأقل ، وهم الذين كان تطلعهم الى القرصنة مصدر قلق على المدى الطويل ، وأخيراً ، وعلى الخصوص ، كان هناك خطر الفرس،

---

(١) كيخسرو الاول ، أو خشايرشه بالفارسية ، هو ملك بلاد فارس بين عامي ٤٨٥ و ٤٦٥ ق م ، وهو ابن داريوس الاول . وكان محدود الذكاء ، متكبرا وضعيفا ، وبعد أن أخضع مصر المتمردة استانف مشاريع والده في بلاد اليونان فاجتاح آتيكا ودمر أثينا ، غير أنه انكسر في موقعة سالامين واضطر الى العودة الى البر الآسيوي هاربا ، في حين انكسر جيشه في بلاتيه . وقد اغتيل في مدينة سوز في مشاريع والده في بلاد اليونان فاجتاح اتيكا ودمر أثينا ، غير انه انكسر في موقعة سالامين واضطر الى الاهواز الحالية ، على يد الخصي اسباميثريس ، وقائد الحرس أرطبان .

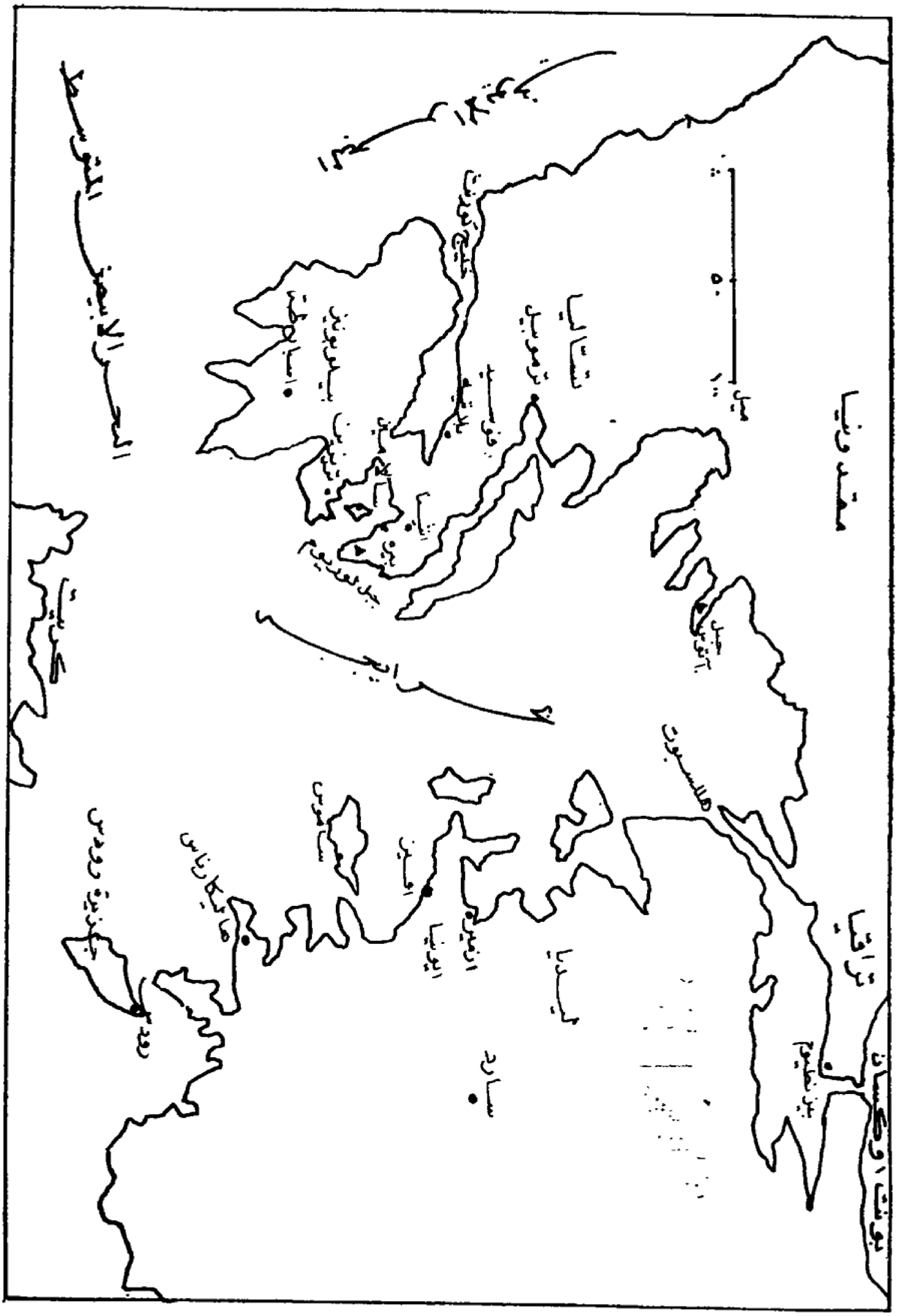
مقدونيا
تراقيا
بيزنطيوم
ميل
٥٠
١٠٠
جبل آتوس
هللسبونت
تساليا
ترموبيل
فوسيد
بلاتيه
خليج كورنث
اثينا
بيرة
سالاميس
جبل لوريوم
تريزين
بيلوبونيز
اسبارطة
ليديا
سارد
ازمير
ايونيا
افسس
ساموس
هاليكارناس
رودس
جزيرة رودس
كريت
البحر الابيض المتوسط

فوجود أسطول قوي الشكيمة يقطع الامدادات عن الجيوش المعادية في حالة أجتياح بلاد الاغريق ، يعرض هـؤلاء الغزاة للمجاعة وبالتالي الى البحث عن سلامتهـا في انسحاب سريع •

والواقع لقد كان الفرس مصدر قلق الاثينيين ومخاوفهم • ففي عام ٤٩٢ق م ، بعث داريوس الأول[٢] بأسطول قوي لاخضاع الاغريق ولكن عاصفة هوجاء شتتت شمله قبل أن يبلغ الهدف ، اذ تحطمت ٣٠٠ بارجة وهلك ٢٠٠٠٠ من رجاله • ولمـا

ثيميستوقل بطل معركة سالامين

---

(٢) داريوس الاول بن هيستاسب ، ملك بلاد فارس بين ٥٢١ الى ٤٨٦ ق.م . ونشر الامن في امبراطوريته ونظمها وقسمها الى عشرين مقاطعة . وقد فتح الهند بين ٥١٤ و ٥١٢ ق.م . وقمع ثورة اليونـان في آسيا الصغرى . ولقد شهد دمار أسطوله أمام جبل اتوس بسبب عاصفة هوجـاء عـام ٤٩٢ ق.م ، ثم انكسر أمام اليونانيين في موقعة ماراثون في عام ٤٩٠ ق.م . ثم انهزم جيشه في موقعة بلاتيه بقيادة مردونيوس سنة ٤٧٩ ق.م . وفكر في القيام بحملة ثانية ضد اليونانيين وانصرف لتهدئة الاحـوال في مصر بعد ثورتها الى أن مات . وهو الذي شيد قصرا في سوز وفي برسيبوليس التي احتفل فيها شـاه ايران السابق في عام ١٩٧٢ بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عـام على نشوء امبراطورية فارس ودعا العديد مـن ملوك العالم ورؤساء جمهورياته .

أصبح جيشه البري دون أقوات وامدادات لا يمكن نقلها الا بطريق البحر • انكفأ أفراده عائدين سيراً على الأقدام بمحاذاة ساحل مقدونيا وعجزوا عن تحقيق مقاصد قادتهم ، ووجدوا أن من الأحرى بهم أن يعودوا أدراجهم ، وهذا ما حصل بالفعل •

وفي عـام ٤٩٠ ق•م جهز كيخسرو ، أبن داريوس الأول ، حملة ثانية أصابهـا الفشل بفضل مهارة قائد يوناني هو ميلتياد ، الذي كسب معركة ماراتون الشهيرة ، والتي ظل اسمه عالقاً بها ، دون أن ننسى اسم الساعي فيديبيد الذي قطع مسافة ٢٤٠ كيلو متر في أقل من يومين لينذر أسبارطة بوصول الفرس • ولقد اقتنع ثيميستوقل بأن الفرس يستعدون لهجوم ثالث ، وأفلح في نقـل مخاوفه الى مواطنيه • غير أن زعيم الحزب الأريستوقراطي ، آريستيد ، أعلن عن معارضته لفكرة ثيميستوقل التي وجدها عبارة عن مغامرة ، فاختـار المنفى ، اذن لم يبق أمـام ثيميستوقل من يضع العصي في العجلات •

ميتياد قاهر الفرس في ماراثون

اسطول لا مثيل له :

ما أن حصل ثيميستوقل على التفويض المطلوب حتى أصدر أوامره في الحـال لبناء مائة قادس وهي سفينة حربية شراعية ذات ثلاثة صفوف متنضدة من المجذفين• ولم يكن المجذاف يستعمل الا في حالة المناورة عند المعركة ، لان الشراع كان العنصر

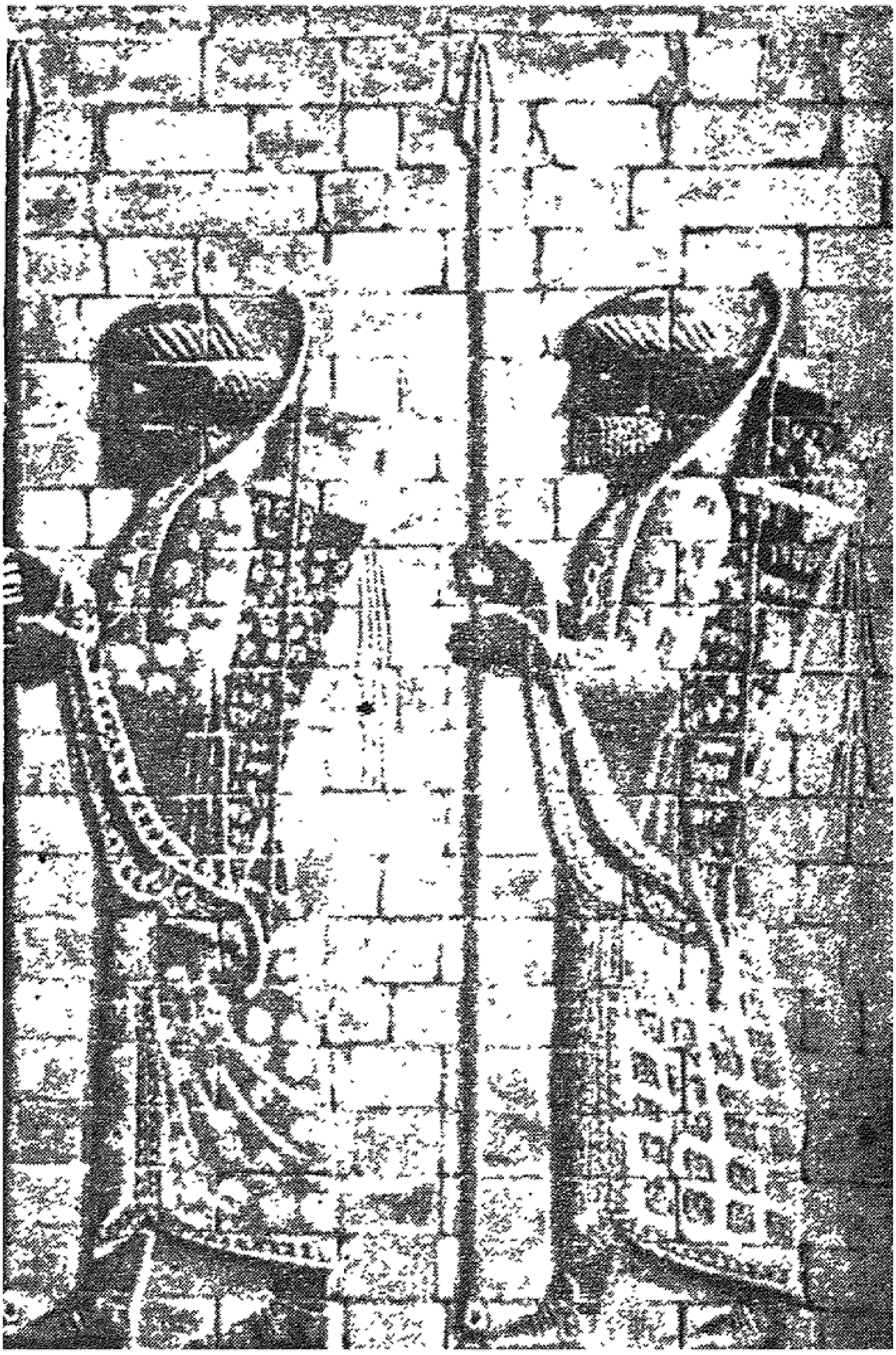

رمـاة جيش داريوس الملكي

الدافع عند الابحار هذا اذا هبت ريح طيبة تنفخ الأشرعة • ولم يكن الاغريق في حاجة لأن يتلقوا درساً من أحد في بناء هذا الأسطول ، لاننا اذا استثنينا الفينيقيين ، وجدناهم أقدم بحارة عرفهم التاريخ • ولقد برهنت مراكبهم الحربية عن مقدرتها في معركة طروادة في عام ١٣٧٠ ق•م •

ومما يثير الاستغراب أن الاغريق ، وهم خبراء في فن البحرية ، قد أهملوا أسطولهم الحربي • وعندما قرر ثيميستوقل تجديده لم يكن يضم حينئذ أكثر من خمسين قادسا • وقد كان تشغيل الترسانات سريعا• ولكي لايشعر كيخسرو بخطورة ذلك ويرى فيه استفزازا وتحديا ، سرت شائعة على نطاق واسع بأن الاستعدادات تجري على قدم وساق للقيام بحملة تأديبية ضد القراصنة الايجنتيين • واعتمادا على أرباح مناجم الفضة التي اكتشفت حديثا بالاضافة الى فوائد مناجم مارونيه التي كان استغلالها أقدم عهدا ، أمكن بناء مائتي قادس خلال ثلاثة أعوام لاغير • وهذا ما يستحق تسمية حرق المراحل•

وقد كانت هذه المراكب ممتازة سواء من وجهة النظر الى صلابتها أو من حيث سرعتها ، أو من وجهة النظر الى سهولة المناورة عليها • ومع أن طولها كان يقارب الأربعين مترا فقد كانت تغير اتجاهها محليا وترجع للخلف في سرعة تعادل تماما حركتها للأمام • وكانت القيادة فيها تقوم على عاتق خمسة ضباط كان رئيسهم يدعى قائد القادس (trième) ومع أنه يعتبر القائد الأعلى فلم يكن من الضروري أن يكون بحارا ، اذ يكفي أن يكون عسكريا فقط • ويعمل تحت إمرته قبطان يدعى كوبرنتس وهو عادة بحار قديم على اطلاع بكل أسرار البحرية • ويستخدم كل حذقه في قيادة الحركة • وكان القادس مجهزا بثلاثة صفوف من المجاذيف ، القصيرة في الاسفل ، والوسطى في الوسط ، والطويلة في الاعلى • وكان يعمل في التجذيف ١٧٤ رجلا في كل مركب• وكان يشرف على حركتهم الايقاعية رئيس يدعى كيلوست أو ما يقابل رئيس غرفة المكائن على السفن الحالية وكان يستعين بنافخ مزمار • وكان هؤلاء المجذفون رجالا أحرارا يعتبرون العمل على المراكب الحربية شرفا لهم• أما البحارة فلم يكونوا كثرا ، لأن عملهم هو توجيه الشراع الذي كان لا يزال غاية في البساطة • وكان يكتمل عدد

رجال المركب بعشرين محاربا منهم بضعة رماة والباقي من الجنود المدججين بالسلاح والمدرعين حتى أسنانهم • وهكذا كانت البحرية الايشينية مجهزة بعدد من الطراز الأول • وبتنظيم فريد من نوعه • وبتجهزات لا نظير لها • وبعبارة أخرى كانت تتمتع بأفضل مؤهلات الفوز في المعركة •

مليون رجل على درب الحرب :

ترى هل كان لدى كيخسرو حدس بوجود تهديد ؟ اذا كان الجواب بالايجاب، فقد كان يفكر ، بلا ريب ، بأن أفضل استعراض من حيث النتائج هو البدء بالهجوم الذي كان يستعد له منذ أربعة أعوام • ولما كان أقل خبرة من والده فقد أعرض عن سماع نصائح عمه أرطبان الذي كان قد حنكته الأيام والذي كان لا يكف عن تحذيره •

ـ احذر ، أيها الأمير ، من أن يقطع عليك الاغريق طريق العودة • ان التفكير الطويل في قضية ما يجنب الانسان اللوم مهما كانت النتيجة •

ـ وكان جواب كيخسرو : لقد عاد جيشي منتصرا من مصر ، انه جيش لا يقهر •

ـ لا يبهرنك بريق مجدك ، فأكثر الأشجار ارتفاعا هي الأكثر تعرضا للصاعقة •

ـ ان صفاقة كهذه تستحق عقابها ، يا عم • ستبقى هنا خلف النسوة اللواتي لا تقل عنهن جبنا • وسيكون هذا جزاؤك •

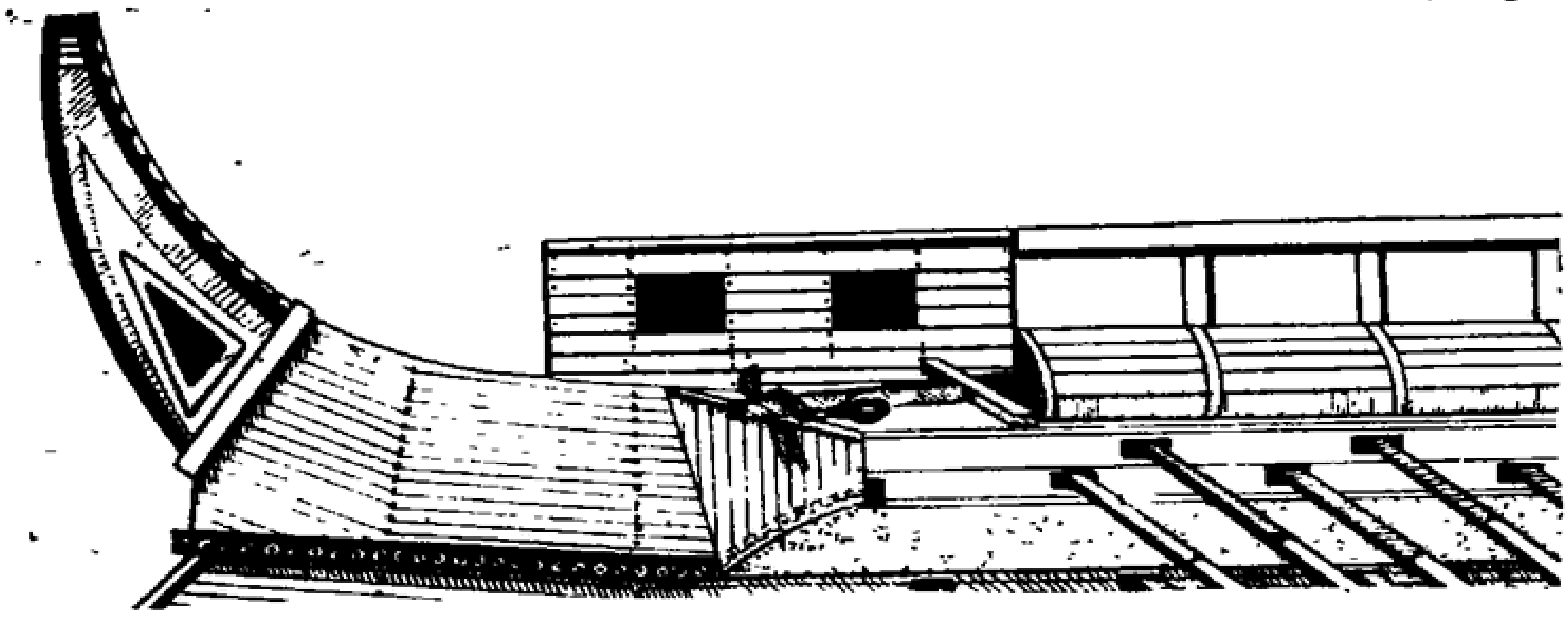

اعادة تمثيل القادس الاغريقي ويظهر في المقدمة المهماز النحاسي

وفي ربيع عام ٤٨٠ ق٠م جمع كيخسرو في آسيا الصغرى جيشاً لا يقل تعداده عن مليوني محارب ، مؤلفاً من فرس وميديين وعرب وليديين وساسيين[٣]، وآشور، وهيركانيين[٤] وهنود الخ ٠٠٠ واذا أضفنا الى ذلك النساء والخدم والعمال والرقيق فان الركب المتحرك كان يتجاوز الخمسة ملايين نسمة ، حسب أقوال هيرودوت ٠

وكان كيخسرو يقود بجبروته هــذا الجيش الخليط المزيج ٠ والذي كان يضم أشتاتا من كل أقوام آسيا ٠ ولما عرض بيثياس ، أميرليديا أو منطقة أزمير الحالية ، على كيخسرو كل ثروته مقابل الاحتفاظ بولده المجنّد في الجيش الذاهب للحرب ، أمر كيخسرو باعدام هــذا الشاب تحت ناظري والده ٠ ثــم شطر جثته الى قسمين ووضع قسما من جسمه على اليمــين والنصف الآخر على اليسار ، ومر جيشه بــين الشطرين ٠ وياله من مزاج غريب ٠٠٠

وقد استطاع هذا الجيش اللجب أن يعبر مضيق هيللسبونت ، وهو الدردنيل حاليا والبالغ عرضه ١٣٠٠ متر ، بالاستعانة بجسر من سفن مترابطة بواسطة حبــال من كتان ومن لحــاء شجر البيبلوس والتي قدمهــا المصريون ٠ وأقيمت فوق صف مؤلف من ٣٦٠ بارجة ، راسية ، أرضية من ألــواح خشب مغطاة بالتراب أقيم على كل طرف من جانبيها درابزين كيلا تجفل الخيول من رؤية الأمواج ٠ ولكن هــاج البحر وحطمت أمواجه الجسر وهنا استسلم كيخسرو لاحدى نزوات غضبه المعتادة٠ وبلغ الهياج به حداً جعله يأمر بقطع رؤوس العمــال الذين نصبوا الجسر المذكور ٠ وأمر « بجلد » البحر عقابا على سفاهته فضربت ضفتاه بالسياط ٠ وهكذا ضــاع الكثير من الضربات بالماء ٠

وانهمرت الأرتال العسكرية من تراقيا في اتجــاه مقدونيا سالكة طريق الغزو المعهود بمحاذاة ساحــل البحر وكأن الغزاة يسيرون بخطى متسارعــة لاسيما وان عتادهم كان مشحونا فوق سفن الاسطول ، ذي المظهر الرهيب ، والذي كان يتألف

---

(٣) نسبة الى بلاد الساس ، اي تركستان الحالية بين سيرداريا وأموداريا ، وربما هي بلاد الشاش أيام العباسيين .

(٤) نسبة الى هيركانيا وهي البلاد الواقعة على سواحل بحر الخزر الجنوبية .

من ٣٠٠٠ بارجة شحن ومن ١٢٠٧ قادس حربي على متنها ٢٠٠,٠٠٠ محارب كانت أكثريتهم من المجندين • وعمد كيخسرو الذي لم ينس عاصفة عام ٤٩٢ ق•م اللعينة الى اختصار الطـريق وذلك بقطـع شبه جزيرة آتوس بقنـاة طولها ٢٤٠٠ م والتي اجتازتها كل سفن اسطوله ، حتى أكبرها حجما •

ميزة اختيـار ساحة المعركة :

ما أن بلغت مسامع ثيميستوقل أنباء اقتراب أسطول الغزو هذا ، والمدعـوم بحملة عسكرية رهيبة ، حتى أخذ أهبته لخوض المعركة • ولما كان واثقا من نجاعـة أسطوله • فقد حاول دون تأخـير كي يتقدم الى أبعد مسافة ممكنة لمجابهة أسطول كيخسرو ، وليعرقل تقدم القـوات المعادية البرية • وكانت كل تصرفاته اعتمادا على الذات دون الاهتمام بالحكومات الاغريقية الصغـيرة ، التي تؤلف قسما من الحلف الذي كانت أثينا وأسبارطة تتزعمانه ولـو لا ذلـك لضاع الكثـير مـن الوقت في مماحكات مع حكام هذه الدويلات لان لكل واحدة منها كلمتها ، هـذا في الوقت الذي يقترب فيه كيخسرو • وجرت أول معركة بحرية قرب مضيق آرتيميزيون الى الشمال من أثينا ولكنها لم تكن حاسمة • أما على البر فقد ضحى الملك ليونيداس، الذي كان على رأس ٣٠٠ اسبارطي ، بنفسه عند ممر ثرموبيل الضيق ، بين فوسيـد وتساليا ، في محاولة وقف هـذه المدحلة البشرية الضاغطة بيد أنه لم يفلح في أكثر من تأخير مسيرتها • وكسب بذلك مجدا لا يمحى ذكره على كر العصور والدهور•

ولما أخطره كيخسرو بأن يرمي سلاحه، أجاب المندوبين الفرس باقتضاب فيـه كل معاني الازدراء : « ليأت ملككم ليتسلمه » •

ـ فقال أحدهـم : ان جيش الفرس كبير العدد حتى أن السهام التي يرميهـا جنوده تحجب الشمس •

ـ عندها أجابه الاسبارطي ديونوسيس : هذا أفضل لأننا سنحارب في الظل•

وبعد أن عرقـل ليونيداس زحف الجيش المعادي مدة ثلاثة أو أربعة أيام راح ضحية خائن دل الفرس على وسيلة لتحاشي الممر فداهمه هؤلاء من كل جانب • غير

أن ليونيداس عمد بعد ليلة واحــدة الى رمي نفسه مع رجاله الأسبارطيين في وسط معسكر كيخسرو حيث أنجزوا أكبر قدر ممكن من أعمال الفتك الذريع وسط معمعة سادها جو من الفوضى الرهيبة • وعند الفجر أجهز الفرس على بقية هذه الحفنة من المسعورين الذين قضوا نحبهم جميعا • وقد كان ليونيداس في مقدمتهم اذ عثر على جثته تحت كومة من جثث رجاله فعمد الفرس الى تثبيتها فوق صليب •

ولما حصل ثيميستوقل ، أخيرا ، على الترخيص باللجــوء الى التعبئــة العامة لمجابهة الغازي • كان الوقت متأخرا جدا ، فقد أصبح الفرس على مرأى من أثينــا بعد أن نهبوا وخربوا وأحرقوا كل شيء في طريقهم • ولم يبق سوى سبيل واحــد وهو الاسراع باتجاه السفن والتوغل في البحر • وهذا ما حدث فعلا هذا في الوقت الذي كان فيه السكان يلجؤون الى تريزين وأيجين وسالامين •

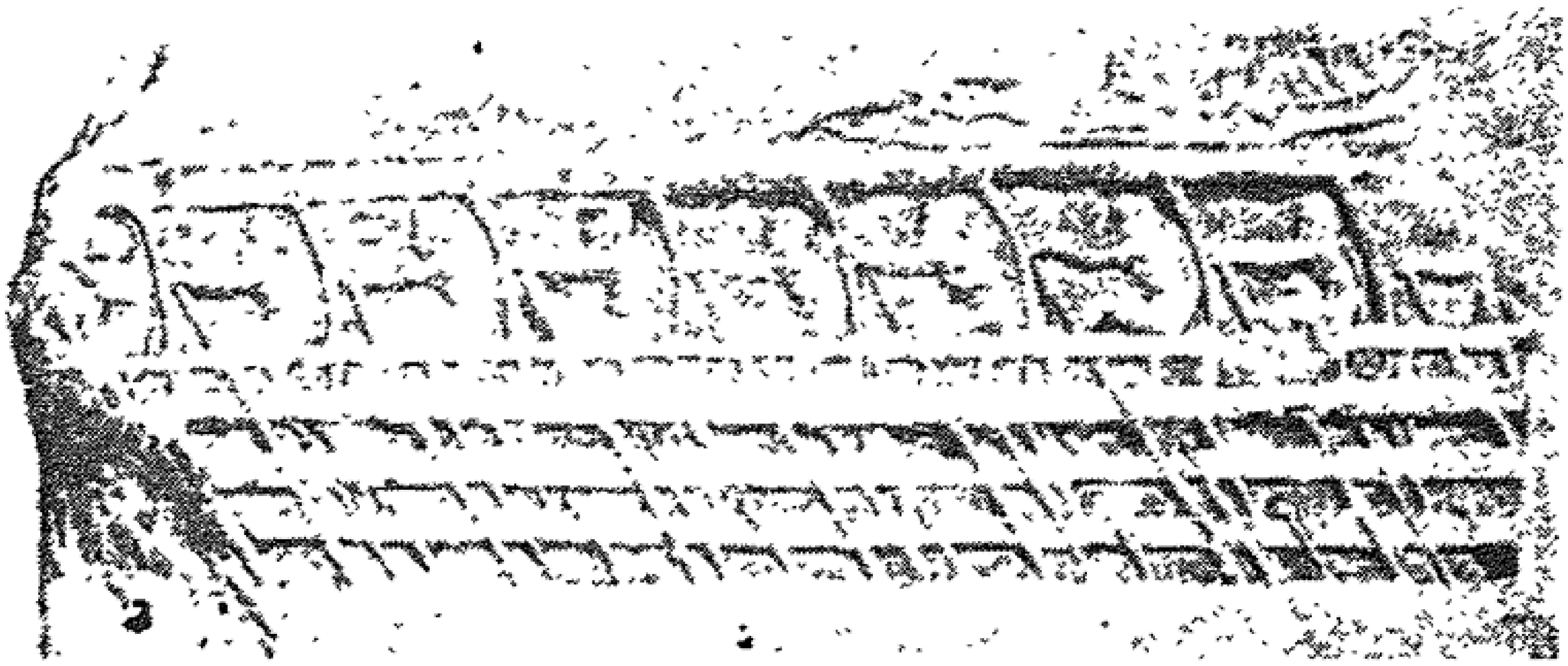

- نقوش نافرة في اكروبول أثينا يظهر فيها القسم الاوسط من مركب ثلاثي المجـاذيف (فادس)

وأقلع الأسطول • ولكن بسبب قضية تتعلق بأحقية الزعامة ، فقد سلمت أمور القيادة الى أوريبياد • وهو جنرال أسبارطي ، أكبر سناً من ثيميستوقل ، ولكنه أقل منه خبرة بشؤون علم البحر • وبينما كان ثيميستوقل يرجح الدفاع عن خليج أثينــا كان الأسبارطي يرغب في الانكفاء نحو خليج كورنث • ولمــا احتدم النقاش اغتاظ أوريبياد حتى أنه هدد باستعمال عصاه • عندها قــال ثيميستوقل كلمته الشهيرة : « اضرب ولكن أنصت » • وأخيرا وبعد الاقتناع فازت وجهة نظر ثيميستوقل القائلة بأن يتمركز الاسطول عند مدخل الخليج الذي يفصل جزيرة سالامين عن البر ، قرب مدينة بيريه •

ترى ماذا يستطيع أن يأمل تيميستوقل وهو على رأس ٣٨٠ سفينة تجاه أسطول كيخسرو العظيم الرابض في خليج فالير ؟ وتراءت له احتمالات النصر هزيلة . بيد أن الفرس لم يكن لديهم أكثر من ١٢٠٠ قادس مسلح لأجل تلك الحملة . فقد قضت العواصف على حوالي ثلث المراكب نتيجة غرق أو جنوح على الساحل أو ضحية حوادث يستحيل تلافيها . أما الثمانمائة أو التسعمائة قادس الباقية فقد ظلت راسية باعتزاز في خليج فالير . أما أثينا فقد سقطت بأيدي الجيوش البرية الفارسية. وفكر كيخسرو بالقيام بحركة التفاف باتجاه سيتير، وذلك ليس لزيارة هيكل أفروديت[٥]، بل في محاولة لجذب جيش اسبارطة الى جنوب شبه جزيرة البيلو بونيز ، غير أن الأحداث جعلته يعزف عن هذه المكيدة .

ولما شعر الأثينيون بالقلق من مجريات أحداث الحرب أخذوا يحسون بريح الذعر وهي تهب من فوق أكتافهم ، ولاسيما بعد نهب مدينتهم التي أصبحت فريسة ألسنة اللهب وعاد الكلام من جديد فيما يخص فكرة الانسحاب نحو خليج كورنث. غير أن ثيميستوقل قرر أن يقلب الموقف بطرحه مخططاً سيظهر ممتازاً فيما بعد . فقد استطاع بواسطة عميل مزدوج — لأن دوائر المخابرات لاتعود للأمس — أن يحمل الفرس على الاعتقاد أن أسطوله سينسحب لدعم القوات الأرضية. وهنا سقط كيخسرو في الفخ وعجز عن مقاومة شهوة مهاجمة الهدف مباشرة قبل فوات الأوان. غير أن ملكة هليكارناس ، آرتيميز والتي كانت أكثر فطنة ، فقد استشمت رائحة المكيدة . ونبهت كيخسرو الذي كان بحارته يفتقرون لكثير من علوم الحرب البحرية . ولكن هذا لم يكن مستعداً لسماع النصيحة وارتكب أكثر من خطأ ، إذ خشي أن يفلت الخصم من يده ، فأرسل ٣٠٠ قادس من أسطوله كي ترابط الى الجنوب من جزيرة سالامين ، الواقعة في غرب ميناء بيريه في انتظار عديم الجدوى لأن الانسحاب المزعوم كان ثمرة ... تسميم نفساني . وتصور أنه سيكسب المعركة بما تبقى لديه من سفن يبلغ تعدادها ٦٠٠ في حين أن أسطول ثيميستوقل لايزيد

---

(٥) إلهة الجمال والحب والحياة عند الافريق وقد تسربت اليهم من آسيا ، وربما كان اسمها مشتقاً من عشتارته ، ثم تحولت الى فينوس عند الرومان .

تعداده مطلقاً عن ٣٨٠ سفينة حربيـة . وفي العشرين من شهر أيلول وفي غفـلة عن أبسط مبادىء تكتيك الحرب البحرية بدأ كيخسرو المعركة في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع غير موائمة . ذلك لان العدد والعـدة لا تحل كل المشكلات ، ولهذا لـم يتأخر عن دفع ثمن هذه التجربة .

وقد أفلح ثيميستوقل وهو أكثر خبرة في فن الحرب ، في اقناع أورياباد بوجهة نظره ، فاصطفت سفنه في أكثر الأماكن ضيقاً في المضيق بحيث لايستطيع العدو أن يشرك في المعركة سوى القليل من سفن المقدمة . وهكذا حصل التوازن بين الجانبين . وكان القائد الأثيني يعتمد على حليف قدير : هـو الريح . وعندما أخـذت الريح بالهبوب في وقتها العادي لم تتأثر السفن الاغريقية كثـيراً ونظراً لأن هياكلها النحيلة كانت قليلة الارتفاع ، في حين تضررت سفن كيخسرو ذات الجوانب العالية نسبياً ، وهكذا يمكن كسب الحروب بضربات ابهام سماوية المصدر .

وقد شعر كيخسرو الذي كان جالساً فوق عرش من رخام أبيض ، أقامه عـلى ساحل البحر كي يشهد فصول سير المعركة ، شعر بأن الأمور أخذت اتجاهاً مختلفـاً تماماً عما كان يأمل فطار صوابه .

وهكذا أخذت البـوارج الفارسية التي انحرفت بتأثير الريح ، والتي راحت مسيرتها تتعرقل ، بتأثير ارتفاع حوافها ووزنها ، مثلما أصبحت تربك بعضها بعضاً، أخذت تصل على شكل خطي وعجزت عن النيـل من أسوار الخشب التي صنعهـا ثيميستوقل والتي كانت مؤلفة من مراكبه الحربيـة الرشيقـة المصطفـة كالبنيان المرصوص ، وهكذا كانت الجبهـة الأغريقية صلبة يستحيـل اختراقهـا . وكان الايونيون ، أي سكان ساحل آسيا الصغرى ، هم أول من لاذ بأذيال الفرار ، في حين رمى الفينيقيون بأنفسهم على الساحل . ويذكر الشاعر ايشيل وهو مبدع التراجيديا القديمة ، والذي كان أحد شهود هـذه المعركة ، يذكر أن المحاربين والرماة اليونان كانوا يمطرون الخصم بوابل مـن القذائف والذي كان عاجزا عن الانكفاء بسـرعة كافية لتحاشي سيل السهام المشحوذة أو الملتهبـة . ولما كان الفرس عاجزين عـن

مجابهة الريح ، لم يكن أمامهم من حل سوى الانسحاب معرضين أنفسهم لمطاردة المراكب الاغريقية ولتطويقها والتي كانت تبقر خواصر سفنهم بواسطة المهماز النحاسي المثبت في صدر السفينة •

ويروي أحد جنود سالامين القصة التالية للملكة أتوسا ، والدة كيخسرو ، والتي رأت في الحلم هزيمة ولدها : « على أثر اطلاق اشارة راحت مجاذيف المراكب الأغريقية تضرب موجة المياه المالحة الهائجة حسب وتيرة ايقاعية ، وبرز الاسطول برمته أمام نواظرنا وأغلق المضيق على كل عرضه • وفي مواجهة الصياح البعيد أجبنا بصرخة الحرب الفارسية • وأخذت مقدمات السفن النحاسية تصدم مقدمات سفننا وبدأت بارجة أغريقية عملية الصدام فهشمت جوانب سفينة حربية فينيقية • وانقض الاسطولان على بعضهما ، انقضاض عدو على عدوه • ولم يتراجع الجيش الفارسي أبداً في بداية المعركة ، ولكنه تكدس في رقعة محصورة بحيث لم تقدم مراكبنا أية معونة لبعضها بعضاً بل أصبحت تتصادم بمناقيرها النحاسية وغدا بعضها يقوم بتهشيم صفوف مجاذيف السفن الاخرى هذا في حين كان الاسطول الاغريقي يقوم، في أعقاب مناورة خارقة ، بتطويق السفن الفارسية ويكيل لها الضربات من كل جانب • وهكذا تحطمت سفننا وتغطى سطح البحر تحت أكوام من الأنقاض العائمة ومن القتلى • أما على السواحل فقد تغطت الشعاب الصخرية بالجثث • وحاولت سفننا الهرب بصورة كيفية معتمدة على سرعة التجذيف • ولن أسهب أبداً في ذكر خسائرنا ، لأن عشرة أيام كاملة لا تكفي لتعدادها ولم يحدث اطلاقاً أن هلك مثل هذا العدد من الرجال في يوم واحد ••• » •

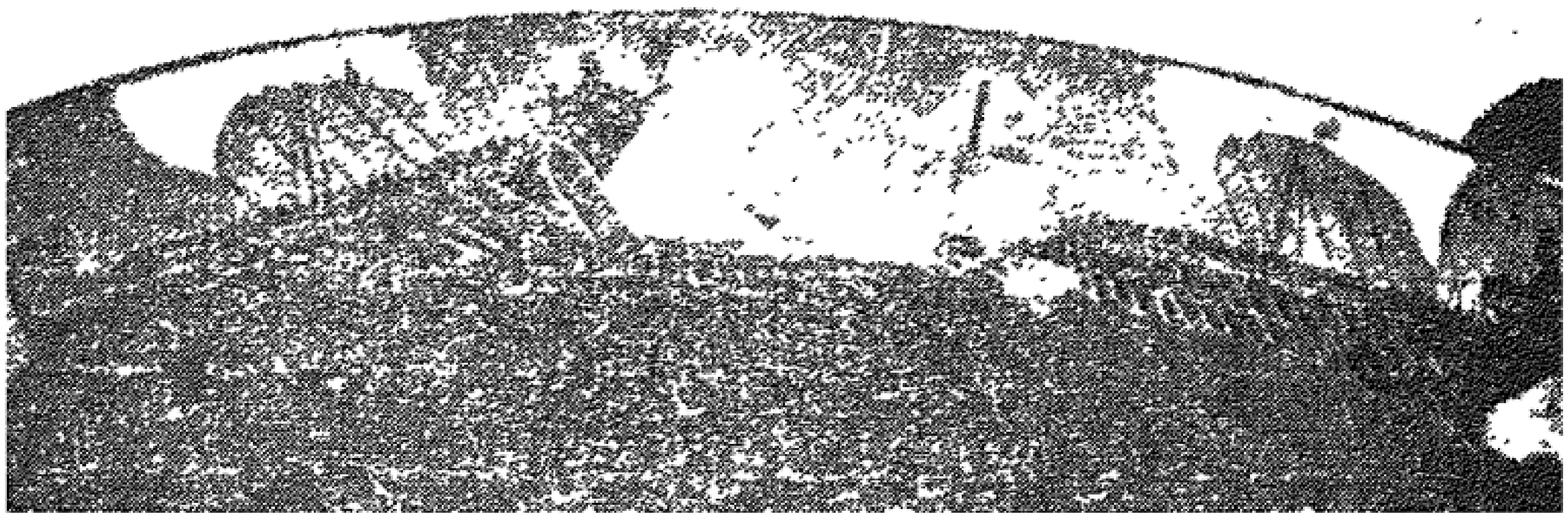

سفينتان اغريقيتان مرسومتان في داخل كاس (المكتبة الوطنية في باريس غرفة الداليات)

أما الملكة آرتيميز المعروفة بدهائها فقد لجأت الى خدعــة أصبحت تقليديــة للنجاة والانسحاب من ميــدان المعركة حيث كانت الأمور تجري على غير ما يشتهي مخططوها • وهكذا نصبت فوق صارية قادسها راية أغريقيــة واستغلت ذلك فــي طريقها ، وبكل هدوء ، بأن أغرقت سفينة فارسية تحمل سيثيموس ، ملك كاليند ، والذي لم تكن تضمر له أي حب • ويبدو أن كيخسرو لم يحمل لها أية ضغينة على هذه الخيانة لأنه ادعى أن الفرس تصرفوا كنساء والنساء كأبطال • وكافأ كيخسرو الملكة آرتيميز على شجاعتها بأن ائتمنها على أولاده الذين عادت بهم الى مدينة ايفيز الواقعة على ساحل بحر ايجة قرب ازمير الحالية •

وعندما أزفت ساعة الحسابات تذوق ثيميستوقل الأريب لذة انتصاره : فقــد خسر خمسين سفينة في حين فقد كيخسرو أكثر من مائتين غرقاً أو حرقاً ، والتي يجب أن نضيف اليها تلك السفن التي سقطت في أيدي الاغريق • وكان ذلك أعظم فشل حدث حتى ذلك التاريخ • وهكذا فشلت الحملة وهلك جيش كيخسرو البحري أو تشتت • وبعــد أن تم اصلاح هذا الاسطول وترميمه كيفما اتفــق تلقى الضــربة القاضية في العام التالي تجاه جزيرة ساموس ، وهو جبل على شكل شبه جزيرة من اقليم ايونيا على ساحل آسيا الصغرى الغربي •

وعلى الرغــم من تعرض الفرس للملاحقة بلا انقطاع فقــد تمكنوا من سحب ما تبقى من سفنهم على الساحل عنــد ميكال في أيونيا وحموها بتحصينات ، ولكن الاغريق كانوا يهاجمونها ويرمون البوارج بالنار •

وفي الوقت ذاته كان ١١٠٠٠٠ جندي يوناني بقيادة بوزانياس ، ملك أسبارطة، منهمكين في ابادة بقية الجيش الفارسي في معركة ضارية في سهل بويثيا قرب مدينة بالاتية ، ذلك الجيش الذي عهد به كيخسرو الى قائده الأعلى مرديونوس • وكانت هذه الهزيمة الأخيرة اشارة وبرهان على انتصار مؤزر أنجزه المحارب اليوناني الى جانب الجلد الاسباطي • أما كيخسرو الذي خشي قطع طريق الانسحاب عليه فقــد عاد على عجل الى مدينة سارد في آسيا الصغرى تاركا خلفه سلسلة طويلة للغاية من

الموتى الذين تساقطوا تحت سهام سكان المناطق المفتوحة ، أو هلكوا ضحية العطش والجوع وفتك الأمراض .

أما عودة ثيميستوقل فقد كانت أكثر بريقاً ، وهــذا لا ريب فيه ، فقد غمرت الأمجاد هــذا البطل . اما اسبارطة التي زارها بعد نهاية المعركة بقليل فقــد عممت هامته بتاج من أغصان الزيتون وأهدته أجمل مركبة موجودة في المدينة . وواكبت ثيميستوقل حتى الحدود أفواج مؤلفة من ٣٠٠ شاب من أكرم العائلات ، مثلما نال جائزة المحكمة . ولكن كل ذلك لم يشفع دون قرار نفيــه الصادر عن شعب أثينــا الذي طرده بعد اثني عشر عامــاً عندما أصبح حظــه في السياسة دون مقدرته فــي الاستراتيجية البحرية . ووجد ملجأ .. في فارس ، حيث أكرم الملك وفادته واختصه باستقبال طيب . ولما حان اليــوم الذي جعلته ظروف الحرب مضطراً لمحاربة أبنــاء وطنه آثر ثيميستوقل الانتحار . نعم لقد كانت نهاية مأساوية ، ولكنها مشرفة ، لذلك الذي كسب أول معركة بحرية كبرى في تاريخ العــالم ، وأنقذ وطنــه من التهديد الفارسي ، وذلك ليس بفضــل التسليح الأجود الذي زود بــه قواته ، ولكنه أيضاً بفضل بسالة الاغريق الوطنية وبفضل كرامتهم العزيزة عليهم كرجال أحرار .

★ ★ ★

ليبانت

مجوز

ـ ٧ تشرين الاول ١٥٧١

اذا كان كل من المحيط الأطلنطي وبحر الشمال مسرحا للنزاعات البحرية بين فرنسا وبريطانيا ، خلال ستة قرون متوالية فقد كانت هناك أيضا ساحة أخرى للعمليات الحربية البحرية تتجابه عليها أساطيل أخرى خلال فترات الهدوء النسبي • وهي البحر الابيض المتوسط • ففي القرن السادس عشر كانت دولة البندقية تملك اسطولا قوي الشكيمة سبق له أن قام لثلاثة قرون خلت بدور كبير في دعم الحروب الصليبية • وخاض معارك عديدة أحرز فيها انتصارات رائعة مما جعل هذه الدولة الصغيرة تحلم دوما بالاحتفاظ بسيادتها على هذا البحر • لهذا أصبحت تنظر بامتعاض الى تدخل الاسطول العثماني الذي عرض امتيازها للخطر ولا سيما عندما راحت السلطنة العثمانية تتوسع في أوروبا وفي افريقيا مما سمح للكثير من المجاهدين العرب من فلول الاندلسيين ومن المغاربة بعرقلة النشاط البحري الاوروبي في البحر الابيض المتوسط •. وهكذا تعرض ازدهار البندقية على الصعيد التجاري لأزمات خانقة •.

تفوق اسطول البندقية :

لقد كان البنادقة يملكون مراكب من حمولة ثقيلة ولكن دون أن يؤدي ذلك الى التقليل من مرونة حركة أسطولهم • ولما كانت الرياح قليلة الفائدة في البحر الابيض المتوسط ، فقد جعلوا قواتهم البحرية على شكل مراكب تتحرك بسهولة وقت المعركة وتستطيع أن تنشر قلوعها عند الانسحاب• وعندما جهز الملك الفرنسي القديس لويس التاسع حملته الصليبية الثانية في عام ١٢٥٠ ميلادية في اتجاه فلسطين ، وضعت البندقية تحت تصرفه سفنا ضخمة استطاعت خمس عشرة منها أن

تنقل عشرة آلاف من جنود المشاة و ٤٠٠٠ رأس من الخيل • وكانت سفن الشحن الكبرى تمخر عباب البحر تحت حماية اسطول من سفن بحرية حربية ظل يعتبر ، ولفترة طويلة ، أفضل أمثاله في ذلك العصر •

وفضلا عن المهماز النحاسي الرهيب المثبت في مقدمة المركب ، والذي كان بامكانه اختراق أية سفينة معادية عند اقتحامها بعنف فجائي ، فقد كانت المراكب الحربية مجهزة أيضا بعضاضات خشبية ضخمة مسلحة بمهماز معدني من نهايتها ومعلقة بالصاري ، والتي يكفي أن تقذف بمهارة على السفينة المعادية كي تحدث فيها تخريبات مرعبة • وكان التكتيك المتبع في المعارك البحرية في ذلك العصر هو اقتحام السفينة المعادية ، وكانت المدافع مثبتة في مقدمة السفينة والمدفع الرئيسي من طراز كورسييه •

وفي حوالي عام ١٥٢٨ أصبح الخطر التركي أكثر تهديدا لمصالح البنادقة اذ كانت سفن السلطان سليمان القانوني تمخر عباب البحر الابيض المتوسط • وكانت تندفع أحيانا حتى سواحل أقطار المغرب حيث كانت تتحالف مع المجاهدين الجزائريين في الاستيلاء على السفن التجارية الاوروبية ، والذين كانوا يعمدون الى استخدام الاسرى الاقوياء كمجذفين على مراكبهم الحربية مدى الحياة ، أما جيوشه البرية فقد انساحت في اوروبا الوسطى ناشرة الذعر والرهبة أمامها ، فاجتاحت هنغاريا ولم تتوقف الا أمام أسوار العاصمة النمساوية • وأمام موجة الرعب هذه رأت جمهورية البندقية أن من الحكمة التفاوض بالحسنى التماسا للسلامة ، وشراء تراخيص تسمح لقوافلها التجارية البحرية التجوال بطمأنينة وسلام • كما نحا ملك فرنسا فرانسوا الاول المنحى ذاته واختار سياسة عدم التدخل • وبالفعل لم تتعرض مصالحه لأية مخاطر تذكر لسبب بسيط هو عدم وجود اسطول فرنسي حقيقي في البحر الابيض المتوسط • وهكذا سارع هذا الملك الى توقيع معاهدة تحالف ، أعلنت على الملأ ، مع السلطان سليمان عام ١٥٣٤ حصلت فرنسا بموجبها على امتياز بسط حمايتها على نصارى بلاد الشام وكنائسهم ، وعلى الترخيص باقامة مراكز تجارية في موانىء ساحل بلاد الشام مثل اللاذقية وطرابلس وبيروت وعكا واسكندرون ، وعلى حرية التجارة بالنسبة للسفن التي تحمل العلم الفرنسي ، وفي مقابل ذلك سمح فرانسوا

الأول للعثمانيين بأن يكون لهم دور كبير في السياسة الاوروبية عن طريق منحهم حرية العمل على الصعيد العسكري • والواقع لم يكن السلطان العثماني يؤلف بالنسبة لفرنسا خطرا يماثل طموح الاسرة الحاكمة النمسوية •

الموت في سبيل قبرص :

لقد كان الاتراك اذن سادة الموقف في البحر الابيض المتوسط عندما عمد البابا بيوس الخامس ، الذي كاد يقضي كمدا وغيظا من الهيمنة العثمانية ، الى الدعوة لتضافر الاساطيل الاوروبية في حلف مقدس يضع حدا لتطلعات السلطان سليم الثاني الذي خلف أباه السلطان سليمان الثاني • وقد لبى الاسبان هذا النداء توا مثلما استجابت جمهورية جنوا ومملكة نابولي ودوقية الساڤوا وتوسكانة • في حين رأى الفرنسيون والانكليز أن من الانسب عدم التورط في هذه العملية ، اذ لن يحصلوا على كبير فائدة من عملية قد تنقلب عليهم ، وظلت البندقية مترددة حذرة الى أن وقعت حادثة جعلتها تغير موقفها •

فقد تدهور الموقف في الشرق ، اذ على الرغم من مقاومة مستميتة أبداها قائد فرسان رودس ، فيليب ديفيليه دوليل آدم ، في وجه حصار رهيب ، سقطت جزيرة رودس عام ١٥٢٢ في أيدي الاتراك ولم يبق من الثغور البحرية التي كانت اوروبا تتشبث بها في وجه الاندفاع العثماني سوى جزيرة قبرص وكريت ، والواقع كان الاتراك يستعدون للانقضاض على هاتين الجزيرتين اللتين كانتا تؤلفان تهديدا لامبراطوريتهم • وابتداء من عام ١٥٦٢ وضعت حكومة الآستانة في مخططها اجتياح قبرص • وبعد عامين أخذت الاستعدادات تقوم على قدم وساق على الساحل الآسيوي المقابل لجزيرة قبرص •

وفي عام ١٥٧٠ م أرسل السلطان سليم سفيرا الى البندقية يطالب حكومتها بالتخلي عن قبرص الواقعة كليا تحت سيطرة البنادقة • وكان السلطان يعتمد في طلبه هذا على ضعف قوات البندقية وتلاشي عظمتها ، كي يوفر على القوات العثمانية عناء حصار قد يطول أمده • ولكن خاب أمله في هذا المسعى لان البنادقة رفضوا تسلم الرسالة الدبلوماسية ، وكان لهذا الرفض دواعيه • فقد كانت قبرص أثمن ممتلكات أمبراطورية البندقية الاستعمارية فهذه الجزيرة الكثيرة الخصب تنتج الكثير من

القمح والقطن والزيت والسكر والملح، حتى أنعائداتها كانتتبلغ سنويا ٣٦٠٫٠٠٠ دوكاً (دينار) تتدفق على خزينة جمهورية البندقية • وبالرغم من ضعف حامية الجزيرة فقد كانت تتمتع بموقع حصين للغاية يتمثل بقلعة فاماغوستا الواقعة على الساحل الشرقي المواجه لميناء اللاذقية الشامي • فهذا الموقع كان معدا للصمود في وجه حصار شديد بفضل أسوارها التي شيدها المعمار العسكري الايطالي الشهير جيوفاني جيروكولامو سانميشيلي والذي استطاع أن يحول هذا الموقع الى ثغر حربي يكاد يكون من المحال الاستيلاء عليه •

وبناءً على رفض البندقية الجلاء عن قبرص ، سلماً ، قام اسطول عثماني قوي عهد بقيادته الى مصطفى باشا بعملية انزال كبيرة في الجزيرة التي تم الاستيلاء عليها كلها تقريبا فسقطت نيقوسيا بسرعة ،• غير أن قلعة فاماغوستا التي انعزلت عن سائر أنحاء الجزيرة والعالم ودون أي أمل يذكر ظلت صامدة في وجه جحافل المهاجمين الاتراك•وكان يترأس المقاومة مارك انطوان براغادينو وكان الحصار طويلا وقاسيا، اذ كان المدافعون يحاربون باستماتة الى أن جاءت الساعة الحاسمة في أول شهر آب من عام ١٥٧١ حيث حصلوا على وعد غامض بالامان فاستسلموا • ولكن مصطفى باشا الذي حز فيقلبه ثقل الخسارة التي بلغت خمسين ألفجندي من رجاله البواسل في هذا الحصار ، أمر بشنق الضباط الاسرى وقتل كل الجنود الذين تم القبض عليهم • أما قائد الحامية براغادينو فقد كانت له معاملة خاصة اذ أمر بسلخ جلده حيا ، ثم أوعز بدباغة جلده الذي أرسل للسلطان في القسطنطينية كي يحتفظ به في قصره • وبعد بضعة أعوام افتدت البندقية جلد هذا القائد بمبلغ كبير من الذهب واحتفظت به في كنيسة القديس يوحنا وبولس حيث تقع مدافن رؤساء جمهورية البندقية ومواطنيها المثاليين •

وبسقوط قبرص أصبح العثمانيون سادة الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط الحقيقيين ،• وتلقت البندقية تلك الصدمة بامتعاض شديد ، بعد أن كان رؤساء جمهورية البندقية يحتفلون سنويا بعيد السيادة على البحر •

لقد عملت أنباء اعدام حامية قلعة فاماغوستا على استشاطة غضب « الحلف

المقدس » في الوقت ذاته الذي أثارت في كـل أوروبـا حنقا وغيظا ، على الاتراك، لا يوصفان •

وهكذا لم تترد جمهورية البندقية في الانضمام الى الاسطول الاوروبي المجهز لمحاربة الاتراك• وقد أسندت القيادة الى الامير النمساوي الشاب دون خوان ، وهو ولـد غـير شرعي للامبراطور شارلكان وكان عمره حينئـذ خمسا وعشرين سنة • واشتهر بأنه محارب جريء وبحار مقدام ورجل وسيم •

وكان قد مضى على استلامه قيادة الاساطيـل الاسبانية عام كامـل ، وكان المستقبل ينتظره • وتلقت كل الاساطيل الاوروبية المتحالفـة أمرا بالتجمـع وحشد قواتها في مينـاء مسينا في مضيق صقلية ، وهي نقطـة تمركز اختارها دون خوان • وكان الاسطول البابوي تحت قيادة الامير انطونيو كولونا وأسندت زعامة الاسطول الجنوي للاميرال جيوفاني اندريا دوريا أما الأسطـول المالطي فكان قائد جماعـة الفرسان • هـذا في حين عقدت راية اسطول البندقية للأمـيرال سيباستيانو فينيرو وأثناء ذلك كان الاسطول التركي المؤلف من مراكب طرادة ومن شون وزوارق ثنائية الصاري يبحر في البحر الادرياتيكي تحت أمرة علي باشا • وسرعان ما علم بنوايـا الاميرال سيباستيانو من قبطان عربي لقبه « قره خوجه » كان على متن أفضل سفينة معروفة يدير دفتها بمهارة بهلوانية فتسلل تحت جنح الظلام رافعاً فوق سفينته قلوعاً سوداء كي يقترب من سفن الأعداء دون أن يروه ، واندفع مغامراً حتى ميناء مسينا حيث عثر على الاسطول المعادي ، وقفل راجعا لينبيء الاميرال الجزائري علج علي، حليف السلطان العثماني ، والذي قرر على الفور الابحار في اتجاه الاسطول العثماني للاحتماء بكنفه •

وهنا يجب التنويه بأن حشود هـذه الاساطيل في مسينا كان باعثا على قلـق العثمانيين وحلفائهم الجزائريين • فقد احتشدت ثلاثمائة سفينة حول مركب القائـد الذي يحمل اسم الريال أي « الملكي » • وقد تم بناؤه قبل ثلاث سنوات لحساب نائب الملك في قطالونيا ، في اسبانيا ، وجعل دون خوان منه مقر أركان حربه ، ورفع على صـاريه رايته الخاصة • وكان قد اشتغل في تزيين هذا المركب وتزويقه أمهر فناني برشلونة ، فكان طلاؤه براقا وأفاريزه الخشبية دقيقة الصنع ، وقد نصب في مقدمته مهماز حاد

على شكل رأس غــول • وعمد دون خوان الى تقسيم اسطوله الى خمس عمارات بحرية دولية • فاحتلت المقدمة مراكب جوان دوكرادونا ، المؤلفة من سبع سفن ترفع راية المثلث الاخضر ، واحتشدت خلف المقدمــة مراكب متراصة ، هي سفن الصدام حول سفينة القيادة « الريال » • أما مراكب كولونا فاحتلت الميمنة في حــين تركت

الذي كان يقود سفنا شراعية سريعة الحركة والتوجه ، شأن أكثرية السفن الخفيفة• ولم يكن هناك سوى ست شون بطينة ، قادرة على السير بالمجداف وكانت ملحقة بالاسطول مع وظيفة محددة وهي أن تتقدم مثنى مثنى كي تؤلف جبهة لا يسهل اختراقها ، ولكي تنضح الاسطول المعادي بوابل من قذائف مدافعها المثبتة في مقدمة كل منها ، وذلك قبل أن تنقض المراكب الخفيفة في هجومها • وبقي انتظار انقشاع الغيوم والصحو •

وفي ١٦ ايلول أقلع الاسطول الحليف من مسينا بعد أن استعرضه وباركه مندوب خاص من طرف البابا بيوس الخامس وكان مركب « الريال » يسير في الطليعة رافعا فوق ساريته الكبرى راية الحلف المقدس •

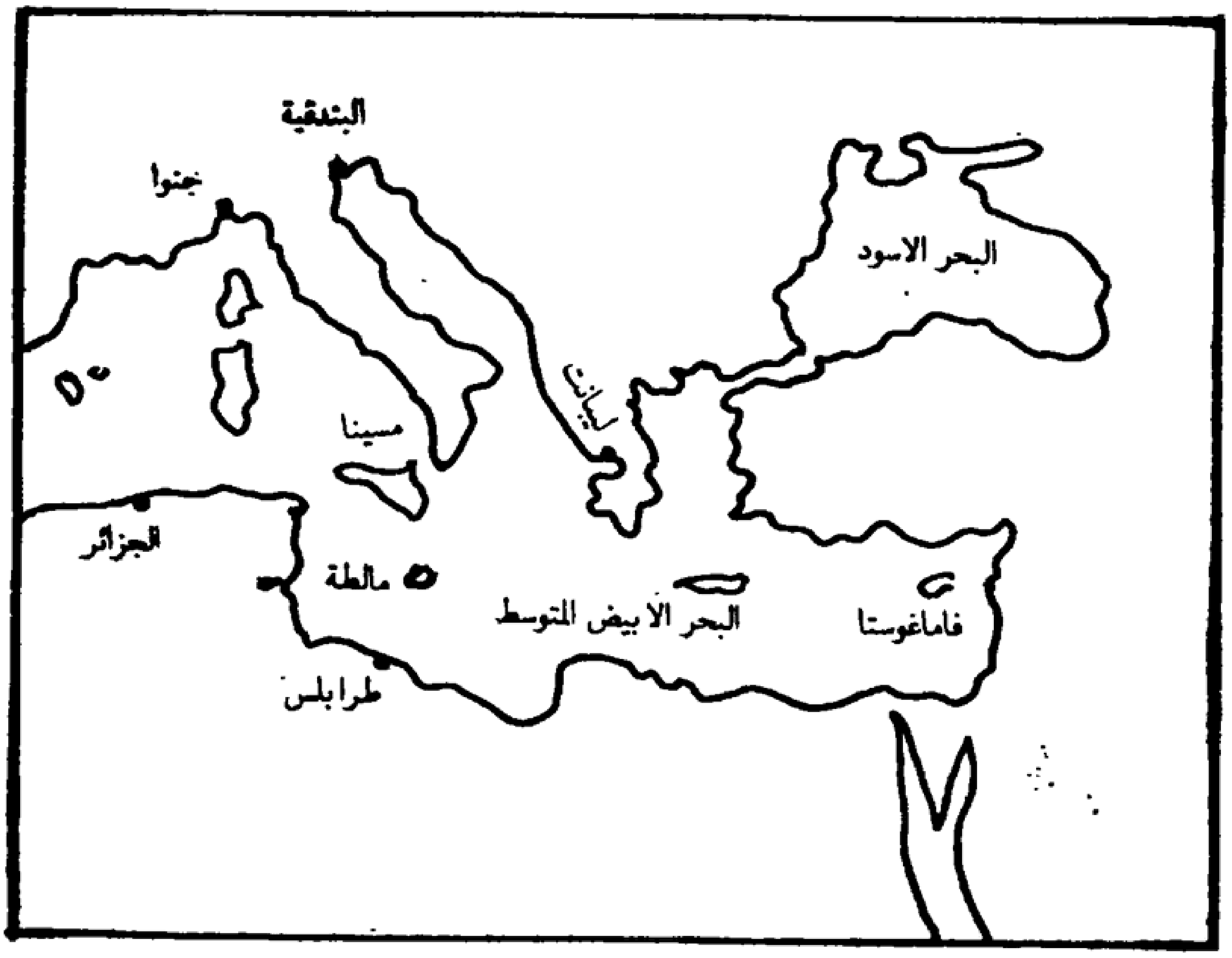

مائتان وخمسون سفينة في كل جانب :

لا تزيد المسافة الفاصلة بين مسينا في مضيق صقلية وبين خليج ليبانت في شمال غرب شبه جزيرة الموره اليونانية عن مائتي ميـــل ، أو مسيرة نهار واحـــد بالنسبة لسفينة بخارية عادية في أيامنا ، غير أن الاسطول قطعها قبل أربعة قرون تقريبا فـــي عشرة أيام وذلك لمواجهة مشكلتين :

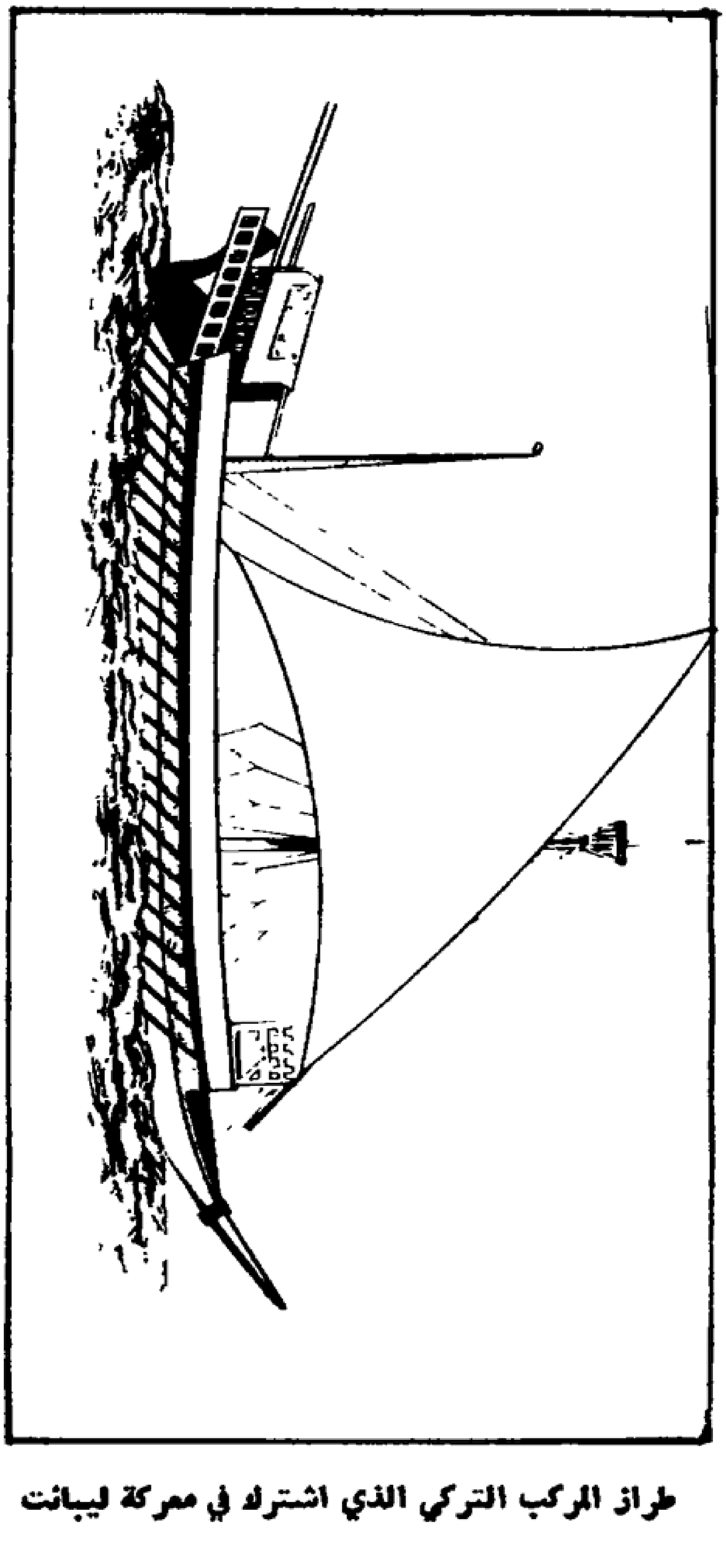

طراز المركب التركي الذي اشترك في معركة ليبانت

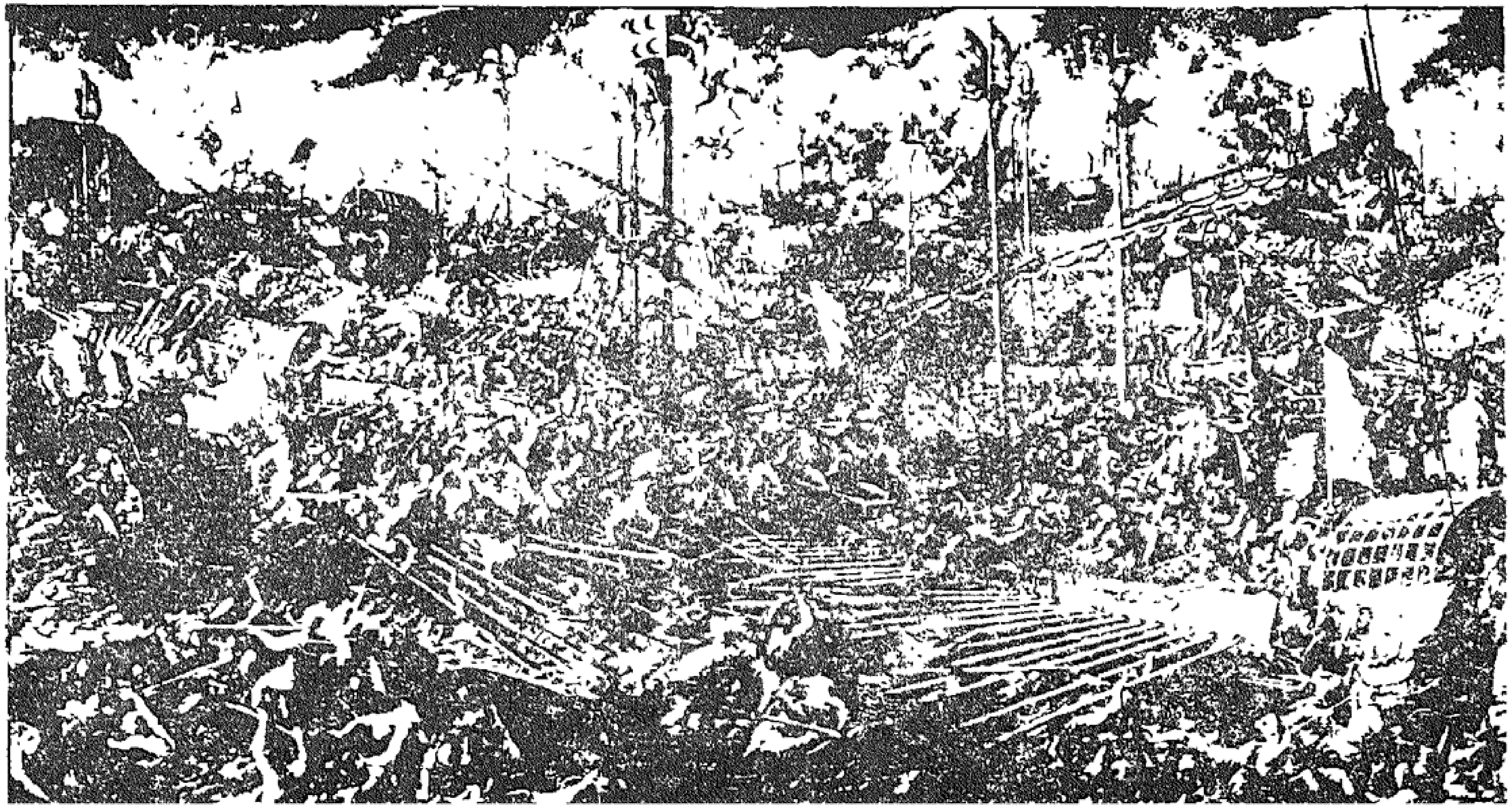

معركة ليبانت .. رسم فيسانتينو . قصر الدوجات في البندقية

الاولى : انعدام الرياح الموائمة •

والثانية : صعوبة الحفاظ على تقارب السفن التي تجنح عادة نحو التباعد عن التشكيلة الاصلية على شكل ثلاثة طوابير • وقامت بمهمة الحماية بضعة مراكب من اسطول جوان دوكردونا ، ومهمتها اعتراض الطليعة التركية في حال التلاقي صدفة ريثما تتمكن الاساطيل المتحالفة من التأهب للقتال • وكان كردونا يبحر على مسافة ٢٠ ميلا أمام طليعة الاسطول ولكنه كان يقلص المسافة ليلا الى ثمانية أميال أو عشرة فقط •

وفي السادس عشر من ايلول ألقى الاسطول مراسيه أمام جزيرة كورفو اليونانية التي كان« علج علي »قد اجتاحها وخربها وغنم ما فيها وكان الرعب لا يزال مخيما عليها ، ثم استفحل بعد وصول أنباء المعارك الدامية أمام قلعة فاماغوستا القبرصية • وهكذا استمد دون خوان النمساوي المزيد من الحقد والعزيمة على الثأر من العثمانيين •

وبعد سقوط قبرص هدد الاتراك جزيرة كريت ثم ولجوا البحر الآدرياتيكي متوغلين حتى ميناء كتارد على الساحل اليوغوسلافي وهددوا دالماسيا • وفي ٢٦ ايلول لوحظ وجود سفن تركية في مياه جزيرة زانط قرب الساحل الغربي لشبه جزيرة الموره اليونانية ، ولكن سرعان ما جمع علي باشا اسطوله في مضيق ليبانت على حافة المضيق الواصل بين خليج باتراس وخليج كورنث • وبعد أربعة أيام عاد القبطان جيل آندرادا ، الذي أرسل بصفة كشاف ، وهو يلهث من الارهاق ، حاملا معلومات ثمينة للقائد العام دون خوان ، مفادها أن الاسطول التركي الذي يضم حوالي مائتي سفينة يبدو منهوك القوى بسبب وباء الطاعون الذي أودى بحياة الكثيرين من قواته • اذن كان الوقت مناسبا للهجوم •

غير أن المعسكر التركي أرسل أيضا مبعوث مخابرات لاحصاء عناصر الاسطول، ولكن الظلام خدعه ، فقدم لرؤسائه تقريرا مفرطا في تفاؤله ولا ينطبق على الواقع • وهكذا اقتنع علي باشا بتفوقه العددي ، فقرر بدوره الانتقال الى الهجوم ، وأقلع الاسطولان كل باتجاه الآخر في وقت واحد تقريبا •

وفي السادس من شهر تشرين الاول أصبح دون خوان على مسافة عشرين ميلا من السفن التركية الراسية في مدخل خليج كورنث • وفي فجر اليوم التالي أقلعت

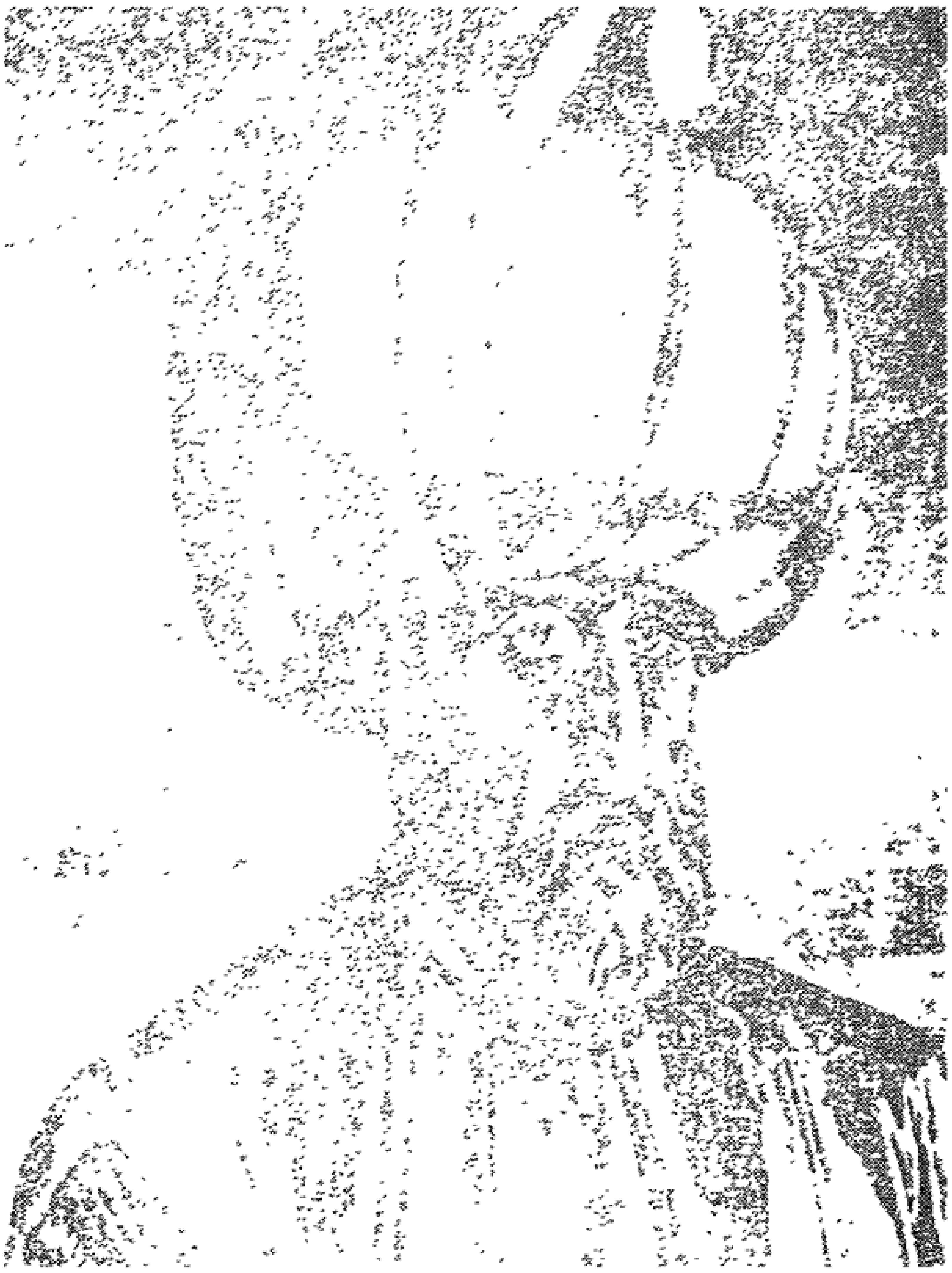

السلطان سليمان الثاني (القانوني)

سفن الاسطول الاوروبي وبعد قليل أبصرت المراكب المتقدمة السفن الشراعية التركية • وتم انزال قبطان ايطالي ، من روما ، الى الارض كي يقوم بتعداد سفن اسطول المسلمين بعد أن صعد فوق قمة تل يشرف على البحر ، ولم يتأخر في نقل معلومات الى قيادته مفادها أن السفن العثمانية تقارب المائتين وخمسين عددا تقريبا، وأدرك دون خوان بأن معركة قاسية تنتظره ، اذ سيخوضها بسفنه البالغة ٢٠٢سفينة حربية تتألف في معظمها من أسطول البندقية تدعمها ست شون وزوارق شراعية ،

ووجد نفسه أمام الامر الواقــع بالرغم من الاختلاف العــددي وليس هناك مجال للتراجع • وقد اتخــذ علي باشا في مدخل الخليــج مركزا متوسطا ، يسانده محمد شيركوه ، باشا مصر ، من الميمنة ، في حين كان « علج علي » في الميسرة • واندفــع الاسطول الاوروبي من الممر البحري الفاصل بين جزيرة اوكسيا الصغيرة وبين رأس سكروفا ، وانتشر حالا على هيئة خط القتال وكانت الشون في المقدمة وفي طليعــة جبهة مؤلفة من مائة وخمسين مركبا • أما الاحتياطي فكان على مسافة ما في الخلف تحت قيادة سانتا كروز • وبعد أن قام دون خوان بجولة تفقدية عاد حالا الى سفينته « الريال » التي كانت ترفع على صاريتهــا الكبرى العلم الاحمر والذهبي وقد تــم تطريزه خصيصا لهذه المعركة ، أما علي باشا فقد رفــع على سفينته علما بديعا أبيض اللون طرزت عليه بحروف ذهبية بعض آيات القرآن الكريم وكانت الريح تهب عليه من الجنوب الشرقي •

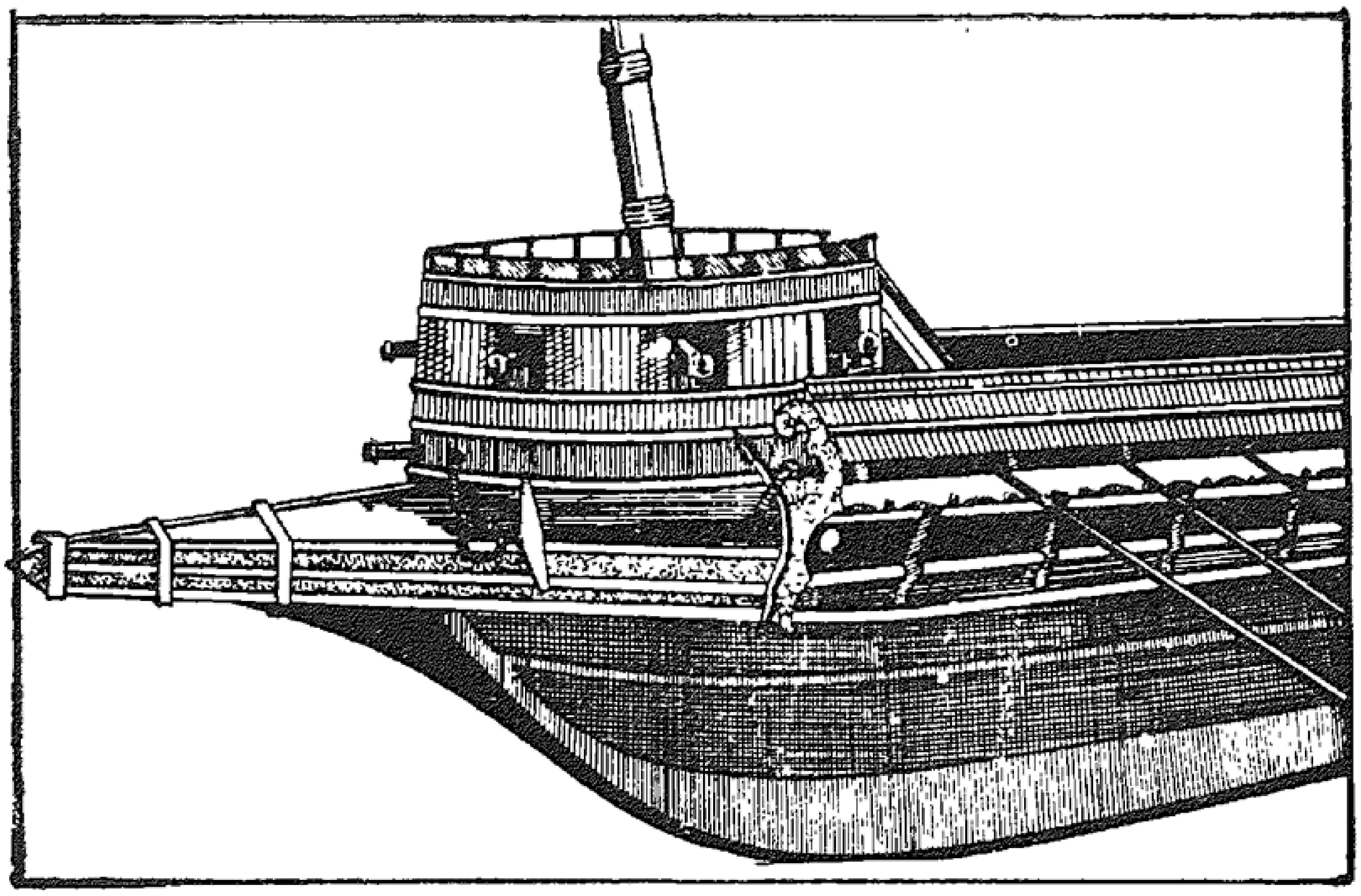

مقدمة شونة بندقية في القرن السادس عشر ومهمازها ومدافعها

تزعزع الموقف التركي من الهجوم الاول :

لقد أعطت طلقة مدفــع اشارة بداية أضخم معركة خاضتها المراكب الخفيفة في

سائر الازمنة • ففي الوقت الذي لم يتمكن فيه الاسطـول الاوروبي من احتـلال مواقعه المخصصة له من قبل القيادة بصورة مرضية ، كان الاتراك يقبلون على المعركة تدفعهم ريح طيبة وكادوا يضعون اسطول دون خوان في موقف حرج للغاية • وبلغت قلوب كثير من قواد السفن الاوروبية الحنـاجر ، ولكن سرعان ما سكنت الريـح فجأة • وما أن حرم البحارة الاتراك من هذا العنصر الدافع حتى لجؤوا مسرعين الى طي القلوع العديمة الجـدوى ، بينما راح بعض الجنـود يوسعون الجدافين ضربا بالسياط وهم من الاسرى والرقيـق المشدودين بالسلاسل الى مجادفهم كي يبذلوا أقصى طاقتهم في تحريك السفن قدما الى الامـام • وهكذا تأخر تقدمهم ، ذلـك التأخير الذي كان مفيدا جدا للاسطول الاوروبي مما أتاح لرجاله اتمام استعداداتهم• وعندما اقترب الاتراك وأصبحوا على مرمى من خصومهم دهشوا من الهدوء السائد في صفوف الاعداء ، ولو أمعنوا النظر جيدا لرأوا بأم أعينهم رجال المدفعية وهم على أتم استعداد وأهبة بجوار مدافعهم ، والفتيلة في قبضتهم بانتظار الايعاز كي تقصف المدافع كالرعد ، في حـين كان رماة البنادق في طرفي السفن على الصواري مستعدين لرشق أسطحة السفن التي تقع في مدى رميهم • وعند الظهر فتحت شون البنادقـة الاربعة في الجناح الايسر والقلب فجـأة نارا جهنمية ، سريعة المفعول للغاية ، على المراكب الاسلامية • وقد نتج عن هـذه الرشقة الاولى تحطيم هجمة الاتراك الذين قاسوا منها الامرين وتقرر مصير المعركة بعـد بعثرة مراكبهم ، وهنا اقتربت مراكب أعدائهم بعضها من بعض مع استمرارها في قذف قنابل ذات مفعول قتال ، ثم أخذت تقتحم السفن التركية في صدامات مذهلة وراح الـدم ينساب على ظهر السفن التي أتلفها القصف •

وفي أقصى اليسار كان باربريغو أول من سقط تحت كلاليب مركب الاسكندرية الكبير الذي يقوده محمد شيركوه وأسرعت بضعة زوارق تركية لدعم المركب المصري وقذفت بموجة من الجنود الانكشاريين المدججين بالسـلاح وكادت المعركة تودي بحياة باربريغو الذي أثخنته الجراح وتقهقر متراجعـا حتى الصاري الكبـير لولا النجدة التي سارعت نحوه من المراكب الخفيفة الاخرى فقام بهجوم معاكس ، وطرد

المهاجمين ولحق بهم حتى سفينة القيادة المصرية حيث وقعت ملحمة رهيبة خسر خلالها محمد شيركوه حياته • هـذا الانقلاب في الموقف أذهل بعض الربابنة الاتراك مما جعل بعضهم يؤثر الانسحاب في حين كان بعضهم الآخر يتركون سفنهم تجنح نحـو البر المجاور • أما الذين آثروا القتال فقد غلبوا على أمرهم واستشهدوا • وانطلـق الاسبان والطليان كالحيوانات المسعورة بعـد أن استشرت حميتهم بفضل حمـاية « المظلة النارية » المؤلفة من طلقـات البنادق • لكن جنود الانكشارية الذين كانوا يستعملون القسي كفوا عن الرمي بعد اطلاق حـوالي عشرين سهما ، وكانوا هـم الخاسرين في هذه المعركة الرهيبة • وكلما استولى الاوروبيون على مركب من سفن الاتراك كانوا يقومون على الفور بفك أغلال الرقيق المقيدين الى المجاذيف كي يحل مكانهم الاسرى الاتراك، وهكذا حرر الاوروبيون فيهذه المعركة زهاء ١٢٠٠٠ رجل بين أسير ورقيق من أبناء جلدتهم •

دون خوان النمساوي ، المنتصر في معركة ليبانت

ميدالية تمثل عموداً منصوبا في مدخل خليج ليبانت وعلى قمته تمثال الامير المتوج بالنصر • وفي الخلف وضع التاهب للمعركة مع عبارة « من أجل هزيمة الاسطول التركي في ليبانت »

القـاء راس القائد العام في البحر :

ولكن حتى الآن لم يتدخل بعد معظم الاسطول التركي الى أن تقدم علي باشا الذي كان يدعمه من اليمـين واليسار مشاهير رجـال البحرية من أتراك ومصريين وجزائريين وتقدم من مركب القيادة المعادية الذي كان دون خوان على متنه والمعروف

برايته الكبيرة وكـاد مركبه يلامس المركب الخصم عنـدما أطلقت النار من كـلا الجانبين ، وفتحت قذيفة تركية ثغرة دموية في صفوف المجدفين • ولم يعد قبطـان سفينة « الريال » يرى كبير فائدة من اطلاق النار من سفينته لان المركبين قد تلاحما وجها لوجه بعنف حطم مهمازيهما • وعندما أصبحت المعركة نوعا من اشتباك كثيف لان الهجـوم الذي أدى لتشابك سفينتي علي باشا ودون خوان ، كان يتكرر على مدى البصر • وكان قرع الطبول ونفير الابواق هو الذي يخفي في فترات قصـيرة جدا صيحات المحاربين وأزيز طلقات البنادق الذي لا يكاد ينقطع ، وأصبح الاشتباك شاملا ، حتى أن المجذفين الذين جعلهم تلاحم السفن أحرارا اشتركوا في هذا القتال الضاري وأنجز الفأس والخنجر والسيف ما بدأته الاسلحة النارية •

تعرضت سفينة علي باشا لهجومـين ولكنها استطاعت التخلص منهما مثلمـا تعرضت « الريال » لموقف مماثـل وأمضى دون خوان فوق ظهرها مدة ربع ساعـة حرجة للغاية • غير أن كولونا أنجده باقتحامه سفينة علي باشا من الخلف مما اضطر سفينة القيادة التركية للمحاربة على جبهتين • وهنـا بلغت المعمعة الدموية ذروتها ، وعندما أوشك علي باشا على السقوط أسيرا طعن نفسه منتحرا ، فوثب عليه جندي من الاعداء ، واحتز رأسه وحمله الى دون خوان الذي ألقاه في اليم من على ظهـر سفينته • أما على جناح الاسطول الاوروبي الايمن فكانت تدور معركة رهيبة ظلت محتدمة دون أن تلفت الانظار ضمن هذا التدخل المذهـل بين عناصر الاسطولين • فقد باغت « علج علي » سفن فرسان مالطة قبل أن تتمكن من تشكيل جبهة دفاعيـة متماسكة ونشر بينها الموت الرهيب بشراسة لا مثيل لها ، ولاسيما انه كان يقاتـل عدوه اللدود ، وهكذا استولى الاميرال الجزائري على راية الصليب المالطي •

ولكن وفي هذه الفترة بالذات كان مصير المعركة قد انقلب لغير صالح الاتراك فقد وصل سانتاكروز ، الذي ظل حتى الآن مـع سفنه كقوة احتياطية لنجدة فرسان مالطة ، ولحق به دون خوان الذي علم بقرب وقوع كارثة • وهنا التأم شمل القطع البحرية الاوروبية المنعزلة واتجهت نحو قلب المعركة • وعندها لاحـظ علج علي ان سير المعركة لا يترك له أي أمل بالفوز ، ولا سيما بعد اختفاء راية علي باشا القائـد

العام من فــوق سطح البحر ، فآثر الانسحاب بسرعة واستغل هبوب رياح موافقــة فأشرع مراكبه واختفى باتجاه مضيق ايثاك •

دون خوان النمساوي

الميدالية ذاتها وتمثل نبتون على ظهر دلفين وهو يقتل بحربته المثلثة القائد التركي ، كما يظهر اتباعه وهم يلوذون بالفرار •

وهكذا لم ينج من الاسطول العثماني سوى ثلاثين سفينة ، واعتبرت أوروبــا هذه المعركة ثأراً لسقوط فاماغوستا • وخسر الاتراك ثلاثــين ألف قتيل وقع بضعة آلاف منهم في الأسر ، شد وثاقهم مباشرة الى مقاعد التجديف على السفن المأسورة•

ولما زادت حدة الرياح الجنوبية الشرقية التي ساعدت الاميرال الجزائري على الانسحاب قاد دون خوان اسطوله الى ملجــأ أمين في ميناء بيتالا ، في حــين أقلعت سفينتان باتجاه مسينا لنقــل أنباء الانتصار على الاتراك • وهكــذا انتهت معركة ليبانت وتأكدت سيطرة الاوروبيين على البحر الابيض المتوسط •

★ ★ ★

الأرمادا
التي لا تقهر

ـ تموز ـ آب ١٥٨٨ م

زوبعة من ريح صرصر عاتية ...

وقضي على أقوى أسطول في العالم

تلك هي مسؤولية تقع على عاتق الريح ... وهكذا نستطيع ، اجمالا ، تفسير دمار نسبة جسيمة بلغت ٦٠٪ من أضخم اسطول عرفه العالم وبعثرته ، انه اسطول الارمادا ، ذلك لان المعركة البحرية ليست هي التي ثبتت كتفيه على الحلبة ...

لقد مر سبعة عشر عاما على معركة ليبانت حيث كانت الراية الاسبانية هي الخفاقة ، بعد أن كان لها النصيب الاوفى في تدمير الاسطول العثماني ، واعتقدت الحكومة الاسبانية أن باستطاعتها أن تعيد الكرة . فقد شعرت بأنها على قدر من القوة على متن البحار يجعلها لا تخشى أحداً . صحيح ان الانكليز كانوا يحسدونها على هذا التفوق ، ولكنهم لم يكونوا الا في بواكير تطلعاتهم البحرية ، فقد كانوا ينتظرون بكل تواضع الوقت الذي تأزف فيه ساعتهم .

في عام ١٥٧٠ أنزل البابا بيوس الخامس عقوبة الحرمان بالملكة اليزابت الاولى ورماها بالهرطقة ، ودعا الامم الكاثوليكية لاعلان الحرب المقدسة عليها ، وبعد أن توجت اسبانيا مفرقها باكليل المجد في ليبانت شعرت بأنها مدعوة لكي تكون على رأس هذه الحملة الصليبية الجديدة . أما الملك فيليب الثاني ، الذي كانت آماله قد خابت في تطلعه الى التاج الانكليزي ، والذي كان يجتر حقده الذي نتج عن اعدام

الملـــكة ماري ستوارت في عـــام ١٥٨٧ ، فقد تصور ان حملة على انكلترا ، متمتعة بتشجيع رسمي من كرسي الفاتيكان ، لن تسمح له بالانتقام من الهراطقة فحسب ، بل مـــن القراصنة الذين اشتطوا في تعدياتهـم على أجزاء عـــدة من أمبراطوريتـــه الاستعمارية • وكان على رأس هؤلاء القبطـــان الشاب المتغطرس فرانسيس درايك الذي لم يقنع بتدمـــير سواحل البيرو وسان دومينغ وقرطاجة ، بل اندفع وهاجـــم لشبونة وقـــادس ، حيث قضى على اسطول مـــن السفن التجارية وأحرق مخـــازن البضائع على طول أرصفةهذين الميناءينواختطف العديد منالسكان ، تماماً كمافعل أجداده النورمان قبل سبعة قرون ونصف تقريبا ، وعلى التحديد في عام ٨٤٤م إبّان الحكم العربي الاموي في الاندلس ، اذن حان الوقت لكي يعيد الملك فيليب هؤلاء الانكليز الى جادة الصواب ، ولاسيما بعد أن سنحت الفرصة الملائمة •

لم يكن فيليب الثاني يفتقر الى المـــوارد المالية ، فقد كان ملكا على اسبانيـــا والبرتغال ونابولي وصقلية ودوقية ميلانو، ومقاطعة فرانش كونتيه في شرقي فرنسا، ونصف القارة الامريكية ، هـــذا كما استولى على اقليم افريقية وعاصمته تونس ، ووهران ، وجزر الرأس الاخضر وجزر الخالدات (كناري) • أما فرنسا التي كانت تمزقها الخلافات المدنية فلم تكن مؤهلة لان تبدي أية مقاومة •

مائة وتسع وعشرون قلعة عائمة :

لقد استطاع فيليب الثاني بعد ان بذل جهودا جبارة كلفته ١٢٠ مليون دينار، واستنزفت شطرا كبيرا من ميزانية خزينته ، وأثـــار حركة محمومة في العديد مـــن الموانىء ، أقول استطاع أن يبني اسطولا عملاقا مؤلفا من ١٢٩ سفينة حربيةتجهزت بمقدار ٢٦٤٠ مدفعا ، ومزودة بذخائر تفوق التصور • وكان على متن هذا الاسطول ١٠٠٠٠ بحار و ١٨٠٠٠ محارب من قوات الانزال الموضوعة تحت أمرة دون دييغو دو بوباديللا ، وكان بينهم أفواج من صقلية ومن نابولي ، ومن الهند ، والاندلس ، ومن البرتغال وسرايا خالصة من قشتالة القديمة •

واذا تأملنا عن كثب تلك العمارة البحرية وجدناها مؤلفـــة من « قلاع طافيـــة

حقيقية » وثقيلة نوعا ما ، وليس فيها ما يماثل تلـك السفن الشراعية الخفيفة التي كان جنـود كيخسرو يسحبونها فوق رمـال الشاطىء • واليكم عناصـر اسطول الارمادا :

البرتغال : بقيادة الامـيرال دوق سيدونيا • ويضم ١٠ من سفن الشحن ، ٢ من السفن الحربية (غراب) ، ١٣٠٠ بحار ، ٣٣٠٠ جندي ، ٣٠٠ مدفع •

قشتاله : بقيادة الاميرال دون دييغو فلورس دوفالدس ، ويتشكل من ١٤ سفينة شحن ، وخافرتين ، ١٧٠٠ بحار ، ٢٤٠٠ جندي و ٣٨٠ مدفعا •

الاندلس : وكان على رأس قواتها الاميرال دون بدرو دو فالدس ، وتحوي ١٠ سفن شحن ، و ٨٠٠ بحار ، ٢٤٠٠ جندي ، ٢٨٠ مدفعا •

بيسكاي : ويقود عمارتها الامـيرال دون جـوان مارتينز دو روسكالد ، وتتألف من ١٠ سفن شحن ، و ٤ من السفن الخافرة ، و ٧٠٠ بحار و ٢٠٠٠ جندي و ٣٥٠ مدفعا •

غيبيزكوا : بقيادة الاميرال دون فيغل دو اوغندو • وتتألف قواتهـا من ١٠ سفن شحن وخافرتين ومركبين خفيفين ، ٧٠٠ بحار ، ٢٠٠٠ جندي ، ٣٥٠ مدفعا •

ايطاليـا : وكان على رأس قواتها الاميرال مارتان دو برتندونا ، وتضم ١٠ سفن حربية و ٨٠٠ بحار و ٢٠٠٠ جندي و ٣١٠ مدافع •

أما عمارة دون جوان غوميز دوميدينا فكانت تضم ٢٣ شاحنة على متنها ٧٠٠ بحار و ٣٢٠ جنديا و ٤٠٠ مدفع •

وكان دون انطونيو هورتادو دو مندوزا على رأس عمارة مؤلفة من ٢٢ خافرة وسفن نقل ضخمة وسفن حربية من فئـة الغراب ، تحمل جميعها ٥٧٠ بحارا و ٥٨٠ جنديا و ١٩٣ مدفعا •

هذا كما كان دون هوغو دو منكادو على رأس عمارة تتألف من أربــع سفن شحن تحمل ١٦٦٠ بحارا و ٨٢٠ جنديا و ٢٠٠ مدفعا •

وأخيرا كان تحت أمرة دون دييغو دو مدرادو أربع نقالات عليها ١٢٠٠ بحارا و ٢٠٠ مدفع •

وكانت كل هذه السفن مصفحة بدروع خشبية فوق خط العوم• غير أن وجود أربع سفن نقالة يثير الاهتمام في هذا التعداد • والواقع كانت كل واحدة من السفن المذكورة ، التي كانت تحت قيادة دون هوغو دو منكادو ، تحمل ٤١٥ جدافا و ٢٢٠

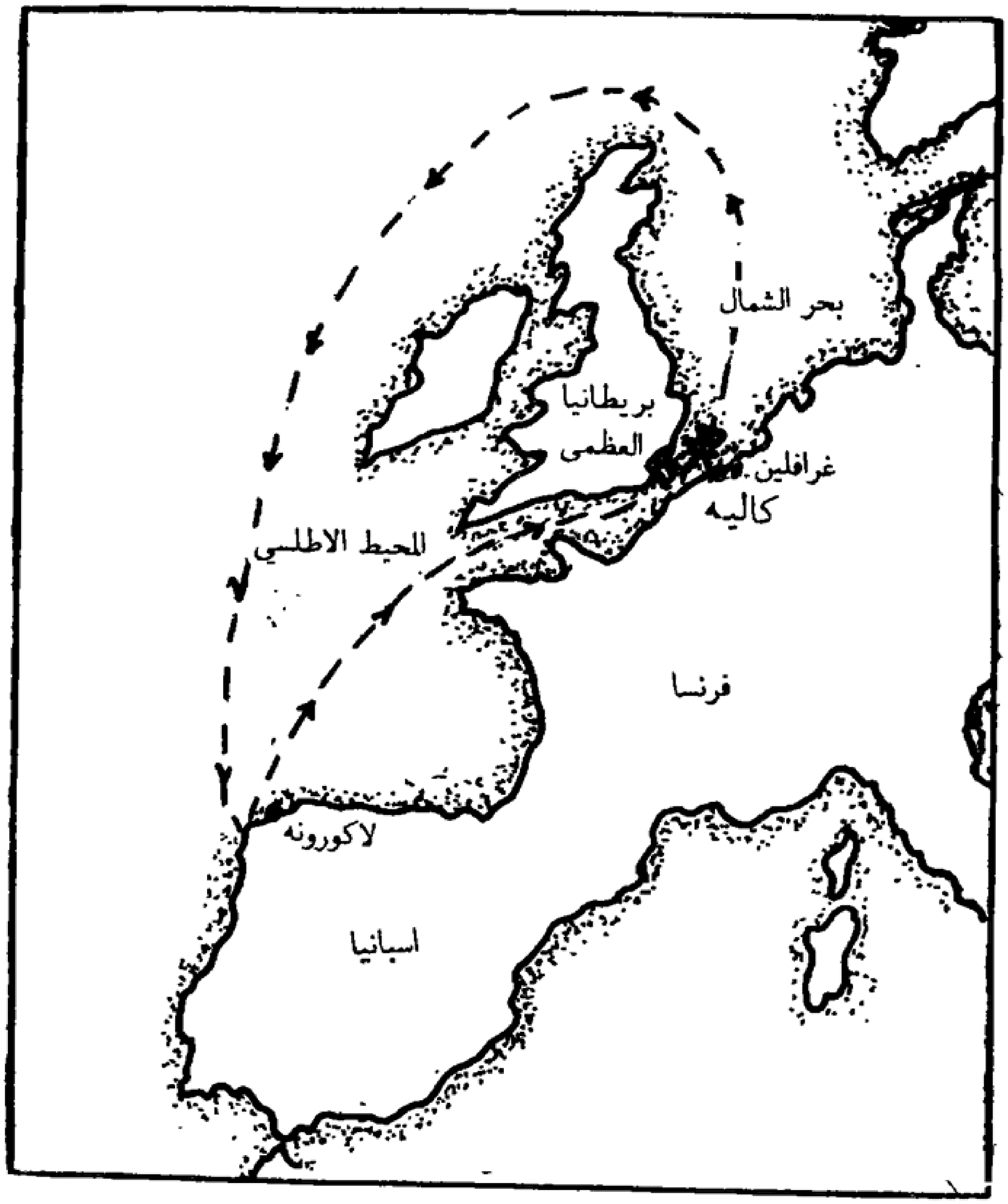

ـ طريق اسطول الارمادا ـ

جنديا و ٥٠مدفعا وتتمتع بميزة الاستقرار النسبي في البحر • ووصلت احداها وهي « كونيغا » الى ميناء الهافر بعد ٦٠ يوما من الابحار في المحيط بالمجداف كان منها ٥٠ يوما من العواصف والمعارك • وياله من احكام في الصنع •••

مسألة حرجة : عبور مضيق بادوكاليه :

ويبدو أن أكثر الفترات حرجا وخطورة كانت اجتياز مضيق بادوكاليه تحت أبصار الانكليز ومسامعهم ، والذين أحيطوا علما سلفا بأنباء هذه الاستعدادات التظاهرية •

وكان على هذا الاسطول الذي أنيطت به مهمة معاقبة الانكليز أن يجتاز فعلا المضيق كي يبلغ اقليم الفلاندر ليضم الى قواته ٢٥٠٠٠ جندي بقيادة الكسندر فارنيز دوق بارمه والذي كان يحكم هذه البلاد بعد وفاة دون جوان النمساوي • وقد احتشدت هذه الحملة المكلفة باحتلال لندن ، في منطقة غرافيلين ودونكرك ونيوبور، وهي على أتم الاهبة للانقضاض على انكلترا من فوق اسطول سفن مبسطة كان لاغنى عن وجود اسطول حربي لحمايتها • وقد واجه كل من نابليون وهتلر المشكلة ذاتها عندما استعدا أيضا للقيام بعملية « انزال » •

كان مخطط فارنيز واضحا كما سبق وكتب ذلك : « اذا قبلت ملكة انكلترا الحرب على سطح البحر فان النصر آت لا ريب فيه ، أما اذا فضلت الحرب فوق البر والبحر في آن واحد فإن الحل سيكون أيضا أكثر خطورة عليها ، اذ سيكون عليها تقسيم قواتها • أما اذا انتظرت قدومنا فوق البر فلن يكون أمام الاسطول المنطلق من اسبانيا الا تدمير السفن الانكليزية ، وسأجتاز المضيق فوق سفني المسطحة ، وسأنزل في ميناء مارغات[1] • وكل ما أرجوه فيما بعد هو تأمين عدد كاف من السفن تنقل لي الامدادات والمؤن من بلاد الفلاندر ومن اسبانيا ، دون أن أهتم بالاعداء أكثر مما يجب » • وكان يبدو للعيان ان فارنيز كان يرغب في أن يقذف على البر بقوات احتلال تاركا للاسطول الاسباني مهمة تحييد البحر ، وهي الطريقة الوحيدة لتحقيق النصر المنتظر •

---

(١) في اقليم كنت ، على جزيرة ثانت ، جنوب انكلترا .

وقد اختار الملك فيليب الثاني لقيادة هذا الاسطول الذي لم يسبق له مثيل : والذي أطلق عليه اسم « الارمادا الذي لا يقهر » ، القائد العـام للاساطيل الاسبانية دون الفارز دو باسان ، ماركيز سانتاكروز ، والذي نالت مبادرته في معركـة ليبانت ضد العثمانيين تقديرا عظيما • وكان ينظر اليه على انه أفضل قادة البحر في عصره•• وقد قبـل سانتاكروز « عصا الماريشالية » بكل حماسة ، ورسم مخططـات مشجعة للغاية ، ولكنه عمد الى ارتكاب أسوأ « خديعة » تجاه ملك اسبانيا : ذلك انه مات بغته في أثناء الاستعداد للمعركة بتاريخ ٩ شباط ١٥٨٨ •

وعلى أثـر ذلك أنيطت القيـادة بالدون الفونسو بـيريز دوغوزمان ، الملقب بالطيب ، دوق ميدينا سيدونيا ، الذي كان عمره لا يتجـاوز الثانية والثلاثين عاما ، وهو بحار سقيم لانه كان يشكو من دوار البحر ، وهـو أكثر خبرة بحفلات البلاط الصاخبة ، وبقواعد آداب اللياقة ، من معرفته بنزوات الريـح وبتيارات بحر المانش الشديدة ، وبعواصف بحر الشمال الفجائية • وكان رزين الطباع ويهتم بالصغائر ، وقد اتخذ لنفسه مسلكا هو تبني المخطط الذي يتوقع كل الاحتمالات ، ولكنه يخلو من أية مبادرة شخصية• وقد أهمل منذ البداية الحيطة التي وضعها سلفه سانتاكروز والتي كانت كافية لانقاذه فيما بعد : وهي جعـل أحـد موانىء الفلاندر حراً تحت التصرف لتلافي انسحاب اضطراري، أو على أثر عاصفة مباغتة أو أي حادث طارىء• وقد نصحه دوق بارمه باحتلال ميناء فليسنغ الهولندي .• ولما كان ذلك غير وارد في الخطة فانه لم يعره أي اهتمام •

« اقتلوا ولكن لا تحلفوا » :

وفي تاريخ ١٩ أيار ١٥٨٨ استعرض فيليب الثاني « الارمادا التي لا تقهر » وهي ترفع مراسيها وتغادر لشبونه • وكان الدوق ميدينا سيدونا قائد العمارة البرتغاليـة ينصب رايته فوق صارية « سان مارتن » وهي سفينة حربية مجهزة بثمانية وأربعين مدفعا ويعمل فوقها ١١٧ بحارا وتحمل ٣٠٠ جندي • وهكذا امتطى قسم كبير مـن نبلاء الاسبان المراكب الحربية التي كانت مصحوبة بعدد كبير من سفن النقل • وكان في عدادهم الكثير من المتطوعين ، فضلا عن سفينة خاصة بالفتيات (لراحة المحارب)

فضلا عن كتيبة مؤلفة من ١٧٠ كاهنا من الجزويت والدومينيكان والرهبان، والذين كان الغرض من ارسالهم ارشاد الهراطقة وردهم الى ممارسة المذهب الكاثوليكي بكل حرية •

ويروى أن « الاسبان أخذوا معهم سفينة خاصة مشحونة بالحبال لشد وثاق الهراطقة العتاة فضلا عن سفينة أخرى مليئة بالسياط لجلد الانكليزيات العاصيات• هذا بالاضافة الى ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ مرضعة لتربية الاطفال الذين سيؤتى بهم كرقيق، لان كل الذين تتجاوز أعمارهم العشرة أعوام ستكوى جباههم بالحديد الحامي الاحمر »• وربما كان في ذلك بعض المبالغة• ولكن هذا لا يمنع من القول بأن عنابر السفن كانت حاوية على أدوات التعذيب لاقناع العنيدين بضرورة الانصات الى الكلام المقدس •

ميدالية تذكارية لهزيمة « الارمادا التي لا تقهر » . يظهر رجل وامرأة وابناهما يصلون راكعين وتقول العبارة « العبد في التفكير والرب في التدبير » . وفي الصورة الثانية يظهر الاسطول المحطم بالعاصفة مع هذه الكلمات : لقد جاء اسطول اسبانيا وذهب وكان ..

أما الناحية الصليبية فلم تكن مهملة اطلاقا • فمن جملة التعليمات التي تلقاها القائد العام ميدينا سيدونيا قرأ علنا وعمم هذه الفقرة التي ارتأى أن يتقيد بها الجميع : « عليكم أن تهتموا على الخصوص بتطبيق العقاب المشدد والنموذجي على كل الذين يتعدون عن أوامر أمنا المقدسة ، الكنيسة ، وأن تحولوا مهما كلف الامر بين البحارة والجنود وبين الحلف والشتم ، الامر الذي يمثل اهانة خطيرة للرب

سيدنا ، وجرى تعميم التعليمات ذاتهـا على كل القـادة ، ولكن عليكم أن تكرروا عليهم هذه الاوامر كلما اقتضى الامر ذلك ، وهذا خدمة للرب سيدنا » •

أما في دير الاسكوريال الذي تم بناؤه قبل قليل ، فقد تلقى الكهنة أمرا بـأن يتبادلوا « ضربات الانضباط » أو سوط التوبة ، بتاريخ الرابع من حزيران ، وهذا ابتداء من صلاة السحر ، في داخل الخورس ، وذلك من أجـل النصر السعيد الذي ينتظره الاسطول » •

وبتاريخ ٢٦ حزيران انطلقت مسيرة مؤلفـة من مـائة وعشرين شخصا كانوا يتفانون في تبادل ضربات السياط ، تحت أبصار جمهور خاشع ، وعلى رأسهم الملك ، والامير فيليب ، والابنة الثانية ايزابيللا ، الذين كانوا ينظرون الى هذا الموكب مـن احدى نوافذ القصر •

انكلترا على أهبة الحرب :

أما في المعسكر الآخر فلم تكن انكلترا غافلة • فبعد أن استخفّت الملكة اليزابت بالتهديد أخذت تعير هذه القضية ما تستحق من اهتمام جاد وراحت تشجع شعبهـا على المقاومـة ، فاستطاعت أن تزوده بقناعـة لاتقل عما فعله ونستون تشـرشل في حزيران ١٩٤٠ عنـدما انكفأت الجيوش البريطانية تجر أذيال الخيبـة الى الجزيرة تاركة الجبهة الفرنسية وكان يتعقبها الطيران الالماني • ولا بأس من التنويه بالمناسبة أن حاجات الدعاية الحربية اقتضت ظهور أول صحيفة عبر المانش ، هي ذي انكليش مركوري •

وكانت سفن التاج البريطاني تحت قيادة أمير البحر الاكبر اللورد هوارد اوف ايفنغهام • أما الاسطول المساعد فكان تحت قيادة قادة جسورين مثل اللواء البحري فرانسيس درايك صاحب الشخصية الاسطورية ، والمغامر والترلي ، وهو الذي ظهر لأول مرة أمام الملكة اليزابت وألقى بمعطفه على الوحل كي يسمح لهـا بالنزول الى مركبه ، والعالم مارتن فوربيشر ، والروائي كمبرلاند وروبيرسيسل ، وهـو كونت

ثمبرلاند وابن رئيس الوزارة ، والرجل الهرم جون هوكنس الخ •• وقد جهز هذا الاسطول وجرى تسليحه على نفقة الموانىء الكبرى، وكانت تقع مهمة مراقبة موانىء ساحل الفلاندر وتحييدها على عاتق اسطول خفر السواحل بقيادة هنري سيمور •

الاميرال فرنسيس درايك

ـ من أبرز رجال البحر الانكليز في معركة الارمادا ـ

كان الشعب البريطاني في ساعة الخطر يؤلف جبهة واحدة ، تماما كما حدث في عام ١٩٤٠ • وهكذا كان الانكليز يتبارون في بذل التضحيات والتفاني لصنع الاسلحة المهيأة لرد الغزاة وصدهم • وتكلفت لندن لوحدها وعلى نفقتها بتحويل ثلاثين سفينة عادية الى سفن حربية • وقام النواخذة بتعطيل جوانب السفن التجارية كي يجهزوها بالمدافع ولكي يجعلوا منها بطاريات عائمة رابضة على نهر التايمز •

ونصب فرنسيس درايك رايته على السفينة تريومف ، وهي سفينة حربية مجهزة بأربعة وثلاثين مدفعا وعلى متنها ٩٠٠ رجل ، وكان تحت امرته عشرون سفينة

تتراوح حمولتها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ طنّة[١] ، وأفضلها تسليحا كانت مجهزة بواحد وثلاثين مدفعا وأقلها تسليحا بأحد عشر مدفعا • وكان يتبع هذه السفن ثلاث سفن نقل ضخمة وتسعة مراكب خفيفة سريعة ، وزهاء ١٥٠ قاربا مسلحا « من التي قدمت من سائر مراسي المملكة كي تحتشد حسب اتفاق عام » • وهكذا كان الانكليز يستعيضون عن ضعفهم العددي ، من حيث الحمولة الاجمالية ، بدقة أفضل وبسرعة أكبر بكثير في مضمار الرمي ، فكانوا سريعي المناورة وحاذقين • ولم يكن لديهم الكثير من البارود ، ولا شيء من الاقوات تقريبا ، ولكن هناك حماسة وحمية عارمتين •

وتبعثر الاسطول من أول عاصفة :

ما أن أقلع اسطول الارمادا من لشبونة حتى واجهته أول نكبة تجاه رأس فينيستر شمال غرب اسبانيا • فقد هبت عاصفة بعثرت السفن فلم يجرؤ ميدينا سيدونيا على مواصلة سيره باتجاه انكلترا خشية فقدان بعض وحداته ، وقرر التجمع في ميناء كورونيا الاسباني ، حيث وجد فيه ملجأ أميناً لقسم من الاسطول ، في حين احتمت بعض القطع بصعوبة بميناءي فيغو وفيرول على ساحل غاليسيا • وتطلب الامر قضاء ثلاثة أسابيع لاصلاح الاضرار • وهكذا ضاع وقت ثمين كان بالغ الضرر على الروح القتالية لدى رجال البحر والقوات المحمولة • وربما كانت الحالة المعنوية أكثر انخفاضا لو علموا بأخبار فارنيز الذي كان محاصرا وعاجزا عمليا بفعل قوات سيمور الانكليزي ، فنفذ صبره ، وعزف عن الخروج الى عرض البحر مع جيشه المؤلف من طليان وألمان واسبان ، والذين أصابهم الوهن المعنوي والتفكك من طول الانتظار • غير أن الاسطول ظل على درجة من القوة تسمح له بأن يفرض لوحده الهزيمة على الاسطول الانكليزي الصغير « الذي كان مغامروه وقرصانه أكثر قدرة على نهب المدن المحرومة من الدفاع والصمود أمام أول قوة بحرية في العالم » •

وفي الثاني عشر من تموز استأنف ميدينا سيدونيا حملته ، ويقول آخرون أنه خرج الى عرض البحر في الثاني والعشرين من تموز ، ويعود اختلاف التاريخيين الى الاعتماد على التقويم اليوناني أو التقويم الغريغوري • وليس لهذا أهمية كبرى ،

---

(١) الطنة أو tonneau مقياس بحري يعادل حجما مقداره ٢٫٨٣ م^{3} •

لان الأهم هو أن الاسطول أبحر في وقت بلغ فيه مسامع اليزابت ان البحر يخلو من أي أثر للارمادا • فاعتقدت بزوال التهديد ولجأت الى نزع التسليح عن نصف سفنها في حين خفضت مخصصات أفراد الجيش الى النصف •، وفعلا ومنذ فترة طويلة كانت تدابير الاقتصاد قد دفعت الى استبدال حصص البحارة من لحم العجل والجعة بالسمك والزيت • ولكن ما أن ظهر الاسطول الاسباني حتى أدى الاستعداد للقتال الى عودة الجميع للتأهب لمباشرة الحرب • فأقلع تشارلز هوارد دون أي تأخير ، ورفع رايته فوق سفينته آرك رويال المسلحة بواحد وثلاثين مدفعاً •

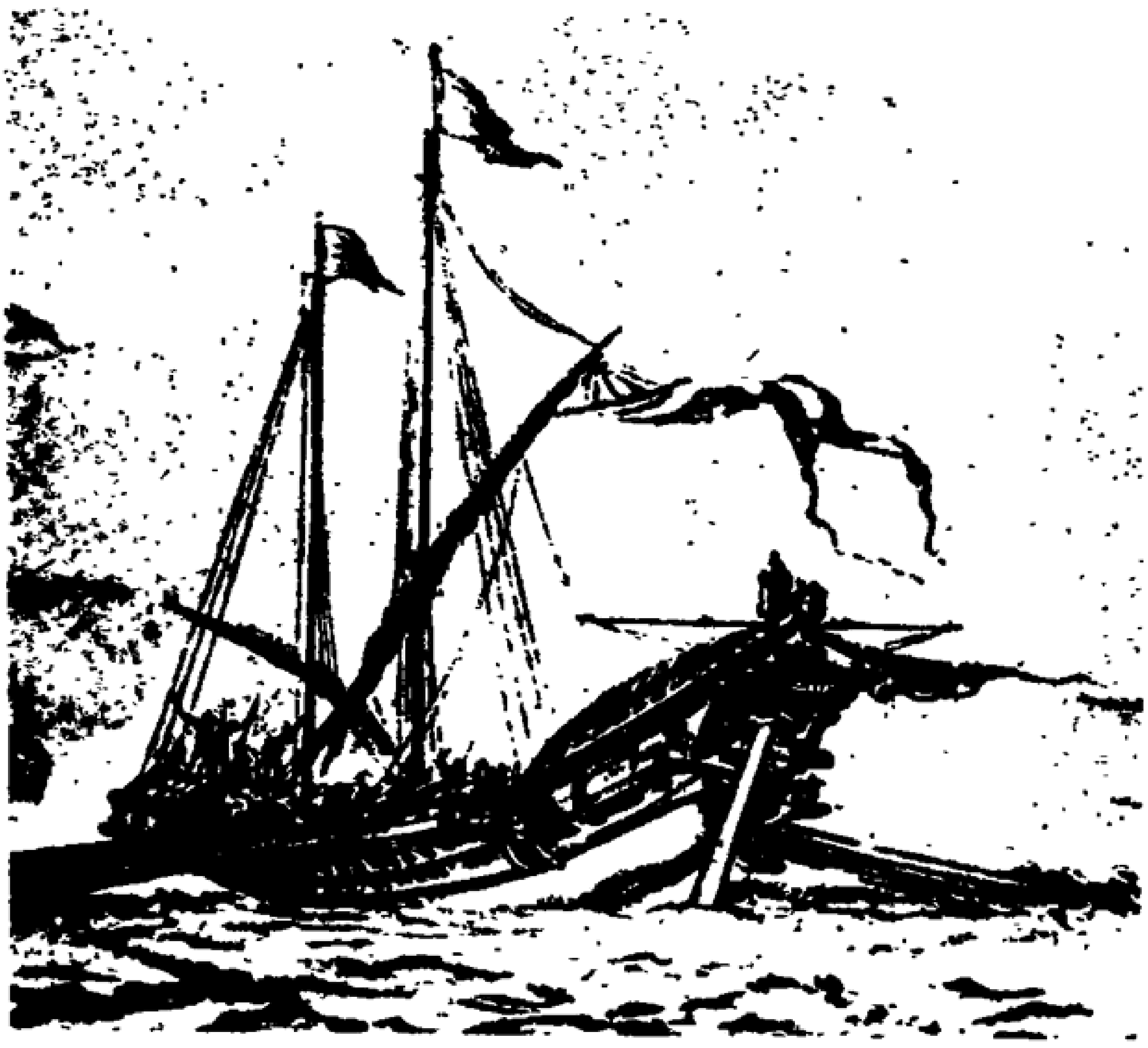

ـ غراب يسير بالتجديف من القرن السابع عشر ـ

أما الاسطول الاسباني فقد أقلع متقدماً ، تدفعه ريح خلفية ، على شكل ثلاث مجموعات مرتصفة على خط جبهة • وكان الاميرال ميدينا سيدونيا في القلب • وفي التاسع والعشرين كان ينتظر عند رأس نيزارل في جنوب غرب الجزيرة البريطانية ، على رأس قافلة مؤلفة من ثلاث واربعين سفينة • وكان باستطاعته القيام بمناورة خاطفة يكتسح فيها ميناء بلايموت الذي سيقع في يده كثمرة يانعة ويصبح الطريق

الى لندن مفتوحاً أمامه ، غير انه كان منهمكاً بتجميع بعض المراكب الضالة ، فأهمل هذه الغنيمة الباردة • غير ان هـذه السلبية غير المتوقعة ألهبت حماسة البحارة الانكليز فخرجوا في عشية الحادي والثلاثين من تموز والتفوا من حول السفن الاسبانية الراسية وظلوا على مسافة معقولة منها ، وقذفوها ببعض الرشقات من مدفعيتهم التي لم تكن قاتلة مثلما كانت ذات ضجيج • وكان من جراء تلك الليلة خسارة الاسبان ثلاث سفن منها « نوتردام دل روزاريو » وهي سفينة القيادة في عمارة فالديز ، التي راحت ضحية اصطدامين ، و « سانتا كاتالينا » التي سقطت بالاسر وعلى متنها قسم من خزينة الارمادا • وجاءت هذه الخسائر الاولى لترفع الى القمة معنويات البحارة الانكليز في الوقت الذي أصابت فيه الاسبان بالذهول ، ولكنهم لم يكونوا شديدي القلق فقد كانوا يأسفون على الخصوص ، بعد ضياع سانتا كاتالينا على خسارة مائتي برميل من البارود سقطت بأيدي أعدائهم ، والذين كانوا في أمس الحاجة اليها •

وجاءت الايام التالية لكي يخسر ميدينا سيدونيا الكثير من الوقت في مطاردة عدو من المحال الامساك به ، ولكنه حاضر على الدوام • ولجأ هوارد عدة مرات الى التكتيك الذي نجح فيه أيما نجاح أمام ميناء بلايموث • ولما كان يعاني من نقص عددي فقد كان يتحاشى المعركة القريبة التي يكون التفوق فيها للاسبان ، بفضل حواشي سفنهم العالية والتي تمنحهم مرابض ممتازة بالنسبة لرماة البنادق • وبعد يومين وتجاه ميناء بورتلاند وجزيرة وايت تراشق الاسطولان بالمدفعية ولكن دون أن يتسببا في الحاق الكثير من الاضرار بقطعهما الحربية •

الكارثة وقعت في كاليــة :

وفي السادس من شهر آب ، وحوالي الساعة ١٦ ألقت الارمادا التي لاتقهر « بمراسيها أمام ميناء كاليه الفرنسي بعد أن أصابها الاعياء من هذهالسفن الشراعية الصغيرة التي أرهقتها ومن القنابل التي غربلت جوانبها » •

وتساءل ميدينا سيدونيا ماذا يصنع فارنيز في موانىء الفلاندر ؟ والواقع كان

يجهل ان هذا قد عدل عن حملته لما وراء المانش ، فظل ينتظر ويطرح على نفسه هذا السؤال ، عوضاً عن أن يندفع نحو خليج دون القريب لكي يصفي حسابه مع البحرية الانكليزية ، والتي كانت بدورها قد أصبحت خائرة القوى وتفتقر للذخائر افتقارا شديدا • وقد ارتكب خطأ جسيماً بتقاعسه على هذه الصورة على مرأى العدو ومرمى سلاحه • ولقد تحاشت البحرية الالمانية الوقوع في الخطأ ذاته عام ١٩٤٢ عندما اجتازت طراداتها المحاربة بحر الشمال • فقد تسللت شارنهورست غنايسنو وبرنزاوجين في أقصى سرعة ممكنة بين جروف ساحل غرينيه الفرنسي وجروف دوڤر الانكليزي •

استغل تشارلز هوارد هذا الخطأ على أفضل وجه • فقد ذهب أولا للتموّن بالبارود كي يقوم فيما بعد بالهجوم لان الحامية الفرنسية كانت تقف موقف المتفرج من أعالي أسوار مدينة كاليه • فقد عمد هوارد الى تشكيل عمارة صغيرة في ليلة السابع من آب مؤلفة من ثماني سفن للتضحية بها وانطلق مع سفنه اضافة الى حراقات مشحونة بالبارود وبالحديد الخردة • وفي ظلمة الليل وبينما كان يحرس اسطول الارمادا الغافل،القليل من الرجال في انهزيع الاخير من الليل ، انطلقت ثماني رزم « ذات وميض رهيب » منبثقة من وسط البحر • وكان بالامكان أن يميز الانسان السنبوكات الانكليزية التي سحبت الحرّاقات، وهي تبتعد بقوة المجاذيف هذا في حين كانت موجة المد تدفع الاسطول المتوهج نحو الحشد البحري الاسباني اللامبالي •

وهنا استولى الذعر على رجال الاسطول الاسباني، فصدرت الاوامر بالاقلاع الذي تم خلال أكبر قدر من الفوضى ، وتهاوت الفؤوس على الحبال (الكابلات) للافلات من المراسي في أسرع وقت ممكن • وما زالت حتى الآن تتناثر في قاع الخليج بقايا المراسي المتروكة ، وراحت السفن التي كانت تتهالك على بلوغ عرض البحر تتصادم مع بعضها وتتسبب في الكثير من الاضرار • وجنحت سفينة كبيرة على جانبها عند مدخل ميناء كاليه ، وفقد قبطان النقالة « سان لورنزو » وهو غودو مونكاد السيطرة على سفينته التي اشتبكت مع غيرها من السفن فأغلقت الطريق الى الميناء ، وهنا أمطرها اللورد هوارد بقذائفه ، ولما جنحت النقالة على خاصرتها

أصبحت بطاريات مدفعيتها عاجزة عن الرد عليه بمدفعيتها، ورمى البحارة والمجدفون بأنفسهم في البحر في محاولة لبلوغ البر سباحة، وقام السينيور دو غوردان حاكم ميناء كاليه بالتقاطهم بواسطة السنابيك الخفيفة • وقامت المدفعية الساحلية الفرنسية الرابضة في ميناء كاليه بطرد البحارة الانكليز، الذين راحوا ينهبون النقالة «سان لورنزو»، برشقة واحدة، بعد أن قتلوا هوغودو منكادو مع حفنة من ضباطه •

وفي خلال هذا الوقت الذي كان الاسطول الاسباني يتعرض فيه لريح عاتية قادمة من الشمال الغربي أخذت سفينة بالجنوح على رمال دونكرك الساحلية في حالة من الفوضى والذعر • وابتداء من تلك الفترة قضي الامر وتخلصت انكلترا من التهديد وتوجت هامتها بأكاليل النصر •

وبينما كان الأميرال ميدينا سيدونيا يكافح ضد البحرية الانكليزية التي كانت منهمكة في احراق آخر أوقية من بارودها، وضد الريح التي كانت تزداد برودة من ساعة لأخرى بزغ نور فجر اليوم العاشر من المعركة • وهكذا أصبحت سفن « الأرمادا التي لا تقهر » متناثرة على رمال الفلاندر بين مدينة كاليه الفرنسية غرباً وحتى ميناء اوستند البلجيكي شرقاً • واستطاعت سفينتا شحن أن تفلتا من الحصار وتنطلقا الى عرض البحر وهما : « سان فيليب » أي كانت مهشمة لكثرة القذائف التي أصابتها حتى أن ربانها لم يعد قادراً على السيطرة على دفتها، و « الريال » التي انساحت في الاتجاه ذاته •

الأسطول يجر أذيال الهزيمة :

وفي العاشر من آب عاد الانكليز لموانئهم تاركين الأميرال سيدونيا يكافح ضد العاصفة التي كانت تنهش اسطوله • كما كانت السفن فريسة سهلة للرياح الهوجاء، فقد كانت تتلاحم مع بعضها بعضاً وتتراص كقطيع من الخراف المذعورة • وكانت أنبار الذخيرة فارغة تقريباً شأن عنابر الأقوات • وكان الانتظار أكثر من ذلك في مثل هذه الأوضاع ضرباً من الجنون، وشعر الأميرال ميدينا سيدونيا بهذا الوضع تماماً • وعلى أثر جلسة مع الضباط المدعوين الى سفينة الأميرالية أصدر أمره بالاتجاه نحو

طريق العودة الى اسبانيا . ولـم يكن هناك مجال للابحار صعداً في عكس اتجـاه الرياح . وعوضاً عن الالتجاء الى ميناء ايمدن الألماني كما نصحه بعض ضباطه ، أمر بالقيام بحركة التفاف كبيرة حول الجزر البريطانية شمالاً ، وهي مغامرة جنونيـة

– مثال لعمارة بحرية من القرن السادس عشر –

بالنسبة لبحارة اعتادوا على بحار الجنوب • وتناثر الاسطول المتعجرف في الضباب وراح كل يتدبر أمر نفسه بصورة كيفية • ولم يعد قائد « الارمادا التي لا تقهر » يعطي أية أوامر غير « البحث عن الخلاص المستطاع » •

وكانت العودة فوق متن بحر هائج عبارة عن عذاب الموت المرير • فقد استمرت العاصفة مدة أحد عشر يوما وكان الجرحى يتساقطون صرعى بالمئات ، ولم يكن لديهم من ماء للشرب سوى ما يجمعونه من قطرات ماء المطر • وضاعت على طول طريق الانسحاب اللامتناهي بعض وحدات الاسطول التي أصبحت هياكلها تتناثر على السواحل أو اختفت كلية دون أن تترك أثراً بعد غرقها • أما البحارة الذين غرقت سفنهم تجاه الساحل الهولندي فقد كانوا أقل من سواهم تعاسة وبؤساً ، اذ أعتبروا أسرى بكل بساطة ، هذا بينما تهشمت سفن الآخرين مع خسائر في الأرواح تجاه سواحل جزر شتلاند وأوركاد وهبريد في شمالي الجزر البريطانية ، وفي الثامن من أيلول اندفع الناجون في قناة سان جورج الفاصلة بين الجزر الانكليزية وبين ايرلندا لأن الريح اتخذت اتجاهاً شمالياً غربياً • وكان الجوع يتحالف مع الارهاق والعطش • فالتجأت بعض القطع الى السواحل كي تتعرض للنهب على الفور • وهنا اتخذ الضباط الانكليز موقفاً حاسماً ، فهم لا يرغبون في الأسرى ، عندها صدرت الأوامر بقطع رؤوس الجميع • وبعد أن بلغت مسامع السير ريشار بنغهام ، حاكم مدينة كونوت في اولستر ، شمالي ايرلندا أنباء الاعدام الجماعي كتب في مذكراته : «وهكذا وبعد أن أفنيناهم قاطبة خصصنا يوماً كاملاً ، هو يوم الأحد ، لتقديم فرض الشكر لله العلي القدير ... ويا لهم من أناس طيبين •••

وهناك قضية تفصيلية لابد من ايرادها وهي ان الانكليز كانوا يجردون الأسرى الاسبان من ملابسهم قبل اعدامهم حرصاً عليها من التلف والتلوث بالدماء ولكي يستفاد منها فيما بعد • وجاء من بعدهم أناس في تاريخ متأخر وتبنوا الفكرة نفسها في عدد من معسكرات الاعتقال المشؤومة • وكيف لايعيد التاريخ نفسه ؟

وفوق رقعة من ساحل رملي تمتد على مسافة لا تزيد على خمسة أميال في سليغو أمكن تعداد مقدار ١١٠٠ جثة • وقد عثر في أحد التقارير على هذا النص :

« لقدبلغت شدة الارهاق والانهيار بالناجين من الغرق حداً جعل بمقدور رجل واحد أن يقتل بالدبوس ثمانين رجلاً من الجياع ومن المشرفين على الموت » .

وقد هلك في قناة سان جورج نوحدها قرابة ٤٠٠٠ اسباني بعد غرق سفنهم . وقد تمت ابادة عدد لا يقل عن هؤلاء فوق رمال الشواطىء . والسبب ؟ لم يكن لدى الانكليز ما يكفي من السجون لاعتقالهم أو من الجند لحراستهم .

أما النقالة « كونيغا » التي ساقتها الرياح نحو الشمال فلم تنكفىء نحو ايرلندا الا بعد ستة أيام من الابحار . وقد التجأت الى خليج انكليزي ولكن السكان رفضوا امدادها بالمؤن . فهلك ثمانون جندياً وجدافاً من الجوع والعطش . وفي أعقاب غارة فدائية على الساحل أمكن فيها الحصول على بعض الأقوات استأنفت سيرها بحرا وتمكنت من بلوغ ميناء الهافر الفرنسي حيث كان الاستقبال أحسن حالاً الى حد ما .. وهنا قام الفرنسيون باطلاق سراح ثلاثمائة جداف تركي من الذين سقطوا أسرى في معركة ليبانت ، وهم الذين عثر عليهم على متن الناقلة التي جنحت في كاليه . ففكوا قيودهم وأعتقوهم من الأشغال الشاقة .

اسوأ مصير لأعظم حملة :

وفي خاتمة المطاف بلغت الخسارة ثمانين سفينة حربية ، منها عشر سفن فقط أغرقها الانكليز . أما الباقية فقد غرقت أو جنحت بتأثير الرياح والبحر الهائج .

ووصلت الى اسبانيا ست وأربعون سفينة حسب أقوال بعضهم ، أو ثلاث وخمسون كما يقول الآخرون ، الواحدة تلو الأخرى ، في حالة يرثى لها ، تحمل نوتية هلك الكثير منهم أو أضناهم نقص الغذاء . وما لبث الكثيرون من هؤلاء أيضاً أن ماتوا بعد أن هبطوا أرض الوطن .

وكان فشل « الأرمادا التي لا تقهر » كارثة قومية . فقد ناحت كل أسرة على واحد من أفرادها ، اذ هلك في هذه الحملة الفاشلة الرديئة القيادة ستة عشر ألف

رجلاً ولم يلق فيليب الثاني مسؤولية تلك الكارثة على عـاتق ميدينا سيدونيا الذي اعتكف صامتاً ويائساً •

أما الملكة اليزابت فقد كان انتصارها متواضعاً • فبعد أن نسبت الى نفسهـا أحقية هذا الظفر ضربت أول مدالية تحمل عبارة« امرأة تمسك بزمام الأمر » ولكنها لم تغضب العلي القدير عندما أمرت بسك مداليـة ثانية ، كتب عليها «لقد نفخ الرب فتشتتوا » •

لكن ملك اسبانيا لم يقبل بأن تظهر عليه ملامح القنوط العظيم ، فكان يقول: « لقد أرسلت ميدينا سيدونيا ضد الرجال وليس ضد الرياح والبحر • ففيما يصنعه الله ليس فيه من مكسب أو خسارة في الشهرة ، والأجدر ألا نخوض في هذا الحديث اطلاقاً » • تلك فلسفة مطمئنة ولكن هل كان يستسيغها الناجون من المعركة ؟

وتنفست البروتستانتية الصعداء بعد هذا الانذار الساخن • وأخذت البحرية البريطانية بصعود سلم السباق نحو السيادة على وجه البحار • وراحت اسبانيا تنحدر نحـو انحطاطها • وشعرت أوروبا بابتعاد تهديد نظام ملكي عالمي • تلك هي غلطة الريح •

★ ★ ★

ليـــه دون

LES DUNES

ـ ٢١ تشرين الاول ١٦٣٩

هزيمة اسبانية جديدة في سباق السيادة على البحـار :

لم تستطع كارثة « اسطول الارمادا الذي لا يقهر » أن تخمد لـــدى الاسبان رغبتهم في التطلع الى استرداد السيطرة على البحار •

لقد استطاع الهولنديون أن يبسطوا سلطانهـم على البحار الى حد ما ، لان تطور تجارتهم دفعهم الى تقوية اسطولهم الحربي •

ففي عام ١٦٣٩ تمت تعبئة اسطول يضم سبعا وسبعين سفينة اسبانية برتغالية، عقدت رايته لامير البحر دون انطونيو دوكندو ، الذي جعل من السفينة «ساتتياغو» مقرا لقيادته ، وكانت مهمته مواكبة خمسين سفينة شحن وحراستها ، كانت تحمـــل أربعة وعشرين ألفا من القوات المسلحة الذاهبة لمسانـــدة جيش الكاردينال الامـــير الاسباني المحاصر في دنكرك • وكان أمير البحر المذكور واثقا من ان قوته تمكنـــه من اكتساح اسطول المقدم البحري الهولندي ، الذائع الصيت ، مارتن ترومب الذي كان يحاصر ميناء دونكرك وكانت سفينة تحرس مضيق بادوكاليه حتى مدخل بحر المانش لقطع الطريق على القوات الوافدة لفك الحصار عن قوات الامير الاســـباني المذكـــور •

وفي السادس عشر من شهر ايلول ١٦٣٩ ظهر الاسطول الاسباني ، تجاه ساحل ميناء سلسي بيل الواقع على مسافة اثني عشر ميلا شرقي ميناء « بورتسماوث » • وسرعان ما اكتشفه مارتن ترومب الذي عمد على الفـــور الى استعراض قواته التي

كانت تضم سبع عشرة سفينة حربية ، وأدرك أن على كل واحدة من سفنه التصدي والاستعداد لمنازلة خمس سفن معادية ، ولكنه كان شديد الثقة برجـاله ! ، وهكذا اتخذ قرارا بمباشرة العدو بالهجوم ، وكان قد اتخذ من السفينة الحربية « آميليا » مركز قيادة عملياته ، والتي كانت مزودة بستة وخمسين مدفعا ، وهي سفينة حديثة أنزلت الى البحر قبل عامين من الزمن في ميناء روتردام • وهنا أصيب أوكندو بالذهول لجرأة هذه القوات الصغيرة ، فتصدى لها ، وربما سيفلح في تطويق الهولنديين ، لولا أن اصابة لحقت بسفينته الخاصة ، وتسببت بأضرار كبيرة • وهنا أصبحت المعركة حامية الوطيس ، وأظهر الفريقان بسالة تثير الاعجاب • وهنا خطر على بال اوكندو ، بأن خصمه ترومب ، لم يكن ليتصرف بمثل هذا الاقدام ، لولم يكن متأكدا بأنه سيتلقى امدادات اضافية وبسرعة كبيرة جدا ، وهكذا تخلى عن الامل في احتمال الفوز في المعركة • واستغل فرصة تكاثف الضباب الذي أدى الى شلل الاشتباك ، وأصدر أمره بحشد عناصر اسطوله في مرسى ليه دون قرب ميناء دوفر ، حيث يمكنه تجميع قواته ، وان يتناقش مع قواده بقصد اصدار تعليماته التعبوية قبل نشوب المعركة التي لا محيد عنها والتي ستسمح له فيما بعد بالوصول الى دونكرك وفك الحصار •

ولما وصل الى ليهدون ، وجد في المرسى اسطولا انكليزيا بقيادة السير جون بينينغتون الذي كان حياده يمنعه من التدخل • وكان وضعا حرجا ومتوترا ، لان عواطف البحارة والشعب الانكليزي كانت متجهة نحو الهولنديين ، رغم جهود الملك شارل الاول وبلاطه الرامية لدعم الاسبان •

انتظار لا يغتفر :

في الوقت الذي كان فيه دوكندو ، الذي يتحمل طيشه الكثير من المسؤولية ، يقوم بتزويد اسطوله بما يحتاج اليه من أقوات ومياه ، كان ترومب يشدد الحراسة، ويقوم بتعبئة كل ما يمكن أن يعوم فوق سطح الماء فضلا عن أكبر قدر من الذخائر • وكانت الايام تمر وتتلوها الاسابيع دون أن يحرك أوكندو ساكناً ، ودون أن يدرك ان احتمالات خروجه من المرسى تتضاءل يوما بعد يوم ، وأن قوات مارتن ترومب

كانت في حالة نماء مستمر ، وهكذا وبعـد فترة قصيرة ، ارتفع عـدد سفنه السبع عشرة فأصبح ثلاثين ، ثم خمسين ، ثم مائه ...

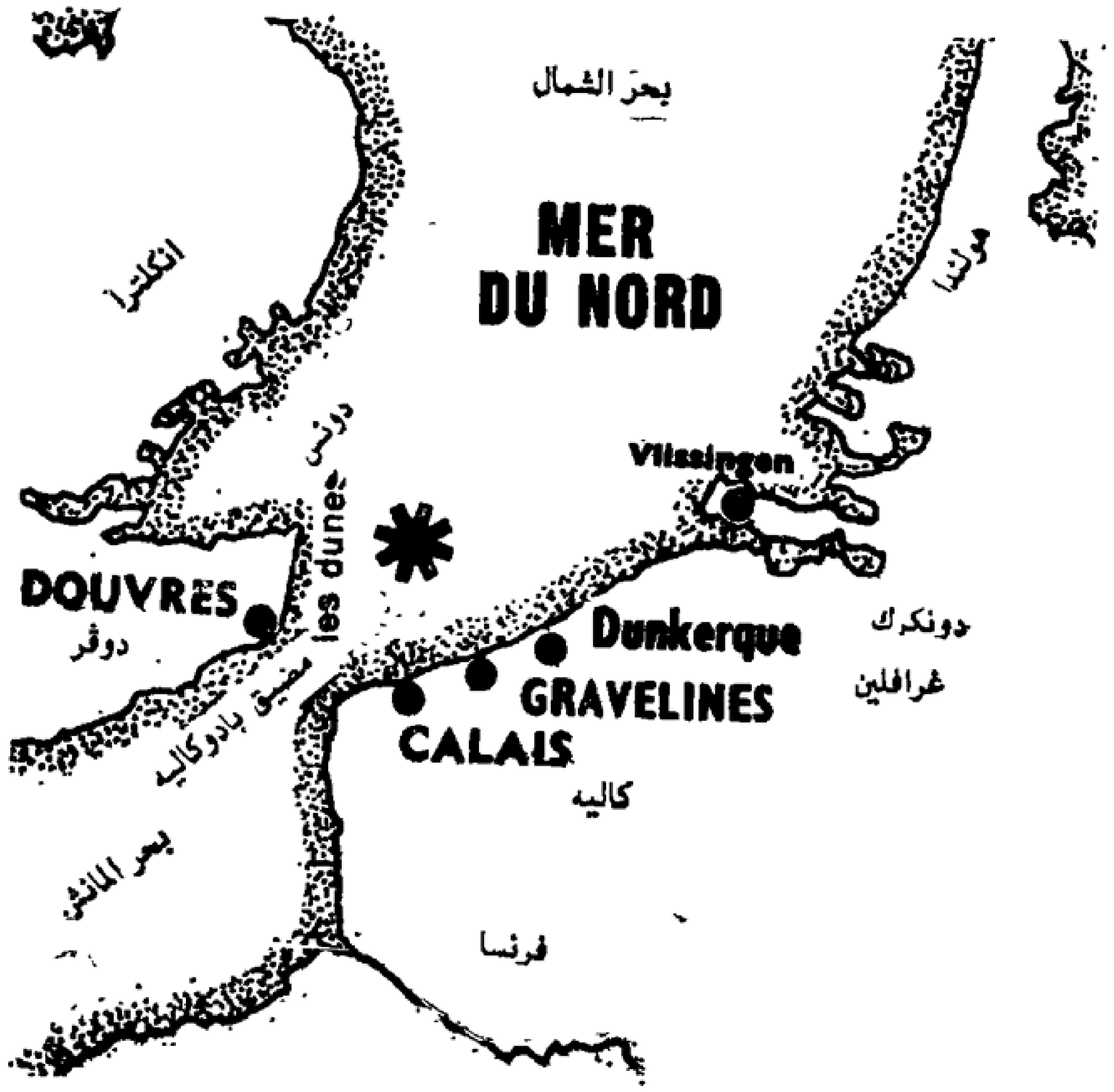

وكان الواجب يقضي على دوكندو أن ينطلق من مكمنه منذ زمن بعيد ، أضف الى ذلك ،أنه كان ينوء من عبء الكثير من سفنه التي كانت مـن ناقلات الجنود ، والتي لم تكن مؤهلة لاية مجابهة بحرية ، ولهذا لا يكون التفوق العددي دوما كافيا لكسب المعارك .

أما مارتن ترومب فقـد كان متفائلا ، وقد صرح لأحـد الضباط الانكليز : « سأستولي على السفن الاسبانية وعلى الشيطان أن يهتم بمصير بحارتها » .

وفي ٢١ تشرين الاول وجد ترومب أن فرصة الانقضاض قد سنحت ، وذلك بعد أن اكتملت قواته عددا وعدة ، ولهبوب ريح طيبة ولرداءة وضع خصمه ، فهاجم .

ولما كان يتميز بالحذر والحنكة ، فقد ترك ثلاثين سفينة بقيادة الاميرال ويتدو ويت لمراقبة الاسطول الانكليزي من طرف خفي ، هذا اذا ما خطر على بال قائده أن يدلي بدلوه بين الدلاء ، وينخرط في المعمعة . والواقع أن الاسطول المذكور لم يتحرك ، كما ان ملك بريطانيا شارل الاول كان يتحرق غضبا عندما بلغته أنباء هذا المسلك. غير أن الاميرال الانكليزي بينينغتون لم يكن قادرا على التصرف دون أوامر . فدولته لم تكن رسميا في حالة حرب معلنة ، وليس من اختصاصه أن يسهم في هذه الحرب.

وهكذا اندفع مارتن ترومب نحو الاسطول الاسباني الغافل وكان النصر ساحقا . ذلك أن أسطول دوكندو ، لم يتخذ أي وضع من الاوضاع التعبوية التي تسمح له بدفع المهاجمين ، مهما كانت الجهة التي يندفعون منها . وهكذا تم القضاء على أكثر من أربعين سفينة حربية ، منها سفينة اللواء البحري أمير غاليسيا ، بالاضافة الى نقالة برتغالية كبيرة مزودة بثمانين مدفعا على متنها الف واربعمائة مقاتل . أما السفن التي لم يتم اغراقها فقد سقطت غنيمة باردة في أيدي ترومب وبحارته ،هذا بينما جنحت على الساحل احدى وعشرون سفينة دون أمل كبير في تعويمها ، وان كان الانكليز قد استطاعوا انقاذ بضع سفن منها .

وقد هلك سبعة آلاف اسباني ، منهم بضع مئات في حريق سفينة ضخمة هي « سان تيريزا » في حين سقط بالاسر ألفان منهم . أما الهولنديون فلم يصابوا الا بخسائر بسيطة ، اذ سقط بضعة قتلى ومثلهم من الجرحى وغرقت سفينة واحدة . وعاد ترومب أدراجه مكللا بالغار . يجر في موكبه ست عشرة سفينة حربية اسبانية، واستقبل استقبال الابطال في روتردام . وبعد عدة أيام منحته زوجته طفلة ونال أذنا بتسميتها « آنا ماريا فكتوريا مارتنسيس ترومبنسيس دونينسيس » تخليداً لذكرى معركته المظفرة . أما دوكندو فلم يدخل ميناء دونكرك الا على رأس ثلاث عشرة سفينة فقط من اسطوله . أما سفينة « سانتياغو » التي كانت مقر قيادته فقد استهدفتها ١٧٠٠ قذيفة من كل المقاييس . وبعد فترة عاد الى اسبانيا بصورة محزنة، مثلما عاد قبل نصف قرن مضى القائد الاسباني ميدينا سيدونيا . وهناك قص على الملك فيليب الرابع قصة فشل المهمة التي عهد بها اليه . وبذلك تلقت البحرية الاسبانية ضربتها القاتلة ، وتنازلت ، الى غير رجعة ، عن زعامتها على سطح البحار .

أما انكلترا فقد اعتبرت هذا الموقف كافيا لاعـلان حرب شكلا وموضوعا • وأعلنت حكومـة « الجمهورية الانكليزية » الحرب بتاريـخ ١٧ تموز ، وتدفعنا الحقيقة الى القول بأن ما من أحـد كان يتوقع اليوم المذكور للانتقال الى ميـدان العمـل •

ومنذ اليوم الاول من تموز امتطى بلايك متن البحر على رأس اسطول مؤلف من ثمان وستين سفينة شراعية باتجاه جزر اوركاد وشتلاند الشمالية ، حيث عثر على سفن صيد هولندية ، كانت فعلا بلا حماية ، فأخذ قرابة مائة مركب غصبا ، ولم يخل سبيل بعضها الا بعد دفع الغرامة المفروضة •

وقد كان الحادث مؤسفا لان تجارة سمك الرنجة كانت تؤلف تجارة كبيرة ، تؤمن معيشة شطر كبير من السكان• فقد كانت هولندا ترسل أكثر من ١٠٠٠مركب صيد الى جانب عدد من السفن ، كانت تبيع أسماك الرنجة المملحة في معظم أسواق دول أوروبة• وكانت هذه التجارة توفر معيشة أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ نسمة • وتحقق عوائد ضخمة لخزينة الدولة •

وفي هذه الاثناء كان السير جورج آيسكوه ينقض تجاه رأس غرينيه الواقـع على مضيق بادوكاليه ، على قافـلة هولندية بتاريخ ١٣ تموز • فأسـر سبع سفن ، وأجبر البقية على الجنوح على ساحل بيكاردي القريب من كاليه ، وانكفأ مع سفنه ليربض في صدر مرسى ليه دون •

غير أن هذه الاهانة لا يمكنها أن تمر بسلام • فقد استطاع مارتن ترومب ان يلحق الهزيمة بآيسكوه تجاه ميناء ديل • غير أن الرياح المعاكسة حالت دون تحقيق رغبته في الانقضاض • فترك أشرعة أسطوله لرحمة الرياح وقرر ملاقاة بلايك في بحر الشمال ، لكنه لم يعثر عليه • وبـين الثالث والسادس مـن شهر آب باغتته عاصفة هوجاء أطاحت بصواري اسطوله • وعاد الاسطول أدراجه منهكا واستقبل بفتور• لان الشعب كان ينتظر منه بلاغاً عن النصر • وقد دفع هذا الفشل الذي أضيفت اليه خسارة سفينتين في قضية دوفر ، والاستياء الذي نجم عن اعلان الحرب ، كل ذلك

دفع حكومة « الولايات العامة » الهولندية الى الاستعاضة عن ترومب برويتر في قيادة الاسطول • لكن القائد « المعزول » أعيد بعد بضعة أشهر الى مركزه وثأر لفشله السابق ، ولكننا لسنا في معرض ذلك الآن •

وفي السادس والعشرين من شهر آب ، هاجم رويتر الذي كانت رايته تخفق فوق السفينة « بنتون » آيسكوه تجاه بلايموث ، على رأس ثلاث وعشرين سفينة حربية واستمر العراك طيلة فترة بعد الظهيرة ، وقد نتج عن ذلك الكثير من الضجيج ولكن القليل من الاضرار • واضطر آيسكوه الى خوض معركة بائسة أخرى في آخر الشهر التالي وكانت بدورها غير حاسمة كذلك •

وفي الثامن من تشرين الاول باغت بلايك ، بدوره ، والذي كان على رأس خمس وعشرين سفينة ، اسطول الاميرال دو ويت أمام مرسى ليه دون ، عند مدخل مضيق بادوكاليه وهزمه ، وكانت عودة الناجين باعثة على الاسى • ويقول الاميرال دو ويت في تقريره : « لم يسبق لي اطلاقا ان رأيت قادة بحريين جبناء، مثل ضباطي »، ولكنه كان صادقا مع نفسه عندما اعترف بأن الاسطول الانكليزي ، الذي كان يعادل اسطوله عددا تقريبا ، كان يتفوق عليه من حيث التسليح وقوة تكوينه الذاتية •

وهكذا كانت أمور انكلترا لا تسير بصورة سيئة • اذن ما تنتظر حكومة « الاقاليم المتحدة » الهولندية كي ترد بشكل أفضل ؟

ارمادا سائرة نحو مضيق بادوكاليه :

وعملت هولندا ، بتريث ، على دعم قواتها البحرية ، ولكن عندما علمت بأن الانكليز ، الشديدي الثقة بأنفسهم ، قد أخذوا بتجريد قسم من اسطولهم من سلاحه بسبب حلول فصل الشتاء ، وكتدابير اقتصادية ، شعرت بأن ساعة العمل قد أزفت• ولما كان مارتن ترومب لا يزال متمتعا بحب ضباطه وبحارته ، فقد استدعته السلطات المسؤولة للخدمة مجددا • وعمد في السادس من كانون الاول الى اتخاذ السفينة « بريدروت » مقرا لقيادته ، ورفع عليها رايته في طليعة اسطول « أرمادا » وأقلع

ألفي قتيل وجريح في الوقت الذي قتل من صفوف رجال ترومب ستمائة رجـل • وعملت البحرية الهولندية ، التي كانت الحاجة تقضي بتجهيزها بسفن حديثة، خلال الاشهر التي تلت ، على جعل الملاحة مريرة أمام الاسطول الانكليزي لشدةمضايقتها لـه ، فكانت تهاجمه دون هوادة ، وأحيانا على مرأى من قصر مدينة دوفر • وفـي تاريخ ١٦ حزيران ، وحوالي الساعة الحادية عشـرة ، نشبت معركة استمرت حتى هبوط الليل ، تجابهت خلالها مائة وعشر سفن يقودها مونك تجاه ميناء نيوبور ضد ثمان وتسعين سفينة ، أصغر ابعادا ، يقودها ترومب • واستؤنفت الاشتباكات فـي اليوم التالي ، ولكن أصبح تقرير مصير المعركة فيهذه المرة بأيدي الانكليز• وخسر ترومب عشر سفن ، وسقط الف وثلاثمائة وخمسون رجلا من قواته بالاسر ، حتى لقد اضطر أن يمطر الهاربين بوابـل من قـذائف مدافعه كي يردهـم للاشتراك في المعركة •

وعند عودته الى ميناء فلسينغ في جنوب هولندا ، تبادل أطراف الحديث مـع النواب الذين أوفدتهم حكومة « الولايات العامة » الهولندية وقال لهم : « لم يكن من المستطاع عمل شيء ملموس في هذه الحرب دون تلقي دعم مؤلف من العديد من السفن الجيدة التجهيز » • وأضاف قائلا « يوجد في الاسطول الانكليزي أكثر من خمسين سفينة أصغرها أكبر من سفينتي ، وكان في اسطولي أكثر من ثلاثين سفينـة غير مهيئة اطلاقا للصمود أمام سفن العدو ، التيكانت أكبر منها حجما وأكثر قوة»•

وفي الساعة الرابعة عشرة ، وبعد أن اخترق الهولنديون صفوف الانكليز أربع مرات ، وبعد تحطم كمية كبيرة من الصواريمن الجانبين ، خارت قوى الاسطولين، وأصبحت سفنهما تجري على غير هـدى ، وانسحبا مـن المعركة • وراح كل طرف ينسب لنفسه احراز النصـر • ولكن النتيجة كانت تدمـير عشرين سفينة حربيـة انكليزية وسقوط اربعمائة قتيل منهم ثمانية من قباطنة السفن وخمسمائة جريح، في حين أحصى الهولنديون خسائرهم التي بلغت عشر سفن حربية ومثل عـدد القتلى والجرحى في صفوف الانكليز •

وبعد عشرة شهور جرى التوقيع على معاهدة السلام بين الفريقين •

وفي الثامن من آب ، وقعت معركة جديدة أمام كاتويك ، استمرت من الساعة الحادية عشرة حتى غروب الشمس • وفي صبيحة اليوم التالي هبت ريح صرصرعاتية شلت حركة الاسطولين المتحاربين • وفي العاشر منه استأنف الاسطولان الحرب على مسافة خمسة فراسخ من ميناء شينينغن ، واندفع ترومب ليخترق صفوف العدو على متن سفينته « بريدردت » في الوقت الذي أصيب فيه بجرح قاتل في صدره نتيجة طلقة طبنجة ، أطلقت عليه من فرقاطة انكليزية • وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، كان لديه ما يكفي من القوة ليقول : « تشجعوا يا أولادي ، اعملوا ما تستطيعون ، كي تجعلوا نهايتي مجيدة ، مثلما كانت حياتي » وكان عمره ستاً وخمسين سنة • وقد دفن في ضريح من رخام أبيض في كنيسة دلفت •

★ ★ ★

شارل الثاني ملك انكلترا .

أما في الصفوف الهولندية فقد ساد الارتباك ، الذي استفحل بسبب مصـرع كورتناير ، الذي قتلته قذيفة بينما كان يحاول أن يشغل مكان فاسناير . ونظراً لاعتقاد كورنيليوس ترومب بأنه أقدم ضابط برتبة جنرال على قيد الحياة ، فقد أخـذ على عاتقه قيادة السفن التي لم شملها حوله ، هذا في حين كان ايفرتزن يقوم بالعمل ذاته من جانبه . وساد الهرج أيضا عندما ارتطمت ثلاث سفن هولندية ببعضها البعض ، مما جعلها تعجز عن تحاشي حرّاقة معادية ، فسرت النيران من سفينة لاخرى وغرقت في الوقت نفسه الذي كانت تغوص فيه أربـع سفن أخرى ، كانت ضحيـة نـيران الحراقات .

فقد كانت الحراقة لاتزال في ذلك العصر تعتبر أفضل سلاح لارسال الخصم في اتجاه قاع البحر ، أما القذيفة من عيار ١٥ ، أو ٢٠ ، وحتى ٣٠ كيلو غرام ، فقـد كانت قادرة على نشر الموت بين بحارة السطح والتخريب في البنى العليـا للسفن ،

ولكنها لم تكن كافية لخرق بدن السفينة بحيث تتسبب في غرقها ». وكان من الممكن سد منافذ المياه ، ولبلوغ النتيجة الحاسمة ، كان يتم اختيار البرهة التي يفقد فيهـا الخصم حرية المناورة : كحالة تحطم الصواري ، أو تعطل مقبض الدفّة ، أو اقتلاع الدفة ذاتهـا ، والانقضاض عليه مع ريح موائمة ، أو العمـل على الصاق سفينـة

الدوق بوفور : قائد الاسطول الفرنسي في البحر الابيض المتوسط

كان في منتهى الشدة • وعندما غير مونك اتجاهه لتحاشي رمـال ساحل الفلانـدر حيث خشي ان يتعرض لرشقات من القلاع الساحلية ، كان اسطوله قد ناله الكثـير من العنت والارهاق • وهنا قرر رويتر استغلال أرجحيته بالنيل من مؤخرة الاسطول الانكليزي التي كانت بحاجة لبعض الوقت كي تلتحق ببقية السفن • وهكذا استطاع أن يعزل وان ينفرد بثلاث أو أربع سفن حربية صفّى معهـا حسابه • وقـد قاومت

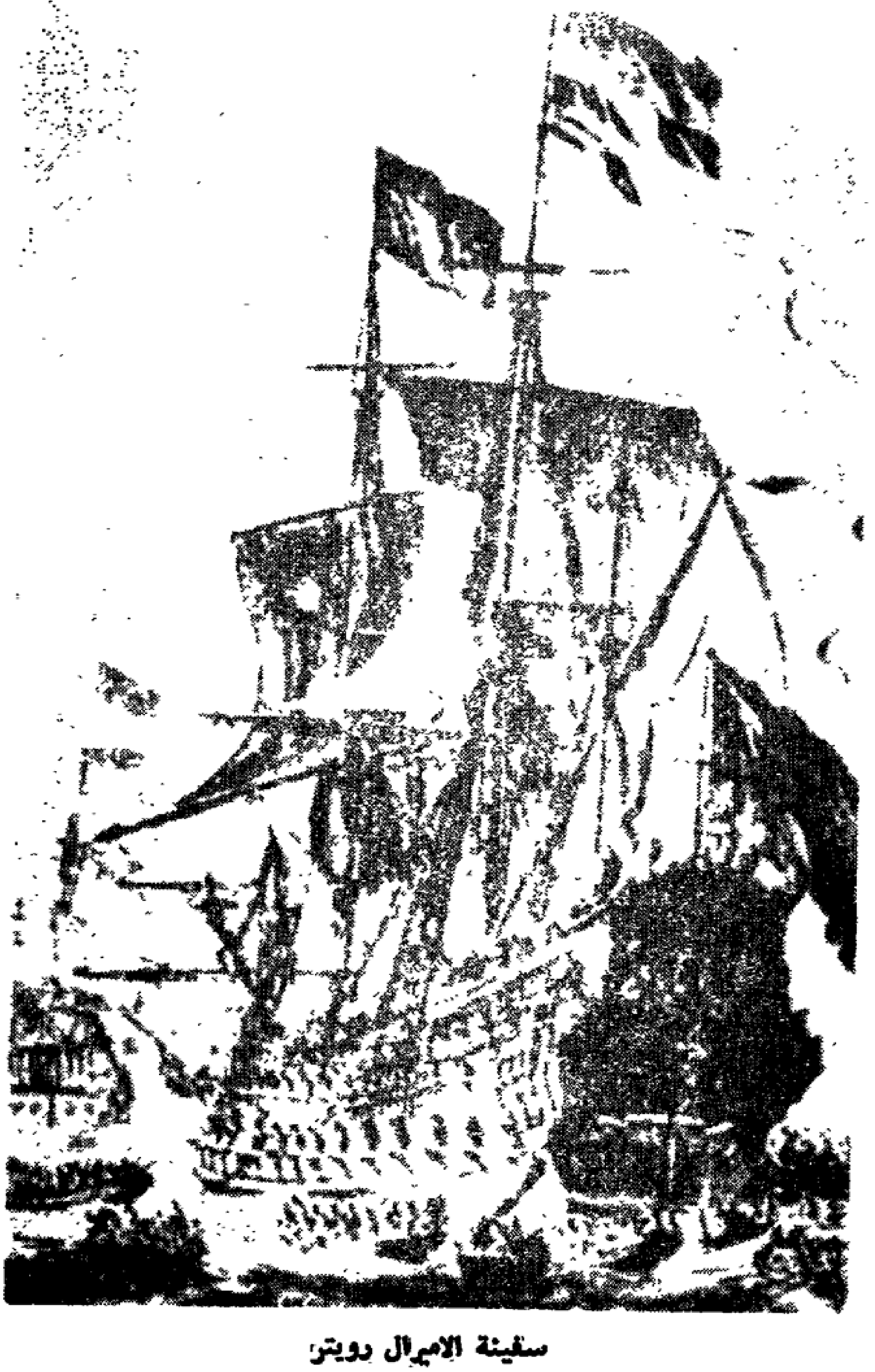

سفينة الاميرال رويتر

السفينة سويفتشور المسلحة بسبعين مدفعاً ، والتي تحمل ٣٨٠ رجلاً ، قاومت بضراوة الاسود في وجه بضع سفن معادية • ولم تخمد مقاومتها الا عندما أصيب قائدها اللواء البحري السير ويليام بركلي بجرح قاتل من رصاصة طبنجة أصابت منه الحلقوم • كما استطاع رويتر أن يأسر سفينتين هما فيديل جورج وتحمل ٤٤ مدفعاً وسفينة مساعدة مسلحة بستين مدفعاً •

وهناك مقاومة أخرى مجيدة أبدتها السفينة هنري الذي كان العميد البحري جون هارمان يرفع فوقها رايته • فقد ربط الهولنديون بميمنتها أول حراقة • وعندها قفز ملازم في وسط اللهب وقطع الحبال • وجاءت حراقة ثانية والتحمت بها وتصاعدت ألسنة الحريق من فوق السفينة • وهنا سيطر الذعر على البحارة الذين راحوا يرمون بأنفسهم في البحر ، ولكن جون هارمان اعترضهم شاهراً سيفه • وبذلك أمكنت السيطرة على الحريق الثاني عملياً • وعندما ، اقتربت الحراقة الثالثة استطاع رماته إغراقها بطلقات المدافع • ولما شعر ايفرتزن ان قوى خصمه قد خارت اقترب منه ونادى عليه كي يناشده التسليم ، غير أن هارمان ، الذي كان متمدداً في الشرفة العليا من سفينته ، بعد أن انكسرت ساقه بسبب سقوط عارضة الساري التي بترتها قذيفة هولندية ، أجابه : « لم أصل بعد لمثل هذا الموقف » وعزز جوابه برشقة من مدافعه • وأصابت احدى القذائف الاميرال الهولندي بضربة قاتلة • أضف الى ذلك ان السفينة « هنري » التي جُرِّدت من سلاحها بعد أن غدت نصف محترقة ، تمكنت من اللجوء الى ميناء هارويش ، شمال شرق لندن •

وبموت ايفرتزن خسر الهولنديون ضابطاً آخر هو فريدريك ستاشوير • أما كورنيليوس ترومب فقد اضطر للانتقال الى السفينة بروفنس دو ترخت ، التي كانت سفينة العميد البحري اسحق سويرز ، بعد ان تعرضت سفينته هولندا ، الى عطب شديد • هذا كما لم يكن رويتر في وضع أفضل • وهكذا خسر كل معسكر سفينتين أو ثلاث ، وذلك عندما توقفت المعركة حوالي الساعة ٢٢ ليلاً • وقد جرى استغلال الظلام لضم الشمل ، ولاصلاح الاضرار ، ولرأب خروق السفن والاستعداد للهجوم في اليوم التالي •

سقوط الاميرال آيسكوه بالاسر :

وعند بزوغ الفجر استأنف مونك هجومه • وقد كان يتفوق بما معه من أربع وأربعين سفينة ظلت سليمة على خصمه الذي كانت سفنــه الثمانون الرديئة التأهب تضايق بعضها البعض • ولما كان يتمتع بمزية هبوب الريح المناسبة لاشرعته فقدراح يسدد ضرباته الضامّة لاسطول كورنيليوس ترومب الذي كان يحاول دون نجــاح الانتقال ليكون في اتجاه الريح مما أدى الى انقطاعه عن اسطول رويتر ، وأعقبذلك بلبلة حقيقية • ولما وصلت مسامع رويتر أصوات القصف الحــاد ورأى أن ترومب في ورطة، اندفع لنجدته وانخرطفيالمعمعة قبل أنيتمكن من اتخاذ وضعية تكتيكية• ولو لم يكن الانكليز أقل منخصومهم عددياً لاستطاعوا أنيفتكوا فتكاً ذريعاً بذلك « القطيع » المؤلف من سفن عديمة النظام ، والعاجزة عن القيام بأية مناورة حاذقة • ولقد تميز مونك غيظاً من هذا الوضع ولكن أبسط قواعد الحذر كانت تملي عليــه أن يقوم بالانسحاب • وعندما هبط الليل استطاع أن يلجأ الى الساحل دونخسائر كبــيرة •

وفي هذه الكرة أيضا خسر كل فريق ثلاث سفــن ، وفجع الهولنديون بثــالث أميرال ، هو ابراهام فان درهوست وهو من العاملين في اسطول ترومب • وفي اليوم

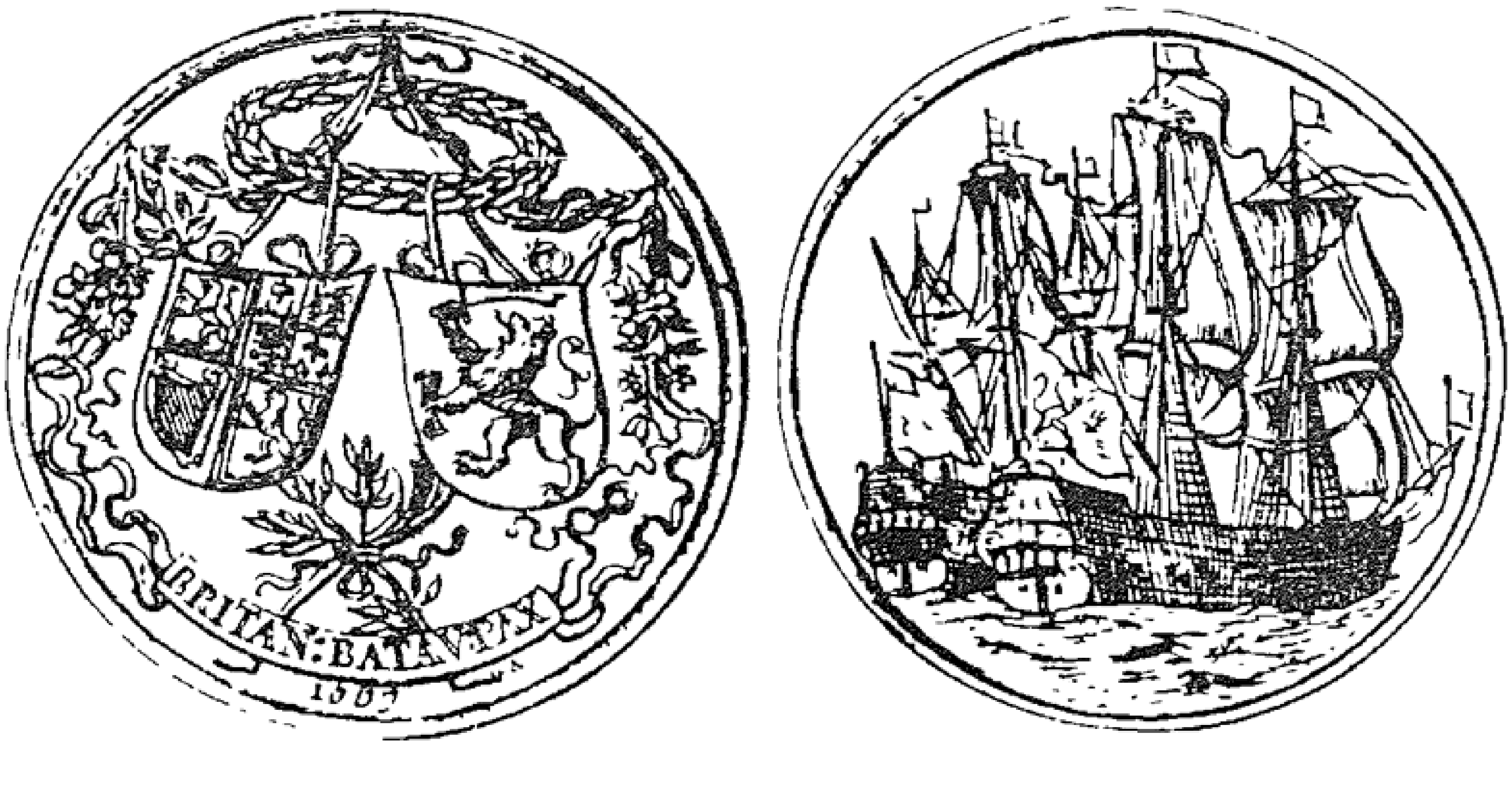

صورة رقم (٥) مدالية لماهدة بريدا للصلح : الى اليمين سفينتان احداهما انكليزية والاخرى هولندية والى اليسار شعار انكلترا وهولندا يرمزان للسلام في عام ١٥٦٧ .

الثالث كانت الريح شرقية واستؤنفت المعركة في الساعة الثانية بينما كان مونك يضم شمل السفن التي مازالت قادرة على خوض المعركة وعددها ثمان وعشرون • وكان ينتظر بفارغ الصبر وصول الامير روبرت الذي عبأ كل أشرعته من أجل اللحاق بمونك ، ولكن كان عليه أن يقطع كل بحر المانش ، اذ سبق أن عُهد إليه ، وهذا من سوء التدبير ، بمهمة اعتراض عمارة فرنسية •• كانت محتمية بميناء لاروشيل على ساحل فرنسا الغربي •

وفي يوم ١٣ حزيران هذا ، وهو يوم عيد العنصرة ، استطاع الهولنديون ان يستولوا على غنيمة رائعة ، اذ استحوذوا على رويال برنس المسلحة بمائة مدفع ، وتحمل ٦٢٠ مقاتلا ، وعليها راية السير جورج أيسكوه • والواقع لقد كانت هذه السفينة الضخمة ضحية الضباب الكثيف مما جعلها تجنح على رمال غالوبر الساحلية في المضيق • وبعد أن أحاط بها الاعداء من كل جانب قامت بكل ما يمكن القيام به للمقاومة • ويشهد عدد القتلى الجسيم ، من الذين تساقطوا على متنها ، على حدة المعارك قبل انزال الراية من فوق ساريتها • وأرسل السير جورج آيسكوه أسيراً الى لاهاي • وقد تمنى ترومب اقتياد الرويال برنس الى هولندا ، ولكن رويتر لم يرغب في ضياع الوقت فجعلها فريسة حريق ، لانه كان يخشى أمراً ما • والحقيقة لقد أنبأه المراقبون عن وجود أشرعة تلوح في الافق • ترى هل هي سفن أعداء أم

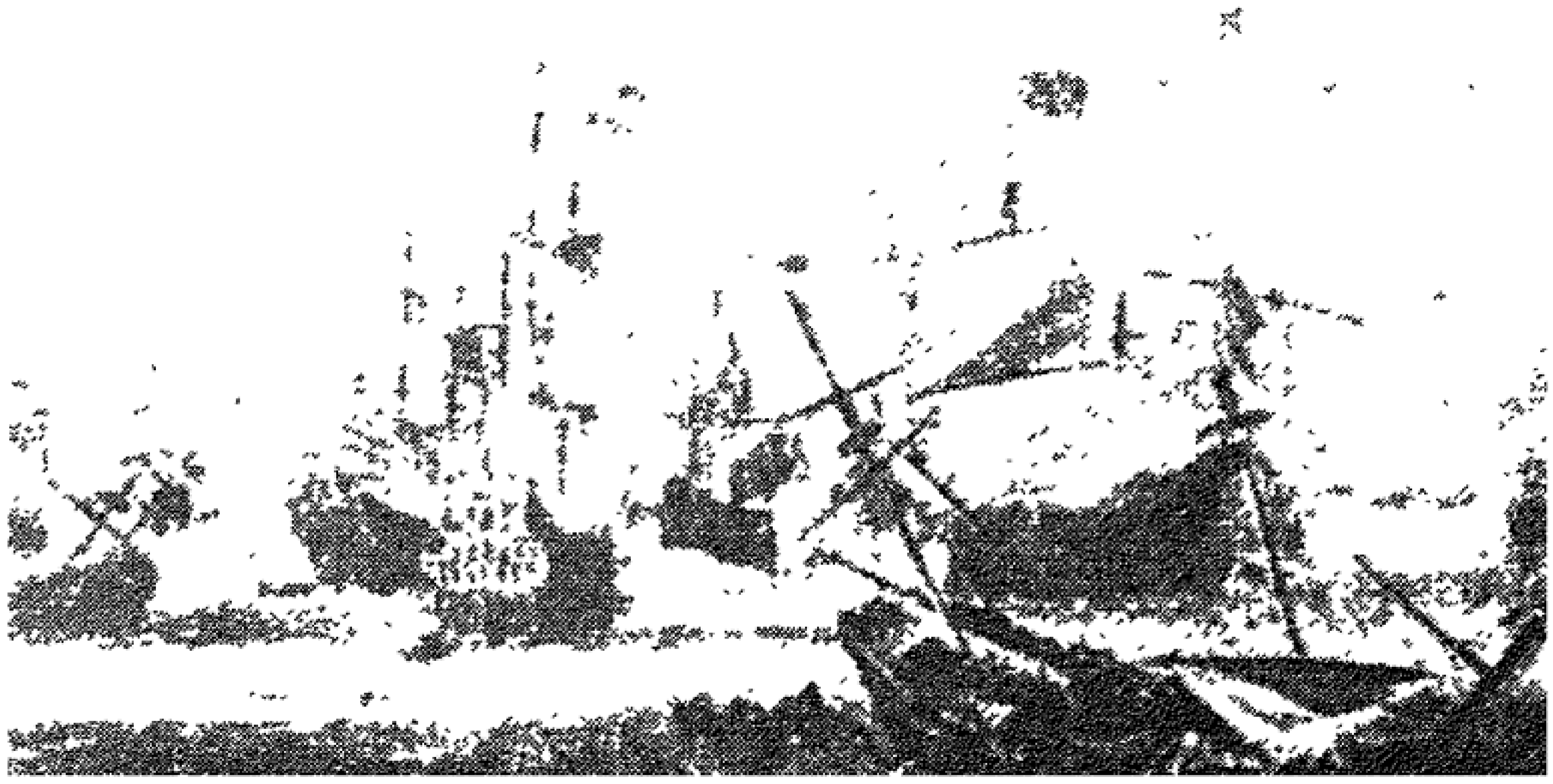

منظر لاحد فصول معركة الايام الاربعة

أصدقاء ؟ هل هو بوفور ؟ أم هل هـو روبرت ؟ نعم لقد كان هو روبرت الذي جـاء يحمل دماً جديداً على رأس أسطوله المؤلف من اثنين وعشرين سفينة لعمارة مونـك المنهكة القوى • غير ان الهولنديين الذين كان اسطولهم قد ناله قدر لا بأس به مـن الاضرار رفضوا إخلاء ساحة المعركة •

الانكليز يختفون في غياهب الضباب :

لقد كان اليوم الرابع والاخير من المعركة مكرّسا لتراشق حاد بالمدفعية مـع الانكليز • ففي البداية تجابه الاسطولان على شكل خطين متوازيين ، ثم التحما عندما أعطت الراية الحمراء، التي رفعها رويتر فوق ساريته، اشارة الهجوم العام وعند العصر، وعلى اثر ضباب كثيف اكتنف الافق ، على شكل سحب منخفضة مواتية ، انسحب الانكليز • وفي فجر الخامس عشر من حزيران ومع انبلاج النـور وجد الهولنديون البحر خالياً ، وعندها أصدر رويتر أوامر اشارة الانسحاب لاسطوله ، الذي كان في حالة تعيسة ، والاتجاه شرقاً نحو ميناء ڤيلنغن •

وقد خرج الهولنديون راضين عن نتيجة المعركة لانهـم اذا كانوا قد خسـروا ثمانمائة رجل فانهم أوقعوا بالانكليز خسائر أكثر جسامة بكثير ، وربما كانوا مبالغين بتقدير خسائر البريطانيين بحوالي ٦٠٠٠ رجل ، منهم ألف قتيل ، و ١٢٤٠ جريـح، و ٣٠٠٠ أسير ، ولكنهم لم يكونوا بعيدين جداً عن الواقـع ، اذ خسـرت البحرية الانكليزية ٢٣ سفينة منها ١٧ بين محروقة أو غارقة • وجرى أسْرُ ست سفن • بيد أن الانكليز لم يقبلوا بالاقرار بهزيمتهم فقامـوا بصلوات شكر في الكنائس مثلمـا أوقدت نيران الفرح في الطرقات • بيد أن مونك والامير روبرت لم يفلحا بأسر أيـة سفينة معادية ولم يعودوا بأكثر من عدد زهيد من الاسرى • ولكن كان من الضروري رفع معنوية السكان خشية عدم العثور على بحارة يتطوعون بالعمل في الاسطـول لتعويض اولئك الذين هلكوا والذين اقتيدوا أسرى الى هولندا •

وهنأت حكومة « الولايات العامة الهولندية » رويتر على بسالته وعلى سلوكه المشرف • وقد أجاب الاميرال بأنه كان باستطاعته الثبات مدة أطول على سطح البحر

لو لم تعمل المعركة التي استغرقت أربعة أيام على ارهاق اسطوله وقلّصت ذخـائره الى حدّ كبير ، ولا سيما مخزوناته من بارود المدافع • وقد كان لمأثرته البحرية صدى واسع في أوروبا كما تمتع الاسطول الهولندي بشهرة لم يرق اليها اطلاقا من قبل •

وقد كتب رسالة رفعها الى ڤان بونينغ رئيس المجلس التنفيذي الهولندي يقول فيها : «منذ بضعة قرون لم يسمع أحـد بمعركة نشبت فوق المحيط من مثل هذه ، مثلما لا نستطيع أن نفي الحـزم وحسن السلوك والشجاعة البطولية ، التي وجهت العمل الحربي ، حق قدره من الثناء ، والذي ختم المعركة بصورة سعيدة جداً » •

وبعد عام كامل ، ودون أن تنشب أية معركة بحرية كبرى من جديد ــ هـذا فيما عدا محاولة جريئة قام بها الهولنديون لدخول نهر التاميز ــ جاءت معاهدة بريدا في ٢١ تموز ١٦٦٧ لتضع خاتمة للحروب الهولندية الانكليزية • ومرت خمسة أعوام كاملة قبل أن تسمع أذنا رويتر ، من جـديد ، صفير القذائف ، وقبل أن يتعرف على الذي كان له القول الفصل في النهاية ، وهو الماركيز ابراهام دوكن ، أمـير بوشيه ، والقائد العام لقوات الملك لويس الخامس عشر البحرية •

آغوسطا

ـ ٢٢ نيسان ١٦٧٦ م

الاميرال الفرنسي ابراهام دوكن(١) يفرض إرادته :

في السابع من نيسان ١٦٧٢ ، انضمت فرنسا الى جانب انكلترا في اعلانها الحرب على هولندا . ولكي نكون منصفين نقول : ان الملك لويس الرابع عشر ، كان يتحين الفرص لمثل هذه الحرب التي عمل بصورة مباشرة على انجاحها . وهكذا تحالفت أكبر دولة عسكرية مع أكبر دولة بحرية ... ويبدو أن الوضع الهولندي كان رديئا من البداية .

هكذا أعادت « الولايات العامة » الهولندية لرويتر قيادة الاسطول مع مرتبة ليوتنان أميرال جنرال. ومع أن رويتر كان يبلغ الخامسة والستين من العمر، فقد كان

---

(١) الماركيز ابراهام دوكن : قائد بحري فرنسي شهير ، ولد في دييب على بحر المانش في عام ١٦١٠ م ، ومات في باريس عام ١٦٨٨ . اشترك في أكثر المعارك البحرية خلال حرب الثلاثين عاما ، وهزم البحرية اسبانية في موقعة غيتاريا ١٦٣٨ ، وبعد أن خدم في البحرية السويدية ، أصبح القائد العام للبحرية الفرنسية في عام ١٦٦٧ ، واشترك في حرب هولندا وانتزع من منافسه في الامجاد العسكرية البحرية، رويتر ، معركة سترومبولي في ١٥٧٥ ثم أرسل في مهمة لردع رجال البحرية المغاربة فقصف طرابلس الغرب في عام ١٦٨١ ، وفي العام التالي قصف مدينة الجزائر ، ثم ضرب ميناء جنوا في عام ١٦٨٤ حليفة الاسبان ، وكان بروتستانتيا متحمسا ، ولكن لم تطاله نتائج الغاء مرسوم نانت ضد البروتستان ، فاحتفظ بمراتبه ، ولكن اضطر أولاده للنزوح عن فرنسا .

لا يزال يقظا ، رشيق الحركة • وقد وصفه عارفوه انه كان متوسط القامة ، نحيل القوام ، عريض الوجه ، ناتىء الجبين ، ذا عينين خضراوين ثاقبين ووجه متمايز اللون • وكان هو المسيطر دوما في معركة القيادة ، يعرف بسرعة كيف يمايز بين المصلحة وضدها وهي مزية نادرة بين الرجال •

وابتداء من ٢٣ نيسان ، أخذ اسطوله ينطلق من مصب نهر الموز ، كي يرابط في ميناء تكسل ، ويلم شمل كل قواته • فاتخذ من سفينة (الاقاليم السبعة) التي تحمل ٨٠ مدفعا ، مقرا لقيادته ، وهي التي أنزلت للبحر لاول مرة عام ١٦٦٨ ، واشتهرت بأنها أحسن قطعة في البحرية الهولندية ، بفضل تفوق سرعتها ، وكثرة نقوشها وتماثيلها التي كانت تزدان بها طوابق كوثلها[1] الخمسة • أي مؤخرتها ، والتي كانت تعلوها أيضا ثلاثة فوانيس ضخمة من البرونز المطلي بالذهب • وفي الثاني عشر من أيار علم رويتر بأن جيش البحرية الفرنسية بقيادة الكونت جان دستريه ، والمؤلف من ثلاثين سفينة ، يتأهب لدخول بحر المانش كي ينضم الى ثلاث وخمسين سفينة تؤلف اسطول انكلترا ، الذي يقوده دوق يورك • وهنا فكر بتنفيذ خطة ترمي لاقتحام مرسى ليه دون كي يضرب الانكليز وهم في مراسيهم قبل وصول حلفائهم ، ولكنه عدل عنها ، عندما أخطره قبطان دانمركي بأنه شاهد الانكليز والفرنسيين في شرقي جزيرة وايت جنوب ميناء ساوثامبتون • وقد حققوا تلاقيهم : وهكذا كان عليه أن ينتظر سنوح فرصة أخرى ولكن هذه السانحة لم تتأخر كثيرا لان الحلفاء ، من جهتهم ، فضلوا الاقلاع شرقا لتحدي الاسطول الهولندي •

ولكن رويتر الذي رابط قرب ضفاف نهر التايمز استشف أعداءه في ٢٩ أيار • غير ان الريح والضباب تسببا في وضع العصي في عجلاته • فقد كانت دونيته العددية تفرض عليه أن لا يندفع دون تبصر في مغامرة قد يتعرض فيها لهزيمة تقود لدمار اسطوله • وبعد مضي بضعة أيام من الانتظار والمراقبة ظل خلالها رويتر محتميا بحذر ويقظة خلف أرصفة الفلاندر الرملية ، اتجه الانكليز والفرنسيون نحو مرسى سلبياي شمال مصب التاميز ، بين ميناء هارويش وغريت يارماوث للتمون بالمياه العذبة • لماذا لا يباغتهم ؟ نعم لقد كان مزاج رويتر يملي عليه اغتنام الفرصة • وما

---

(١) الكوثل : هو الهيكل الخشبي الظاهر من السفينة •

أن أقبلت الريح المناسبة حتى أقلعت أشرعته . وفي صباح السادس من حزيران أقبل على مدخل الخليج وكانت كل قلوع سفنه منتشرة ، وكان اسطوله يضم ثمانوسبعين سفينة ، تحمل أربعة آلاف ومائة وثمانية وثمانين مدفعا ، واربع وعشرين سفينة خفر سواحل ، وست وثلاثين حراقة تحمل جميعا ١٩٩٣٠ رجلا . وقد كان الاسطول موزعا بين ثلاث عمارات هي : عمارة زيلندة وفريز ، وعلى رأسها الليوتنان اميرال آدريانز بنكرت ، وعمارة الموز التي عقدت رايتها لليوتنان اميرال جنرال رويتر ، وعمارة آمستردام ويرأسها الليوتنان أميرال ويلهلم فان غنت .

كان الاسطولان المتحالفان قرب الساحل ، غير أن قطع كل منهما كانت راسية على مسافة قريبة جدا ، كل منهما من الاخرى ، الامر الذي لم يكن يساعدهما على حرية المناورة برغم وجود مسافة ما بين الاسطول والآخر .

منافسة مؤذية :

لنتفحص الآن عن كثب وضع الاسطولين الحليفين . فقد كانا يشتملان على أربع وثمانين قطعة مسلحة بنحو خمسة آلاف مدفع تقريبا ، وعلى وجه الدقة ٤٩٥٤ مدفعا ، وسبع عشرة فرقاطة ، وثلاث وعشرين حراقة ، وثلاثين سفينة نقالة ، تحمل جميعها ٣٠٥٠٠ رجل . وكان الاسطول الفرنسي يتألف من احدى وثلاثين سفينة ، وست فرقاطات ، وثماني حراقات ، ويحمل ١٧١٤ مدفعا و ١٠١٤٠ رجلا . وكان يضم عمارة برستد بقيادة دوكن ، وعمارة روشفور ويقودها ديستريه .

ولد دوكن من أب كان يتعاطى القرصنة ، ولقد لقي حتفه على يد الاسبان . وارتقى دوكن الى رتبة عقيد بحري في سن الخامسة والعشرين ، وأصبح قائد عمارة بحرية في السادسة والثلاثين ، وسبق له الاشتراك في معارك بحرية ضد الهولنديين والاسبان وضد الدانمركيين عندما تولى قيادة البحرية السويدية . وارتقى الى رتبة فريق على الجيوش البحرية — غير أن مذهبه البروتستانتي كان يحول دائما دون تقدمه في المراتب — ، ولكنه كان بحارا ممتازا يجمع كل المزايا المطلوبة . ويؤكد بعضهم أنه كان رئيسا مضجرا ، كثير التدقيق ، مهووسا بالاتقان في كل شيء . وكان

متوسط القامة ، نحيلا ، عصبيا ، وكان له شاربان بيضاوان يتحركان برعشةعصبية، فقد كان دوكن مزاجا قائما بذاته • وكان الوزير كولبير يكن له الاحترام • ولكـــن لايمكن قول الشيء ذاته بحق زميله ديستريه الذي شاء القدر أن يكون دوكن تحت امرته في هذه الحرب ضد الهولنديين • وكان الكره المتبادل بين هذين الرجلين معروفا لدى الجميع هذا ولم يكن ديستريه بحارا محترفا ، بل كان بعيدا عن هذا النشـــاط ، بعد أن ظل ضابطا في الجيش البري حتى سن السادسة والاربعين من عمره • وعـــين برتبة لواء بحري بعد خدمة امتدت عشرين شهرا في سلاح البحرية ، عندما كان الوزير كولبير يعبىء ضباطه لتولي قيادة أساطيله • وقد حدث أن فقد القدرة على استعمال يده اليسرى اثر جرح أصابه أثناء حصار ميناء غرافلين ، قرب دييب ، ضد الاسبان ، مما جعله يحمل يده المغلولة الى عنقه على الدوام • لقد كان رجلا شجاعا ، ولكن كفاءته لم تكن واضحة في ميدان التكتيك البحري ، فارتكب العديد من الهفوات •• وعلى أثر حملة على سواحل المغرب العربي في عام ١٦٧٠ ، ولم يتردد دوكن في توجيه النقد

الاميرال ابراهـام دوكن

الى ديستريه وقد كان باستطاعة العدو أن يستغل هـذا التنافر بينهما ، لذلـك كان ينبغي تحاشي وضعهما مرة أخرى جنبا الى جنب •

بعد أن أقلع الاسطول الفرنسي من ميناء برست في العاشر مـن أيار ١٦٧٢ حادى ساحل جزيرة وايت الانكليزية حيث استعرض ملـك انكلترا الذي أبـدى اعجابه ، بسفينتي الامـيرالية الفرنسية وهما سان فيليب وعليهـا ديستريه ، والتي تحمل ٧٨ مدفعا، وطاقما مؤلفا من ٦٠٠ رجل، والسفينة تيريبل المسلحة بسبعين مدفعا وعلى متنها دوكن • وفي الخامس والعشرين من الشهر المذكور دخل الاسطول الحليف مضيق پادوكاليه ، واستشف قوات العدو من خلال حجب الضباب • ولما كان ارتفاع الماء آخذا في التناقص تحت صالب السفن بسبب هياج البحر ، فقد كان من الخطـر تعقبه وملاحقته • وفي الثاني من حزيران اتخذ قرارا بالاتجاه الى ميناء سوليباي في كونتية سوفولك الانكليزية بقصد التمون بالماء العذب •

وكان دوق يورك بالغ الثقة بقوته حتى أنه ألغى دوريات الاستطلاع • فقد بلغ مسامعه نبأ مغلوط جعله يعتقد أن رويتر عاد الى هولندا • غير أن قبطانا جريئا هـو كوغولان ، قائد الفرقاطة ايول ، المرابط في عرض البحر أدرك المخاطر التي تتعرض لهـا تلك الكتلة ، العديمة الحركة ، والمؤلفة من المراكب الراسية ، فحاول أن يحث دوق يورك على الاقلاع في أسرع وقت ممكن • غير أن أمير البحر الرئيس هز كتفيه استخفافا ، اذ لم يقبل أن يملي عليه قبطان فرنسي صغير تصرفاته وسلوكه •

البحرية الفرنسية تبرز في معركة سوليباي :

لقد هبت ريح الذعر على الاسطول الراسي عندما أخذ القبطان كاغـولان في فجر السابع من حزيران يطلق مدافعه وما لديه من قذائف ، ونصب كـل الرايـات المتوفرة لديه كي يشير الى اقتراب العدو • وهكذا أقبل رويتر على سوليباي تدفعه ريح مواتية ، واتخذ وضع الاستعداد العام للمعركة • غير أن رفع المراسي كان كارثة، لان البحارة كانوا يعمدون الى قطع الكابلات التي تشد السفن بالفؤوس اذا ما تعذر عليهم رفعها ، أو تقلع السفينة ساحبة المرساة من خلفها • ومن المنتظر في مثل هـذه

الحالة الا يكترث القادة بانتظار عودة الطواقــم التي أرسلت الى البر للقيــام بجلب المــؤن •

وجرت المعركة بصورة غامضة، بسبب النيران ، والدخان ، والريح ، وذلــك من ناحيتين متميزتين ، الأولى من الشمال بين القائــد الهولندي فان غنت ، وبــين خصمه الانكليزي ساندويش ، والثانية بين بانكرت الهولنــدي وبــين الفرنسيين • وكانت الاشتباكات شرسة ، حتى أن رويتر ذكر فيما بعد أنه لم يشهد خــلال حياته معارك مثل هذه المعركة في ضراوتها •

وبدأت المبارزة ، في الشمال ، من الساعة السابعة صباحاً ، وقد عانت السفينة

الكونت ديستريــه

رويال جايمس ذات المائة مدفع ، وهي أجمل سفينة لدى انكلترا ، والتي كانت تحمل راية مونتاغو ، دوق ساندويش ، عانت من نيران مركزة كانت ترميها بها السفينة غراند هولند . وقد تضايقت لدرجة جعلتها تعجز عن التخلص من حراقة أشعلت فيها النيران ، وقد مات القائد ساندويش غرقاً أثناء عملية اخلائها ، وتشاء الصدفة أن يسقط خصمه قتيلا في الفترة ذاتها .

ولما تعرض دوق يورك نفسه للهجوم من طرف رويتر وقائد هولندي آخر ، فقد قاوم لمدة ساعتين ، ونجا بمهارة مع سفينته رويال برانس من حراقتين ، ولكنه خسر ساريته الكبرى فضلا عن مائتي رجل . وعمد بعدئذ الى نقل رايته الى السفينة سان ميشيل . وكانت مدافع رويتر ترمي بصورة محمومة حتى شبهت بتفريغ الطبنجات . واستغل الانكليز البلبلة التي انتشرت في اسطول آمستردام نتيجة مصرع قائده ، فأعادوا تكوين تشكيلة مناسبة تقريباً ، وبدؤوا الهجوم المعاكس . وهنا جاء دور رويتر كي يجد نفسه في الموقف السيء . اذ هوجم من عدة أطراف واستهدفته الحراقات . وتشاء الظروف أن يصل الاميرال الهولندي آيرت فان نس في ذلك الوقت كي ينضم الى اسطول آمستردام الذي خسر قائده فتسلم زمام القيادة . وبعد قليل أصبحت سفينة دوق يورك القيادية في حالة من التخريب جعلته يضطر لنقل مقره مرة ثانية الى السفينة لندن .

وما أن هبط الظلام حتى انسحب رويتر لينضم الى بانكرت الذي كان يحارب على عدة جبهات تحت ريح غير مواتية . وقد اقتصر الصدام بين بانكرت وديستريه على مبارزة عنيفة بالمدفعية المتباعدة نوعاً ما ، لأن الهولنديين الذين كانوا أقل عدداً ، تحاشوا الاشتباك ولم يقتربوا أبداً لمسافة تزيد عن ٥٠٠ متر . أما الاسطول الفرنسي ، الذي أخذ يبتعد شيئا فشيئا باتجاه الجنوب ، فقد خسر الحراقة ايمريون التي وقعت بين نارين . وتعرضت ثلاث أو أربع سفن لاضرار كبيرة أدت لعطبها . فقد ثقبت خاصرة السفينة سوپرپ بالعديد من القذائف ، فالتجأت لتحتمي بمصب نهر التاميز ، حاملة على متنها قائد عمارتها ، رابسنيير تريبوا ، الذي أصيب بجرح قاتل متأثراً

بقذيفة ، هذا كما كان على السفينة ذاتها أحد فرسان مالطة الصغار ، وعمره ثلاثون عاماً ، والذي لمع نجمه أثناء المعركة ، ونقصد بـه آن هيلاريون دوكوتنتان ، كونت دو تورڤيل ، وهو الذي سيدفع الناس للتحدث عنه كثيراً فيما بعد •

« الاشارة الناقصة ليست اشارة » :

وبالاختصار ، لقد كلفت معركة سولبياي الهولنديين ضياع سفينتين وأميرال، فضلا عن عطب سبع سفن ، واصابة قبطان بجراح • أما الحلفاء فقد خسروا سفينة وأميرالين ، وأكثر من ثماني سفن معطوبة ، وتلف عدة حراقات ، وهلاك ١٦٠٠ رجل بين قتيل وغريق بينهم سبعة من قباطنة السفن •

وادعى رويتر لنفسه النصر ، وهـذا ما فعله الانكليز أيضاً ، أما فرنسا فقد سحبت خيطها من اللعبة بصورة مشرفة ، اذ اشترك حلفاؤها وأعداؤها في كيل مدائح مماثلة للاسطول الذي قام نتيجة جهود الوزير كولبير •

وفي فجر الثامن من حزيران بلغ الأمر بالكونت ديستريه ان رغب في استئناف المعركة ، غير أن تغير اتجاه الريح حال دون ذلك • وارتأى رويتر الذي لم يكن يعجبه وضع سفنه ، الاستغناء عن خوض معركة جديدة ، وأصدر أوامره بالاتجاه نحو موانيء زيلندة الهولندية •

ولكن بقيت هناك ملاحظة الشقاق ، أي العداوة الناشبة بين ديستريه ودوكن والتي وصلت اصداؤها الى لندن وباريس •

ومما كان يثير الاستغراب بقاء دوكن دون انفعال • فعندما رفع اميرال انكلترا الأكبر ، أي دوق يورك ، الراية الحمراء ، مشيرا الى بداية الرمي ، تغافل دوكن عن مساندته بطلقتي مدفع ، وذلك حسبما تنص الاتفاقات • ترى هل كان ذلك السلوك يعود الى برودة دمه أم الى الاستخفاف والسخرية ؟• وعلى كل استمر دوكن في متابعة العدو ولكن دون أن يطلق عليه النار • وعندما أثير موضوع هذه الملاحظة بشأن سلوكه المستغرب ، اكتفى بالاجابة : « الاشارة الناقصة ليست اشارة » • وهكذا

اختفى رويتر في الضباب مع خمس عشرة سفينة فرنسية تسير في أعقابه ، والتي كانت قادرة على أسره بكل سهولة .

ولم يستطع دوكن أن ينتصر على ديستريه المتمتع بدعم البلاط في هذا النزاع. وهكذا جرى عزله من منصبه ، ولكن فرنسا هي التي خسرت من هذا المسلك .

معركة ٧ حزيران ١٦٧٢ تجاه ساحل صقلية الشرقي

وقد حال ضياع حظوته هذه دون الاشتراك في العمليات التي قام بها ديستريه في بحر المانش ، وقد امضى عامين قبل أن يسترد القيادة في البحر الابيض المتوسط •

اول نصر تحرزه البحرية الفرنسية لوحدها :

بعد أن فسخت فرنسا عقدها مع انكلترا أصبحت محاولة التعاون البحري بينهما هدفا لمجادلات طويلة وعقيمة • وبعد تحالف لم يكتب له أن يستمر أكثر من عامين تقريباً ، وجدت البحريتان نفسيهما في حالة تنافر ، وهكذا ستستمر خصومتهما مدة مائة وخمسة وعشرين عاما • فقد اتهمت انكلترا فرنسا بأنها ألقت كل ثقل الحرب ضد هولندا على عاتقها لوحدها ، ولم تكن مخطئة في ذلك ، فانسحبت • وبالاضافة الى بقاء الفرنسيين وحدهم في الميدان ، فقد زاد الطين بلة عندما أعلنت اسبانيا الحرب عليهم في ١٥ تشرين الاول ١٦٧٣ •

ففوق الأرض كانت الجيوش الفرنسية تلهث ضد عدو متحصّن بقوة وتحميه مساحات واسعة مغمورة بالمياه • اما على سطح البحر فقد تعادل الاسطول الفرنسي مع اسطول هولندا ، ولكنه اضطر للانشطار الى اسطولين موزعين بين المحيط الاطلسي ، ويضم اربعين سفينة حربية ، وبين البحر المتوسط ، الذي كان اسطوله يتألف من ثلاثين سفينة وأربع وعشرين سفينة خفيفة • وعهد بأمر قيادة اسطول الاطلسي الى ديستريه ، في حين اسندت قيادة عمارة البحر المتوسط الى فكتور دو ريششوار ، دوق ڤيڤون• وقد كان جندياً باسلاً في سن التاسعة والثلاثين• ولكنه كان بحاجة الى من يساعده في الحرب البحرية •

ففي مطلع عام ١٦٧٥ كان سكان مسّينا ، في صقلية ، وهي مدينة حرة كانت تحت السيادة الاسبانية ، قد انتفضوا ضد السلطة الوصية الشديدة الشطط • وناشدوا فرنسا أن تساعدهم • وفي الثاني من شباط انطلق دوق ڤيڤون من مرساه في جزر هيير ، قرب ميناء طولون ، وفي مقدمته دوكن • وفي الحادي عشر من شباط هزم الاسطول الاسباني بقيادة دوق ملخيور دولاكويڤا ، قائد اسطول المحيط ، والذي كان محجوزاً في مدخل ميناء مسّينا • وهكذا سقطت السفينة نويسترا سينورا دل

بويبــلا في أيدي الفرنسيين • وانطلق ڤيڤون بعدئذ على عجل كي يضرب الحصــار على ميناء آغوسطا اذ سانده دوكن الذي استخــدم حذقــه لاقصى حد • وعندما تراءى له ان الامدادات أصبحت ضرورية أوفد دوكن الى ڤرساي ليطالب الملك بهــا ولكي ينبئه بأن الراية ذات زهرة الزنبق ، وهو علم فرنسا قبــل الثورة ، قد كسبت لوحدها أول معركة بحرية •

ودفع الذعر الاسبان الذين كانوا يطمعون في استرداد مسّينا الى الاتجاه نحو اعدائهم القدامى ، أي الى الهولنديين ، وكان لهــم ما أرادوا • وهكذا أقلع رويتر على رأس قافلة مؤلفة من أربع وعشرين سفينة ، مسلحة بألف وثلاثمائة مدفع وتحمل ٦٠٠٠ رجل ، فضلا عن حراقتين وسفينتي شحن ، كما انضم اليه اللواء البحري هان• واجتاز مضيق جبل طارق سراً لينطلق رأساً في اتجاه مضيق مسّينا ، الذي يفصــل صقلية عن البر الايطالي •

وفي الثامن من كانون الثاني ١٦٧٦ ، وبينما كان قرب جزيرة آليكوني ، وليس لديه أكثر من ثماني عشرة سفينة ، التقى بدوكن العائــد من طولون والذي أطلــق العنان لاسطوله المؤلف من ثلاثين سفينة • ونشبت المعركة قرب سترومبولي ، وهي احدى جزر ارخبيل ليباري ، شمال صقليــة ، وانطلقت الصليات من سائر السفــن ابتداء من الساعة العاشرة صباحا وحتى غياب الشمس • وظل دوكن سيد الموقف • وقد أصيب بجرح في ساقه ، وهو فوق سفينة الروح القدس بسبب شظية خشبية ، ولكن دون خطر يذكر •

لقد كانت سفينته الجديدة ، احدى أجمل قطــع الاسطول الفرنسي ، وكانت تتألق باتقان صواريها ، وبجهازها ، هذا فضلا عن نوعية مدفعيتها • وكانت بطارياتها وسطوحها واضحة الملامح بالموازنة مع مثيلاتها في السفن الأخرى ، التي كانت على العموم وسخة ، مزدحمة بأقفاص الطيور وبالمواشي • هــذا كما كانت مقصورتهــا الأمامية والخلفية مغطاة بالتذهيبات • وكانت تتمايز مغالق كوات المدفعية ذات اللون الأحمر القرمزي عن البياض الباهر الذي طلي به هيكل السفينة •

وفي اليوم التالي من المعركة التحق به الفريق دالميرا مع عشر سفن موفداً من طرف ڤيڤون • وهنا اتخذ دوكن قراراً جريئاً ، اذ استدار حول جزيرة صقلية واقتحم مضيق صقلية من الجنوب ، حيث كان أقل حماية ، كي ينجد المحاصرين بالذخائر التي لولاها لاضطروا الى الاستسلام خلال ثمان واربعين ساعة • وبعد هذه المناورة الحاذقة وهذا النجاح الكامل ، كتب الملك لويس الرابع عشر الى دوكن يعبر له عن امتنانه من انجازه المهمة المزدوجة ، وهي الالتحاق بعمارة دالميرا وبعودته بكل الاسطول الفرنسي الى مسّينا •

وهنا حزم الاسطول الهولندي أمره على القيام بضرب الحصار تجاه ميناء آغوسطا • أما ڤيڤون الذي آثر أن يمكث على البر لاعتبارات سياسية ، هذا فضلاً عن كونه بليداً الى حدٍ ما ، فقد عهد بزمام قيادة الجيش البحري الى دوكن ، الذي أقلع على رأس ثلاثين سفينة ، مسلحة بألف وسبعمائة واثنين وعشرين مدفعاً ، وتحمل ١٠٦٦٥ رجلاً • وقد اكتشفت مراصده وكشافاته الاسطول المعادي المتحشد أمام سيراكوزه على ساحل صقلية الشرقي بين كاتانه وآغوسطا • وقد استطاعت أن تمضي بالاستعانة بالمناظير تسعاً وعشرين سفينة حربية أصغر أبعاداً ، وتسع فرقاطات وبضع حراقات ، مسلحة بمقدار ٨٥٢ مدفعاً ، وعلى متنها ٤٥٠٠ رجل •

قلب محفوظ في علبة فضية :

ونشبت المعركة في الثاني والعشرين من نيسان ١٦٧٦ نحو الساعة ١٦ • وكانت في أقصى ما يمكن من العنف ، اذ قذفت المدفعية لوحدها ٣٠٠٠٠ طلقة • وقد تلقت المقدمة الفرنسية ، التي يقودها دالميرا ، أول صدمة ، والذي كانت رايته منصوبة فوق السفينة « ليس » • أما على السفينة الطليعية « فيديل » ، فقد كان القبطان كوغولان ، الذي سبق له أن قذف بالطلقات الثلاث الأولى في معركة سوليباي التي سبق لنا الكلام عنها ، فقد أصيب بجروح نتيجة أوائل القذائف • وما كاد الطبيب يفرغ من تضميد جراحه حتى طالب بحمله كي يوضع على عارضة مؤخرة سفينته ليستمر في القيام بدوره بكل حماسة •

وقد دافع دالميرا بصورة رائعة للغاية بعد أن تلقى دعم دوڤالبيل، رئيس العمارة بصورة ناجعة من فوق سفينته القديمة پومپو • وبعد قليل أصبحت المعركة شاملة•

ويعطي دوق دوڤيڤون في تقريره المرفوع الى لويس الرابع عشر فكرة عن معركة آغوسطا البحرية والذي لا يزال محفوظاً في الارشيف الفرنسي، مع بعض التفاصيل عن هذه الحادثة :

غرق « نوفال – مارك »

« في الساعة السادسة عشرة ألقت مقدمة رويتر بنفسها على مقدمتنا وبدأت المعركة على مرمى الطبنجة لشدة الاقتراب • ولحق بها رويتر مع سفنه وبذل جهداً خارقاً • وقد استقبلته سفننا الطليعية بحمية واندفاع مماثل ومن بقية عناصر اسطولنا • ولما رأى رويتر أن جهوده كانت عبثاً كما لم يكن راغباً في الالتحام والاقتحام بعد ساعتين ونصف من معركة شديدة الضراوة ، وهكذا أقلعت أشرعته وانسحب من وجه اسطول القائدين دالميرا ودفالبيل ، في الوقت الذي كان فيه يطلق نيرانه على سائر أجزاء خط النار وحتى أواسط الاسطول ، واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى مغيب الشمس • وفي هذا الوقت وصلت مؤخرة اسطوله لتنقضّ على مؤخرة اسطولنا واستمر النزال بكل عنفوانه حتى الساعة العاشرة ليلاً اذ انسحب الاعداء سالكين طريق سيراكوزة • وقبل أن تغيب الشمس كنا نرى السفن الخفيفة الاسبانية ، من نوع قادس ، وهي تقوم بسحب أربع سفن هولندية معطوبة بصورة بالغة في صواريها ودقلها ، وفي المساء تمّ سحب سفينة هولندية خامسة » •

وقد كانت المعمعة رهيبة في الواقع • فقد كانت الرشقات تتقاطع بشكل فوضوي ضمن قصف يسبب الصمم • وفي هذه الفترة بالذات شهدت هولندا سقوط أكثر زعمائها أمجادا ، فمنذ بداية المعركة خسر ميشيل رويتر « وهو الرجل الذي يساوي جيشا بكامله » ، رجله اليسرى التي أطاحت بها قذيفة مثلما تهشمت ساقه اليمنى • وكان ممدّداً فوق سطح مؤخرة سفينة « لاكونكورد » ، ولم يلبث بعد قليل أن سقط من ارتفاع مترين ونصف كي يصاب بجرح في رأسه • ولكنه لم يتوقف عن اصدار أوامره حتى النهاية ، وهو يصرخ في كل مرة كان يسمع فيها قصف المدفعية : « تشجعوا يا أبنائي تشجعوا ، هكذا يجب أن تصنعوا ، لكي تنالوا شرف النصر » •

وبعد ساعة من تأثر رويتر بجراحه وعجزه التام عن قيادة المعركة فعلا أخذ رجال المدفعية الهولندية بثأرهم اذ قتلت احدى قذائفهم القائد الجريء دالميرا من فوق سفينته • ولما أصبح رويتر مهدداً بالتطويق وقنط من رؤية الاسطول الاسباني بقيادة اللواء دون فرانسيسكو دولاسردا الذي خذله بمنتهى الجفاء ، اضطر لاصدار آخر أمر له ، وهو اعطاء اشارة الانسحاب تحت وابل من القذائف التي كانت تبقر

قواقع السفن وتهشم الصواري، وبينما كان دوكن المنتصر يدخل ميناء آغوسطا كان الاميرال الهولندي الجريح يقصد سيراكوزه اذ فارق الحيـاة متأثرا بجروحه بعـد اسبوع ، في مساء التاسع والعشرين من نيسان • وانتزع قلبـه كي يحفظ في علبـة فضية ثم حمل على فرقاطة كي تقوم بنقله الى هولندا • ويشاء سوء الحظ أن تسقط الفرقاطة في أيدي الفرنسيين • وعندما علم دوكن بحقيقة الامر صعد الى ظهر الفرقاطة وطلب توجيهه الى المقصورة التي اودع فيها قلب رويتر • اذ انحنى أمامه خشوعاً ، أي أمام الصندوق الصغير الذي يضمه وقال : « تلك هي بقايا رجل عظيم استقبـل الموت في وسط الاخطار التي سبق له أن تحداها في الكثير من المرات » • ثم منـح الهولنديين ورقة أمان كي يكون بامكانهم العودة لبلادهم مع وديعتهم الثمينة• ولقد استحق رويتر هذا الثناء من الرجل الذي سبق أن قال عنه : « يبدو لي دوكن ، بين كل أعداء وطني ، أكثرهم رهبة » • ولا يعرف الرجال سوى الرجال •

وعندما انطلق الاسطـول الاسباني الهولنـدي قاصداً الالتجـاء الى مرسى سيراكوزة تغاضى دوكن عنه وخلى سبيله ، ذلك ان ذخائره نفذت ، كما كان قسـم من اسطوله محروماً من قائـده على اثر مصرع دالمـيرا • لهذا رأى أن من الأنسب والاكثر تعقلا الانحياز الى جانب التريث •

معركة باليرمو :

وبعد ستة أسابيع قضاها الاسطول الحليف الهولنـدي الاسباني لاصـلاح ما أصابه من عطب ألقى مراسيه أمام بالرمو ، وبعد أن استرد دون دوفيفون الفرنسي زمام القيادة جعل من السفينة « سيبتر » حاملة رايته وخرج على أتم أهبة الاستعداد ليتحدى الاسطول المعادي على رأس ٢٨ سفينـة و ٢٥ قاربـا و ٩ حراقـات • أما الاسطول المعادي الذي كان راسيا فكان يضم قـوة مماثلة قوامها ٢٧ سفينة و ١٩ قاربا واربع حراقات مصفوفة جميعا على شط خط منحن اتخذ شكل نصف دائرة •

غير ان هذا التفوق المزدوج لم يجعـل فيفون يعود على أعقابه بل رفـع راية الانتقال الى الهجوم •

وهنا اتجه دوكن نحو رأس الخط المعادي وكان يبدو عليه عدم الاكتراث بالرمي الشديد الذي أصبح هدفا له • ولما أصبح على مسافة تقل عن المائتي متر فتح النار • وبينما كانت السفن المعـادية متكئة على طافيات مراسيهـا راحت تتعرض لأضـرار شديدة ، وكانت البلطات تنهال على الكابلات لتقطيعها وجنحت السفن بتأثـير قرب المكسر واستغلت ثلاث حراقات هـذه البلبلة فقامت باشعال النيران في ثلاث سفـن هولنديـة •

وما أن مضى على بدء المعركة قرابة الساعـة حتى انفجرت سفينة الامـيرالية الاسبانية نويسترا سينورا دلبيلار المسلحة بأربعـة وستين مدفعا ضمـن ضجيـج مخيف ، وذلك بعد أن اشتبكت مع حراقتين وسرى اللهيب منها الى السفينة سـان فيليب • ولما كانت مرساة سفينة الاميرالية منحلة فقد جنحت على الشاطىء اذ لحقت بها الحراقات الفرنسية وأحرقتها بالكامل بالتضافر مع ثلاث سفن حربية أخرى هي: غوفرنمان ، تروا موتتان ، وبريـون •

لقد كان الانتصار الفرنسي باهرا • فقد خسر الجانب المعادي ثلاثة آلاف قتيل، بينهم خمسة من أمراء البحر ، أي من رتبة أميرال ، اثنان من الهولنديين وثلاثة مـن الاسبان ، كان في عدادهم دون فرانسيسكو دولا سردا ، وهو نفسه الذي تخـاذل عن نجدة رويتر في ٢٢ نيسان ، كما فقد اثنتي عشرة سفينة ، وستة مراكب من نوع « قادس » وأربع حراقات • أما الفرنسيون ، مـن جانبهم ، فـلم تتجاوز خسائرهم مائتي رجل بين قتيل وجريح •

وأرسل لويس الرابع عشر تهانيه الى فيفون على هـذا النجاح : « ليس هناك ما يشير ، وذلك بعد النصر العظيم الذي أحرزه جيشي البحري بقيادتـكم ، إلى أن الاعداء سيكونون قادرين على الظهور على سطح البحر مرة أخرى • ولكن اذا كان لديهم من الجرأة ما يكفي للعودة ، فانك ستكون قادرا ، على رأس قوات متفوقة ، على مطاردتهم حيثما كانوا ، الى أن تتمكن من القضاء تماما على البقية الباقية مـن سفنهم ، ومراكبهم من فئة قادس ، التي لاتزال موجـودة في بحار صقلية ، هذا اذا صادفتهم وسيكون هذا بالطبع أكثر فائدة لمصلحتي وفي سبيل مجدك الشخصي » •

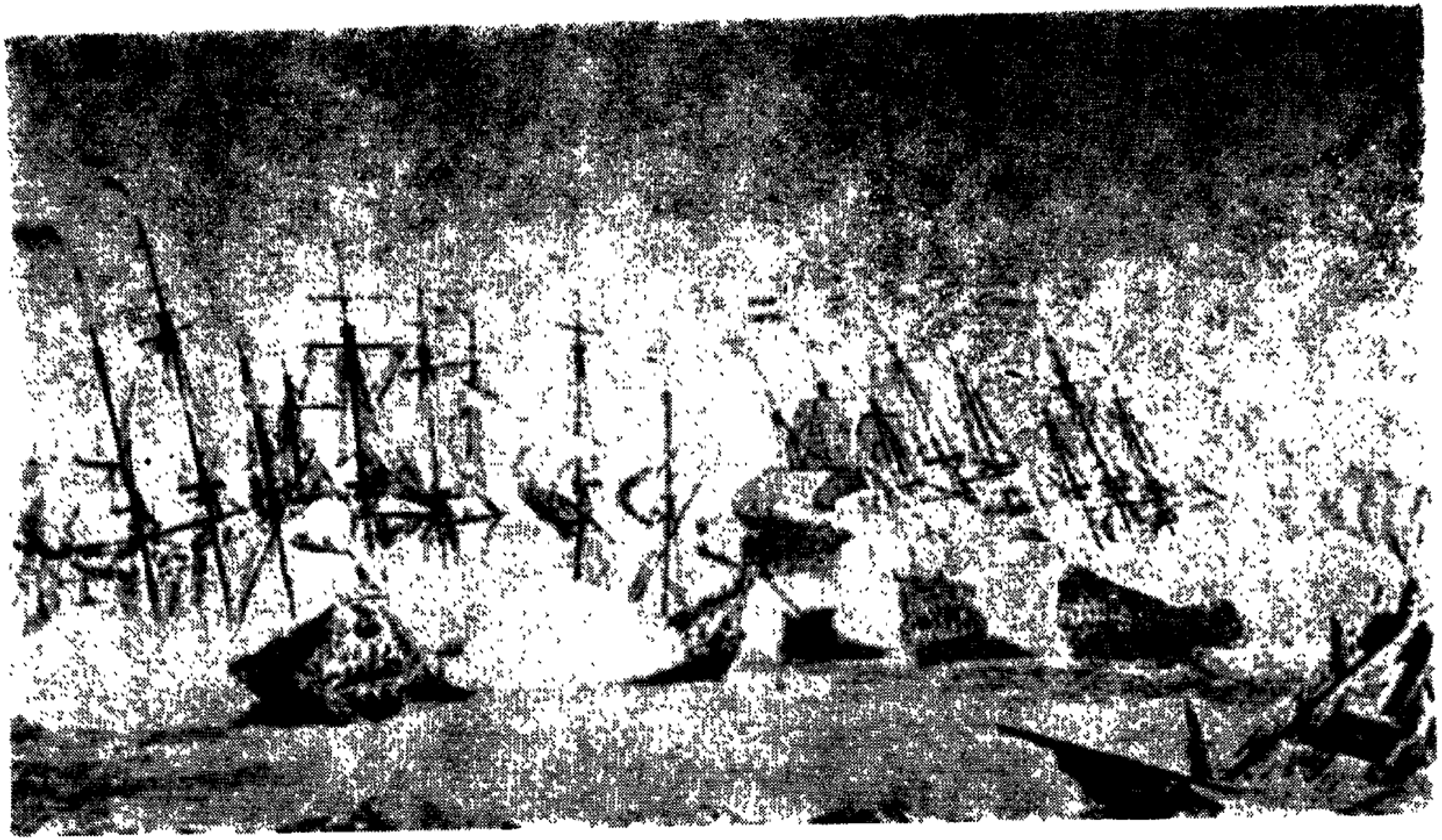

معركة ضد الهولنديين في ١٦٧٦

ومهما كان النصر حاسما فلم يكن في الواقع كافيا لوضع حد للحرب التي لم تستطع أن تنهيها سوى معاهدة السلام المعقودة في مدينة نيميغ الهولندية بتاريخ ١٦ أيار ١٦٧٨ • وهكذا وبعد أن عاد السيف الى غمده استحق دوكن بعض الراحة• وفي عام ١٦٨١ وبعد أن اشترى اقطاعية بوشيه من الماركيزة كليرمبو قرب مدينة ايتامب ، قرب باريس ، وأنعم عليه الملك وتحولت اقطاعيته الى ماركيزية شريطة الا يمارس هو ولا خلفه من بعده فيها الطقوس الكالفينية • والحقيقة كان دوكن بروتستانتياً ، وهذا هو السبب الذي حرمه من نيل كل المراتب والتكريم التي برهن على أهليته واستحقاقه لها ، والذي حال بينه وبين تسلم عصا الماريشالية •

وبعد أن ساعد الوزير كولبير في تصميم التحسينات التي كانت الترسانات البحرية في أمس الحاجة اليها عاد هذا البحار الهرم الى البحر الابيض المتوسط لمحاربة رجال العرب المنطلقين من مرسى طرابلس الغرب • وقد أوفد في مناسبتين لقصف ميناء الجزائر في عام ١٦٨٢ وفي سنة ١٦٨٣ والتي كان بحارتها يعترضون سبيل السفن التجارية الفرنسية ويفرضون عليها الغرامات •

وفي عام ١٦٨٤ عهد اليه بآخر مهمة ، وكان عمره حينذاك خمسا وسبعين سنة، وهي الانطلاق لقصف جنوا اذ كانت ورشاتها منهمكة ببناء أربعين قادسا مما أثار مخاوف الملك لويس الرابع عشر من أن يرى هذه المراكب وقد تأهبت لشن الحرب عليه • وكان على سفينته الماركيز سينيلي ابن كولبير البكر ووزير البحرية • وهكذا ختمت حياة دوكن البحرية • فاعتزل ليعيش مع اسرته ، وقضى نحبه بعد ثلاثة أعوام اثر نوبة قلبية كما يقول بعضهم ، أو كمدا كما قال آخرون ، على اثر نفي أبنائه ، في الوقت الذي كان فيه البروتستانتي الوحيد الذي يسمح له بالبقاء في فرنسا بعد الغاء مرسوم نانت •

ويعود هذا الاستثناء الى الاعمال الجليلة التي أداها لوطنه •

بيفزييه

- ١٠ تموز ١٦٩٠

الاميرال آن هيلاريون دو كونتنتان ، كونت دو تورفيل ، يلحق الهزيمة بالحلف البريطاني الهولندي ، من فوق بارجته « الشمس الملكية » .

لم تكن خاتمة القرن السابع عشر لتمر بسلام دون أن تشهد أيضا بعض المعارك البحرية الذائعة الصيت ، اذ وقعت معركة « بيفيزييه » الذي حاز إكليل غارها « الكونت دوتورفيل » التي حققت فوزاً لا ريب فيه للبحرية الفرنسية والتي كانت في

فيكتور ماري ، دوق ديستريه ، قائد طليعة اسطول تورفيل

قمة «مجدها» فلقد تطورت التجارة والصناعة في فرنسا وتوسعتا بدافع من سياسه الوزير كولبير الذكية • ونشأ اسطول جبار أصبـح شيئا فشيئا ، سيد البحار بـلا منازع • وقد استطاع القادة الفرنسيون من أمثال تورين (Turenne) وكونديه ولوكسمبورغ أن يهزموا ، ظافرين ، جيوش الامبراطورية الجرمانيـة ، والنمسا ، واسبانيا ، وهولندا ، التي حاولت عبثا تشكيل حلف ضـد فرنسا • وقد استطاع لويس الرابع عشر أن يفرض شروطه على المغلوبين في معاهدة نيميغ

وبعد ان استغلّ فترة السلم عـاد لاستثارة دول أوروبا نتيجـة استفزازاته الجريئة •

فعلى أثر سقوط جاك الثاني ، وهو دوق يورك ، الذي كان يقود الاسطـول البريطاني في معركة سوليباي (Solibay) آل العرش الى صهره غليوم دورانج، الذي تـوّج ملكاً على بريطانيا العظمى ، الى جانب احتفاظه بالعرش الهولندي • وبعد أن استردت بريطانيا قواها خلال فترة السلم الطويلة ، أخذت على عاتقهـا عبء الكفاح ضـد لويس الرابع عشر ، بالنيابة عن هولندا الخائرة القوى، وأوجدت حلفاً جديداً لحسم المشكلة دفعة واحدة •

فرانسوا دافي ، ماركيز دامفروفيل ، والذي رافق تورفيل في موقعة بيفيزييه

وما ان شعر وزير البحرية الفرنسية « سينيوليه » بدنوّ الخطر حتى بادر الى تركيز قوات بلاده على البحر كي يرهق هولندا المنهكة ، بالاضافة الى انكلترا ؛ التي كانت منقسمة على نفسها • وجاءت أوائل النجاحات التي أحرزها اللواء البحري ، شاتوزينو ، في خليج بانتري ، على الاميرال هربرت الانكليزي ، في الثاني عشر من أيار ١٦٨٩ لتبرهن على نجاعة هذه الاستراتيجية • وتلى ذلـك نصر آخر ليؤكـد حسن تصرف البحرية الفرنسية ، ونقصد به معركة بيڤيزييه •

السفينة الرائعـة : « الشمس الملكية » :

سنشهد في هذه الموقعة بحّاراً سبق لنا ذكره، وهو «آن هيلاريون دو كونتنتان، كونت دو تورڤيل » المولود في ميناء « تورفيـل » على ضفة بحر المانش ، في عـام ١٦٢٢ • وقد كان هذا في عداد فرسان مالطة وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وتمرّس على القتال على متن السفن الحربية ، واشترك في معارك عدة ضد الاتراك العثمانيين ونازل رجال البحر الجزائريين ، وشارك في معركـة سوليباي (Solibay)

تورفيـل

عندما كان يقود واحدة من سفن اسطول الكونت « ديستريه » مثلما حضر معركة آغوسطا ، وكانت أعماله هذه عبارة عن مغامرات براقة استحق عليها رتبة قائد عمارة بحرية . ولمع نجمه في « بالرمو » مرة أخرى ، مثلما تمكّن تحت قيادة « دوكين Duquesne » من مطاردة رجال البحر الطرابلسيين (الليبيين) ، وقصف مدينة الجزائر بمدفعيته وكذلك ميناء جنوا الايطالي فيما بعد . وفي بداية الحرب المعلنة على هولندا ، في ١٦٨٨ ، اسندت اليه قيادة عمارة تضم خمس وحدات . وما أن أقلع من ميناء برست حتى استولى على سفينتين تابعتين لشركة جزر الهندالهولندية، اندونيسيا حالياً .

تورفيل

وفي أواخر ربيع عام ١٦٩٠ ، وكان سنّه لا يتجاوز الثامنة والاربعين ، توجه ليحارب في بحر المانش ، تدعمه فرقة « شارتورينـو » القادمة من البحر الابيض المتوسط ، كما حصل على وعد بمساندة قوامها خمس عشرة سفينة بقيادة أمير « توراي » ، ولكن هذا الدعم تأخر في طريقه من ميناء طولون الى ميناء برست ، فوصل ... ولكن بعد فوات الفرصة .

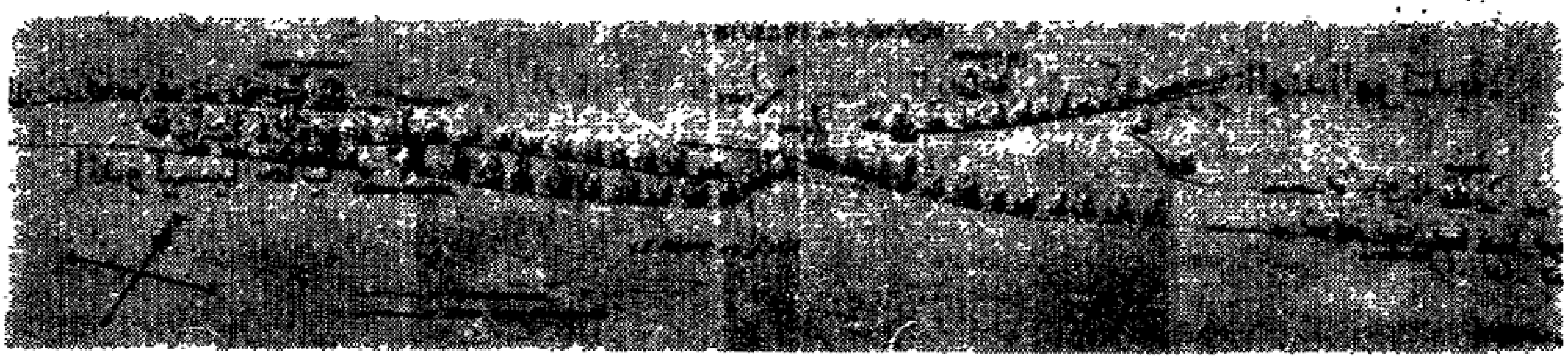

التشكيلات في ميدان معركـة بيفيرييـة

وكان مشهد الاسطول الفرنسي غاية في الروعة ، عندما أقلع من ميناء برستفي الثالث والعشرين مـن حزيران ١٦٩٠ اذ كان أكثر الاساطيـل التي حملت الرايـة الفرنسية جلالاً ، فكانت طليعته تتألف من أربع وعشرين سفينة تحت إمرة فكتور ماري ديستريه ، البالغ من العمر ثلاثين عاما ، والذي اتخذ من السفينة « غـران » المزوّدة بثمانين مدفعاً ، مقـراً لقيادته : وفي الوسط ، حيث يقـع قلب الاسطـول المحارب ، كان « تورڤيل » ينصب رايته على السفينة « الشمس الملكيـة » المجهزة بثمانية وتسعين مدفعاً وحولها أكثر سفن الاسطول الفرنسي كفاءة ، والبالغ عددها ستاً وعشرين سفينة . وكان في مقدمة عمارة تورڤيل صفوة من القادة أمثال« الماركيز دولابورت » ابن شقيق الفارس دوڤالبيل ، بينما كان يقـود سفينة المؤخرة الفارس « دو كوتيلوغون »، وكان « شاتورينو » ، البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عامـاً ، يقوم بمهمة حراسة المؤخرة المذكورة ، من على سفينته « دوفان رويال » ذات المائة وعشر مدافع وكانت خمس وعشرون سفينة خاضعة لقيادته . وبعبارة مختصرة كانت هناك نخبة من رجال البحر الفرنسيين معبأة في هـذا الموكب البحري نذكر منهـم غاباريه و لاغاليسونيير ، و دورولينغ ، وجـان بار ، وفوربـان ، ولاهاتولـوار ،

ودامفرڤيل ، و پوانتيس ، وڤيللينت ، و پانتويـّيه ... وكان حشداً مهيباً باسطولهم البالغ خمساً وسبعين قطعة بحرية عليها ٤٨٠٠ مدفع و ٢٦٠٠٠ مقاتل من المتحرّقين شوقاً لخوض المعمعة .

وزير البحرية سينيوليه ابن كولبير

وقد ظهرت بادرة جديدة هي تخصيص سفن لمعالجة الجرحى تصحب الاسطول لأول مرة. فقد أدخل« الماركيز سينيوليه » نصاً في قانون البحرية الفرنسية العسكرية يقضي بضرورة وجود « سفينة ــ مستشفى » ضمن كل فرقة مؤلفة من عشر سفن،

تدعى « المراكب الاستشفائية » ، وصدرت في الوقت ذاته الأوامر الى ثلاث موانىء هي : بولونية ، كاليه ، دونكرك ، بالاستعداد وأخـذ الأهبة لاستقبـال ستة آلاف بحار ، بين جريح ومريض ، وذلك بمعدل ألفـين لكل ميناء • وفي حالة عجز المشافي عن النهوض بهذه المهمة المنوطة بها ، فقد كانت الأوامر تنص على وجوب الاستيلاء على منازل الاهالي وأسرّتهم والتفاوض معهم بالحسنى لتوفير العلاج والغذاء •

اللواء البحري شاتورينـو

أمر من الملك : النصر :

لقد خسر الاسطول مدة ثلاثة أيام كاملة تجاه ميناء « كاماريه » بسبب الرياح المعاكسة ، وذلك على : ساحل شبه جزيرة بريتانيا • وفي الخامس من تموز تجاوز الاسطول جزيرة « وايت » حيث كان « دو تورفيل » ينوي ــ حسب تقرير أحد الجواسيس ــ مباغتة ثماني وخمسين سفينة راسية ، ولكنه وجد ميناء « سانت هيلين » مقفراً •

وهنا اندفع « جان بار » قبطان الفرقاطة آلسيون ، وهي احدى فرقاطات المطاردة المعدّة للقيام بدور الكشافة في الطليعة ، أقول اندفع ، متطوعاً ، للقيام بمهمة استطلاع ، فامتطى قارباً صغيراً يسحب شباكه ، كي يظهر على هيأة صياد سمك • وكان من حسن طالعه أن اكتشف العدو على مسافة مائة كيلو متر تقريباً الى الشرق ، أي فيما وراء رأس « بيش هيد » ، بين ميناء ايستبورن ، وميناء هاستنغ ، أمام مرسى بيفنسي الذي كان البحارة الفرنسيون ينطقون اسمه حينئذ بصورة لا تخلو من التحريف ، وهو بيڤيزييه ، وهو الاسم الذي عرفت به هذه المعركة حتى أيامنا هذه •

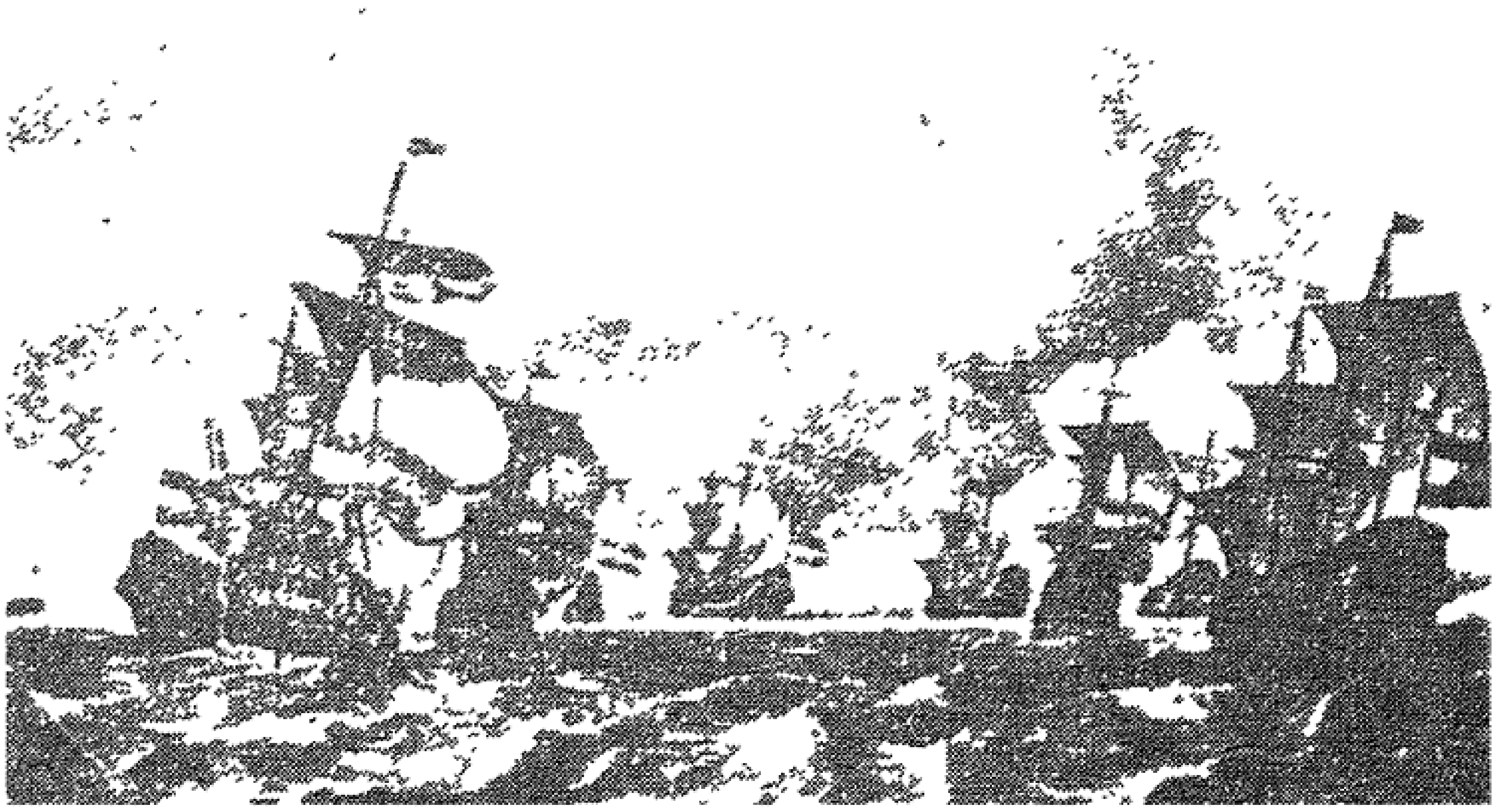

عمارة هولندية

ولم يبق أمام « دو تورڤيل » سوى المبادرة لتنفيذ مخططاته بعد أن استطلـع عدوه • غير أن الريح لم تكن تهب كما تشتهي سفنه ، وتجاه موقف كهذا لا يكون هناك الكثير من الحلول •

ترك الأميرال الفرنسي مراكبه تجري على هواها ، ولكنه كان يلقي مراسيه في حالة الجزْر • وبهذه الطريقة اقترب من العدو الذي كان يتمتع بكل الظروف المواتية للإمساك بزمام المبادرة • فقد كان الاسطول الانكليزي تحت قيادة اللـواء البحري « آرثر هربرت » ، أو « كونت أوف تورينغتون »، الذي جعل من السفينة « رويال جيوڤيرين » مركز قيادته • وعندما وقع بصر هربرت على الاسطول الفرنسي ، فـي فجر العاشر من تموز ، رفع راية الاقلاع عالياً ، وذلك بعد مشاورة عاجلة مع الاميرال الهولندي « ايفرتزن » الذي كان مساعداً للأميرال «رويتر » • وكانت الأوامر هي الأوامر • فقد سبق له أن تلقّى من مليكه أوامر تقضي بالهجوم ••• وبالفوز • ولم يكن لديه سوى سبع وخمسين سفينة ، منها اثنتين وعشرين هولندية ، في الطليعة ،

غابـاريـه

مقابل خمس وسبعين سفينة فرنسية تخضع لأوامر « دو تورڤيل » • غير ان هذا التفوق العددي لم يكن كافياً ، بادىء ذي بدء ، لكي يبعث على الفزع في نفس هربرت ، الذي اندفع ببسالة لينقضّ على « دو تورڤييل » الذي انبرى اليه بفرقة التسع حسب تشكيلة تتألف من صفوف متعاقبة •

وهنا اندفعت العمارة الهولندية بقيادة « ايڤرتزن » أولا لمباشرة القتال في الساعة التاسعة ، وانهمرت قذائف مدافعها على سفن « شارتورينو » الذي كان في مقدمة عمارة « ديستريه » • وبذلك تعرضت السفينة « دوفان رويال » الفرنسية القريبة لسيل من القذائف مزّقت قلوعها ، وهشمت الصواري ، وقطّعت الحبال وقضت على البحارة • وبعد أن كابد الاسطول الفرنسي الأمرّين من هذه الصدمة الأولى ، وهي أشدها مرارة ، ظهر للعيان أن هربرت كان عاجزاً عن مساندة حلفائه الهولنديين الأوفياء • وهكذا حاول هربرت التصدّي لمؤخرات سفن الاسطول المعادي ، وهي أقل جوانب جسم الاسطول الفرنسي مناعة • فقد تصوّر أن العملية سهلة ولكنه اضطر الى التخاذل • فقد دافعت فرقة « دامفر وڤيل » التي تتألف من تسع قطع، بكل شجاعة ، حتى أن سفينة هربرت ، المثلثة الجسيرات، وهي « رويال سوڤيريني » تحطمت وخسرت عتادها متأثرة بهجوم احدى السفن الفرنسية «فوغو» المسلحة بثمانية وخمسين مدفعا ، وهي سفينة حربية بسيطة ، من الدرجة الرابعة ، كان يقودها القبطان « سان مارك » مما اضطر هربرت الى الانسحاب من المعركة•

ولم يكن بمقدور بريطانيا أن تنقذ سمعتها في ذلك اليوم المشهود إلا بفضل إقدام أحد قادتها وهو اللواء البحري « رالف ديلاوول » الملقب « بالخنزير البري المنعزل » والذي انتزع إعجاب خصمه القائد الفرنسي « غاباريه » وخصومه الآخرين، وذلك عندما قام بشطر الاسطول الفرنسي وعزل بين قسميه • وكانت السفينة « كورونيشن » المسلحة بتسعين مدفعا مقر قيادة « ديلاوول » الذي قام بعملية الشطر ، على رأس ثلاث عشرة سفينة ، وبذلك أفلح في اخراج السفينة « مودريه » المسلحة بخمسين مدفعاً ، والسفينة « فلورون » ذات الاثنين وخمسين مدفعاً ، من المعركة ، وذلك قبل أن تتغلب عليه نيران المدفعية الفرنسية وتجعل جهوده تذهب

أدراج الرياح. وعلى اثر ذلك قطع عليه « غاباريه » الطريق بفضل سفينته «آنتريبيد» التي تحمل ثمانين مدفعاً ، هذا في حين عمدت السفينة « فايـّان » المزودة بثمانية وأربعين مدفعا بقيادة « فوكيير » الى تبديد عتاد السفينة الانكليزية « سان آندريو» ذات الستة وتسعين مدفعاً .

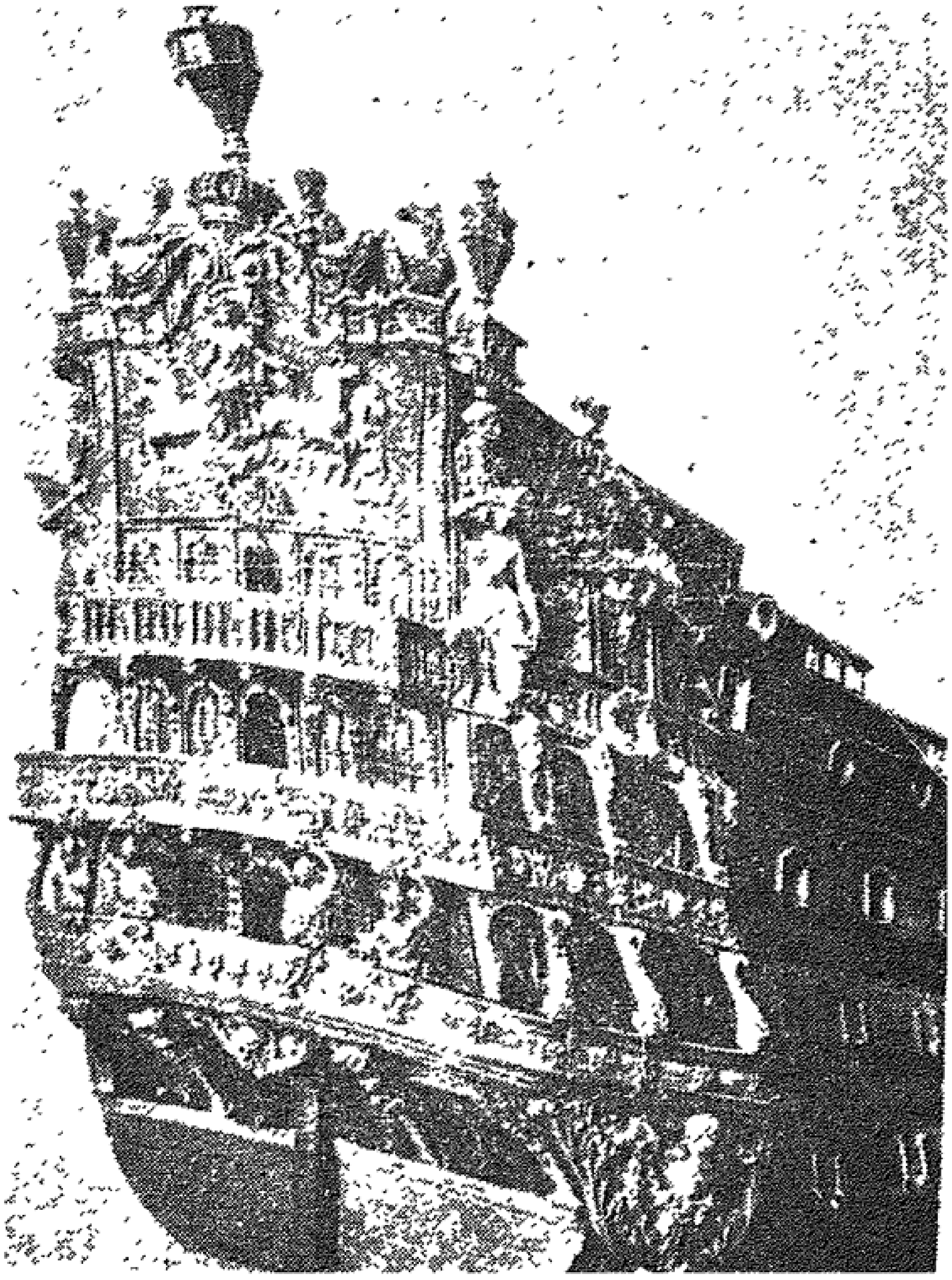

« الشمس الملكية » ذات الـ ١٠٤ مدافع وهي سفينة الاميرال دو تورڤيل في هوغ . منظر أمامي (متحف البحرية) .

إرهـاق الهـاربين :

وعندما أرخى الليل سدوله ، لم تكن الامور على غير ما يرام بالنسبة للأسطول الفرنسي ، صحيح أنه كان هناك إصابات بين صفوفه غير أن المعسكر البريطاني نال من الضربات الموجعات أكثر بكثير .

وهنا بدّل الانكليز اسلوبهم وأطلقوا حرّاقة ... استطـاع رجال المدفعيـة الفرنسية أن يفجّروهـا وهي في منتصف الطريق ! وعنـدها اعتبر « هربرت » أن المعكرة خاسرة فأشرع راية الانسحاب متجها نحو بحر الشمال حيث كان واثقاً مـن العثور على ملجأ أمين في مصب نهر التاميز ، وجيء بالقـوارب لجرّ السفن العاجزة عن الحركة ، ولكي ينجز انسحابه ، دون مخاطرة ، ترك أشرعتـه مقلعة وأنزل ... مراسيه . وجاء تيار الرياح من خلفه ليسعفه كما كان يتوقع ، في حين كانت الرياح، نفسها ، تدفع بالسفن الفرنسية في الاتجاه المعاكس بصورة لاقِبَلَ للبحارة الفرنسيين بمقاومتها ، وحيث لم يدرك قادة سفنهم أبعـاد الحيلة الانكليزية إلاّ بعد فـوات الأوان .

وبعد قليل أصبح اسطول الامـيرال « دو تروفيـل » مشلول الحركة بسبب سكون الريح ، وهنا استشاط هذا الاميرال غضباً وحنقاً من رؤية عشر سفن معادية، وهي شبه متوقفة ودون حماية ، وكانت على مدى مرمى مدافعه تقريبا ، وهو عاجز عن استغلال الفرصة للاستيلاء عليها ، ولو وصلت سفن « أمير نواي » أي النجدة الفرنسية في هذه الفترة ، بالذات ، لكان في مقدوره إنجاز ملحمة مطاردة خارقـة ، ولتمكن من تسديد ضربة قاضية . الى هذه السفن المتعطلة ، ولكان من السهل عليه تماماً أن يحرقها أو يقتادها ، أسيرة .

وراحت فرقة « المركيز دوفيلليت ــ مورساي » الفرنسية تمطر الهولنديـين بوابل من قنابلها ، والذين كان جلّ همهم اللحاق بأسطول الاميرال « هربرت » الذي لاذ بأذيال الفرار . فتمكنت من القضاء على ست سفن واضطرت أربعاً منها على أن ترمي بنفسها على الساحل حيث تمّ إغراقها .

وكتب « دو تورفيـل » في صبيحة المعـركة أول تقرير وأرسله الى فرنسا ، بواسطة فرقاطة فرنسية يقول فيه : لقد كان الريـح حليفاً لاعدائنا ، وبعـد قيامي بتشكيل الخط الهجومي ، جاء الهولنديـون بكل ما استطاعوا من زخم لمهاجمـة المقدمة ، ولم يكن هربرت راغباً في منازلة الاسطول الفرنسي كما لم يحاول الاشتباك

الاميرال دوتورفيــل

مع أي من سفننا . وقد اشتبكت مع مساعده ، وهو لواء بحري ، ومع اثنين مــن أعوانه ، لا يقلا ّن كفاءة ومراساً عنه . وكان الكونت « ديستريه » يحارب مع قواته التي تشكل المؤخرة الفرنسية . ولحسن الحظ صمدنا في وجــه الريح كي ننقض

على الهولنديين الذين خذلهم حلفاؤهم الانكليز تقريباً ، لأنهم عجزوا عن استغلال الريح بسهولة ، ولهذا كانوا عاجزين عن المناورة ، فاستطاعت السفن الفرنسية أن تحرم اثنتي عشرة من سفنهم ، ومن سفن الانكليز ، من صواريها ••• وجاءالسكون الذي حرمنا من الاستيلاء على أكثر من سفينة واحدة من سفنهم ، وكانت هولندية تحمل ثمانية وستين مدفعاً • ومن المؤكد أنه لو كان لدينا عدد من السفن الخفيفة لسقطت كل هذه السفن ، التي اجتثّت صواريها ، غنيمة في أيدينا ، والتي كانت راسية بسبب الجزْر ••• وفي المساء تحولت الريح لمصلحتنا مدة نصف ساعةتقريباً، ولو استمر ذلك مدة أطول لاستولينا على عشر سفن هولندية • ولمّا ألقى الجيش المعادي مراسيه كيلا ينقضّ علينا ، ولكي يحتفظ بمزايا المد ، أدركت من مناورتهم بأن كل سفنهم كانت مقلعة الأشرعة • فأرسيت مع بضع سفن من اسطولي علىمرمى

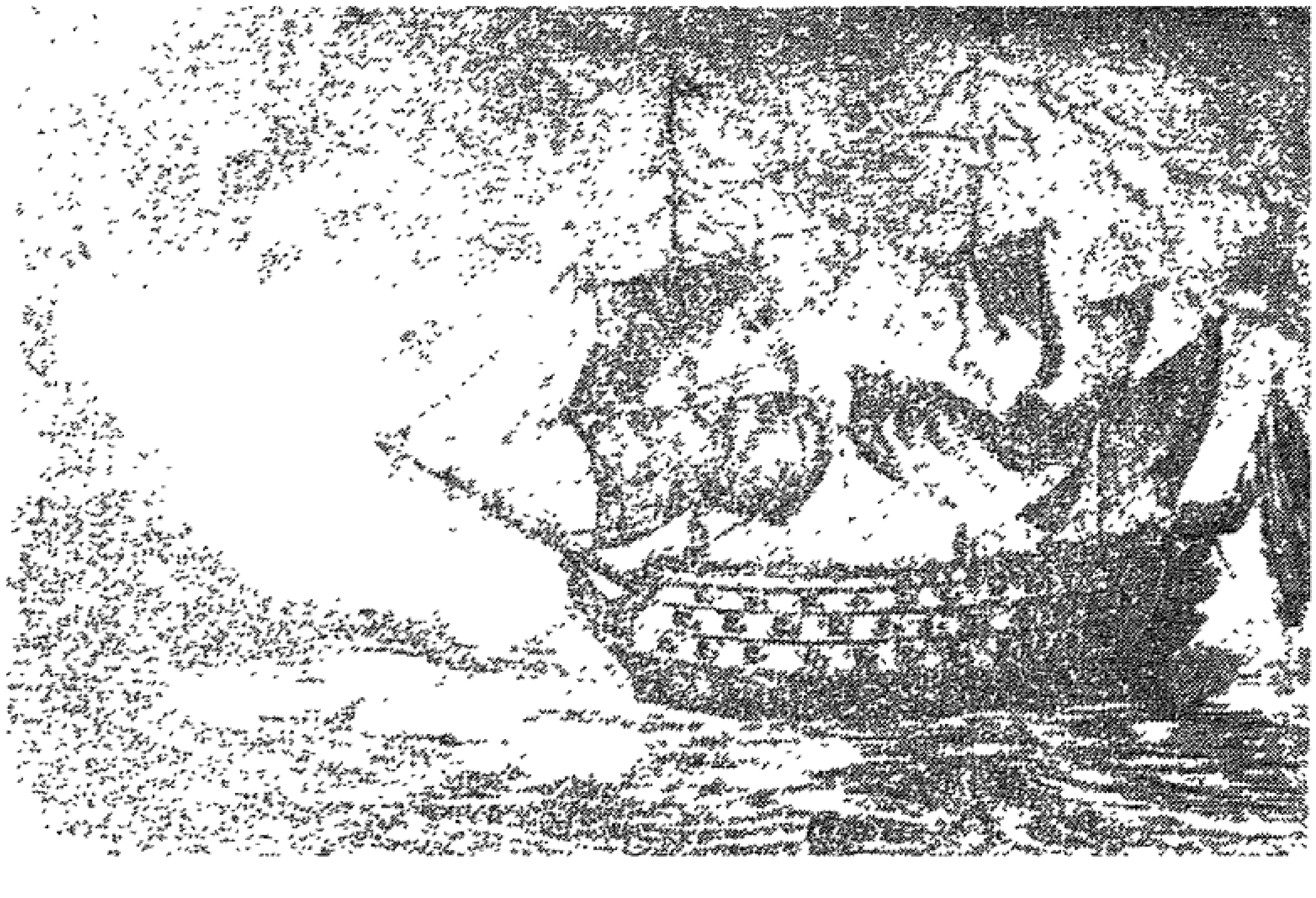

لوحة عن معركة العاشر من تموز ١٦٩٠ في بيفيزييه

من سبع أو ثمان سفن هولندية كانت في متناول مدافعي • وما أن انتهى المد حتى رفعوا مراسيهم وراحوا يجرّون سفنهم بالزوارق ، وكانت سفناً مسطّحة ، قليلة الغاطس بالماء ، وبالتالي أسهل سحباً من سفننا (•••) ولا يجوز أن يساوركم ريب

في أن سفننا لم تتعرض لكثير من العطب بعد معركة استغرقت ثماني ساعات ، ولكن أكثريتها كانت تفتقر للذخيرة تماماً ، ومع ذلك طاردنا الجيش المعادي » .

وبعد أن أورد بعض الثناءات المتملّقة حول سلوك قباطنته خلص «دو تورفيل» الى القول : « لقد وجدت أن الاعداء قد حاربوا بكفاءة ، ولم يكن هناك سوى « هربرت » وأعوانه الذين لم يرموننا عن كثب ، والذين لم يتعرضوا الا لسفن « الماركيز دامفرفيل » . ولو كانت الريح في جانبنا لكانت العملية أقرب للكمال ». ولكن باستطاعتك أن تطمئن الملك بأنه لم يكن من المستطاع أكثر مما فعلنا ؛ لأن الريح كانت حليفة أعدائنا .

الاميرال الانكليزي في برج لندن :

وكانت النتيجة أن خسر الهولنديون أربع عشرة سفينة ، والانكليز ثلاثاً ، ولكن الاميرال « تورفيل » لم يخسر ولا واحدة . هذا كما تمخضت المعركة عن سقوط اربعمائة قتيل ، مقابل خمسمائة جريح من الجانب الفرنسي . وأنزل الاسطول الفرنسي ٢٨٠٠ مريضاً في الموانىء النورماندية ، فضلاً عن عدة آلاف آخرين في ميناء برست ، لأن وخامة سفن ذلك العصر كانت أكثر إضراراً من قنابل الأعداء . وقد استاء الوزير الفرنسي « سنيوليه » من عدم استخدام ميناء بولونيه ، وكاليه ، ودونكرك بناء على موافقة شخصية من القائد العام للأسطول ، حيث اتخذت كل الاستعدادات بصورة مسبقة . غير أن الموانىء المذكورة لم تكن مهيأة تماماً لترميم وتجهيز السفن التي كانت تنتظر الإبحار الى ميناء برست على أحر من الجمر .

غير أن تفاصيل هذه المعركة الرائعة جعلت وزير الحربية يتغاضى عن هذه الأمور . وقد مات بعد أربعة أشهر من تلك المعركة ، ولم يكن يتجاوز عمره التاسعة والثلاثين ، بعد أن أضناه الافراط في العمل والشراب والحياة الماجنة .

أما من الجانب الآخر من بحر المانش فلم يكن لدى الاميرال هربرت ما يتباهى به ، ووجّه اليه الاتهام بأنه ضحّى عن عمد بالهولنديين ـ وهم أكبر الخاسرين في

فوربـــان

هذه القضية ــ فحكم عليه بالسجن في برج لندن لمــدة بضعة أشهر قبل أن يقــدم للمحاكمة في محكمة عرفية • ولم يعهد اليه فيما بعد بأي منصب قيادي • ترى كيف لا تتفق مع الكاتب « كلود فارّير » الذي قال في كتابه « تاريخ البحرية الفرنسية »: ليس من معركة بحرية ، في كل تاريخ فرنسا ، كمثل هذه تستحق التمجيد والفخار، وتثبيت الثقة في مصائر شعبنا المستقبلية » • هذا صحيح ، ولكن كم من الفرنسيين يعرفون اليوم مقدار العظمة الذي يرتبط بهذه الكلمة المفردة « بيقزييه » ؟

شيزابيك

• ايلول ١٧٨١

معركة صغيرة ... ونتائج كبيرة

لم تكن مآثر پول جونز الحربية كافية لأن تمنح الولايات المتحدة نصراً حاسماً على حكامها الانكليز ، فلم يكن « المتمردون » يملكون أية قوة بحرية على سواحل أمريـكا الشمالية . وكان من حسن طالعهم أن كانت فرنسا مطمئنـة على سلامـة حدودها القارية ، لذا قررت أن تساند قضيتهم جهاراً فأعلنت الحرب على انكلترا . ولم يتردد لويس الخامس عشر في أن يرسل الى هناك في عام ١٧٧٨ أسطول نجدة ، مؤلفاً مـن اثنتي عشرة سفينة ، عهـد بقيادته الى اللـواء البحري الكونت هنري ديستان[1] ، وهو عسكري محترف انتقل متأخراً الى الجيوش البحرية . وفي عـام ١٧٧٩ دعمت هذه الفرقـة بأربع سفن بقيـادة رئيس الاسطول الكونت فرانسوا دوغراس ، وبسفينتين تحت إمرة الماركيز « دو ڤودروي » ثم أردفتها ست سفن من أسطول دولاموت پيكيه ، أي أصبح الاسطول يضم أربعاً وعشرين سفينة جيـدة التسليح قامت ببعض المناوشات ضد بعض قطع البحرية الملكية البريطانية التي لـم تكن تتمتع بوضع متفوق .

وفي بداية عام ١٧٨١ وفي أعقاب بعض النكبات ، كسقوط مدينة شارلستون ، في كارولينا الجنوبية ، وخيانة الجنرال آرنولد ، أصبح الجنرال واشنطن ، المحاصر في وادي الهدسن ، يتساءل قلقاً عن المصير القـادم . ولم يكن تحت تصرفه سـوى

---

(١) وهو من أجداد رئيس جمهورية فرنسا الاسبق فاليري غيسكارديستان .

قرابة ألف رجل لحماية ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبيـــة • أما قوات الجنرال الفرنسي روشامبو فقد كانت معزولة في نيوپورت ، وكانت تقتـــل الوقت في اللعب وبمغازلة النسوة ، وكانت هناك ضـــرورة للتجمع من جديد قبـــل أن يحدث انهيار كارثي •

الكونت دو روشامبو

دوغراس : دقـــة في الموعـــد :

وفي السادس من تموز ١٧٨١ بينما كان دوغراس ، وهو على رأس أسطـــول مؤلف من عشرين سفينة قتال كبيرة، وفرقاطات، وغربان[٢] ونقـّالات وسفن تموين، أقول بينما كان يلقي بمراسيه في رأس فرانسيه ، في جزيرة هـــاييتي ، تلقـّى رسالة مستعجلة من روشامبو ، أو بالأحرى اقتراحاً ، ذلك أن قائد القوات الموفدة لنجدة

(٢) جمع غراب ، أو سفينة (Corvette) ، وهي سفينة حربية قديمـــة ، وسيطة بين الفرقاطة وسفينة بريك (Brick) .

الأمريكيين كان يعلمه فيها بأنه ، على أثر لقاء مع زعيم الثورة واشنطن ، تمّ الاتفاق على القيام بعمل مشترك يضم القــوات البرية والبحرية ، وأن أمر اختيــار ساحــة المعركة فقد تركاه لتقديره ، لأن مساندة القوات البحرية هي الحاسمة وذات القول الفصل . وهنا كان على دوغراس أن يختار بين قطــاع نيويورك ، وهو القاعــدة الرئيسة للقوات البريطانية ، وبين قطاع هامبتون رودس، في مدخل خليج شيزابيك. ولم يتردد في اختيار الثاني ، حيث يتوفر هناك احتمال أشد في أن يكون تدخله أكثر نجاعة. وكان الجيش الانكليزي، بقيادة الجنرال شارلز كورنواليس ، والذي يتألف من سبعة آلاف من المحاربين الأشداء ، قد هرع من ولايــة كارولينا ومن ڤرچينيا ، ورابط هنــاك في السادس من تموز ، وكان علمــه يخفق فــوق مدينتي يوركتاون وغلوسستر ، أي على ضفتي نهر جيمس المتقابلتين .

وما أن اتخذ دو غراس قراره حتى بعث بفرقاطة سريعة لإطلاع روشامبو على المكان الذي اختــاره لأرض المعركة ، وأركب الى جزيرة سان دومينغ مفارز مــن أفواج الغاتينيين(٣) والآجينيين(٤) ومن أبناء اقليم تورين ، قرب نهر اللوار ، وكان مجموعهم قرابة ثــلاثة آلاف رجــل بقيادة الماركيز سان سيمون كي تكون مــدداً للقوات الفرنسية الأمريكية الحليفة ، هذا كما حمل معه مبلغ ١٢٠٠٠٠٠ جنيه التي طلبها منه روشامبو لتوزيعها على المعمّرين (Colons) الأوروبيين ، ذلك أن هؤلاء بدءوا يتململون من تكاليف الحرب ، لهذا اكتتب لهم سكان هاڤانا الإسبان بمبالــغ طائلة من المال كرد فعل ضد الانكليز . وأقلع دوغراس في الخامس من آب. ووصل خفية سالكاً طريقاً غير مطروقة كثيراً إلى أن ظهر في ٢٨ من شهر آب أمام شيزاپيك.

ولما كان سنّ دوغراس يناهز الستين عاماً فقد كان يفتقر للموهبة التي تجعله محبوباً لدى الآخرين . ذلك أن تجهّمه واكتناز جسمه لم يكونا في مصلحته ؛ لهذا درجت رباعية رديئة بين جنوده تقول :

---

(٣) نسبة الى اقليم (Gatinais) غاتينيه جنوب غرب باريس .

(٤) نسبة الى مدينة آجــن (Agen) في اقليم لوت وغارون ، جنوب غرب فرنسا .

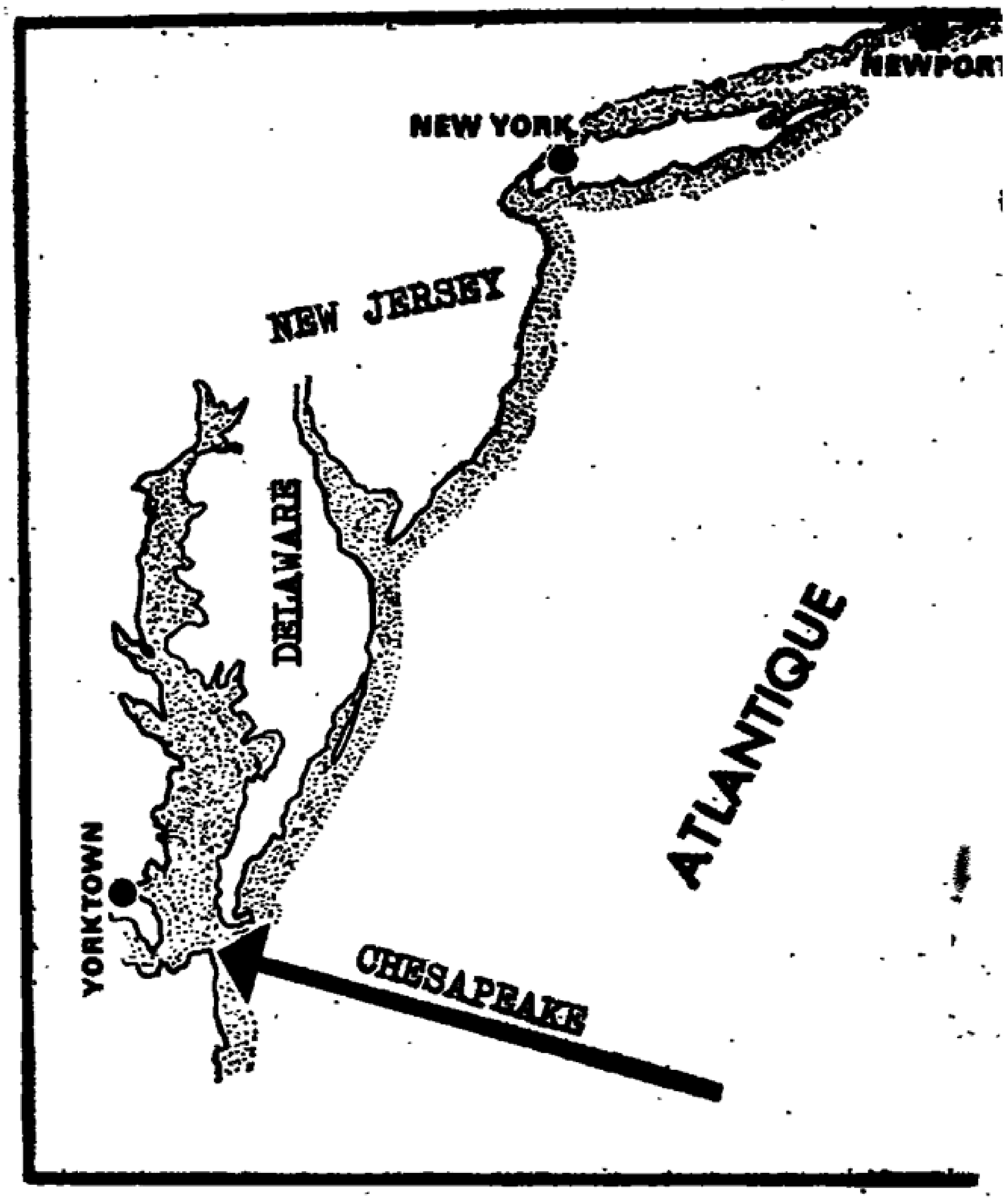

خارطة معركة شيزابيــك

مجنّح باللحم ومحشو بشحم الخنزير •
وبكلمة موجزة كانت الطبيعة والفن
يحلمان بالغمد أكثر مما كانا يفكران بالنصل
في الوقت الذي شيّد أسوار نفسه •

بيد أنه كان بحاراً شجاعاً ، ورجلا مستقيما ، مقداما ، جسورا • وقد اتخذ من السفينة « ڤيل دو پاري » مركزاً لقيادته ، وهي سفينة قتال أنزلت الى البحر عام ١٧٦٤ ومسلحة بمائة وأربع مدافع • وكان يعمل تحت إمرته ثلاثة من كبار رجال البحرية وهم : بوغاڤيل ، توشتريڤيل ومونتاي° •

ولما علم روشامبو بنوايا دوغراس ، غادر نيوپورت للقيام بمسيرة خادعة باتجاه نيويورك • وعندما أفلح في خداع الخصم ، ترك المدينة على يساره ، وقطع مراحل مستعجلة ، تحت شمس محرقة ، واتجه نحو نيوجرسي حتى خليج ديلاور ، الذي اجتازه عند مخاضة ترانتون بين الأول والثاني من ايلول • وفي الرابع من الشهر المذكور كان في فيلادلفيا ، حيث قام باستعراض قواته أمام بناء الكونغرس بحضور حشد كبير من السكان • وفي الخامس من ايلول أنزل قواته في مدينة شستر حيث كان واشنطن بانتظاره ، واقفاً على الساحل ، وهو يحرك قبعته ومنديله ، ولم يتمالك من الارتماء بين ذراعيه حينما وطأت قدماه الارض • وفي اليوم نفسه سجّل دوغراس اسمه في التاريخ من خلال نصر ذي مدى متواضع نسبياً ، ولكن كانت نتائجه تتفوق كثيراً على أكبر المعارك البحرية في عصره •

الاسطول الانكليزي يفوّت فرصة نادرة :

لقد انتقلت قيادة القوات البحرية الى عاتق العميد البحري توماس غزافز ، نظراً لغياب الأميرال رودني ، الذي عاد الى انكلترا للعناية بصحته التي لم تكن على ما يرام • ولما كانت راية غرافز فوق السفينة « بارفلور » ذات المائة مدفع فقد اتجه نحو عرض البحر لقطع الطريق على اسطول الكونت دو بارّاس ، المؤلف من اثنتي عشرة سفينة حربية ، تقوم بحراسة ناقلات الجنود – أو مفرزة شوازي – ومدفعية الحصار ، الموفدة لدعم القوات الامريكية • وفي ٢٥ آب ألقى نظرة على خليج شيزابيك فوجده خاوياً • عندها صعد في اتجاه الشمال حيث ألقى مراسيه في الثامن والعشرين من الشهر المذكور في مدخل نهر الهدسن متصوراً نفسه في وضع ممتاز كي يقطع الطريق على العمارة الفرنسية فيما اذا خطر ببالها مهاجمة نيويورك ، هذا حسبما كانت مسيرة روشامبو توحي له •

وفي الوقت ذاته رابط الكونت دو غراس في خليج شيزابيك في الوقت الذي ترك فيه سفينتين عند كل من مصب نهر يورك ونهر جيمس لإغلاق مدخلهما ولقطع أي اتصال مائي على الانكليز • وهكذا جعل المقدّم كورنواليس محاصراً تماماً من جهة البر وفقد أي أمل في النجدة الوحيدة الممكنة ، أي التي تأتيه من عرض البحر •

لويس انطوان كونت دو بوغانفيل قائد طليعة الاسطول الكونت دوغراس

ترى هل استشعر العميد غرافز بنوع من مكيدة ؟ من الممكن تصوّر ذلك، لهذا قام بتجميع عمارته التي تضم عشرين سفينة ، وقرر الهبوط جنوباً مرة ثانية • وانقسم اسطوله الى ثلاث مجموعات ، وكان هود في الطليعة وصار غرافز في الوسط، ورايته فوق السفينة « لندن » ذات المائة وثمانية مدافع ، في حين كان صموئيل فرانسيس درايك في المؤخرة ، ورايته فوق السفينة « برنسيسّا » المسلحة باثنين وثمانين مدفعاً •

وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح الخامس من ايلول حاذى ساحل ماريلاند وكانت الريح تدفعه من خلفه ، وراح يتجاوز رأس شارلز عندما كانت الراصدات تشير لوجود بعض الأشرعة التي تلوح في الأفق • والحقيقة كانت هذه الاشرعة القليلة هي قلوع الاسطول الفرنسي الراسي في لينهاقن •••هذا الاسطول

Le comte de Grasse.

الكونت دوغراس

الذي فوجيء هو أيضاً عندما أبصرت فرقاطته الاستكشافية أشرعة من جهةالشرق ، متجهة نحو الخليج • وكان هذا الاسطول لا يتوقع مواجهة العدو بمثل هذه السرعة نظراً لأن ١٥٠٠ رجلا و ٩٠ ضابطا كانوا غائبين ، ومنهمكين في سنبوكاتهم في إنزال قوات الماركيز سان سيمون ، بحيث لـم يستطيعوا الاشتراك في المعركة • غير أن الكونت دوغراس الذي كان فوق سفينته ، « ڤيل دوپـاري » لم يتريث كثيراً في اتخاذ قراره • فقد خشي أن يسقط في الفخ ، كما حصل في الماضي للأميرال دوكندو في مرسى ليه دون ، فأصدر أوامره بالاستعداد للمعركة والتأهب للإقلاع دون تفويت أية ثانية من الوقت • وعند الظهيرة ، وعندما سمح تيار المد بنشر القلوع ، نصّب راية الانطلاق مع الأمر بترك الكابلات مسحوبة عوضاً عن رفع المراسي « الهلب » ، لأن رفعها عبارة عن مناورة لا نهاية لها عندما كانت العملية تتم بالأيدي بواسطة الرحوية Cabestan • وخلال مدة تقل عن النصف ساعة كانت الصواري والعوارض العليا

مكسوّة بالقلوع ، وراحت السفن تراوغ في مسيرتها في القنال ، التي لايزيد عرضها عن ثلاثة أميال ، والتي تفصل بين رأس هنري وبين القيعان الرملية الضحلة في ميدّل غراوند ، كي يفلت من هذا الخليج حيث كان من المحتّم عليه أن يحارب في أكثر الظروف رداءة • وقد كانت مناورة عسيرة بالنسبة لسفن ثقيلة كهذه والتي كان عليها أن تقوم بمسيرة حسب خطوط متكسّرة متراصّة • وبفضل الله أمكن تحقيق ذلك بصورة تثير الاعجاب •

غير أن غرافز لم يعرف كيف يستغل فرصته السانحة • وبدلاً من أن يهاجم السفن الفرنسية على الفور ، الواحدة تلو الأخرى ، في الوقت الذي كانت تحاول فيه التملّص من الخليج ، فقد تركها تخرج بكل سكينة لتتخذ وضع تشكيلةقتالية• وهكذا فاتته إحدى تلك الفرص « التي تتجاوز أكثر الأحلام روعة من نوع التي يمكن لقائد بحري أن يتجرّأ على تصوّرها » كما ذكر ذلك فيما بعد أحد الكتاب البريطانيين •

ولما كان غرافز ذا عقلية فروسيّة أكثر منها استراتيجية ، فقد اكتفى باستغلال ميزة الريح ، واتخذت قواته الأهبة لمعركة تقليدية ، أي مقدّمة ضد مقدّمة ، واسطول مقاتل ضد اسطول مقاتل الخ •••

ولسوء حظه ارتكب خطيئتين : أولاهما عجزه عن إفهام مرءوسيه لافتقاره لسلاح إشارة مناسب للموقف ، إذ لو كان عنده جهاز والكي تالكي Walkie-talkie لتغيّر تاريخ العالم ، وثانيتهما كانت تغيير أمره الأول • فقد ترك في مؤخرة حراسته القائد التكتيكي الممتاز صموئيل هود ، الذي كان معطّلا من الناحية العملية ، هذا في الوقت الذي كانت مقدمته مسنودة الى درايك « وهو ضابط كبير الاسم ، ولكن قيمته دنيئة » •

الريح تحجز بين المتحاربين :

لقد استغل الجانب الفرنسي هذه المهلة غير المنتظرة أحسن استغلال ، فقام الأسطول بمناورة حاذقة جداً وكان خط القتال أفضل تشكيلاً • وكان في المقدمة

العميد البحري توماس غرافز

الكونت لويس دو بوغانفيل ، وعمره اثنين وخمسين عاماً ، وكانت له خدمةعسكرية طويلة ومجيدة ، وكانت شارته فوق السفينة « اوغستا » ذات الثمانين مدفعاً . واستأخر بوغانفيل بمهارة وقت الاشتباك بكل برودة أعصاب وبذلك ترك الوقت

الكافي للاسطول لاتخـاذ الوضع القتالي المرغـوب • وكانت هذه المبادهة هي التي جعلت الكونت دوغراس يمنحه فيما بعد الشهادة المادحة بأنه هو الذي يستحق تهنئة النصر •

الاميرال صموئيل هـود الذي كان تقاعسه مؤلما

وكانت الساعة ١٦ عندما احتدم أوار المعركة بين المقدّمتين ، على مرمى رمـاة السفن الطليعية • وتلقّت السفينة « ريفليشي » أول رشقة من القنابل الانكليزية ، وسقط قائدها القبطان دو بورديه قتيلا • وتعرضت أربع سفن من المقدمة الفرنسية ناراً جهنمية مماثلة • وأخذت احداها وهي السفينة « ديادیم » بالإحتراق • واقترب بوغانفيل لينهك السفينة الانكليزية « تيـّريبـل » بقساوة بحيث عجزت عن البقـاء فوق سطح الماء ، فهجرها بحارتها الانكليز بعـد أن أضرموا فيها النيران • وخسـر

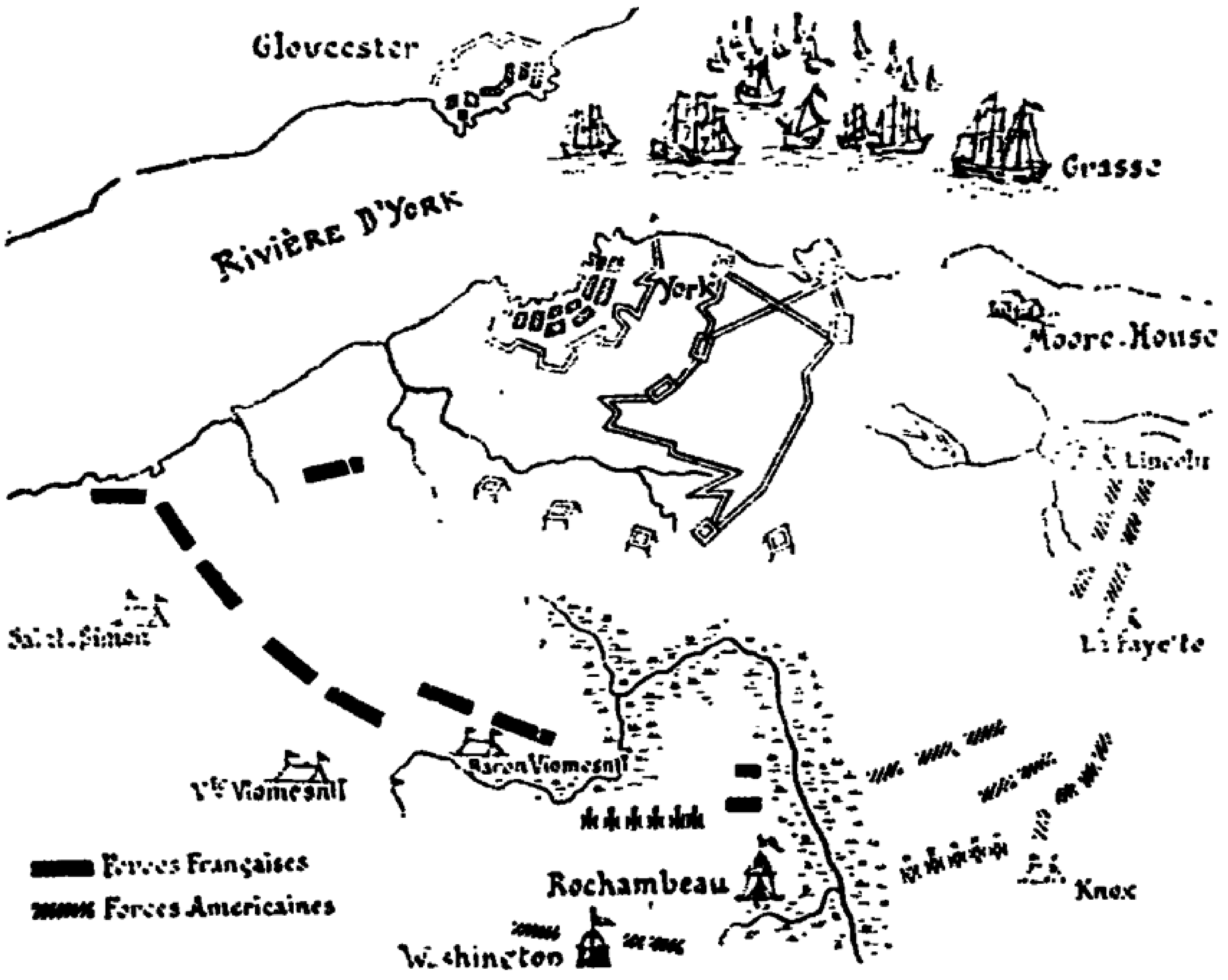

مخطط حصار يوركتاون ، عن خارطة قديمة محفوظة في قصر دو روشامبو

بوغانقيل في هذه المعركة كابل عمود الصاري العلوي الأمامي ، وهو حبل يستخدم في توجيه الشراع ، والذي أطاحت به قذيفــة ورأى اثنين من رجاله وهمــا يسقطان صريعين عند محاولتهما استبداله بآخر ، وعندها صرخ « أقدم كيس نقودي هديــة لمن يعيد هذا الحبل لمكانه » وهنا اندفع بحار هاتفاً « أيها الأميرال لا داعي لأن تدفع لي شيئاً لكي أقوم بواجبي » وأفلح في ذلك .

وأخذ الفرنسيون يرمون السفن الانكليزية المتقدمة للهجوم رمياً ضاماً وراحوا يقصفونها قصفاً كثيفاً . وقد تحاشت المؤخرة الانكليزية بقيادة هود ، الذي ظل على الدوام في اتجاه الريح ، أقول تحاشت هجمات السفن الفرنسية ، التي كانت بقيــادة الفارس دو مونتاي° ، الذي كانت شارته فوق صــاري السفينة « لانغدوك » ذات الثمانين مدفعاً والذي حاول أن يجرّ هود الى المعركة . وادّعى هود المستاء ، فيما

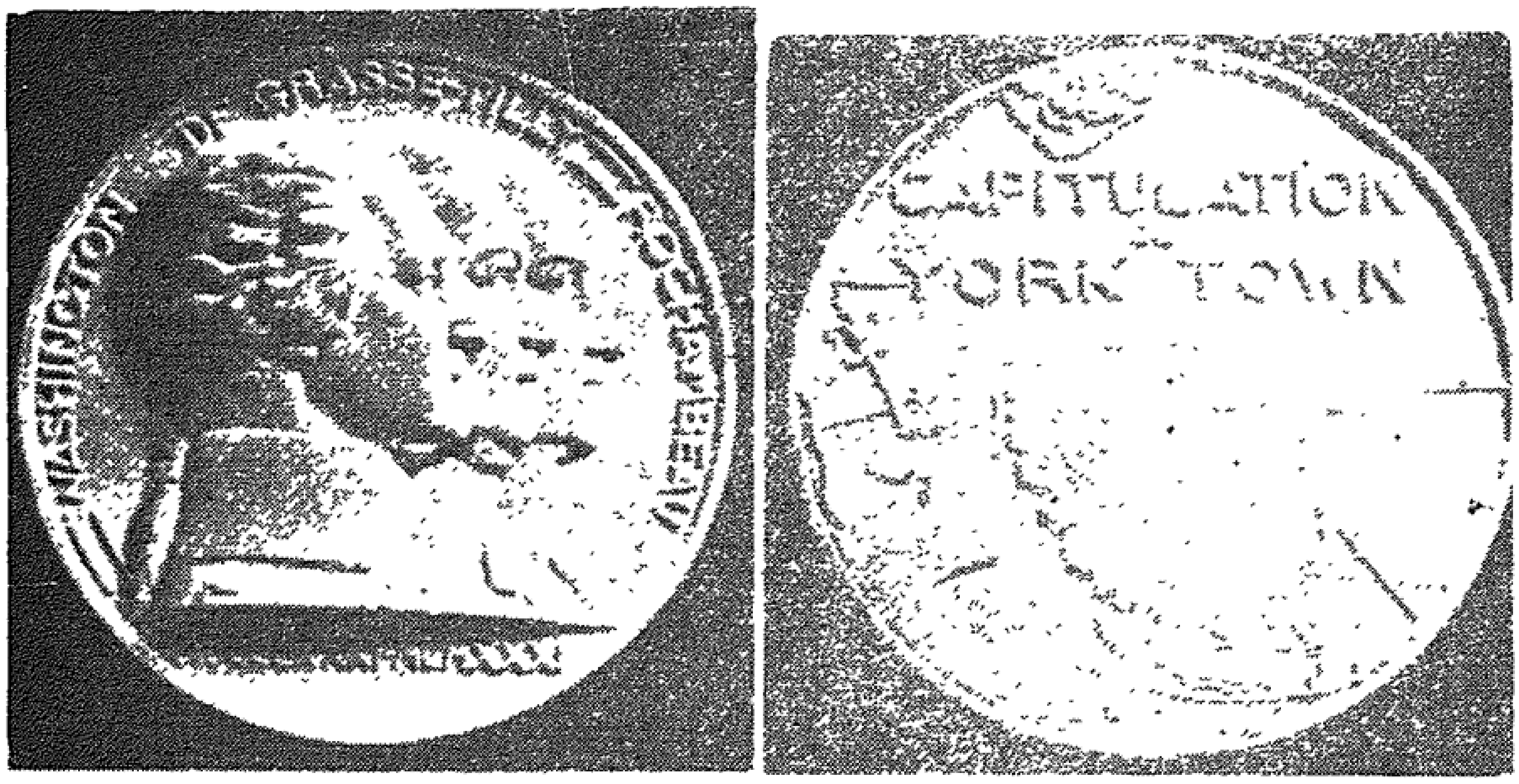

مدالية الذكرى المئوية لمعركة يوركتاون ، من حفر توران ، في ١٩٣١ ويظهر من اليسار جانبية وجـه واشنطن ، دو غراس وروشامبو . والى اليمين مخطط المعركـة .

بعد ، أن غرافز أهمــل تبليغه إشارة الهجوم تاركاً رايــة الاحتفاظ بالسفن مرتصفة خلف بعضها البعض . وهو مثال طيب عن طاعة عمياء . وبذلك افتدى هود نفسه.

« واترلو بحريــة » :

لقد خسر الفرنسيون في هذه المعركة ، غير الحاسمة في الواقع ، ٢٢٠ رجلا بين قتيل وجريح ، مقابل ٣٣٦ رجلا في الجانب الانكليزي . كما كانت خسائرهم المادية أقل من الخسائر الانكليزية ، إذ لم يتعرض للعطب فعلاً سوى السفينتان «ديادِيم» و « كاتون » . أما الجانب البريطاني فقد خسر ، فضلاً عن السفينة « تيـّريبل » ، السفينـة « آنترپيبـد » و « پرنسيسّا » و « شريو سبوري » و « آجـاكس » و « مونتاغو » والتي تعرضت الى تقطّع صواريها وعوارضها فضلا عن شقوق فاغرة في خواصرها الخ ..

وعلى كل لم يكن ذلك عبارة عن هزيمة ماحقــة بالنسبة للانكليز ، ولكن كان ذلك قليلا بالموازنة مع نتائج ذلك اليوم الخالد . ولما كان واشنطن وروشامبو واثقين

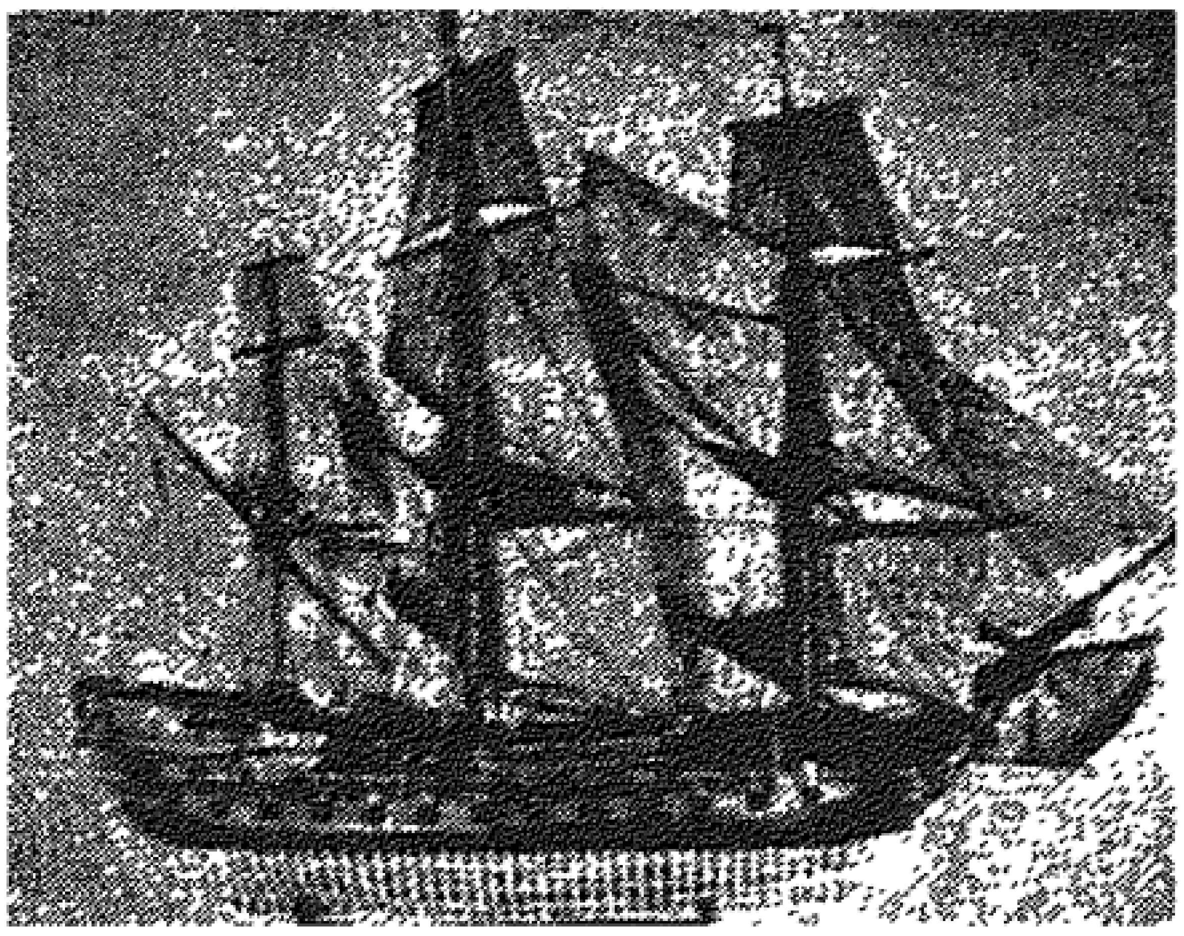

« بروتكتور » سفينة ذات ٦٤ مدفعا من عمارة دوغراس

من قدوم نجدات الأميرال بار"اس الفرنسي فقــد كر"سا جهودهما لإحــكام فكـّي الملزمة حــول ميناء يوركتاون • ومــع ذلك كان لديهما ما يكفي من وقت للتمتــع بالمنظر المشجـّع لدن اصطفاف ست وثلاثين سفينة بقيادة الكونت دوغراس وكونت بار"اس ، والتي كانت منتشرة مــن رأس هنري حتى رأس شارلز لتقطــع طريــق الانسحاب في وجه اللورد كورنواليس • وعقدوا مجلساً حربيــاً على متن سفينــة الأميرالية « ڤيــل دو پــاري » حيث كان البحارة المتناثرين فوق كل العوارض على شكل ستارة بشرية ، وهم يحيـّون بهتافاتهم الحماسية ذهــاب القادة برشقة مــن بنادقهــم •

ولما علم كورنواليس بأن بقية الاسطول الانكليزي قد آثرت الانسحاب وقنط من وصول أي نجدة ما دام دوغراس قد سد" عليه كل المنافــذ ، طلب الاستسلام • وفي التاسع عشر من تشرين الأول كانت قواته تمر صفوفاً أمام المنتصرين طارحــةً أسلحتها أرضاً • وهكذا أصبحت معركة استقلال الولايات المتحدة مؤكدة • وعليه منح انتصار معركة شيزاپيك البحرية النصر المؤز"ر لواشنطن بكل تأكيــد ، تمامــاً كما لو كان كريفز قد أفلح في سحق القوات الفرنسية الامريكية الى جــانب انتصار

لافاييت يستقبل روشامبو و واشنطن أثناء حصار يوركتاون

كورنواليس • وقد تمت موازنة هزيمة الاسطول الانكليزي ، فيما بعد ، بنوع من « واترلو بحرية » ، كانت أكثر ثقلاً مـن حيث نتائجها من انتصـار ويللنغتون في سهل واترلو الكئيب على قوات الامبراطور نابوليون الأول بعد ذلك التاريخ بأكثر من ثلاثة عقود من الزمن •

واعترافاً من الكونغرس للكونت دوغراس بجميـله بسبب المهـارة وابسالة اللتين برهن عليهما أسطوله في مطاردة البحرية البريطانية من « النقطة الساخنة »التي كان وجودها قادراً على تغيير مجريات الأمور ، فقد قـدّم اليه الكونغرس أربعـة مدافع من التي غنمت في يوركتاون ، والتي وضعها بعـد ترخيص من الملك لويس الخامس عشر ، في مدخل قصره في بلدة تيلّلي • وفي أعقاب هزيمة دوغراس أمـام الأميرال رودني الانكليزي بتاريخ ١٢ نيسان ١٧٨٢ ، أي بعـد ثمانية شهور مـن

معركة بحرية بين سفينة أمريكية وبين سفينة بريطانية في معركة شيرانيك

الزمن ، في أرخبيل القديسات ، في غرب فرنسا ، حيث خسر معركة أمام مدفعيةأكثر إحكاماً من مدفعيته ، تلقّى المواساة من خلال رسالة بعثها اليه واشنطن كتب فيها : « تبرهن صروف الدهر القاسية على أن أكبر الأبطال هـم دوماً من بني البشـر ، وعرضة لصروف الحظ الذي يظل سيداً عشوائياً في توزيع أفضاله . إنها مثل غانية مغناجة حقيقية ، والتي تجد متعتها أحياناً في إلحاق الكروب بأولئك الذين يتمتعون بأفضل سلوك والذين هم أقل الناس استحقاقاً لها » .

نيغاباتام

٦ تمــوز ١٧٨٢

« القاضي دوسوفرن يعمل على ترجيح استراتيجيته في خليج البنغال »

لعل من المناسب تثبيت اسم القاضي سوفرن بين الأوائل من كبار رجال البحر الفرنسيين فقد عرف ببسالته ويقظته ورباطـة جأشه وعناده • وقد اشتهرت حمـلة الكاب والهنـد ، مع انها لم تكن مجهزة بأكثر من امـدادات هزيلة وبعمـارة[1] بحرية متباينة الطراز والاجيال ، وبضباط ضعاف غير انضباطيين •

في الطريق الى الهنـد :

ولد بيير أندريه دوسوفرن دوسان تروبيز ، في السابع عشر مـن شهر تمـوز ١٧٢٩ في جنوب فرنسا • وقد سبق له ، قبل هذه المعركة أن حارب الانكليز ورجال البحر المغاربة ، في عرض البحر الابيض المتوسط ، كما حارب في جزر الهند الغربية الامريكية ، وعند الالتحام مع عمارة الاميرال هاوك الانكليزي سقط أسيراً ، ممـا أتاح له تعلم اللغة الانكليزية لأنه كان يمقت تبديد الوقت • وبعد ستة أعوام عرف مرة أخرى مرارة الأسر في معركة لاغوس ، لان الانكليز خرقوا عن عمد حياد هـذا المرسى البرتغالي ، الذي كان قد لجأ بسفينته اليه • فاستطاع سوفرن ، بعد ذلك ، أن يرد للانكليز الصاع صاعين • فبعد أن أطلق سراحه عن طريق المبادلة عاد للخدمة في البحرية ، ولكن ترقيته كانت وئيدة الخطى• وعندما تبنت فرنسا قضيةالامريكيين الذين ثاروا على حكامهم الانكليز ، كان سوفرن يقود سفينة مسلحة بأربعة وستين مدفعاً •

---

(١) العمارة طائفة من السفن الحربية تكون معا تبحر في آن واحد •

وعندما عاد الكونت دوغراس الى فرنسا ، في عـام ١٧٨١ ، بحثـا عن سفن لمساعدة القائد الامريكي واشنطن وحليفه القائـد الفرنسي روشامبو . وأقلع مـن ميناء برست كان سوفرن بصحبته ، وكان لايزال ربانا بسيطا لاحدى السفن ، يبلغ من العمر اثنين وخمسين عاما . ولكن المسافة محـددة من الطريق لا تتجاوز جـزر آزور ، في المحيط الاطلسي . وعند بـلوغ جزر ماديرا ، انفصل عن بقية القـافلة البحرية وحده كي يتجه نحو الجزيرة التي اتخذت بعد ذلك اسم جزيرة « موريس » في المحيط الهندي وكان عليه أن يتوقف في أثناء طريقه في رأس الرجاء الصالح الذي كان حينذاك في أيدي الهولنديين المرتبطين آنذاك بحلف مع فرنسا ضـد انكلترا ، وأن يعد ميناء الكاب للدفاع . وكانت فرنسا ترى أن من الضروري تحصين هـذا الموقع ، لانه كان يؤلف محطة ممتازة على طريق الهند . وكانت البحـرية الهولندية آنذاك عاجزة عن حماية مستعمراتها التي كلفت حكومة هولندا من أجل الاستيـلاء عليها الكثير من الجهود المضنية . وكان على « سوفرن » أن ينزل في ميـنـاء الكاب حامية تردع الانكليز عن أية رغبـة في احتـلال الكاب الذي خططت لندن مسبقا لاحتلاله والمعروف أن انتزاعه من هولندا سيؤدي حتما الى ضياع باتافيا (جاكرتـا الحالية) وسيلان (سريلانكا الحالية) وكذلك بقية ممتلكاتها الأخرى ، في خليـج البنغال ، وعلى ساحل كورومانديل ، أي على الساحل الشرقي من شبه جزيرة الهند. ويبدو مما تقدم مدى اهتمام هولندا بهذا الموقع الاستراتيجي الذي عهدت بحمايته لفرنسا ، آخذة على عاتقها دفع مرتبات الجنود الفرنسيين . وكان الهدف الآخر لمهمة سوفرن هو قيادة فرقته الى جزيرة فرنسا ، محمولة على ناقلات ، كان الغرض منـا دعم القوات التي يقودها هناك الكونت دورف ، وهو عقيد بحري أيضاً . ولكنـه متقدم على سوفرن في الرتبة .

قام الماركيز دوكاستري سكرتير الـدولة الجديد للشؤون البحـرية باختيار السفن التي ستتألف منها الفرقة البحرية وكان قوامها : السفينة هيرو : وهي سفينة جديدة ذات ٧٤ مدفعاً نصب عليها سوفرن رايته . وهانيبعل ، وفانجور ، وسفنكس ، والارتيزيان ، هذا فضلا عن فرقاطتين . وهكذا كانت القافـلة تضم ست ناقـلات

وسفينة سويدية استأجرها الملك وقافلة متجهة الى السنغال ترمي الى تبديل الحامية وتضم ست سفن صغيرة •

وعندما افترق سوفرن عـن دوغراس ، كي يبدأ رحلته الطويلة ، بـدأ يشعر ولأول مرة بعد طول انتظار انه بلغ درجة معينة في حياته العسكرية • فقـد أصبـح يقود عمارة بحرية متواضعة فعلاً ، ولكنها مستقلة • وأخيراً سنحت له الفرصة كي يستغل خبرة تراكمت لديه خلال ثمان وثلاثين عاماً من الخدمة في الأسطول الحربي، ولكي يقوم بتطبيق نظرياته الخاصة ، وقد كانت مبادرته الأولى ضربة صائبة •

نصر مضاعف :

وتشاء المصادفة ان ذهبت احدى سفنه للتمون بالماء العـذب فكان من حظهـا أن باغتت في مرسى برايا في جزر الرأس الأخضر بتاريخ ١٦ نيسان ١٧٨١ قوة بحرية انكليزية راسية دون أي احتراز • وقد ألقت مراسيها بشكل فوضوي منهمكة فـي تجديد مؤونتها من الماء العذب وكانت هذه الفرقة موجهـة لمهاجمة الكاب وكانت تضم ست سفن حربية هي : مونماوث ، وايزيس ، وهيرو ، وفورتيتدد ، وجوبيتير، وآكنيف ، موضوعة تحت إمرة القائد جورج جونستون وهو بحار جيد طمـوح ، لكنه كان يبالغ في تقـدير قيمته الذاتيـة • ورأى سوفرن أن القضاء على قـوات جونستون في مرسى لابرايا ، سينقذ الكاب ، التي كانت على مسافة ٨٠٠٠ كيلومتر، مما سيؤدي الى تفوق الراية الفرنسية في الهند الواقعة على مسافة ١٥٠٠٠ كم عـن هذا الموقع الذي هو فيه وكان رد الفعل الذي يتنافى مع اتجاهات القرن الثامن عشر من حيث توجيهها هو الاهتمام بالناحيـة الاستراتيجية مما ينـذر بقدوم الأزمنـة الحديثـة •

وعلى الرغـم من قلة عدد قوات سوفرن فقد اندفع باقدام نحو المرسى غـير عابىء بالحياد البرتغالي وراح يمطر السفن الانكليزية بوابل من مدافعه عـن كثب وكانت المعركة حادة وضارية ، واستغرقت قرابة الساعة والنصف • وعلى أثر هـذه الغارة الفجائية ، انعطف سوفرن وأقلـع أشرعته تاركاً خلفه عمارة انكليزية بحـالة

تدعو للرثاء • وهذه أول نقطة سجلها لحسابه • وهكذا وصل الى الكاب قبل وصول جونستون بشهر كامل ، الذي تأخر بسبب التصليحات والعطب الذي أصاب عمارته ، مما سمح له بتحصين الموقع • وعندما وصل القائد الانكليزي أمام الميناء وكانت الأوامر تقتضي عليه بمهاجمتها ، أدرك أن الوضع قد طرأ عليه تعديل جوهري ، فلم يعد باستطاعته أن ينتقل الى الهجوم مع الموارد الهزيلة المتوفرة لديه • وهكذا ارتأى الاستمرار في طريقه باتجاه الهند بانتظار أوامر جديدة • وهكذا سجل سوفرن النقطة الثانية لحسابه •

الاميرال سوفرن

وعندما اقتربت العمارة البحرية الفرنسية من الساحل الهندي ، كان الفرنسيون يعانون المتاعب في الهند مما اضطرهم للانسحاب من ميناء بوند يشيري • هذا على الرغم من الدعم الذي قدمه لهم سلطان ميسور حيدر علي • والواقع كان لدى الانكليز هناك أسطول قوي الشكيمة مرابط في تلك الانحاء بقيادة السير ادوارد هيوغس وهو من رجال البحر المحنكين • وهنا سارع سوفرن كي يرمم سفنه التي

عانت أكثر من سواها خلال المناوشة في خليج برايا . وجدد تموينه على عجل ومخزونه من الذخيرة ، وراح يمطر رجاله بسيل من الأوامر كي يختصروا وقت مرساهم .

وهكذا أقلع سوفرن بصحبة العفيد دورف وتحت إمرته بتاريخ ٢٧ كانون الاول كي يرى ما يمكن عمله لمساعدة مواطنيه على الساحل الشرقي من شبه جزيرة الهند ، وهو ساحل كوروماندل . وكان في الوقت ذاته يقوم بخفارة قافلة من السفن التجارية كانت تقصد الهند . واستطاع سوفرن أن يأسر هانيبعل احدى السفن الثلاث التي أرسلها جونستون كأول امداد للأميرال هيوغ ، وهي في طريقها اليه . وتشاء المصادفة أن يقع حدث غير منتظر يضعه على رأس الأسطول الفرنسي الهندي كله . فقد مات القائد دورزوف بغتة في ٩ شباط ١٧٨٢ . وقد شعر بدنو أجله في الثالث من الشهر المذكور فعهد بشؤون القيادة الى سوفرن .

تكتيك ثوري :

وبعد أن أصبح القاضي سوفرن حراً طليقاً من الآن فصاعدا تابع طريقة على رأس احدى عشرة سفينة قتال كبيرة ، وثلاث فرقاطات ، وثلاثة غربان (كورفيت) قاصدا مدراس ، على الساحل الجنوبي الشرقي من الهند . ذلك الميناء الذي ضرب عليه الأميرال لابوردونيه الحصار في عام ١٧٤٦ والذي هو الآن في أيدي الانكليز والذين لم يقبلوا أن يؤخذوا على حين غرة . وفي ١٤ شباط شاهد سوفر أسطول الأميرال هيوغس ـ الذي كان دونه عدداً ـ قوامه تسع سفن مقابل سبع عشرة . لكنه كان في وضع قتالي ممتاز ومتمتعاً بتغطية البطاريات الساحلية ، وهو موضع لا يمكن التعرض له . وهكذا عاد القائد الفرنسي باتجاه عرض البحر وسرعان ما سار هيوغس في أعقابه ، اذ استطاع تجاوزه خلال الليل . وأفلح بالاستيلاء على ست سفن تجارية كان الأسطول الفرنسي يقوم بخفارتها والذي عجز عن التدخل بسبب ريح معاكسة . وفي ١٧ شباط أصبح الاسطولان وجها لوجه . وسرعان ما اتخذت أهبة القتال تجاه ميناء مدراس .

وكان الحظ حليف سوفرن ، اذ هبت ريح مواتية ، وفتح النار على السفن الخمس الأخيرة التي كانت تناور لتجتازه ، وقد تعرضت السفينة اكستر ذات الأربعة وستين مدفعا وحاملة راية الكومودور كينغ لنيران حامية ، حتى ساد الاعتقاد بأنها آيلة للغرق ، أو انها ستسقط بأيدي الفرنسيين ، لولا ان هبت ريح معاكسة فجائية ردتها الى بقية قطيعها ، هذا في الوقت الذي كانت السفينة الانكليزية الاخرى سوبرب تتعرض لتثقيب القنابل الفرنسية من خاصرتها ، ولم يصب أسطول سوفرن بأكثر من بعض الخدوش وبثلاثين قتيلا ومائة جريح ، فقد كان يتمتع بدعم ممتاز من ربابنته ، مما جعل نجاحه بارز المعالم أكثر ، ومع هبوط الظلام انفض المعسكران.

وبينما كان هيوغس يتجه نحو ميناء ترانكو مالي لتضميد جراحه ، وهو ميناء سيلاني انتزعه الانكليز من الهولنديين قبل شهر مضى ، كان الفرنسيون يقصدون ميناء بوند يشيري ، الذي سقط بأيدي قوات « حيدر علي » الذي كان أقوى ملوك آسيا وعدو الانكليز اللدود ، وهكذا استطاع الفرنسيون انزال حملتهم سالمة في ميناء بورتونوفو ، اذ حظيت السفن بكل الاصلاحات التي كانت في أمس الحاجة اليها .

وما أن علم سوفرن بمرور العمارة الانكليزية على مرمى مدافعه حتى أقلع نحو عرض البحر ووقع الاشتباك تجاه ساحل سيلان في ١٢ نيسان ١٧٨٢ ، وكان تحت تصرف هيوغس احدى عشرة سفينة حربية ، ولكنه كان شديد الاقتراب من البر ، اذ لم يكن بمقدوره المناورة بسهولة واستخدم سوفرن تكتيكا كان فيه من الفائزين ، اذ هاجم جزءا من الجبهة الانكليزية بمعظم قواته ، تاركا بقية سفنه لتضرب الجناحين ، ودفعت سفينة مونماوث وسويرب قيمة هذا التكتيك ، ولكن ليس دون أن تردا بمقاومة ضارية ، لان السفينة مونماوث تعرضت للتلف تماما بفعل القنابل الفرنسية هذا بينما ذاقت السفينة الفرنسية هيرو مرّ العذاب من جانب سويرب ، حتى أن سوفرن اضطر أن ينقل رايته فوق صارية السفينة اجاكس .

وتوقف الجانبان عن الرمي مع حلول الظلام ، وقد كان لدى الانكليز سفينتان

معطوبتان تماما في حين أصيبت سفينتان فرنسيتان بأضرار كبيرة ، ولكنهما قابلتان للاصلاح . وكأن الأيام القليلة مخصصة لسد الثغرات العاجلة وللعناية بالجرحى. وظهر بين البحارة مرض الاسقربوط .

وهنا أدرك سوفرن أن قواته قد خسرت الكثير من العدد ولا سيما من الناحية الصحية ، مما جعلها غير مؤهلة لاستئناف الهجوم . فقرر القاء مراسيه في خليج ترنكبار . وهناك أمدته السفن الهولندية بأغذية طازجة . وفي الثالث من تموز خرج من جديد الى عرض البحر وهو ينوي انزال رتل من المدفعية ومن الجند لاسترداد نيغاباتام من الانكليز وعلى أمل عزيز لديه هو أن يصادف الاميرال هيوغس لتصفية حساب جديد . ولكن لم تكن هناك حاجة للبحث . فقد شكل هيوغس حاجزاً بين الساحل وعرض البحر بأن صف قواته أمام نيغاباتام وكان ينتظره ثابت الجنان .

معركة نيغاباتام :

لقد وقعت الواقعة التي كان من المحال تحاشيها بتاريخ السادس من تموز ، وانهمرت نار حامية من كلا الجانبين . ولما كان هيوغس هو الذي فرض شروط المعركة بالوضع الذي اتخذته قطعاته البحرية وكانت مجابهة تقليدية كالتي نجد كثيراً من أمثالها في المؤلفات التاريخية أي كل سفينة تستهدف منازلة السفينة التي تقابلها . وقد كانت مباراة رماية شرسة لكنها غير حاسمة . وبعد معركة استغرقت أربع ساعات ونصف ، انسحب الاسطولان لمراجعة حساباتهما . وقد سجل هيوغس لحسابه نقطة لا خلاف عليها بمدافعته الناجعة عن حمى نيغا باتام حتى لقد كان هو الأول في الكف عن اطلاق النار .

ولكن سوفرن ، لم ينج من هم اضافي ، فقد كان قائد السفينة « سيفير » واسمه دوسيلار ، رجلا ضعيفا كانت قدرته موضع شك سابقاً . فقد طاش صوابه، وفقد توازنه حتى انه تقدم بسفينته من السفينة المعادية « سلطان » الانكليزية وهذا على خلاف رأي ضباطه الذين لم يقبلوا بالاضطراب الذي استولى على قائدهم . فاستأنفوا اطلاق النار ، هذا في الوقت الذي كان فيه فريق من البحارة الانكليز

معركة نيغابانام ٦ تموز ١٧٨٢

المكلف باستلام السفينة يتقدم على متن السنابيك والمدافع صامتة باتجاه السفينة « سفير » بحسبانها سفينة معادية مستسلمة بالاضافة الى الضحايا الأبرياء الذين لقوا حتفهم نتيجة ذلك . فقد كان الشرف العسكري في الميدان . وبناء على ذلك أرسل الأميرال هيوغس سفينة مفاوضة للمطالبة بتسليم السفينة سيفير باسم ملك انكلترا باعتبارها مستسلمة لاحدى سفنه . وكان هذا صحيحا تماما ، وان كان القائد دوسيلار قد عاد فنصب رايته في مكانها وفي وقت متأخر . وهنا أجاب الأميرال سفرن : اذا كانت السفينة سيفير قد استسلمت مثلا فهو الذي ذهب بنفسه لانتزاعها من وسط الاسطول الانكليزي . وأضاف قائلا للرسول الانكليزي بصوت قوي : « اذن قل للسيد هيوغس بأنه اذا كان عليه أن يلح في ذلك ، فباستطاعته القدوم للبحث عن السفينة شخصيا » . . .

وقد نقل عن أحد ضباط السفينة « سيفير » المعارضين ، ويدعى « ديو » ، فيما بعد في فرنسا قوله : لقد كان قائد السفينة يرغب بالاستسلام للانكليز ،

ولكن الضابط ديو لم يسمح له بذلك ، وهكذا جرد القائد دوسيلار من وظائفه • وأعيد الى فرنسا ، واعتقل تمهيداً لمحاكمته • كما أعيد ثلاثة من الربان ، كانت حماستهم خلال المعركة فاترة ، الى فرنسا لينالوا جزاءهم الذي يستحقونه ولكي يمحو سوفرن آثار هذا الحادث المؤسف راح يبذل جهوداً مضاعفة• فقد أطيح خلال المعركة بتسع عشرة صارية وسطى من فوق ظهور سفنه ولكن هذا لم يثبط همته• فقد نقل صواري الفرقاطات الى سفنه ، في حين نصب على فرقاطاته صواري السفن التي سقطت بيده بعد الأسر • كما راح يقطع من أخشاب الغابات المجاورة ، وأقام أفران حديد ميدانية وورشات لصنع الحبال ومصانع للبارود • ولما كانت معركة نيغاباتام ، قد كلفته ثمانمائة رجل ، فقد طلب من سلطان « ميسور » جنوداً من الهنود الذين دمجهم ببقية رجاله • وهكذا استطاع أن يقلع في وقت قياسي هذا في حين ظل الاميرال هيوغس الذي كان يتصرف بكل موارد ترسانة مدراس ، مدة شهر كامل زيادة كي يضمد جراح أسطوله •

وأخيراً أقلع هيوغس قاصدا خليج ترنكو مالي •• هناك وجد خصمه وقد استولى على الميناء ، وهو أجمل الموانيء الهندية ، ذلك الخصم ذو الحظ السعيد الذي ربح لعبة على خصمه في الامس • وصل « سوفرن » الى الخليج بتاريخ ٢١ آب وولج في الميناء في ٢٥ منه ، اذ أنزل ألفي رجل مع قوات تكفي لبضعة أيام ، ومدفعية الحصار والذخائر • وفي ٢٩ منه فتح ناراً هدامة ضد الحصون التي أذعنت وقبلت بالاستسلام في ٣٠ آب • ولم يبخل على المحاصرين بكل المراسيم العسكرية : وكانوا ٤٠٠ من الأوروبيين فضلاً عن ٦٠٠ خيال هندي • وقد كانت حكومة الولايات العامة الهولندية سعيدة جداً بهذا الفتح المبين • فطلبت من النحات هودان الشهير ، أن يصنع تمثالا نصفياً من الرخام للأميرال سوفرن : اذ لا نزال نجد صورته في كل كتب التاريخ المدرسية الفرنسية ، وأرفقوا ذلك بسيف ثمين مرصع بحبات الألماس •

سوفرن بلا دعم من ضباطه :

لكن سوفرن لم يطفيء غليله • فما ان انذرت أبراج المراقبة بوجود قلوع

انكليزية تلوح في الأفق في الثاني من أيلول حتى أصدر أمراً بالمطاردة • وكان تحت امرته خمس عشرة سفينة • اما خصمه فهو دائما الأمـيرال هيوغس الذي كان على رأس عمارة مؤلفة من اثنتي عشرة سفينة • وحدث التعادل نظراً الى أن بضعة مـن قادة فرنسيين ، من الذين فضلوا قضاء فصل الشتاء مخلدين للدعة والهدوء في ميناء ترينكو مالي ، لم يستجيبوا لتعليماته الا بشكل فاتر •

وقد توجه سوفرن الى ضباطه بالكلمة التالية : « أيها السادة ، اذ كان لـدى العدو قوات أعظم ، فاني سأنسحب ، أما اذا كانت القوات متكافئة فاني قد أخوض المعركة بعد ترو وتفكير • ولكن اذا كنت أمام قوات أقل فتلك هي الفرصة ، فـلا مجال للموازنة • اذن يجب أن نخوض المعركة ولنرفع الأشرعة » •

واستغرقت المعركة أكثر من ثلاث ساعات • ولكن النصر الذي أصبح في حكم المؤكد ، أفلت من يدي سوفرن الذي لم ينل شيئا يزيد على خط اصطفاف ممتـاز اتخذته سفن أسطوله • وعاد بعمارته الى مرساه • وفي أثناء ذلـك اتجهت السفينة ادريان بغباء نحو شعب صخري مرجاني فتهشمت قوقعتها وضاعت نهائيا •

وكان سوفرن يستشيط غيظاً من ضباطه الذين رماهـم بالخيانة لافتقارهم الى الروح المحاربة والذين كانوا يفكرون بصفقاتهم وعشيقاتهـم اللواتي ظللن بجزيرة فرنسا (جزيرة موريس حالياً) أكثر من انصياعهم لتعليماته • فقد كانوا عاجزين عن ادراك مفاهيم سوفرن التي تصطدم بالتعانيم الوجلة التي كانت عليها البحرية الفرنسية في ذلك العصر • وكانت بلادتهم تحول بين هذا الثوري البحري أي سوفرن ، وبين القضاء تماماً على القوة البحرية الانكليزية في بحر بلاد الهند •

وأعاد القاضي سوفرن أيضاً أربعة من ربان سفنه الى فرنسا وعين أربعـة في مكانهم • وكان من بين الذين نالوا الترقية فيللاريت دو جوايوز • ولكن لم يلمـع اسم هذا الضابط في هذه المعركة • وقرر سوفرن خداع عدوه مرة أخرى • فقدكان المنطق يملي عليه أن يقود عمـارته البحرية الى جزيرة فرنسا لقضـاء فترة استجمام

شتوية قبل هبوب الرياح الموسمية • ولكنه اختار موقعاً أكثر قرباً ، وهـو جزيرة سومطرة على ساحل آشم الحرون وحيث يوجد مرسى أمين ، تحرس مدخله ثـلاث جزر عالية • كما يتمتـع بتموين ممتاز • وخـلال طريقه خسـر أيضا السمينة بيزار المجهزة بأربعة وستين مدفعاً والتي راحت ضحية جنوح • كما فقـد سفينة تجاريـة سقطت بأيدي الانكليز أسيرة• أما هيوغس فقد آثر تمضية فصل الشتاء في بومباي اذ وفدت خمس سفن حربية لمساندته بقيادة السير ريشار بيكرتون •

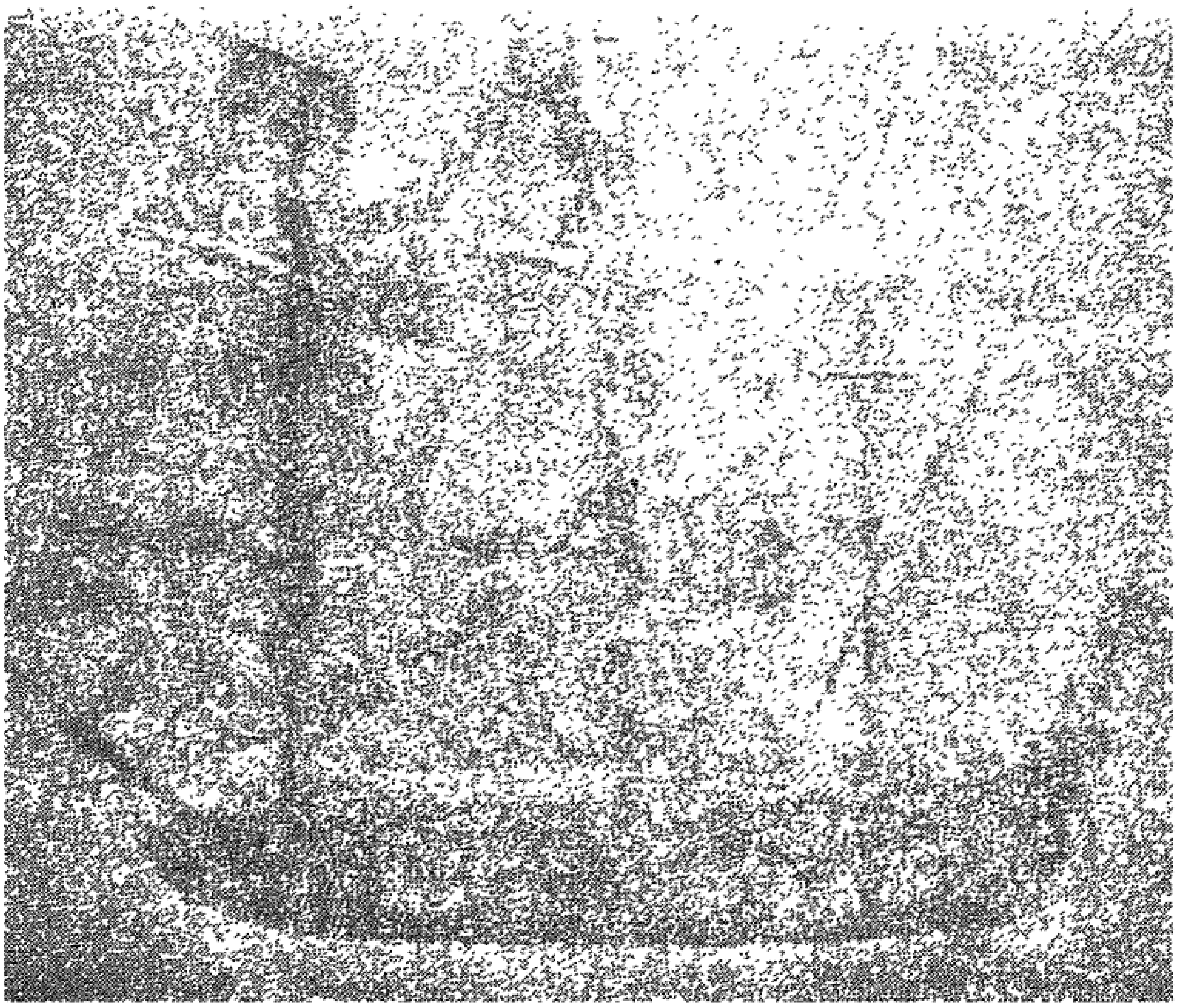

« الفـاتح » سفينة ذات ٧٤ مدفعا

المعركـة الأخـيرة :

لقد كانت الاقامـة في سومطرة مباركة من سائر وجهـات النظر • فقد استرد المرضى والجرحى عافيتهم تحت نظر قائدهم • هذا وكما تم اصلاح السفن على عجل ـ اذ كان الخشب وفيراً جدا هناك ـ واستطاع سوفرن أن يسترد السيطرة عـلى ضباطه بعد أن أفلح في رفع معنوياتهم • وفي العشرين من كانون الاول ، غـادرت

الفرقة هذا المرسى الفردوسي للعودة الى ساحل كوروماندل الهندي في آسرع وقت ممكن ،• وفي الثاني عشر من كانون الثاني ١٧٨٣ ومـــع هبوط الليل ألقت فرقاطـــة بمراسيها وسط الأسطول الفرنسي الراسي أمـــام مصب نهر الغانج • وقـــد كانت مفاجأة ، لانها كانت ترفع الراية الانكليزية •• وكان خطأ محتوماً ،• فقد كانت هي الفرقاطة كوفنتري المسلحةبثلاثين مدفعا ، ويقودها ابن أخ الأميرال هيوغس، والذي كان يتصور انه التحق بالاسطول الانكليزي • وهكذا سقط أسيرا والتحقت سفينته بالاسطـــول الفرنسي لتدعمه • وعلم سوفرن من قائـــد الفرقاطة الأسير بنبأ وفـــاة السلطان « حيدر علي » حليف فرنسا في ٧ كانون الأول •

وبعد أن وصل التشكيل الفرنسي الى مينـــاء غودلور في الاول من شباط ، التحقت به ثلاث سفن حربية وفرقاطة وقافلة تضم ثلاثين ناقلة جنود وذخائرموضوعة تحت قيادة دو بوشي •

وما أن تم انزال الجنـــود والعتاد ، حتى عاد سوفرن الى مينـــاء ترينكو مالي خشية أن يسبقه هيوغس لا سيما وان الرياح المعاكسة كانت تعرقل مسيرته • وقـــد تنفس الصعداء لما وجـــد الخور شاغرا • وما كادت أوائل السفن تلج في الميناء حتى أشارت المراصد الى ظهور الاسطول الانكليزي •• الذي يعتقد بأنه قد بلغ مأمنه ، ولكنه لم يتشبث بموقفه أبدا بل تابع سيره •

وبعد بضعة أسابيع عـــلم سوفرن بـــأن الانكليز يهددون القائد دو بوشي في موقع غودلور • وضربوا حوله نطـــاقا من الحصـــار من البحر والبر • وهنا بـــادر القاضي سوفرن الذي لم يسمح لثانية من الوقت أن تذهب هدرا ، بدعـــم قـــواته بكل ما يقع تحت يـــده عـــن طريق تفريغ السفن الشاحنة والفرقاطات المجردة مـــن سلاحها • وأقلع بتاريخ الحادي عشر من حزيران ،• وبلغ ميناء غودلور في السادس عشر ، اذ استشف عن بعد وجود ثماني عشرة سفينة حربية مرابطة الى الجنوب منه•

واذعانا لأمر ملكي جـديد ، اتخذ على أثر الحادث المـؤلم • الذي تعرض له الكونت دوغراس والذي سقط أسيراً فوق سفينته الثقيلة • فقد نقل سوفرن رايته الى الفرقاطة كليوباتره وقت نشوب الاشتباك •

وفي السابع عشر من الشهر المذكـور ، وصلت خمس عشرة سفينة فرنسيـة لمواجهة ثماني عشرة سفينة انكليزية • واقترب سوفرن خلال الليل من البر ودعـم قواته بالمزيد من المقاتلين ، وذلـك باركاب فصائل من قـواته البرية ومن الخيـالة الهنود • وكان مجموعهم ۱۲۰۰ محارب ، لان قـواته البحرية أنهكتهـا الأمراض والمعارك • وظل يناور مدة يومين دون أن يقسر الانكليز على الاقتراب مـن مرمى مدافعه • وأخـيراً ، وفي العشرين من الشهر ومع مساندة الريـاح الخلفية ، باشـر الفرنسيون القتال في الساعة الخامسة عشرة •

وقد حارب الجميع ، في هذه المرة ببسالة ولا سيما الطليعة • وعنـدما أرخى الليل سدوله بعد ثلاث ساعات كان الضباط يلاقون الكثير من العناء في الطلب مـن رجال مدفعيتهـم بالكف عن الرمي لشدة حميتهم الجياشة • وقـد طرحت قذيفـة بالأميرال سوفرن أرضا • ولكنه لم يصب بأكثر من رضوض إذ نهض بمعونةمن أحد الضباط ، رابط الجأش • وفي الصباح شوهد الأسطول الانكليزي لائـذا بالفرار قاصداً مدراس ، كي يلتجىء الى مينائها الأمين • وهكذا أصبح سوفرن سيد الموقف مرة أخرى • وعندما قفل عائدا الى سودلور رفع الجيش الانكليزي العلم الأبيض ، وكان ضاربا حصارا محكما حـول الميناء عندما رأى أشرعة الأسطول الفرنسي • وانتصب القائـد دو بوشي ليستقبل القاضي سوفرن على الشاطىء الرملي محاطـاً بأركان حربه• وتوجه نحو رجاله ، كي يقدم الأميرال لهم قائلا : «هذا هو منقذنا»• ورفع الجند الأميرال على الاكتاف ــ وهذا قليـل من كثير ــ وحملوه على محفـة يحملها أربعة من الزنوج ، ودخلوا به الميناء كبطل فاتح •

وفي ٢٩ حزيران ، وصلت فرقاطة انكليزية مفاوضة وتحمل راية بيضاء لتنقل للقاضي سوفرن رسالة من الاميرال هيوغس الذي كانت دائرة استخباراته تمتاز بالتفوق على مثيلتها الفرنسية ، تقول ان لا فائدة ترجى من متابعة الحرب .. وعلى مسافة آلاف الكيلو مترات . جرى توقيع اتفاقية سلام قبل أن تعلم بهما العاصمتان لندن وباريس ببضعة أسابيع ، وانتهت ملحمة سوفرن ومفاهيمه التجديدية في فن الحرب البحرية ...

★ ★ ★

١٣ بريريال (١)

من العام الثاني للثورة الفرنسية

ـ ٢٠ أيار ـ ١٨ حزيران ١٧٩٤

معارك ضارية تجاه ميناء برست ضد الانكليز ونهاية السفينة « المنتقم » (Vengeur)

لقد مرّت البحرية الفرنسية في عام ١٧٩٢ بأزمة خطيرة • فقد أدّت الثورة الى هجرة الكثيرين من الضباط الذين كانوا يقودون سفن الدولة، هذا اذا لم تقم بتقتيلهم، لأنهم كانوا جميعاً ، تقريباً ، منحدرين من الطبقة النبيلة ومن الأسر العريقة • وقد كتب الاميرال جوليان دولاغرافيير بعد فترة من الزمن يقول : « يبدو أن كل هذه البحرية الغنية بأمجادها ، والمخيفة ، والمخلصة لوطنها ، قد تلاشت بكلّيتها خلال عام واحد من الارهاب »(٢) •

وقد عمل غاسپار مونج ، وزير البحرية ، على وضع حد لهذا التدهور ، وعلى انعاش الاسطول الفرنسي • ففي ١٣ كانون الثاني ١٧٩٣ صدر مرسوم عن حكومة

---

(١) بريـال هو الشهر التاسع من العام الثوري الجمهوري الفرنسي ، ويوافق الفترة الواقعة بين ٢٠ أيار و١٨ حزيران .

(٢) لقد كانت فترة الارهاب بزعامة روبسبيير شؤما على فرنسا اذ قتل فيها العالم الشهير لافوازيير على المقصلة . وقال أحد الكتاب راثياً : لقد استغرق إعدام لافوازييه خمس ثوان ولكن فرنسا تحتاج لخمسين سنة كي تنجب واحدا من أمثاله .

الاتفاق (Convention) يقضي بتسليح ٣٠ سفينة و ٢٠ فرقـاطة ، بقصد رفع عـدد السفن الحربية والفرقاطات التي يتألف منها جيش البحرية الى ١٠٤ قطع ، وبناء ٢٥ سفينة و ٢٠ فرقاطة و ٢٠ غراب (Corvette) أو سميرية (Aviso) و ٦ سفن شراعية صغيرة من المقنبلات • هـذا كما سمح باطلاق العنـان للقرصنة ، وانطلق مـن كل الموانىء الفرنسية ، قراصنة كانوا مصدر ذعر بالنسبة للتجارة المعادية •

فيلاريه دو جوايوز

وكانت أكثر المشكلات استعصاءً على الحل هي مشكلة الكادرات • ولجأت الدولة لسد الثغرات ، التي حفرتها الهجرة في أجهزة طواقم البحرية ، الى تعبئةعناصر من البحرية التجارية ، ورفعت بحـارة ناشئين ، دون خبرة ، لمراتب عليا ، ممّن لـم يسبق لهم أن قادوا سفينة كي يمكنهم قيادة عمارة أو أسطول ، ولما كانوا جـهَلة في التكتيك البحـري فـلم يكونوا يستخدمون ، ولا يفهمون ، إلا بشكل نـاقص ، الاشارات التي تقود الحركات الشمولية في عمارة بحرية • أما في المعارك المتقـاربة والاقتحام فقد كان البحارة ، الذين كانت تتدفق منهـم الوطنية والشجاعة ، كانوا

قادرين على تنفيذ أروع الملاحم ، وعلى الموت مكللين بتيجان الفخار اذ اقتضى الأمر ، ولكن الشهداء لا يجلبون الانتصارات ، في كل الحالات • وحدثت معركة بحرية كانت مجرياتها تستدعي وجود ملاحين محنكين ، ذلك ان الاستراتيجية الباردة لدى خصوم فرنسا كانت لها كفة الرجحان على شجاعة التلامذة البواسل •• وقد حققت بحرية الجمهورية الفرنسية الناشئة بعض شرارات من المجد لامعات ولكنها شهدت فعلاً نكبات وهزائم انتهت بفنائها في عهد أمبراطورية نابوليون ، لاسيما وكان أعداء فرنسا حينذاك في طليعة الدول البحرية وهما : انكلترا وهولنداء

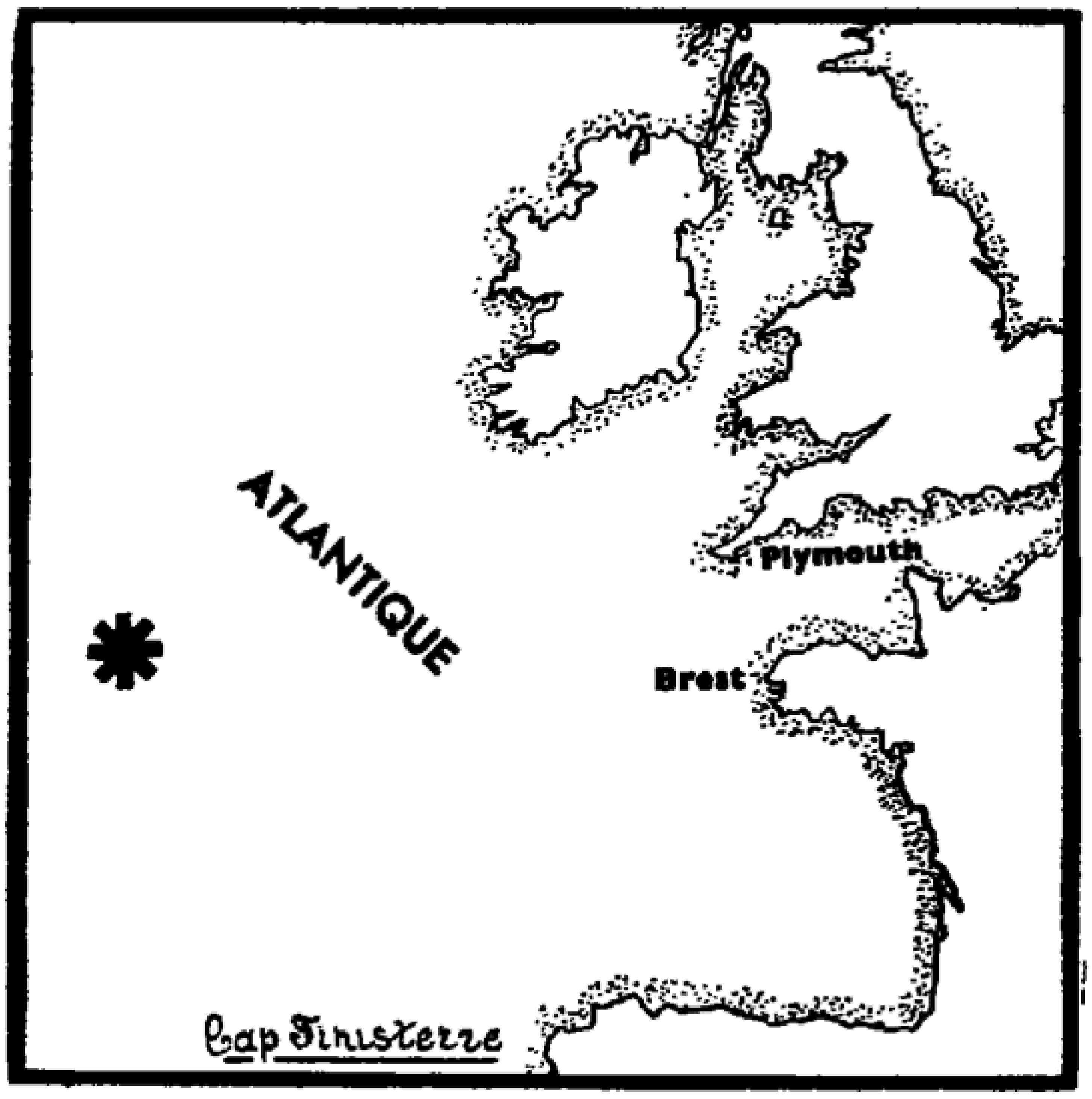

خارطة معركة ١٣ بريريال البحرية

قافلة مؤلفة من مائة وسبع عشرة سفينة موسوقة بالقمح والدقيق والسكر :

كانت لاتزال فرنسا تملك في آخر عام ١٧٩٣ ثلاثة جيوش بحرية ، كان اثنان منها يمخران عباب البحر الابيض المتوسط ، تحت إمرة العميد البحري تروغيه ، والثالث في المحيط الاطلنطي بين ميناءي غروا (Groix) وبيل ايل (Belle - ile) ويخضع لأوامر اللواء البحري مورار دو غال • ولم يكن هناك مجال للاحتكاك أو

بالتحرش بالبحرية البريطانية ما دام البحارة الفرنسيون ناقصي التجربة . ومنذ الاول من شباط ، الذي أعلنت فيه الحرب على بريطانيا ، كانت التعليمـات تقول : يجب تحاشي التماس . وفي بداية عام ١٧٩٤ ظهر أن من اللازم أن يُقلع الاسطول لهدف دقيق محدّد : وهو تحويل يقظة الانكليز ، الذين كانوا يتربصون تجاه السواحـل الفرنسية ومحاولة ابعادهم . وكان السبب بسيطاً وقاهراً في الوقت ذاته .

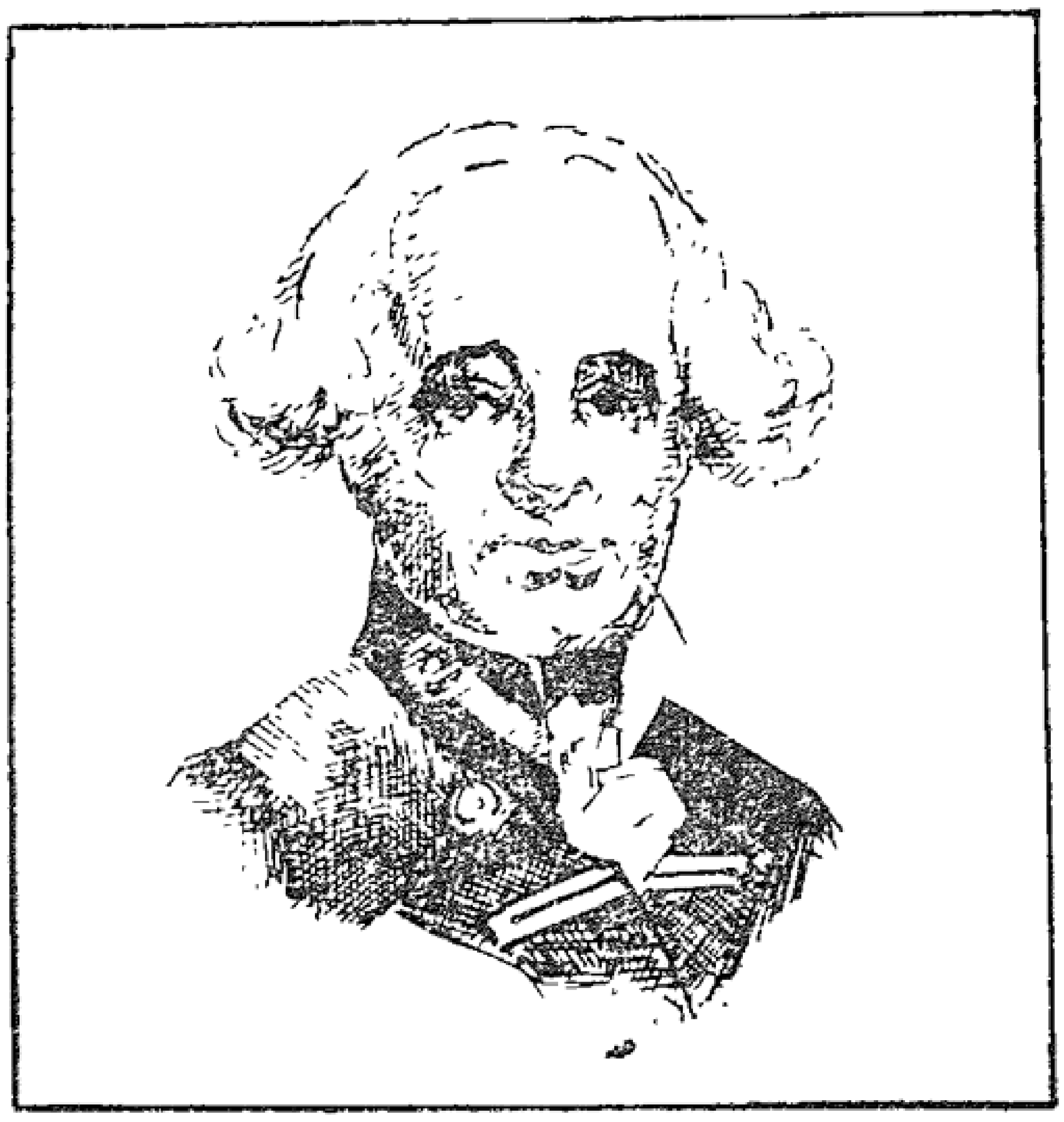

L'amiral Howe.

الامـيرال هـــاو

فقد كانت فرنسا تجتاز قحطاً رهيباً ، فقد نجم عـن الحرب الأهلية المتضافرة مع الطقس الرديء تلف المحاصيل . ولما كانت الحكومة الجمهورية في حالة نزاع مع كل أوروبا ، فقد كانت مضطرة لارسال عمـلاء تجاريين لمختلف مـوانيء الولايات المتحدة الامريكية لكي يعقدوا صفقات شراء حبوب ودقيق كما كان مـن الواجب تجميع كل السفن التي تحمل هـذه المؤن وتوجّهها نحو ميناء أمين . وقد عهد الى العميد البحري پيير ڤانستابل ، وهو رجل بحر من دونكرك ، البالغ من العمر ثمانية

وأربعين عاماً ، بمهمّة خفارة هذه القافلة الحيوية التي تضم مائة وسبع عشرة سفينة تحمل القمح والدقيق والسكر ، والتي تجمهرت في خليج شيزاپيك •

وقد نصب القائد ڤانستابل رايته فوق السفينة الحربية تيغر (النمر) ذات الأربعة والسبعين مدفعاً ، وكانت تواكبه سفينة حربية أخرى هي جان بار ، وفرقاطتان ، ومركب شراعي ذو صاريين • وأقلعت القافلة بتاريخ ٢ نيسان ١٧٩٤ ، وكانت حياة الأمة الفرنسية تتعلق بوصول هذه القافلة سالمة غانمة لتجنب اضطرابات داخلية خطيرة • لنترك الآن القافلة ، وهي تبحر في عرض المحيط لأننا سنرأها في خاتمة هذا السرد ، بعد شهرين ، وهي تصل الى مقصدها بهدوء لايحلم به أحد في العالم •

العميد البحري پيير ڤانستابل

وكلما كانت الأيام تمضي ، وكلما كان موعد وصول القافلة المرتقب يزداد اقتراباً ، وهي تطوي طريقها في الأطلنطي ، كانت نفوس الفرنسيين تزداد عصبية وتشنجاً • وهكذا تمّ اتخاذ أول تدبير : في ٦ أيار جرى تكوين قوة مؤلفة من ست

سفن حربية ، هي سان پـاراي (Sans-Pareil) ذات الثمانين مدفعـاً ، واوداسيو ، پاتريوت ، تيميرير ، وتراجان المجهزة بأربعة وسبعين مدفعاً ، وكانت بقيادة العميـد البحري نييلـّلي (Nielly) (وكان بمرتبة ملازم أول في أيـام الملك لويس السادس عشر ، واستفاد من ترقية ... خاطفـة) ، والذي أقلع من ميناء روشفور لمـلاقاة اسطول ڤانستابل . ومع ذلك كان من المتوقع ان هـذه الفرقة لا تستطيع أن تكفي لصدّ هجوم انكليزي متقن التحضير .

وقد قررت الحكومة ، المصممة على انقاذ القافلة مهما كلف الثمن ، تشكيـل عمارة بحرية تضم ستاً وعشرين سفينة حربية عـُهد بمهمة تجهيزها لاثنين من مفوّضي لجنـة السلامة العامة لدى الجيوش البحرية ، وهما پريور دو لامارن و جـان بون ساتناندريه . وبعد تهيئة هذه العمارة في ميناء برست ، وضعت تحت أوامر أحـد مساعدي الاميرال سوّفرن، هو العقيد البحري لويس توماس ڤيللاريه دو جوايـّوز، المولود في سنة ١٧٤٧ في اوش ، والذي أمطرته حكومات الاتفاق بالترقيات فأصبح عميداً بحرياً ، ووضعته في مكان اللواء البحري مورار دو غال .

مع ضباط مرتجلين :

لقد رفع العميد البحري الجديد ــ كان يدعى الجنرال ڤيللاريه ، وصار يوقع اسمه ، من الآن فصاعداً ڤيللاريه جوايـّوز ــ أقول رفع رايته فوق السفينة مونتانيه (Montagne) ، وهي ذات ثلاثة جسور ، أو طوابق ، مزودة بمائة وعشرين مدفعاً ، كانت تعرف حتى ذلك الحين باسم ولايات بورغونيا . وقد اصطحب معـه صاحب النفوذ الشديد جـان بون ساتناندريه ، المكلف بفرض احترام أوامر حكومة الاتفاق (Convention) وأن يطارد ، عند اللزوم ، الضباط الذين لا زالوا يحتفظون بتعاطف مع طبقة النبلاء أو مـع رجال الاكليروس . وكان فوق سفينة القيـادة مونتانيه ، وحدها ، يخفق العلم الفرنسي المثلث الالوان ، والذي أصبـح نظامياً في البحريـة الفرنسية اعتبارا من تاريخ ٢٠ أيار ١٧٩٤ . ونظراً للإفتقـار الى الأصبغة النباتيـة بمقادير كافية ، فقد ظلت السفن الأخرى تنصب الراية البيضاء ، المزدانة في قسمهـا العلوي بمربع يحوي الألوان القومية .

ولنتأمل الآن ، باختصار ، أوضاع خدمـة ستة وثلاثين قائداً بحرياً في هـذا الاسطول ، فقد كان بينهم تسعة عقداء محترفين ، وأربعة عشر بين ملازم أول وملازم ثان بحري ، واثنان من النوتيّة ، والباقي من المرشدين ومن المعلّمين في فن المناورة. وقد استفادوا جميعا من ترقيات متهافتة للغاية ، كما حدث في قوات فرنسا الحرة ، خلال الحرب العالمية الثانية ، بعد مائة وخمسين سنة من الزمن لاعتبارات نفسية ، أي سيكولوجية ، غالبا ما كانت ذات مفعول موضع الريبة . ولنـدع ذلك الآن . فقد كان الوضع مماثلا لدى رماة المدفعية ، فقد تم انزال اولئك الذين كانوا يعملون فوق السفن البحرية لاستبدالهم برجال موثوقين أكثر من الزاوية السياسية ، وعلى العموم كانوا من المتطوعين من الجيش البري.

هونوريه غانتوم الذي اشترك في معركة ١٣ بريريـال

نعم لقد كانت هناك مجموعات شاذة من النوتيّة ، العديمة التجانس ، يقودهم ضباط ارتقوا بصورة اعتباطية ، وارتجالا ، من عديمي الخبرة ، والذين كان عليهم أن ينالوا الشرف الرهيب ، وهو مواجهة عمارة انكليزية تضم ستاً وعشرين سفينة ـ وهي قوة معادلة عددياً للقوة الفرنسية، وهي النقطة الوحيدة المشتركة بين الاثنين ـ

والتي كانت بقيادة اللورد هـــاو (Howe) ، وهو محارب عتيق محنّك ، وكان يبدو أحياناً غامضاً ، والبالغ الثامنة والستين من العمر ، والذي كانت رايته تخفقمنصوبة فوق السفينة كوين شارلوت • واذا استطاع القــارىء أن يتصوّر استبدال هـــاو بقائد من أمثال نلسون ، أو من طينة سوّفرن ، بأنه سيقرأ هذه المقالة متوقعاً هزيمة فرنسية كاسحة ، أو قصة إبــادة اسطول حربي فضلا عن الاستيلاء على قافلة ثمينة• غير أن هذا الامـــيرال الانكليزي ، المتّصف ببطء اتخاذ القرارات ، باستثناء قطـع المعركة ، كان يسانده عدد من ضباط درّبتهم حرب الاستقلال الامريكية علىتقنيات القتال البحري • فقد كان الى جانبه توماس غرايڤس (المهزوم في معركة شيزاپيك) وبنيامين كالدول وآلان غاردنر ، وكولينغوود (وهو الذي سيخلف نلسون فـــي موقعة الطرف الأغر) الخ•••

مندوب الحكومة السياسي جان بول سانتاندريه

أول سفينة تخرج من ساحة المعركة ((لوريڤولوسيونّير)) ((الثوري))

ما إن أ ُخطرَ ڤيللاريه بإقلاع العمارة الانكليزية التيخرجتمن ميناء سپيتهيد (Speathead) بتاريخ الثاني من أيار ، حتى غادر برست في ١٦ أيار ١٧٩٤ • وقـــد

صدرت الاوامر اليه بانتظار القافلة في جزيرتي كورڤو و فلوريس ، من جزر أرخبيل آسور ، مع تمرين سفنه على المناورات والاستدارة ، ولا حاجة لخوض معركة عديمة الفائدة ، إلاّ اذا كان الانكليز هم البادئين •

ولما كان قد تمّ ارسال الاميرال هاو° لملاقاة هذا الاسطول الفرنسي ، فقد أدركه في ٢٨ أيار صباحاً على مسافة ٤٠٠ ميل غرب ميناء ويسّان (Ouessant)

وكان الرا صدون يصرخون من فوق السفن الفرنسية التي كانت تتقدم حسب تشكيلة مؤلفة من ثلاثة خطوط ، أقول كانوا يصرخون من أعلى أبراج الصواري الوسطى « السفن تحت الريح الذي يساندنا » • وبعد قليل تقلّد البحارة سلاحهم كما لو كان الاقتحام هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الخصم • وقد كان هذا سابقاً لأوانه • وقد أُنذرَ ڤيللاريه منذ ثلاثة أيام باقتراب الانكليز بواسطة قبطان فرقاطة صِدام ، ولكنه لم يعمل شيئاً استعداداً للإقتراب • وقد استدعى الأمر الحاح جانْ بون سانتاندريه للكفّ عن الاستمرار في متابعة الطريق ، وان تتخذ الاجراءات اللازمة لاشتباك وشيك • وكان البحر عالي الموج ، وكانت الريح تهب باردة نوعاً ما •

وقد اصطفّت العمارة الفرنسية على شكل خط واحد في مجابهة الاسطول الانكليزي ، مع التميز بهبوب ريح موائمة ، بانتظار ردّ فعل هؤلاء الأعداء • غير أن هاو° لم يكن يطرح أمامه الكثير من المسائل • وكانت خطته واضحة المعالم، وتقضي بتدمير الاسطول الفرنسي الجمهوري والاستيلاء على القافلة • رأخذ زمام المبادرة بأن أرسل فرقة تتألف من ست سفن ، يقودها العميد البحري پاسْلي (Pasley) الذي كانت شارته فوق السفينة بيللورفون ، ذات الثمانية والسبعين مدفعاً ، لمهاجمة المؤخرة ، وبدلا من أن ينقضّ القائد الفرنسي ڤيلّاريه على هذه الفريسة، بتطويقها قبل أن تتمكن بقية الاسطول الانكليزي من الوصول لنجدتها ، عمد هذا القائد الذي يفتقر للحماسة الى نشر أشرعته لمتابعة حركته الأصلية •

ولما كانت السفينة « لوريڤو لوسيونّير » ذات الثلاثة جسور ، و ١١٤ مدفعاً، والتي يقودها ڤاندونجن ، في مؤخرة القافلة ، فقد تعرضت للصدام بصورة رهيبة • وظل رمي المدفعية يصم الآذان ويقرع لمـدة ساعة وربـع ، كما اضطرت السفينـة بيلليرفون ، تجاه عنف الرد الفرنسي ، أن تنسحب كي يحل محلها ثلاث سفن أخرى هي روسـّل ، ومالبورو ، و ڤوندرر ، وكلها قطع حربية من ذوات الثمانية وسبعـين مدفعاً ، والتي قدمت لدعـم السفينتين ليڤياثان وأوداسيوس • ولمـا كانت السفينة الفرنسية « لوريڤو لوسيونّير» واقعة بين نيران متقاطعة ، فقد هشمتها القنابل تماماً،

اللحظات الاخيرة من حياة السفينة « ڤـانجور » . رسم مشهور للرسام دوزان

وفقدت صواريها وقلوعها ، مثلما قتل قائدها ، وتبدلت قيادتها مرتين ، وآلت خـيراً الى الملازم دورّيه (Dorré) • وهلك معظـم نوتيـّتها ، الذين سقطوا بين قتيـل وجريح ، واختلطت أجسادهم بشكل فوضوي ، يتخبطون في دمائهم ، بين مجدوعين ومشوّهين ، وكلهم متمددين بين العوارض المبتـورة • ومع هبـوط الظلام تمكن الملازم دورّيه من الابتعاد ، وكان سعيداً جداً ، في صبيحـة اليوم التالي ، اذ التقى بسفينتي الاميرال نيلـّلي الذي جرّ السفينة المهيضة الجناح حتى ميناء جزيرة ايكس ، على الساحل الاطلسي ، تجاه شارنت •

أما من الجانب الآخر ، فقد تعرضت السفينة اوداسيوس لأضرار كبيرة ممـا برّر ردّها الى ميناء بلايموث • وهكذا أدى الاشتباك الصغـير في مساء ٢٨ مـن الشهر الى استبعاد سفينة واحدة من كل جانب •

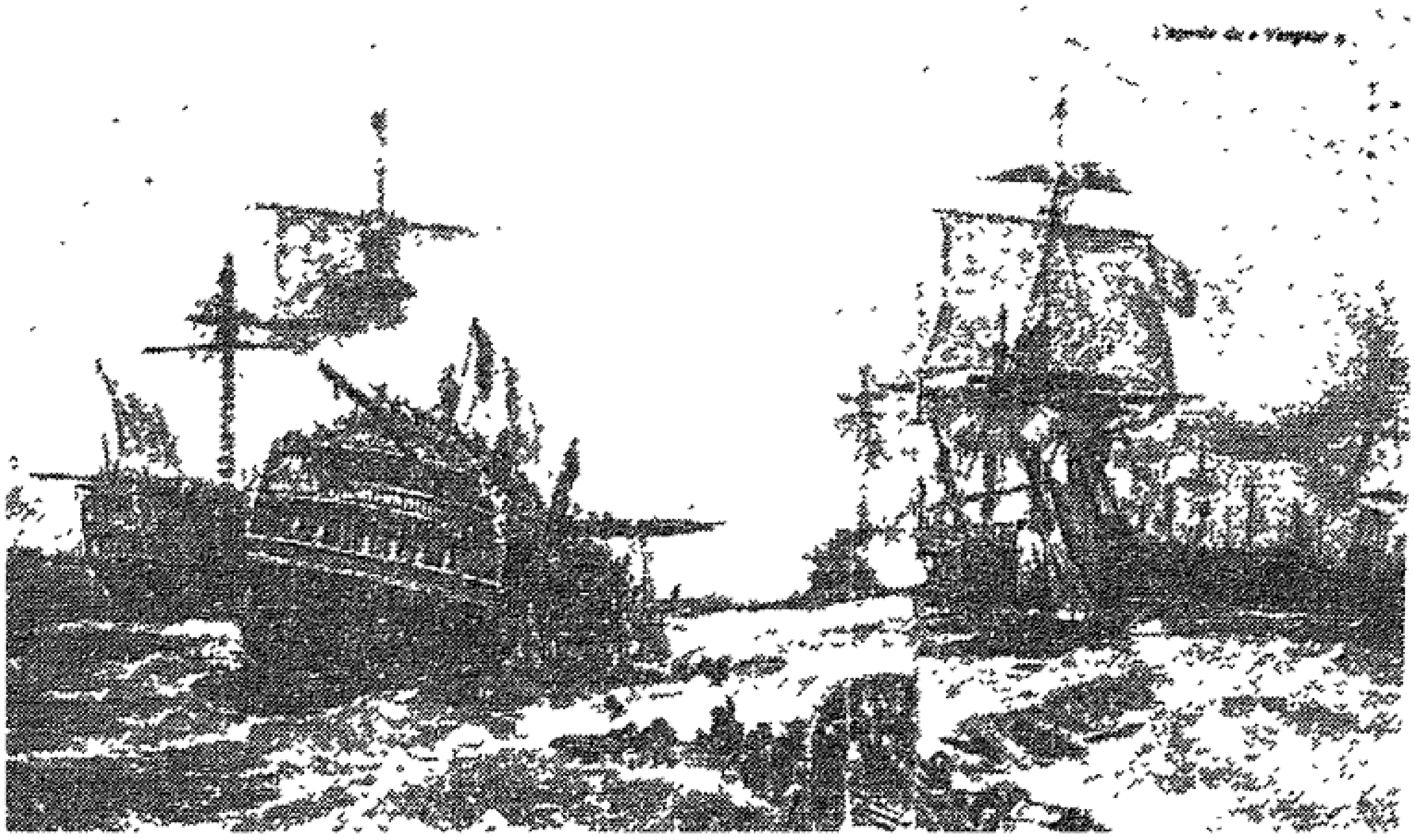

فـانجور في النزع الاخـير

الضباب يعلق المعركة :

في التاسع والعشرين من أيار (١٠ پريريال) وعند الفجر كان الانكليز لايزالون تحت الريح ، وباشر ڤيللاريه المعركة • وقامت سفينة الطليعة لوموتانيار بقذف أولى رشقاتها ، هذا في الوقت الذي كان فيـه هـاو ينتقل الى الهجـوم على المؤخـرة الفرنسية •• واستطاع أن يعزل خمس أو ست سفن فرنسية تعرضت لهجوم مـن جانب بلليرفون و ليڤياثان ، و أوريون و بارفلـور ، فتهشمت صواريهـا وتثقّبت قواقعها في أكثر من مائة مكان ، وابتعدت السفينة تيرّانيسيد (Tyrannicide) (قاتلة البغاة) التي يقودها دودولان ، وكذلك السفينة آندومپتابل ، وقائدها لاميل ، بعد أن فقدت صواريها وأشرعتها ، عن ميدان المعركة حوالي الساعة ١٧ مساءً للوصول الى مرسى دولة صديقة • غير أن دفاعها المجيـد لم يكن عديم الجـدوى • فقـد اضطرت السفينتان البريطانيتان بلليروفون و ليڤياثان ، بعد أن تمّ صدهما بعنفوان

ووقوعهما ضمن ميدان الرمي الفرنسي ، وبمحاذاة السفن الفرنسية جنباً لجنب ، اضطرتا الى الانفصال عن بقية القطيع ولم تلتحقا ببقية العمارة الانكليزية الا بعد يومين من تلك الموقعة • وفي الثلاثين من أيار ساد ضباب شديد الكثافة بحيث لم يتمكن الاسطولان من رؤية بعضهما بعضاً إلا من خلال فتحات قصيرة وعلى وميض الفوانيس المتّقدة•وهكذا توقفت المعركة واستغلّ ڤيللاريه الفرصةلاعادة تشكيلته وذلك بضم سفن الاميرال نيلّلي الثلاث الذي لحق به وكذلك سفينة رابعة واسمها ٣١ أيار التي يقودها هونوريه غانتوم ، التي وصلت من ميناء كانكال على بحر المانش •

وفي الاول من حزيران ١٧٩٤ (١٣ پريريال من العام الثاني للثورة) انقشعت غياهب الضباب وعادت الشمس للبزوغ • وكانت الاستعدادات للمعركة قائمةعلى قدم وساق من كل جانب ، مع حماسة ومرح لدى الفرنسيين وهدوء ورباطة جأش لدى الانكليز ، وكان الأمر دوماً على هذا المنوال •

معركة لا هوادة فيها :

لقد كانت الساعة الثامنة صباحا عندما زج هاو بكل قواته في المعركة•وأفلح في قطع الخط الفرنسي في ثلاثة مواقع كي ينعطف ليطلق النار من سائر قطعه العالية منها والمنخفضة • واختلط الحابل بالنابل في هذه المعمعة ، والغامضة نوعا ما ، مع حدوث ثمانية أو عشرة أعمال بطولية يستحق كل منها قصة لوحده • وغلّفت سحب الدخان سفن الاسطولين ، والتي لم يكن يثقب تلك السحب ، سوى ومضات طلقات المدفعية •• ولما كان الرمي يجري عن كثب ، فقد كان الرمي الانكليزي موجهاً نحو هياكل السفن لإغراقها في حين كان الرمي الفرنسي يرجّح استهداف الصواري بقصد شلّ الخصم والانتقال الى اقتحام السفن المعادية حيث يتم الاشتباك عادة بالسلاح الابيض • غير أن عمل الاسطول الفرنسي كان يعاكسه عدم تدخل مقدمته التي ظلّت في حالة تحفظ لانها لم تبصر الاشارات المتكررة التي كان يصدرها اليها القائد ڤيللاريه ويطالب فيها بالتقدم للالتحام •

وأخذ الاميرال هـــاو ، من فوق سفينته كوين شارلوت ، والتي كانت تسانده السفينتان جبل طارق وبرنسويك بالانقضاض على السفينة لامو نتانيه La Montagne

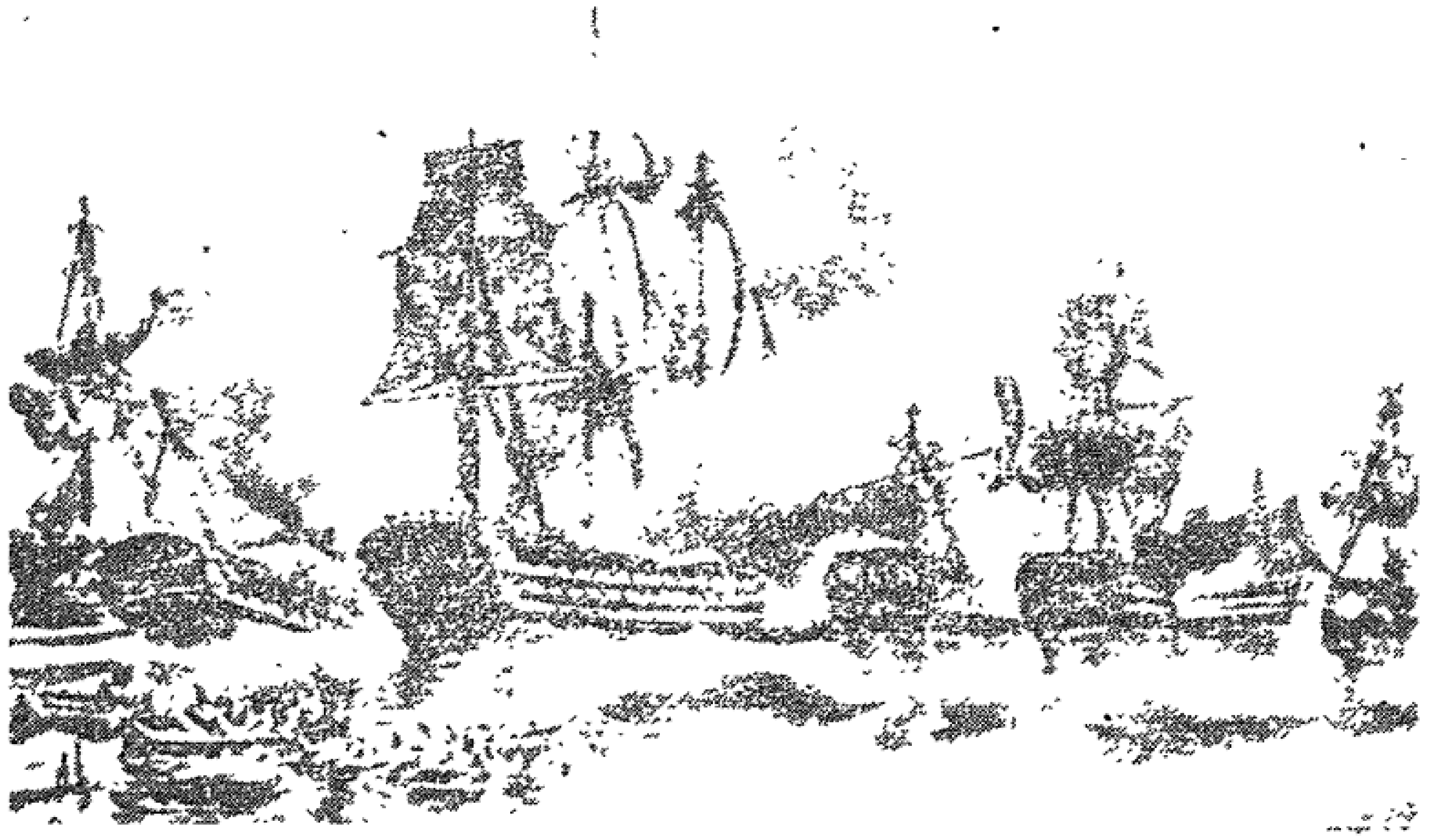

سفينة القـائد فيللاريه دو جوايوز أثناء الاشتباك

التي اعتقد بالتأكيد بأنها سفينة الاميرالية • ولم يكن ڤيللاريه في وضع أفضل جودة كي يرد التحية بمثلها ، اذ تم عزل بحاره الخلفي عن مركزه في أعقاب مناورة خاطئة• وبعد ان عانت سفينته من معركة شرسة ، ردّت عليها بأقصى طاقتهـا ، تلقّت ٢٣٠ قنبلة فوق خط عومها، والتي وجدت العدد ذاته من الثقوب في قوقعها •

وقد أوضح ڤيللاريه في تقريره لوزير البحرية بقوله : « لقـد أكدت السفينة مونتانيه (الجبل) بأنها تستحق اسمها ، ولم يحدث لبركان أن تقيـأ سيلا من نـار كهذه السفينة • وأعتقد أنني قمت بواجبي كجنرال وكجنـدي • وتبرهـن نيران سفينتي مونتانيه وعدد الموتى والجرحى ، إذ أنعي اليكم بحزن عميق فقدان قبطـان الراية ، وموظف المحاسبة البحرية ، ونصف عدد ضباطي وثلاثمائة رجل من طاقمي، أقـوال تبرهن للجمهورية كلها أن الاحداث وحـدها هي التي تسببت في النتيجة التعيسة لذلك اليوم » •

انسحاب الاسطول الانكليزي :

ولما شعر ڤيللاريه ببعض الهـدوء لاحظ أن المعركة قد بعثرت سفنه • فقـد كانت الاوامر لا تصل الى مرؤوسيه الا بمشقة ، كما أن الاشارات لم تكن مرئيـة بسبب كثافة الدخان • ولما كان الاقتتال يجري على مرمى المسدسات ، وعلى نصف المرمى أحيانا ، وذلك وسط ضجيج وفي صخب انفجارات بضعة آلاف من فوهـات النار ، فقد كانت تظهر من كل جانب الصواري المنقلبة ، والعوارض المدلاة ، وحزم الحبال المقطوعة ، والقلوع الممزقة ، وسفناً جانحة بشكل شديد •

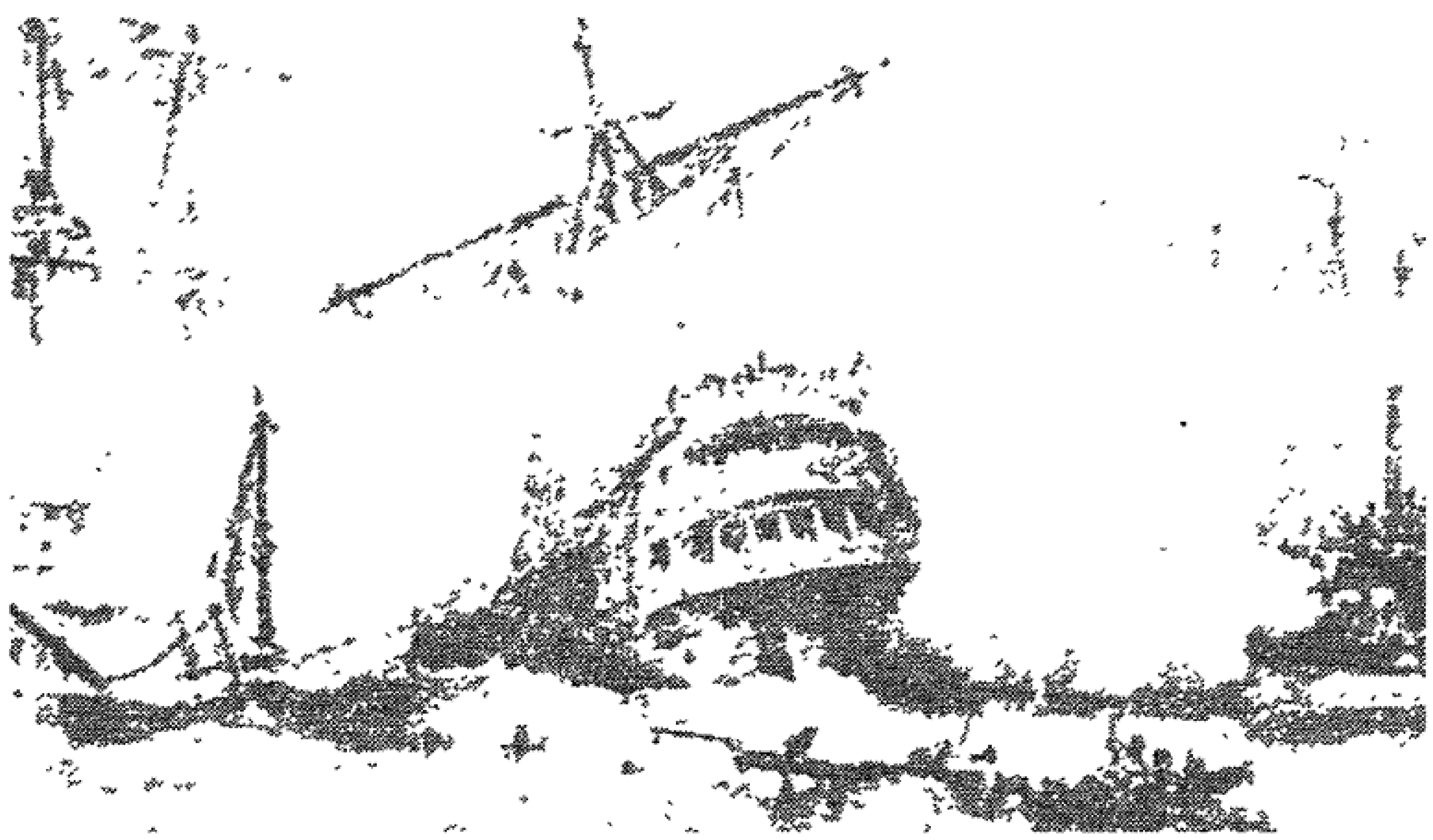

السفينة ڤـانجور وهي تكابد النيران من عدة قطع حربية معاديـة

وبعد أن استطاعت السفينة الفرنسية المثلثة الجسور تيرّيبـل أن تقضي على السفينة المعادية سقطت بدورها تحت ضربات سفن أخرى ثلاثية الجسور هي رويّال سوڤيرن لو لم تهرع سفينة صديقة لنجدتها ، كما تدمرت السفينة « الأول والثلاثون من أيـار » بدورها وأصيب قائدها غانتوم بثلاثة جروح خطيرة •

أما على السفينة موتتانيه حيث أصيب جان بون سانتاندريه ، مندوب الحكومة السياسي ، برعب شديد نتيجة النيران الجهنمية التي أتلفت الجسر العلوي ، فتذرّع

بأنه يرغب في زيارة البطاريات السفلى ، لكي يختبىء • أما القائد العام ڤيللاريه فقد انقلب عن مقعده بفعل انجار ، ولكنه نهض واستمر في ممارسة قيادته • وكان الضباط الجرحى من حوله ثابتين في مراكزهم بعد تضميد خفيف لجراحهم • كان أحدهم وهو بوڤيه دو كريسّيه ، رئيس مطبعة الاسطول ، قد أصيب بثلاثة جروح وبترت ذراعه اليسرى ، ولكنه تقدم لاشعال فتيلة مدفع من عيار ٣٦ والذي اكتسح الجسر من فوق السفينة الانكليزية المعادية • وهنا أشفق عليه ڤيللاريه ولفت نظره الى أنه يهمّ بقتل نفسه ، غير أن الشاب أجاب فوراً : « لا بأس سأكون مسرورا اذا كان في موتي فائدة للوطن » •

وقد أصيب بخمسة جروح أخرى قبل أن يتمكن من الوصول الى المدفع ويفتح ناراً هدامة على جسر السفينة كوين شارلوت ، حتى ان الاميرال هاو رفع قلوعه وانسحب ، ممّا وضع حداً لهذه المعركة الخيالية ، والتي لاتعود حدتها الى مهارة المناورة لدى المشتركين فيها ولكن لصلابة المقاومة، التي تكاد تلامس التعصب، من جانب بحارة الجمهورية •

وبعد أن أصيب الانكليز بالذهول من ضراوة الدفاع الفرنسي انسحبوا نحو موانئهم « حيث عادوا مذعورين من انتصارهم وقد امتلأوا اعجاباً بشجاعة البحارة الفرنسيين الناشئين » كما ذكر ذلك تيير في كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » •

اسطورة السفينة « ڤانجور » = « المنتقم » :

عند تعداد الاعمال المجيدة ، التي تخلّلت هذه المعركة ، لا يكون من المستطاع إغفال احداها ، وهو الذي قامت به السفينة ڤانجور دو پوپل واختصاراً ڤانجور ، والتي زخرفتها الاسطورة كي تستثير المزيد من الاعجاب بفرنسا وفي الخارج • والواقع لقد حاربت السفينة ڤانجور مثل السفن الاخرى ، لا أفضل ، ولا أقل جودة ، وان من الاصح القول بأنها كانت أقل جودة ، بسبب نقص الحذق ، أو الخطأ في اصابة الهدف ، اذ أطلقت رشقة من مدفعيتها على سفينة القائد ڤيللاريه

ذاته ، حيث عانى الضباط الكثير من العناء والمتاعب لمنع رجال مدفعيتهم عن الردّ • ولا داعي هنا للدهشة ، ضمن أوار المعركة كانت سحب الدخان فيها تعرقل أية رؤية، مما لايجعل مثل هذه الاخطاء شيئاً استثنائياً • وعندما تعرضت للهجـوم من جانب السفينة الانكليزية برنسويك التي ظلت مرساتها اليمنى منغمسة في قوقعتها كأنها صنّارة عملاقة ، ظلت السفينة ڤـانجور ، التي كان يقودها المقـدم جان فرانسوا رينودان ، ظلت تطلق النار عن كثب ، حتى أن رماة المدفعية كانوا يمتطون فوهات المدافع المعادية كي يدسّوا فيها عصي التنظيف ، أي في فوهات أعدائهم • وكان من جراء ذلك أن خسرت السفينة الانكليزية برسويك قائدها ومائتي رجل وأتلفت كل

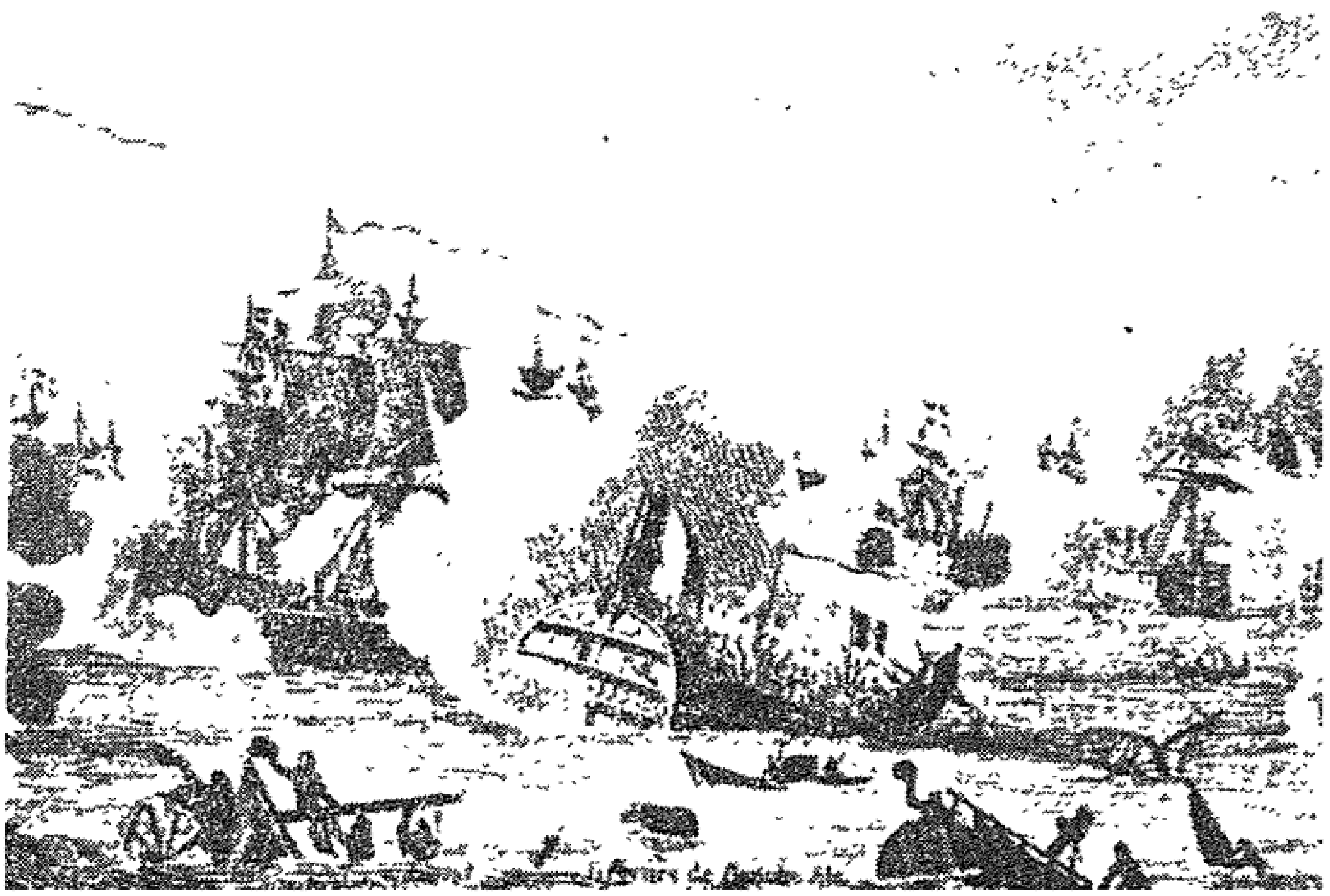

مشهـد مـن معركـة ١٣ بربريـال

صواريها • وعندما أصبح فك الارتباط بين السفينتين ممكنا كانت السفينة ڤانجور محرومة من صواريها ، ومثقّبة كالغربال ، مما أوقعها تحت ضربات السفينة البريطانية راميلليز ، التي كان قبطانها هو شقيق قائد السفينة برنسويك • وقد تعرضت ڤانجور الى قصف صاعق على مسافة ٤٠ مترا واجتاحتها الميـاه من كـل صوب ، وغرقت عنابرها السفلى وبدأت في الغطس • وأصبح كل دفاع مستحيلا وعديم الجـدى ،

وأخــذت السفينة تغطس شيئا فشيئا ، وأمكن استنقاذ الرايــة • وكانت السفينة فانجور هي أول سفينة تستسلم للانكليز • وبذل هؤلاء جهودهم لالتقاط الناجين، وبينهم قائدها ، وأركبوهم في سنابيك ، هذا بينما كان هيكل السفينة « يفتح ثغرته » في عباب المحيط ليسحب معه الجرحى والمحتضرين في اتجاه الاعماق •

وقد أعيد نشر هذه القصة ، البديعة بحد ذاتها ، وتوسّعت ولاسيما على يــد بــارير في مدحه الاسطوري الذي يتصف بالافراط بتاريخ ٢١ من شهر ميسّدور من العام الثاني للثورة ، وذلك من فوق منبر حكومة الاتفاق • وادّعى ان السفينة ڤــانجور أغرقت ثلاث سفن معادية ، مع ان الانكليز عادوا مع كل سفنهم ، وذلــك عندما بُقرت خاصرتها • ولما كان البحارة الفرنسيون يفضلون الموت على التسليم، فقد استغلوا الفترة التي كانت فيها أواخر المدفع فوق سطح الماء كي يطلقوا الرشقة الاخيرة • ومن ثم صعدوا الى الجسر وثبّتوا الراية فوق قطعة من الصاري لتجنب عومها على الماء وكيلا تسقط في أيدي العدو ، قائلا :

« كانوا رافعين أيديهم نحو السماء ، وهم يهزون قبعاتهم في الهواء ، وينشدون المارسيلليز ، مرددين حتى آخر لحظة : « تحيا الجمهورية ، تعيش الحرية ، تحيــا فرنسا » ، ونزلوا ، ظافرين ، في لجّة البحر التي ابتلعتهم » • وقــد التهبت حماسة الشاعر ماري جوزيف شينيه من هذه التضحية فنظم هذه القصيدة السامية :

إنهضي ، واخرجي من البحار العميقة
أيتها الجثة المحروقة في السفينة ڤانجور
أنت التي رأيت الفرنسيين منتصرين
وشاهدت الانكليز والنيران والأمــواج
من أين تنطلق تلك الصرخات الممزّقــة
ما هي تلك الأصــوات الشريفــة !
إنهــا من هؤلاء الشجعان في نزعهم الأخير
الذين ينشدون من قاع الأغوار السحيقة :
المجــد للشعب الفرنسي •

الوهـم يتجـاوز الحقيقة :

وعندما وصل تقرير رينودان ، قائـد ڤانجور ، والذي أرسله من انكلترا الى وزارة البحرية ، حدثت فترة من ذهول • إذن لم تغرق ڤانجـور ، ورايتها عاليـة، بل استسلمت ؟ وخلافا لأبسط قواقد وظيفته لم يغادر القائد السفينة بعد إنقاذ آخر رجل من بحارتها ؟ هل سقط بالأسر ؟ إذن لنهمل ذلك • فلن تمزق صفحة التاريـخ البديعة التي تلهب حماسة جيوشنا ، وبحريتنا ، وبلدنا برمته • وقد دفن التقرير في درج عميق ونام لفترة طويلة •

أما اليوم فمن الممكن قراءة التقرير بكل سكينة • فبعد أن سرد قصة المعركـة التي شرحت آنفاً ، كتب القائد رينودان ما يلي : « لقـد اقتربت ڤانجـور بصورة محسوسة من الفترة التي أخذت فيه بالغوص في البحر ، واستفحـل الخطر بصورة مخيفة رغم جهود الطاقم في ضخ المياه ونتحها • فقد ارتفع مستوى الماء الى ما بـين الجسرين ، فاضطررنا الى القاء عدة مدافع في البحر • وكان الجزء من الطاقم الذي يعرف الخطر يقوم ببث الذعر ، وهؤلاء الرجال ، الذين عجز العـدو عن ترويعهم ، كانت فرائصهم ترتعد لمرأى المصيبة التي تتهددهم • وقـد كنا جميعاً منهكين مـن التعب ، وقد نكست الأعلام ، وأنزلت عدة سفن انكليزية قواربها الى البحر وكفّت المجاذيف والمضخات عن العمل • وتلقت هذه المراكب عند وصولها الى حافةالسفينة كل اولئك الذين رموا بأنفسهم فيها في البداية • وما أن كادت تبتعد هـذه المراكب حتى تراءت لأبصارنا أكثر المشاهد ترويعـاً وهلعـاً : فالذين بقوا من رفاقنا عـلى السفينة ڤـانجور كانت أيديهم موجهة نحـو السماء ، يتوسلون ، وهـم يطلقون صرخات تتقطع لها نياط القلوب ، طالبين نجدة لم يكن باستطاعتهم أن يأملوا فيها : وبعد قليل اختفوا ، أي السفينة والضحايا التعيسة الذين كانت تضمهم •

وفي وسط هذا الهول الذي كانت توحي به الينا جميعا هذه اللوحة الحزينة ، لم نستطع أن ندفع عن أنفسنا عاطفة اختلط فيها الاعجاب بالألم • وقد سمعنا ونحن نبتعد عن بعض رفاقنا وهم لايزالون يعبّرون عن تمنياتهم لوطنهم : فقد كانت آخر

صرخات هؤلاء التعساء هي « تحيا الجمهورية » وماتوا وهم يلفظونها • وعاد بضعة رجال للظهور فوق الماء ، اذ كاذ بعضهم فوق ألواح ودُسرٍ خشبية ، وكان الآخرون فوق أجزاء الصواري أو انقاض أخرى ، وقد تم انقاذهم بواسطة جندول وسنبوك وبعض المراكب الصغيرة حيث نقلوا فيما بعد الى سطح السفينة الانكليزية » •

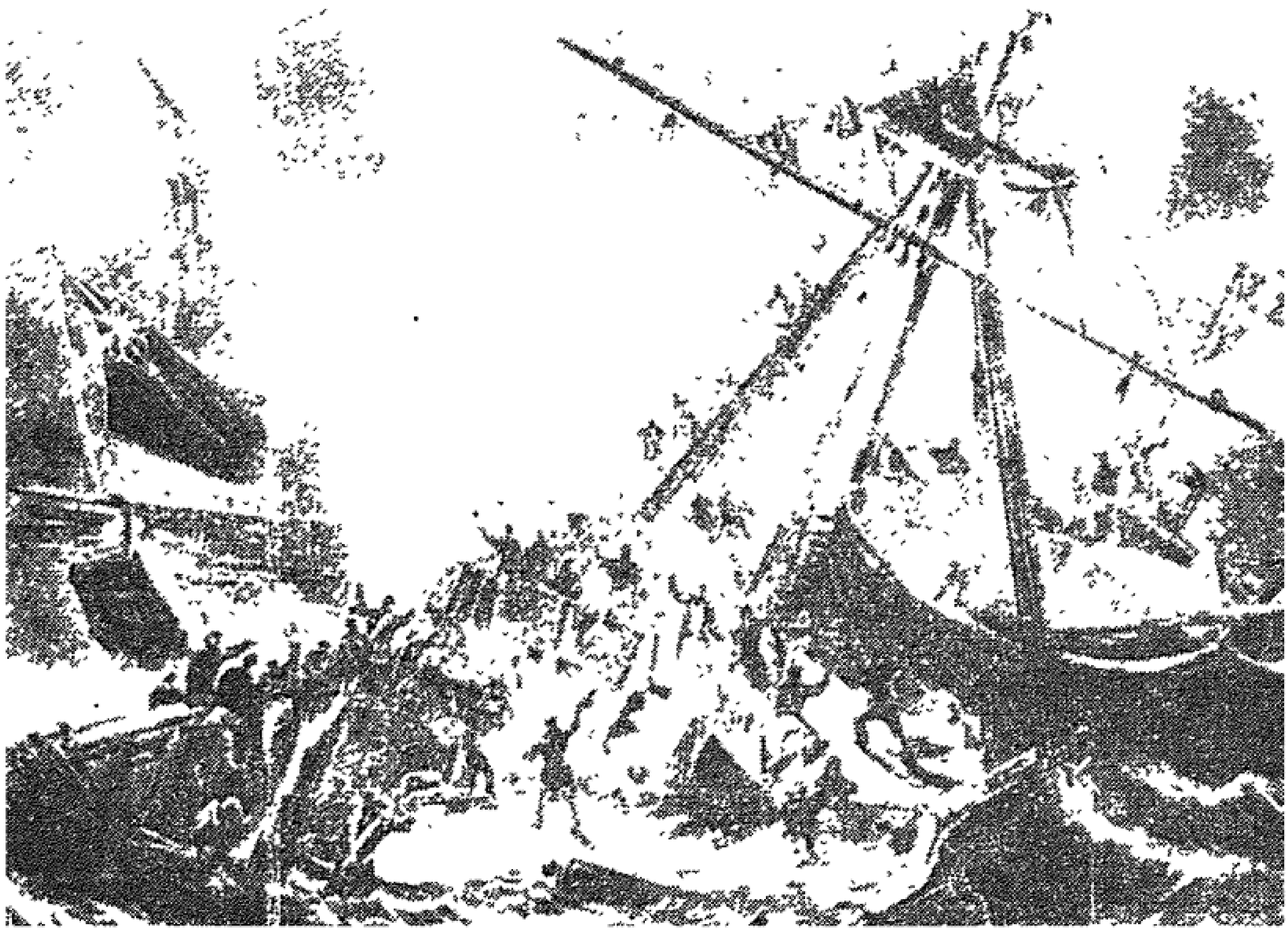

السفينة ڤانجور في النزع الاخير

ومن جملة الطاقم الذي كان يتألف منه بحارة السفينة ڤانجور والذين كان عددهم يبلغ ٧٢٧ رجلا لم يمكن إنقاذ سوى ٢٦٧ • وكان بين المفقودين وعددهم ٤٥٦ رجلا حوالي ٢٥٠ قتيلا أو جريحا في المعركة هذا عدا عن المرضى •

وقد ظل التقرير البحري سريا وحدث برود عندما عاد المقدم رينودان مع عدد من رجاله ، الذين كان الناس يعتقدون أنهم لقوا حتفهم كأبطال ، بين قتلى وغرقى ، وقد عادوا من الأسر ليرووا ما حدث حقيقة على السفينة ڤانجور • وقد استقبلوا بصورة رديئة ككل الذين يقوضون الاساطير • وهذا هو أيضا مصير المؤرخين النزيهين •

هزيمـة تكتيكية ولكنها نصر استراتيجي :

وبالاختصار لقد كلفت هذه المعركة فرنسا سبع سفن ، منها واحـدة أغرقت وهي ڤـانجور ، في حين تم أسر ست سفن ــ سنتكلم عنها ــ و ٢٠٠٠ رجل مـن القتلى ، و ٦٠٠٠ جريح أو سقطوا أسرى • أما الانكليز فقـد بلغت خسائرهم ٨٠٠ رجل بين قتيل وجريح ، ولم يفقدوا أية سفينة •

غير أن الهدف المحدّد للقائد ڤيللاريه فقد أمكن بلوغـه • ففي الثالث مـن حزيران وصلت القافـلة التموينية الى برست وأنقذت الشعب من مجاعـة محققة • وعندما اجتاز الاميرال ڤانستابل الرقعة المائية التي شهدت نشوب المعركة ، لاحظ أن البحر كان محجوباً بأنقاض من كل الانواع : صواري مبتورة ، عوارض وتجهيزات مقتلعة • من هو المنتصر ؟ وفي الجواب على هذا التساؤل تكمن سلامتـه ، ولكن كيف يمكن معرفة ذلك ؟ وتابع طريقه ولامس ميناء برست دون أي إزعاج مع قافلته التي زادت بأربعين سفينة أخرى استولى عليها خـلال اجتيازه المسافة بـين ضفتي الاطلنطي •

ولحقت به بقايا عمارة ڤيللاريه في اليوم التالي • وقام جان بون سانتاندريه ، في تقريره الذي قدمه لحكومة الاتفاق ، باطراء بطولة البحـارة الفرنسيين • وكان عرضه شديد الحرارة حتى أنـه جرى التصويت على تقديمـه التهاني له شخصيا • ولكن عضو حكومة الاتفـاق امتنع عـن كشف الخطأ الخطير الذي ارتكبه وهـو باصدار الأمر الى ڤيللاريه ، في نهاية المعركـة ، بعدم الاهتمام بالمؤخرة الفرنسية ، والتي كانت تضم السفن الست ، والتي كان عدد مدافعهـا يتراوح بين ٧٤ و ٨٠ ، والتي كانت ممسوحة السطح كأنها الطوف أو الرمث بعد أن خسرت نصف طواقمها ، والتي اقتادها الانكليز وسحبوها حتى پورتسماوث • ويبدو أنـه كان من الممكن التقدم لنجدتها دون مخاطر كبيرة ، لان معظم الاسطول الانكليزي كان قد ابتعـد عن الساحة • وكانت هذه السفن تحمل الاسماء التالية : سان پـاراي ، ايمپيتوو ،

جوست ، أمريكا ، نورثمبرلاند ، وآخيل • أما السفن التي تحمل أسماء انكليزيـة فهي سفن أسيرة سابقا والتي لم يكترث المسؤولون بتبديل اسمائها بأسماء فرنسية•

وكان الفرنسيون الذين كانوا سعداء بانقاذ قافلة القمح، بهذه الكلفة البسيطة، والذين أضافوا صفحة ملتهبة لتاريخ بلادهم ، كانوا يفتخرون بمعركة ١٣ بريريال • أما الانكليز ، من جهتهم ، والذين اعتاضوا بالاهانة التي نفذوها حول دونكرك وفي طولون ، فقد احتفلوا بانتصارهم البحري المسمى « الاول مـن حزيران المجيـد » Glorious First of June ، على صورة أعياد وتنويرات في العاصمة مع فـرح عـارم تجلّى في سائر أنحاء المملكة •

وقد حقق الاميرال هـاو على الصعيد التكتيكي نجاحـا لايمكن انكاره • ولكن ذلك كان خطأ استراتيجيا وسيكولوجيا في وقت واحد بأن ترك قافلة تموينية ضخمة تصل الى الموانىء الفرنسية والتي كان لضياعها بالنهاية بالنسبة للعدو نتيجة أفضل من اغراق فـانجور المجيد ، وأسر ست سفن شبه تالفة •

★ ★ ★

هوراشيو نلسون

١٧٥٨ — ١٨٠٥

« ان بريطانيا لعلى ثقة بأن كل مواطن سيقوم بواجبه »

الرجل العسكري النموذجي ، لدى الانكليز ، هو ويللينغتون[١] ، الدوق الحديدي ، أما البحّار الذي حجب كل أمجاد سائر رجال البحر البريطانيين الآخرين ، فهو نلسون ، الذي جاءت أجيال من مرشحي الضباط من بعده لتكرر خلال مراسم تخرجها كلمات القيادة : لا مستحيل في وجه البحرية البريطانية وتثق بريطانيا بأن كلاً سيقوم بواجبه .

هذا ولا نعرف إطلاقاً الشيء الكثير عن طفولة الرجال العظام ، اذ لا يعرف أحد المستقبل الذي ينتظرهم عندما يصبحون في سنّ تتكشف فيها مقدرتهم ومواهبهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لحالة نلسون . وفضلاً عن ذلك فقد كان سادس مولود لأسرة تضم أحد عشر ولداً . وقد رأى النور ، لأول مرة ، في عام ١٧٥٨ في بلدة صغيرة من اقليم نورفولك ، وكان والده راعياً في الكنيسة الانكليزية متمتعاً باحترام رعيته . وقد ماتت أمه في وقت مبكر ، وقد كانت تدين بالولاء بصورة غامضة للسير والبول[٢] الذي ظل الوزير الأول خلال احدى وعشرين سنة .

---

(١) ارثر ولسلي ، دوق ويللينغتون . جنرال انكليزي ولد في دبلن ومات في والمر باست (١٧٦٩ — ١٨٥٢) حارب القوات الفرنسية في البرتغال وفي اسبانيا وانتصر في معركة فيتوريا ، ثم انتصر على رأس الجيوش المتحالفة في معركة واترلو وكان يتميز بعناده وبقوة جسمه وارادته التي لا تلين .

(٢) والبول : سيرروبرت ، كونت أورفولد . رجل دولة انكليزي ولد في هوفتون عام ١٦٧٦ ومات في لندن سنة ١٧٤٥ وكان زعيم حزب هويغ . وكان يسيطر على البرلمان بالرشوة وتفوقت في عهده سياسة السلم والتحالف .

ولا يبدو أن أسرة نلسون قد حصلت على بعض الامتيازات المادية من وراء ذلــك ، فقد ظلوا دائماً في عداد الفقراء • غــير أن شقيق السيدة نلسون كان ضابطاً لامعــاً في بحرية صاحب الجــلالة ، وكان يدعى موريس سوكلينغ ، وهو الذي لعب الدور الرئيسي في وجهة حياة ابن اخته هوراسيو •

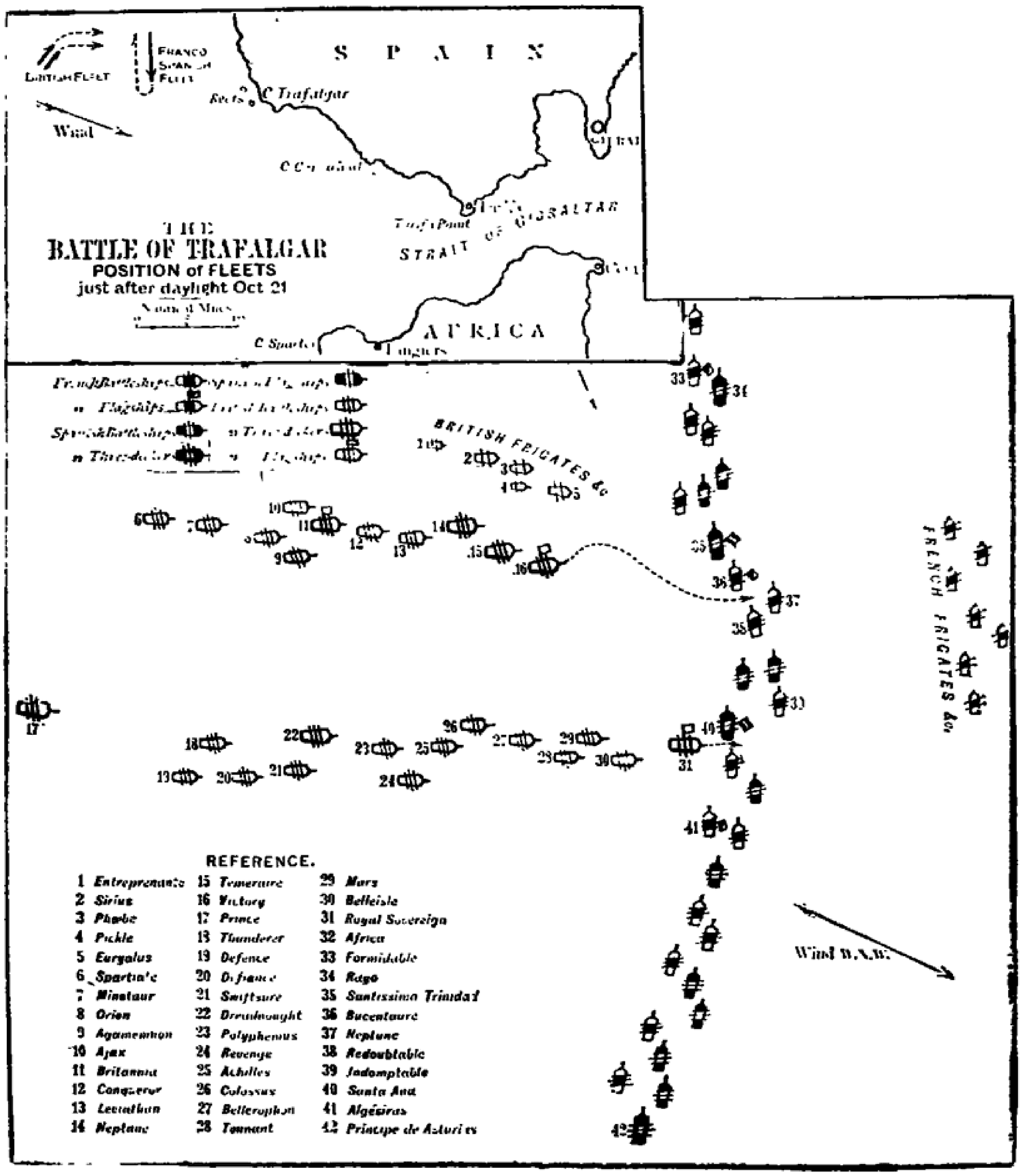

معركة طرف الأغــر

نقلا عن مؤلف انكليزي « نلسون وزمانه »

فقد ابتدأ هـذا الطفل النحيل دراسته في مدرسة مدينة نورويش حيث كان يقوم معلمه الرهيب بجلده بالسياط أحياناً • وعندما بلغ سن الثانية عشرة ، أي في عام ١٧٧١ ، أراد الخال أن يأخـذ على عاتقه مسئولية مستقبله ، فقام بكل بساطة ، ودون أية شكليات ، بتسجيله على لائحة طاقم السفينة ريزونـّابل التي كان يقودها شخصياً • وكانت البحرية البريطانية بحاجـة دائمة لضابط مرشح جديد • وكانت البحرية البريطانية بحاجة دائمة لضابط مرشح جـديد • وكانت السفينة المذكورة راسية في شاتهام على نهر ميدواي ، وتلقّى هوراسيو على متنها مبادىء فن الملاحة الشراعية مثل جدل حبال المركب ، وصنع العقدة بأنواعها ، ثم التسلق فوق مقصورة الصاري ، وكان يقف ، على مرأى منه ، مركب رائـع ، يحمل تسعين مدفعـاً فوق طوابقه الثلاثة ، وهو فيكتوري ، والذي سيلقى عليه مصرعه فيما بعد •

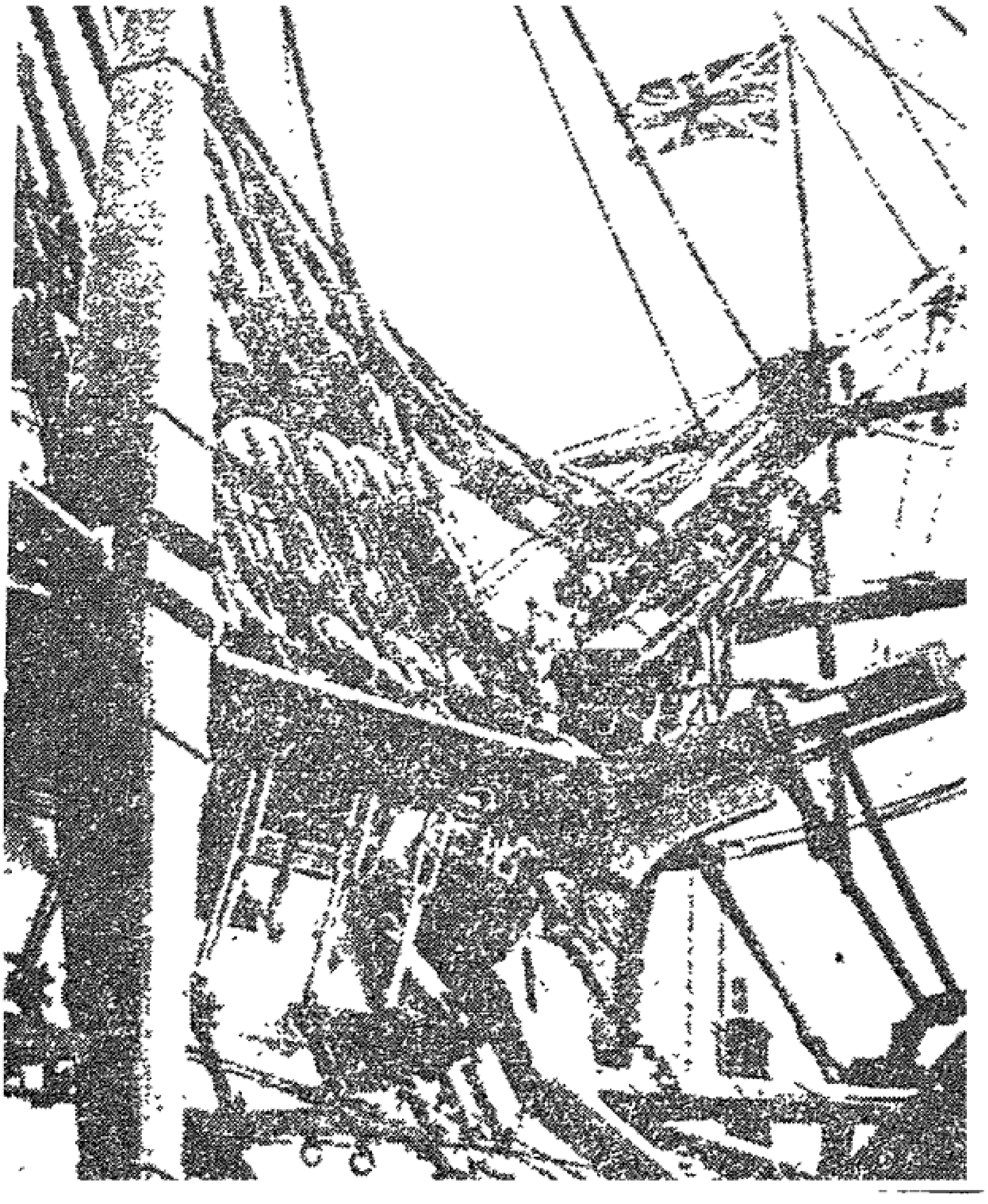

نموذج عن سفينة نلسون « فكتوري »

وقد انتقل نلسون من على متن ريزونابل الى السفية تريومف المسلّحة بأربعة وسبعين مدفعاً ، والراسية في نهر التاميز كقطعة من سلاح خفر السواحل ، وبعدئذ انتقل للعمل على ظهر سفينة تجارية تعمل على خطوط الهند الغربية، أي باتجاه جزر الأنتيل في أمريكا الوسطى • وعلى هذه السفينة المذكورة أتقن مهنة فن الملاحة التي تتمتع باحترام عظيم لدى أبناء جيله • وبعد عودته الى انكلترا ، وكان قد بلغ الخامسة عشرة من العمر ، وفي عنفوان صباه ، وكله اندفاع وحب لمهنته ، عهد اليه خاله سوكلينغ مباشرة بقيادة سفينة صغيرة ذات طابق كانت تستخدم كطليعة أمامية للسفن العاملة بين شاتهام ولندن •

وقد كان ذلك بداية متواضعة فعلاً لمغامرة كان الشيطان يوسوس بها في دماغ نلسون • وبعد برهة كان عضواً في الحملة القطبية التي كان يقودها فيليبس ، وعاد لجزر الهند الغربية على متن الفرقاطة سيهورس ، حيث اعتلّت صحته واضطر الى لزوم سرير المرض في اليوم نفسه الذي تلقّى فيه شهادته كمرشح ضابط بحري • فقد كان جسمه الواهن غير قادر على تحمّل متاعب مثل هذه الاسفار البحرية • ولكنه لم يلبث أن استرد صحته ونجح في الحصول على رتبة ملازم مصحوبة بتهاني لجنة التحكيم • وظل يمارس مهنته كملاّح في بحار مختلفة • و في ١٧٧٨ ارتقى الى منصب قائد سفينة • وابتدأ ذلك بأن كان قائد مركب ذي صاريين ، ومن ثم ، وبعد ستة شهور ، استلم قيادة فرقاطة ذات ثمانية وعشرين مدفعاً ، وبذلك سيكون بمقدوره منازلة الفرنسيين الذين كان يمقتهم ، والذين كان يبغضهم ، مثلما كان يضمر لهم قدراً كبيراً من الاحتقار • ما هو سبب ذلك ياترى ؟ والجواب : لأنهم كانوا يملكون قوة بحرية كانت الوحيدة التي كان باستطاعتها التصدّي للبحرية البريطانية •

وكان سن نابوليون بونابرت حينذاك لايتجاوز عشر سنين ، وكان تلميذاً في مدرسة بريين • وكانت بؤرة الحرب البحرية تقع آنئذ في البحر الكاريبي حيث كان الانكليز يملكون قواعد ممتازة في جزيرة جامايكا • وفي ذلك العصر كانت الاساطيل

الفرنسية تهرع لنجدة حلفائها في أمريكا الشمالية الذين كانــوا منهمكين في انتزاع استقلالهم من انكلترا •

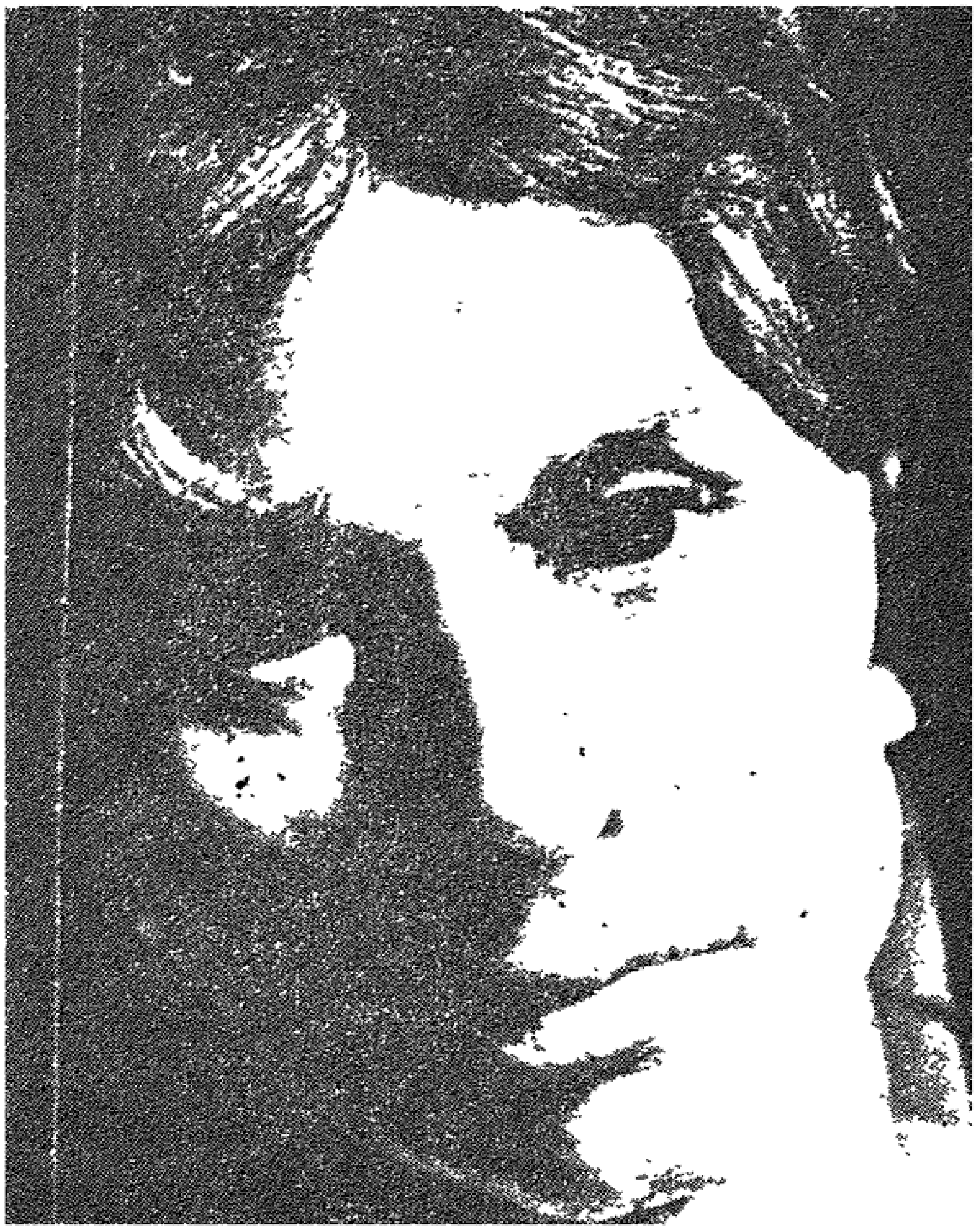

نلسون (تصوير توســو)

وقد عثر نلسون في جزر سولوڤان على المرأة التي تناسب ذوقه ، وهي ابنــة أخ حاكم جزيرة نيڤيس ، وهي السيدة نيسبت ، أرملة طبيب ووالدة لطفل صغير • فقد سمحت هذه السيدة لنلسون بمغازلتها والتي لم تجد في هذا الضابط ، الــذي سيعيدها الى انكلترا ، ما يدعو لنفورها منه ، وهكذا أصبحت السيدة فرنسيس ، أو فانّي ، السيدة نلسون بتاريخ ١١ آذار ١٧٨٧ •

وما أن أصبح نلسون زوجاً حتى راح يميل لأن يقبع في أمكنة ولادته ، أي في بلدة بورنهام ثورب حيث استقبله القس الهرم بدموع فرط التأثر • وظل مدة ثلاثة

أعوام كاملة دون عمل يستحق الذكر ، أي بين ١٧٨٩ و ١٧٩٢ وفي هذا الوقت كانت فرنسا تتمخض عن غليان في سبيل التخلص من سادتها ، واندفعت بإصرار نحو الطريق التي تقودها مباشرة الى الحرب •

البحر الابيض المتوسط :

وهنا ارتقى نلسون لمنصب قائد أجمل سفينة شراعية في كل اسطول بريطانيا ، وهي السفينة آغاممنون المجهزة بأربعة وستين مدفعاً ، وسيكون البحر الأبيض المتوسط ميدان عمله تحت قيادة أمير البحر اللوردهود •

وهذه الحرب التي اندلعت كي تستمر حتى عام ١٨١٥ أدت الى الاشتباك بين شعبين متساويين في تعصبهما ، واللذين كانا يدعوان الى عقائد متنافرة ، واللذين سينخرطان في معارك ضارية وهدف كل منهما إفناء الآخر • وكانت بريطانيا بقضها وقضيضها تضمر للفرنسيين حقداً لم يكن مماثلا حتى ولا للحقد الذي كانت تشعر به ، بعد قرن كامل ، للألمان ، أي كانت حرباً لاتعرف الهوادة ، حتى الموت •

وكانت تمتلك بريطانيا في بداية النزاع الكبير ١١٥ سفينة تحمل ٨٧١٨ مدفعاً، ولكن عدد سفن الاسطول الفرنسي لم يكن يتجاوز ٧٦ سفينة، ولكن كان لدى فرنسا ٢٥ سفينة في ورشات دور صناعتها البحرية • وكان عدد مدافعها البالغ ٦٠٠٠ عدداً ذات عيار أكبر مثلما كان العتاد البحري متفوقاً أيضاً • هذا كما كانت السفن التي تصنع في الورشات الفرنسية أكثر صلابة من تلك التي تخرج من ورشات نهر التاميز ، اذ كانت سفناً شراعية أفضل ، أكثر سرعة ، وذات صواري متينة • ترى لأي شيء يعود هذا التفوق في التجهيز ؟

إنه يعود طبعاً لحكمة الملك لويس السادس عشر ، ذلك الاسطول الذي ورثته الثورة • ولن يكتب لهذه القدرة البحرية البقاء لأنها ستنهار ، مع الأسف ، ضمن الفوضى السائدة ، وفي الافتقار للمواد الأولية ، في حين كان تحت تصرف خصمها مخازن وترسانات غاصة بالامدادات وبالمؤن •

وبعد ذلك فقد مضى عهـد سوفرن وانقضى ، فقد عملت الثورة ، والهجرة ، والمقصلة على إفناء عدد كبير من الضباط الذين خرجتهم مدرسة مستشار الملك المذكور • وبينما كان الانكليز يتمتعون بانضباط دقيق حازم ، كان لـدى رجال الثورة الفرنسيين مجالس سوفيات • وفي تاريخ ٢٨ آب ١٧٩٣ استسلم ميناء طولون للبريطانيين بعد أن أنهكه الارهاب ولم يبق أمام الاميرال هـود سوى أن يضع يده على ٣٢ سفينة من اسطول أعالي البحار والراسية في خليج طولون •

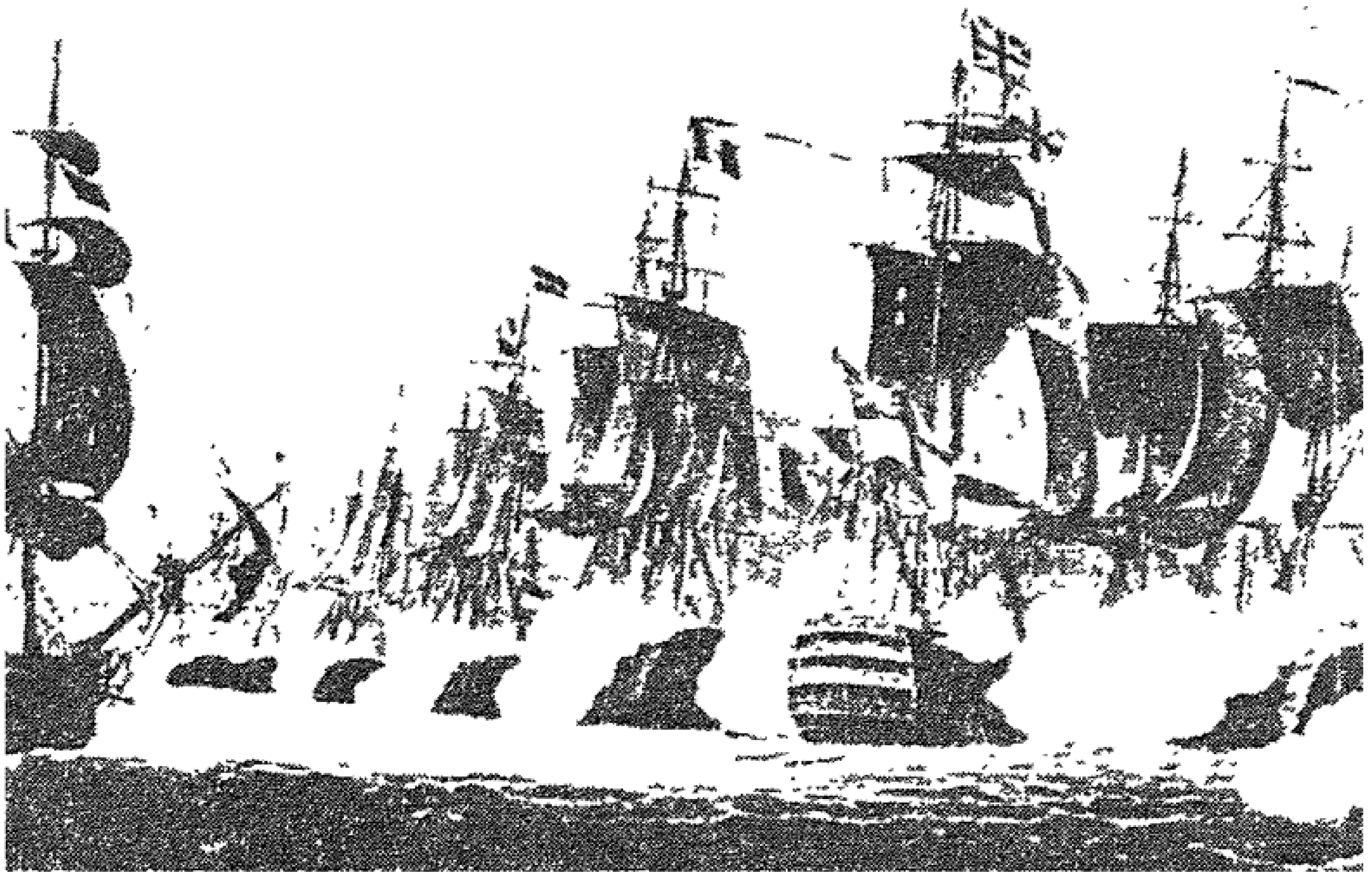

صورة عن معركة الطرف الأغـر

ولكن هـود كان ، مـع ذلك ، يشعر بالعزلة بعد أن أصبح ميناء طولـون الحربي تحت يده ، إذ لم يكن يتصرف بأية قوة برية ، والذي علم أن جيشاً ثوريـاً كان يزحف للقيام بهجوم معاكس ، وهكذا لم ير بدّاً من ايفـاد نلسون الى نابولي كي يلتمس من الملك فرديناند دو بوربون دعمه بجزء من قواته • وفي العاشر مـن ايلول ١٧٩٣ ألقت السفينة آغاممنون مراسيها على مقربة من بركان فيزوف • ونزل القائد نلسون لمقابلة سفير بريطانيا ، السير ويليام هاملتون ، الذي كان يمثل صاحب الجلالة البريطانية على ضفاف البحر الابيض المتوسط منذ أمد طـويل • أما زوجته

ـ وهي امرأة ذات جمال أخّاذ ـ واسمها ايمّـا ، فقد كانت تشعر ببعض القلـق من هذا الزائر غير العادي ، وقد توجه زوجها اليها قائلاً : لن أستغرب اذا أصبـح هذا الرجل ، في يوم ما ، أكبر رجل أنجبته إنكلترا إطلاقاً • وكان جواب زوجته التي كانت أصغر منه عمراً بكثير :

ـ أنت تبالغ دائماً يا ويليام •

كورسيـكا :

وقد كانت حصيلة أول بعثة قام بها نلسون الى نابولي هي الخيبة ، فقد رفض الملك فرديناند مد يـد المعونة الى نلسون الذي قصـد تونس لمقابلة الباي • الذي كان احد حلفاء بريطانيا ، كي يناشده اغلاق مراسي بلاده في وجه الفرنسيين ، وقد كان جواب الباي هو الرفض أيضاً •

وفي خلال هذا الوقت استرد الفرنسيون ميناء طولـون وراح اللورد هـود يبحث عن نقطة ارتكاز اخرى• فقرر أن يجدها في كورسيكا • وفي الرابع من نيسان ١٧٩٤ قام نلسون بعملية إنزال فيها على رأس ١٢٠٠ من جنود البحرية و ٢٥٠ مـن الملاحين وضرب الحصار على باستيا التي لم تلبث أن سقطت في يده في التاسع عشر من آيـار • ودارت معركة غير حاسمة ، في الوقت ذاته ، في خليج سان تروبيز الذي تدور فيه هذه الأيام مباريات ، ولكن غير دموية • وتابع نلسون عملياته عـلى البر فاحتل ميناء كالفي • وفي الثاني من تموز أصيب بشظية حجر في عينه نتيجة قذيفـة منحرفة عن هدفهـا • وفي غضون ثلاثة شهور فقدت عينـه اليمنى أية قـدرة على الإبصـار •

وفي عام ١٧٩٥ كان الاميرال الفرنسي مارتن يقاوم الانكليز في خليج جنوه • وقد طال الحديث عن معركة ١٣ آذار حيث تعرض نلسون لمحنـة حقيقية • فقـد اشتبكت سفينة آغاممنون مع الفرقاطة آنكوستانت ، وسائيرا ، و قستال ، والسفينة الحربية سانكولوت ذات المائة مدفع • وبعد بضعة أيام من ذلك التحم الاسطولان

مخطط مناورة العمارات البحرية خلال معركة الطرف الأغر

من جديد وكان ذلك ، في هذه المرة ، في خليج جوان ، ولكن دون نتيجة تستحق الذكر فعلاً ، لأن وقت المعارك الكبرى لم يحن بعد •

وبعد عام من ذلك كان نلسون يقود عمارة بحرية صغيرة كانت لاتزال مؤلفة من آغاممنون ومن ثلاث فرقاطات ومن غرابين (كورڤيت) ، وكانت المهمة المسندة اليه هي مساعدة النمسويين ، قدر استطاعته ، والذين فتك بهم نابوليون بونابرت فتكاً ذريعاً على رأس جيشه في ايطاليا • غير أن نلسون لم يتمكن ، رغم كل ما لديه من حقد على الفرنسيين ، من احتواء اعجابه بأعمالهم البطولية • وكل ما قدر عليه كان اعتراض قافلة بحرية مشحونة بالمدفعية ذات العيار الكبير والموجهة لحصار مدينة مانتو • ولم تصل هذه الشحنة الى بونابرت اطلاقاً واضطر لإيقاف حملته ولكن على الرغم من كل شيء ، أصبح نابوليون بعد ثلاثة أشهر من ذلك السيد المطلق في كل ايطاليا الشمالية ، ولم ير الانكليز بداً من الانسحاب من كورسيكا •

رأس سان ڤانسان :

وكانت أول معركة كبرى اشترك فيها نلسون هي معركة رأس سان ڤانسان ، وهو اللسان الأرضي الواقع في أقصى النهاية الجنوبية من بلاد البرتغال • وقد كانت العمارة الانكليزية تحت قيادة الاميرال جارڤيس الذي رفع رايته على السفينة ڤكتوري • أما العمارة الاسبانية ، التي كانت تحاول العبور الى المحيط الاطلنطي للانضمام الى الاسطول الفرنسي في ميناء برست ، فقد كانت بقيادة دون خوزيه دو قرطبة • ووقعت الواقعة في ١٤ شباط ١٧٩٧ وكان نلسون هو الذي انتزع النصر بعد أن استولى على السفينة سان نيقولا ذات الثمانين مدفعاً بالالتحام ومن ثم بالاقتحام ، ولقي الاميرال فرانسيسكو ونتويس مصرعه • وكان الفرح في انكلترا عارماً وكان الناس يرددون اسم المنتصر باحترام وتوقير • وارتقى نلسون لمرتبة عميد بحري ، ومنح وسام فارس من مرتبة الحمام Bain [٣] ونال راتباً مقداره ١٠٠٠ جنيه انكليزية •

---

(٣) نظام فروسية انكليزي أسسه ملك انكلترا هنري الرابع في عام ١٣٩٩ م •

وحاول بعد ستة شهور من ذلك الاستيلاء على ميناء سانتا كروز في جزيرة تينيريف في أرخبيل كناري (جزر الخالدات) ولكن كان حظه أقل في هذه المرة فقد هشمت قذيفة ذراعه اليمنى •

واستقبله موطنه الاصلي مرة جديدة واعتزل في ايبسويش ، وكان يفكر بأنه لم يعد يصلح لعمل شيء بعد اليوم • وطوقته زوجته بحنانها ، وكان وضعه يماثل شبه إحالة على المعاش •

ولكن ما لبث ان استرد عافيته على غير انتظار ، وعيّن قائداً على السفينة الحربية ڤانكوارد والتحق بالأميرال جارڤيس ، وكان ذلك في شهر آذار من عام ١٧٩٨ •

وكان الناس في انكلترا يستشعرون بشكل غامض بأن الفرنسيين يزمعون عمل شيء ما • ولكن ما هو ؟ فقد توقفت الاستخبارات عند هذا الحد • وكانت المعلومات المتوفرة تشير الى أن هناك عمارة قوية تتمركز في طولون تحت أوامر الاميرال فرانسوا پول ، كونت برويس ديغاللييه • ولكن الى أين ستتوجه هذه العمارة ؟ وليس لهذا التساؤل من جواب • وكان هناك حشد يضم ٤٠٠ سفينة تجارية حسب أقوال قنصل انكلترا في ميناء ليڤورنه الايطالي ، الذي كان في مركز طيب للملاحظة ، أي اسطول قادر على نقل ٤٠٠٠٠ رجل ، ولكن ما هي الاتجاهات المرتقبة ؟ فقد كانت فرائص رجال بلاط مملكة ناپولي ترتعد من الذعر •

المطاردة الكبرى :

لقد اوكلت القيادة الى نلسون مهمة الانطلاق لمواجهة الاسطول الفرنسي المذكور على رأس ثلاث سفن حربية هي ڤانكوارد ، اوريون ، آلكسندر • وهكذا غادر قاعدة جبل طارق في الثامن من أيار ١٧٩٨ أي في اليوم الذي وصل فيه نابليون الى طولون • ولكنه تعرض بين ١٧ و ٢١ من الشهر المذكور لإعصار رهيب وكانت الكارثة • فقد تشتت الفرقاطات في العاصفة ولم تصل اليه أخبارها إلاّ بعد فترة

طويلة جداً • أما ڤانكوارد فقد اجتثت صواريها واضطرت العمارة للبحث عن ملجأ لها في جون سان پيترو على سواحل جزرة سردينيه •

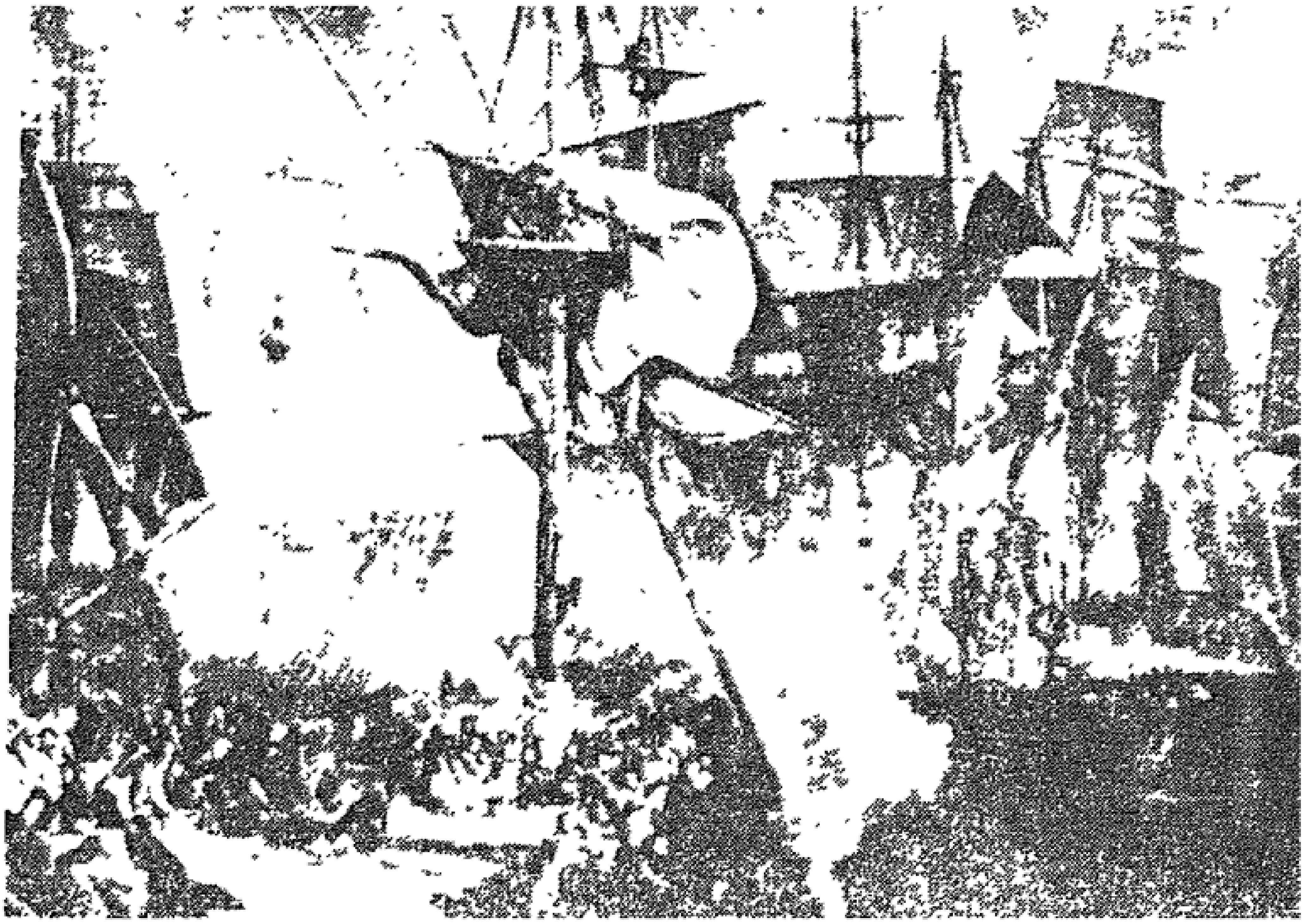

معركة ابو قير وتدمير الاسطول الفرنسي

وفي خلال هذه الفترة استغل الاسطول الفرنسي ريحاً موائمة فرفع مراسيه وأقلع مبحراً نحو عرض البحر الابيض المتوسط • وكان يضم اثنتين وسبعين سفينة حربية • وكانت راية برويس ديغالليبه منصوبة على السفينة اوريـان وكان يحمل معه بونابرت وأحلامه العظام • وهبط نحو شمالي كورسيكا في اليوم الذي كان فيه نلسون يلقي مراسيه في ميناء سان پييترو ، ثم حاذى ساحل سردينية واستولى على مالطة وتابع طريقه قاصداً مصر •

أما الاميرال الانكليزي فقد كان يسير على غير هدى وهو يمخر عباب البحر الابيض المتوسط دون أية معلومات موثوقة • وأقلع في ٢٧ أيار بعد أن حصل على مساندة هامة للغاية مؤلفة من احدى عشرة سفينة حربية هي : كوللودن ، جوئياث ،

دفانس ، مينوتور ، بلليروفـون ، ماجستيـك ، سويفتشور ، ثيزوس ، ليـنـدر ، زيلوس •

وهكذا كان نلسون على رأس أحد أجمل الاساطيل التي استطاعت انكلترا أن تعبئها فوق البحر • ولكن كان ــ مـع الأسف ــ محرومـاً من الفرقاطات ، وكان مضطراً ، بالتالي ، أن يعمل على غير بصيرة • وأخذ يقوم بمطاردة عشوائية فيفيافي البحر الابيض المتوسط اللامتناهية •

وكان ما ينفك يطرح على نفسه السؤال التالي : أين يقبـع اولئك الفرنسيون اللعينون إذن ؟ وظل يبحث عنهم مدة شهرين كاملين •

وفي ١٨ حزيران طوى قلوع سفن اسطوله في نابولي وعزم على أن يطلب مـن الملك فرديناند السماح له بالرسـو والتموّن من موانىء مملكته • ورفض الملـك الذي كان في حالة سلم مع فرنسا ولم يكن يرغب في أن يصب على رأسه جام غضب نابوليون أو الآخرين • هذا كما تلقّى السفير الانكليزي هاملتون رفضاً صـريحاً، وعندها تدخلت زوجته ايمّـا ، فقصدت الملكة ماري كارولـين ، وكانت شقيقـة ملكة فرنسا ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر ، والتي كانت تحمل أكثـر من سبب واحـد للحقد على الفرنسيين • ولما كانت ذات صوت مسموع في مجلس وزراء نابولي فقد منحت التراخيص الضرورية للاسطـول الانكليزي الذي كـان يقوده نلسون •

وحملت الليدي هاملتون الورقة الضـرورية التي ينتظرهـا الاميرال نلسون وكانت تغمرها نشوة النصر ، وهنا شكرها بعبارات موجزة وانطلق من جديد ، في آذار ، قاصداً مالطة • وعندما أصبحت عاصمتها لافاليت على مرأى منه كان اسطول الاميرال الفرنسي برويس قد غادرها قبل ثمانية وأربعين ساعة • وهنا استولى على سفينة جنوية ذات شراعين وعـلم من طاقمها أن الامـيرال الفرنسي قد اتجه نحـو الجنوب الشرقي • ولم يكن يخامره شك إطلاقاً في أن هـدفه الرئيس هو مصـر ،

فتوجه نحو الاسكندرية التي بلغها في ٢٨ منه ، ولكن لم يجد أحداً اذ كان المينـاء خاليـاً .

اذن لم يكن الفرنسيون في مصر ، فأين هم ياترى ؟ هل نزلوا في صقلية ؟ وعاد نلسون أدراجه . لقد انخدع . فقد وصل الى الاسكندرية قبل الاميرال برويس ، اذ تجاوز الاسطول المعادي دون أن يراه وذلك على مستوى جزيرة كريت وذلـك بسبب الضباب الكثيف ... وكان من المنتظر أن يلتقي بالاسطول الفرنسي في طريق عودته من الاسكندرية ، ولكن الرياح المعاكسة قسرته على الانحراف وهكذا بلـغ برويس ميناء الاسكندرية دونما عـائق . ونزل جيش بونابرت فيهـا في الاول من تموز ١٧٩٨ .

وصل نلسون الى سيراكوزه في صقلية بتاريخ ١٨ تموز كي يَمْتار منها ولـم يجد الفرنسيين فيها ، إذ لم يبصر بهم أحد من أهلها. وعاد أدراجه كرّةً أخرى قاصداً الاسكندرية وكان الغضب قد بلغ به حد الجنون . آه لو كان بحوزته فرقاطات !!

أبو قـيـر :

وأخيراً وفي الأول من آب وصل الى مقربة من الاسكندرية واكتشف الاسطول الفرنسي وقد ألقى مراسيه . فقد كان برويس يعتقد بأنه في حرز حريز . فقد علـم قبل شهر مضى ان الانكليز قد عادوا أدراجهم دون أن يعثروا على شيء ولم يعـد يعرهم أي اهتمام . أين كانوا ؟ هذا السؤال كان آخر ما يخطر بباله من الاهتمامات، فقد ترك عمارته في خليج أبو قـير . أما فرقاطاته ــ التي كان يملك العديد منها ، ولكنه كان لايستغلها بصورة جيدة لقلة اعتمـاده عليها ــ فقـد أنبـأته بوصول الاسطول الانكليزي في آخر برهة ، وعندما كان على مقربة منها .. وكان قسـم من طواقم اسطوله على البر . وعندما احتدمت المعمعة كان الوقت قـد فات . وبعـد أن مضى شطر من النهار تبـادر الى ذهـن برويس أن الانكليز لـن يبدأوا الهجـوم ليلاً . وقد انخدع على حساب نلسون اذ كان يتصور أن لديه من الوقت ما يكفي للانسحاب الى جزيرة كورفو في غرب اليونان . غير ان نلسون باشـر الهجوم على

الفور وحمي وطيس المعركة • وقد أصيب نلسون بجروح في رأسه بطلقة بندقية وأسعفه الاطباء تحت وابل من قذائف المدفعية وقد غشّى الدم بصره • وكانت سفن الطليعة الفرنسية الخمس تصلى نيران تسع سفن مماثلة معادية وقد عانت السفينة غيرييه ، سبارتيات ، وكونكيران من أضرار كبيرة وتحول ليلها الى جحيم • وجرح الاميرال برويس أكثر من مرة ، الى أن تلقّى جرحه الثالث الذي كان قاتلاً في هذه المرة وانفجرت سفينته اوريان • واستمرت المعركة طيلة الليل • وفي الصباح استطاع الاميرال ڤيللونوڤ ، على ظهر سفينته غليوم تل ، الافلات من المعركة وانطلق نحو عرض البحر مع سفينة حربية اخرى وفرقاطتين ، وكان ذلك كل ما تبقّى من القوة الفرنسية البحرية ، وهكذا أصبح الانكليز سادة البحر الابيض المتوسط بلا منازع واحتفظوا بهذه السيادة لمدة طويلة جداً امتدت على قرن ونصف من الزمن تقريباً •

ما العمل الآن ؟ لقد تردد نلسون • وحملت اليه فرقاطة قادمة من نابولي رسالة تهنئة من ملكها ورسالة أكثر حناناً بكثير من الليدي هاملتون زوجة سفير بريطانيا فيها • وأقلعت سفنه باتجاه بركان فيزوف المطل على نابولي ووصل الى خليجها في ٢٢ ايلول • ولم تتمالك ايمّـا نفسها من فرط التأثر فتسلقت على متراس السفينة ورمت بنفسها بين ذراعي نلسون • وكانت جماهير الناس تهتف صارخة : يعيش محررنا • ولم تصل أنباء الانتصار الى انكلترا الا في الثاني من شهر تشرين الأول وأدت الى اشتعال الحماسة لدى جماهير الشعب البريطاني • وفي خلال هذا الوقت كان الاميرال الانكليزي يعيش أياماً منسوجة بالذهب والحرير فقد وجد امرأة حياته ، وهي تلك الليدي هاملتون ، التي ظل اسمها مرتبطاً دوماً باسم نلسون ، البطل البريطاني النقي •

نابولي :

على اثر انتصار معركة « ابو قير » الرائع أنعمت الحكومة البريطانية على نلسون بلقب « بارون النيل » مع راتب مقداره ٢٠٠٠ جنيه وتلقى هدايا عديدة ومِنَح مقدار ١٠٠٠٠ جنيه من شركة الهند التي كانت تدين له بالكثير من

الفضل • وبعد أن أسكرته أشكال التكريم المتنوعة التي أصبحت تنهال عليه من كل حدب وصوب أخلد للراحة في ناپولي وتدهورت صحته ، التي أنهكتها انجراح ومتاعب الحملات ، الى حالة رديئة جداً •

نلسون في مكتبه

وفي سنة ١٧٩٩ دخلت مملكة ناپولي في حرب مع فرنسا ، وكان هناك ٣٠٠٠٠ محارباً ولكن دون قيادة • وقدمت النمسا المطلوب ، وهو الجنرال ماك ، من قدماء حرب السنوات السبع ، والذي غلب على أمره في معركة أولم فيما بعد ، وقدمت انكلترا المال اللازم • وكانت هزيمة جيش ناپولي شنيعة واضطر الملك والملكة الى الهرب • واستطاعت الليدي هاملتون أن تقود العائلة المالكة باتجاه ممر باطني، على شكل سرداب مهجور ، يقود الى البحر • وامتطت متن السفينة فانكوارد باتجاه

باليرمو ، في صقلية ، تحمل الملك والملكة وابناءهما وخزينة التاج ، وأسرة هاملتون، وتعرض كل هؤلاء لعاصفة هوجاء لم يشهد لها نلسون مثيلاً خلال كل حياته البحرية • ومات أصغر أبناء الملك فردينانـد ، وبلغت السفينة باليرمو في ٢٦ كانون الأول ١٧٩٨ •

ودخل الجنرال الفرنسي شامبيونيه نابولي ولكن الاحتلال لم يدم طويلاً • فقد استغل الروس والنمساويون في الشمال غياب بونابرت في مصر فطردوا القوات الفرنسية • هذا كما اضطرت القوات الفرنسية المرابطة في الجنوب للانسحاب كيلا ينقطع اتصالها مع الوطن الأم مما سمح للانكليز بالعودة لاحتلال العاصمة نابولي • وكان القمع خالياً من الرحمة ، إذ خضع « المتعاونون » لمعاهدة ردّوا بموجبها القلاع التي كانت بحوزتهم مقابل الإبقاء على حياتهم • غير أن نلسون اعتبر هذا الاتفاغ لاغياً واستأنف اطلاق النار • وكان أحد أكثر الضحايا شهرة هو الاميرال النابوليتاني فرانسيسكو كارا كشيولا ، الذي لعب دوراً مزدوجاً ، فحكمت عليه محكمة عرفية بالإعدام شنقاً في أعلى صواري سفينته ، وهنا احتج وطلب الموت رمياً بالرصاص ، ولكن دون جدوى • وعلى كل تمّ شنقه بكل برودة دم ، من عنقه حتى الموت ، ومن ثم ألقيت جثته بالبحر • بيد أنه وبينما كانت السفينة التي تحمل العائلة المالكة تقترب من الميناء ، طفت جثة الاميرال على سطح الماء وارتاح الملك لمرآها وسأل مذعوراً « وماذا يريد مني ؟ » هذا في الوقت الذي كان كاهنه الخاص يجيبه « جنازةمسيحية يا مولاي » • وقد كان •

كوبنهاغن :

وما ان ارتقى نلسون لرتبة لواء بحري بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٨٠١ حتى استأنف مغامراته البحرية • وفي ١٢ من شباط رفع رايته فوق سفينته سان جورج ذات الثلاثة طوابق ، التي غادرت ميناء يارموث في الثاني من آذار ، بعد أن توترت العلاقات بين انكلترا وأقطار الشمال وهي السويد والدانمارك والروسيا ، التي

شكلت حلفاً من الحياديين كي يمنعوا الانكليز من حق تفتيش السفن التجارية التي كانت تنقل مــواد حربية مهربــة لحساب فرنسا وحلفائها • وقررت انكلترا ارسال اسطول لتهديد كوبنهاغن • وكان ذلك بقيادة الاميرال السير هايــد باركر ، وكان نلسون القائد المساعد •

ورفضت كوبنهاغن الانــذار ، فهل يجب الانتقال الى الهجوم ؟ وكانت الآراء منقسمة على نفسها • لكن نلسون لم يكن يود هــدر دقيقة واحدة من الوقت لأن الدانمركيين كانوا يزيدون في تحصيناتهم الدفاعية • وهنا صعد على السفينة ايليفان واجتاز مضيق السوند في الثلاثين من آذار وألقى بمراسيه على مسافة خمسة أميال من الميناء • وقد تحصنت العاصمة الدانمركية بستمائة مدفع • وظل الاميرال باركر في الشمال ، وفي الثاني من نيسان أصدر نلسون أوامره بالهجوم ونشبت المعركة •

وكان الاميرال والعميد البحري ، قائد قوات الإنزال ، يذرعان سطح السفينة ايليفــان دون اكتراث بشظايا الخشب والقذائف التي كانت تتساقط من حولهمــا وهنا قال نلسون :

ــ الطقس حار جــداً هنا ، بل ومفرط في حرارته اذا استمر لمدة طويلة ، ثم أضاف :

ــ قد يكون هذا اليوم آخر أيام حياتنا ، ولكن لا أريد أن أكون في غير هذا المكان ولو أُعْطيتُ كل ذهب العالم •

وكان باركر مرابطاً على مسافة أربعة أميــال الى الشمال من ميــدان المعركة ويراقب العملية عن كثب • وعندما اعتقد أن الهجــوم قد باء بالفشــل أعطى اشارة للسفن يأمرها بالإنكفاء • وجاء ضابط ليخطر نلسون بفحــوى الأمر ولكن نلسون أفهمه بأن ليس من الممكن تغيير شيء من التدابير المتخذة •

ثم هرع ضابط آخر نحوه قائلا :

ــ لا يزال الاميرال باركر يشير اليك آمراً بالعودة ، وعندئذ قال نلسون :

ــ لِنَرَ ذلــك •

وهنا رفع منظاره وراقب برهة من الوقت وقال :

ـ حقاً لا أكاد أرى شيئاً ، أنت تعرف ليس لديّ سوى عين واحـــدة ، ولي كل الحق ألاّ أرى بها بصورة واضحة جـــداً ، أحياناً ، لا أرى شيئاً بالفعل ، وأقسم بذمتي اني لا أرى شيئاً •

اللواء البحري فيللونوف

وكان يمسك بفتحة منظاره أمام عينه العوراء •

وكانت نيران الدانمركيين تنهمر باستمرار وبصورة كثيفــة • وعقدت هدنــة في الرابع من نيسان ، وهبط نلسون الى البر قاصداً القصر الملكي سيراً على الاقدام عبر جمهور متجهم • وتم عقد سلام موقت •

وفي الأول من تموز عاد الى لندن لاسباب صحية •

الطرف الأغــر :

وكانت آخر مرحلة في حياته ، إذ أسندت الى اللــواء البحري نلسون قيــادة

عمارة البحر الابيض المتوسط • فقد استؤنفت الحرب مع فرنسا • وراح يراقب ميناء طولون بصورة مستمرة حتى عام ١٨٠٥ الى أن حان الوقت الذي كان فيه الأميرال الفرنسي ڤيللونوف ـ الذي أصبح الآن خصمه المباشر ـ يمر مع اسطوله على مقربة منه ، فراح يبحث عنه في مصر •• ويظل يذرع عباب البحر الابيض المتوسط خلال بضعة شهور • والواقع كان ڤيللونوف في جزر الآنتيل • فقرر أن يتعقب آثاره ويلحق به الى هناك ، فزار جزيرة بارباد ، والترابنيداد ، وغريناده ، ولكن لم يعثر على الفرنسيين أي ان لعبة الاستخفاء المماثلة لعام ١٧٩٨ قد عادت من جديد • ثم جاءته معلومات أخرى : إنهم في المكسيك • ولكن ڤيللونوف كان أقلع عائداً الى اوروبا • وكانت مهمته تنحصر في إبعاد الاسطول الانكليزي عن ضفاف بحر المانش كي يتمكن الجيش العظيم ، المحتشد على ساحل مدينة بولونياالفرنسية، من تنفيذ عملية الانزال على الساحل البريطاني المقابل • ولكن القسم الاعظم من الاسطول الانكليزي ظل مرابطاً دون حراك • وعندئذ اتجه ڤيللونوف نحو سواحل اسبانيا وفي ٢٣ تموز ١٨٠٥ خاض غمار معركة صغيرة ثم التجأ الى ميناء فيرّول الاسباني • وفي خلال هذا الوقت كان نلسون يتمتم دائماً وعاد الى بحر المانش ونزل في ميناء بورتسماوث وقدم تقريراً للأميرالية وعاد ليقبع في قرية مرتون بلاس •

ولكن بعد مضي بضعة أيام من عودته أقبل عليه ضابط في الساعة الخامسة صباحاً ليخبره ان اسطولا متحالفاً فرنسياً ـ اسبانياً ، مؤلفاً من ٣٤ سفينة حربية،قد غادر ميناء فيرّول والتجأ الى ميناء قادس ، في جنوب اسبانيا حيث يقوم الأميرال كولينغوود بتضييق الخناق عليه ، وهنا وجب الانطلاق • وكان وداعاً تتقطّع له نياط القلوب ، إذ كانت ايمّا ، أو الليدي هاملتون ، تناشد عشيقها أن يندفع نحو المعركة بأقصى سرعة : وكان يؤمن ان العمارة الفرنسية ستكون ملك يديه ! وفي ١٥ ايلول صعد درجات سلّم السفينة ڤكتوري ، وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور كان في مواجهة قادس ، ينتظر بفارغ الصبر قرار ڤيللونوف بالخروج من الميناء ، ولكن هذا لن يبقى في الميناء كل حياته !!•

تشكيلة المعركة الحليفة في الطرف الأغر

المراكب الفرنسية : ١٨ سفينة ذات ٧٤ الى ٨٠ مدفعاً .

العمارة الاولى : بوسنتور (رايةالاميرال ڤيللو نوف : القبطان ماجندي)

نبتــون : (القبطان مسترال)

رودوتابل : (القبطان لوكا)

آندومبتابل : (القبطان هوبير)

هــيرو : (القبطان پولان)

العمارة الثانية : فورميدابل (راية العميد البحري دومانوار لا پللي ، القبطان لوتيلليه)

سيپيون : (القبطــان بودوان)

آنتريبيد : (القبطان آنغيرنيه)

دونمان تروان : (القبطان توفيه)

العمارة الثالثة : الجزيرة : (رايةالعميد البحريماغون، القبطانلوتورنور)

فوغــو : (القبطان بودوان)

بلوتــون : (القبطان كوسماءو كرجوليان)

آيغــل : (القبطان غورّيج)

سويفتسور : (القبطان ڤيللو مادران)

آرغونوت : (القبطان آيپرون)

برويــك : (القبطان كاماس)

آخيــل : (القبطان دونيپور)

المراكب الاسبانية : ١٥ سفينة منها ثلاث ذات ثلاثة طوابق

برنسيب دو آستورياس : (آميرال غراڤينا) ١١٢ مدفعاً

سانتــا آنــا : (اللواء البحري آلاڤا) ١١٢ مدفعاً

سانتيسيما ترينيــداد : (العميد البحري سيسنيروس) ١٣٠ مدفعاً •

وفي العاشر من تشرين الأول جمع نلسون القادة التابعين له وقرأ عليهم تعليماته، وكان عليه مجابهة سفن الاسطــول الحليف الفرنسي الاسباني وعددها ٤٦ سفينــة بأسطوله الذي لا يتجاوز عــدد سفنه الأربعين • وقــد صمّم تشكيلة على شكل سارتين تتألف كل منهما من ١٦ سفينة والباقي تؤلف المقدمة • وعهد الى احــدى الساريتين بقيادة كولينغوود بقطع مؤخرة العدو والقضاء عليها • أما الثانية ويقودها نلسون بنفسه فكانت مهمتها الحيلولة دون بقية عمارة ڤيللونوڤ وبين التقدم لنجدة المؤخرة •

وقد جزع ڤيللونوڤ وطاش صوابه • فقد أصبح من واجبه أن يقاوم الاسطول الانكليزي الرهيب بسفن رديئة المناورة تعمل عليها طواقم غــير متمرسة كثيراً في فن الحرب • وقد كان مقداماً ولكنه هلوع • وكان يشعر ان صبر الامبراطور نابوليون كاد ينفذ وكان مستعدا لعمل أي شيء • ولما أصبح الآن على تماس مع العدو ، فقد كان مهيئاً حتى للوقوع في الغفلة •

وهكذا أقلع من خليج قادس في ١٩ تشــرين الاول ١٨٠٥ ، واتجه في اليــوم التالي نحو الجنوب الغربي ثم انكفأ نحو الجنــوب الشرقي دون أن تغمض عينــاه عن الأشرعة المعادية • وعند حلول الظلام أشار بتشكيل خط المعركة واتخــاذ الأهبة للنزال •

وكان البحر هائجاً في الحادي والعشــرين من تشرين الاول ، وكانت سفــن ڤيللونوڤ متراصفة على خط واحد ، وكانت العمــارة الاحتياطية في الرأس وكانت تتبعها العمارات الثلاث الاخرى على شكل خط مستقيم • ولكنه لاحظ في الساعة

الثامنة صباحا ان الاسطول الانكليزي قد اتخذ تشكيلة مؤلفة من سارتين متجهتين على خطين متوازيين نحو وسط الاسطول الفرنسي الاسباني • وعندئذ أمر ڤيللونوف بالانحراف واستدبار الريح والاتجاه نحو الشمال قاصداً قادس كي يلجأ الى مينائها اذا دعت الضرورة • وهكذا كانت قواته تتألف من خط طويل غير منتظم ، وعاجز عن المناورة ، معرضاً للصدام مع العمارتين اللتين كانتا تتقدمان ببطء ، تقودهما السفينة ڤكتوري والسفينة رويال سوڤرين ، وكان نلسون على ظهر ڤكتوري ، يحمل فوق سترته الزرقاء أوسمته الأربعة الرفيعة المألوفة ، وقد ترك سيفه في مقصورته •

أحد فصول معركة الطرف الأغر

وعندئذ أعطى تعليماته الى قباطنة فرقاطاته : « يجب عليكم أن تجهزوا على العدو ، ولا أودّ أن أرى أية سفينة تقدر على اللجوء الى قادس ، ولا داعي لإنقاذ السفن أو أحد من رجالها ، فأنا لا أكترث بالغنائم ولا بالأسرى ، وكل ما أريده هو الإبادة التامة » •

انه انكليزي ، بارد ، قاس ، طاغ ، حازم •

وانحدر الى مقصورته ودبّج ملحقاً لوصيته ، فقد أوصى بزوجته وإيمّا ، أي الليدي هاملتون ، لمليكه ولوطنه • وكتب على يومية السفينة آخر صلاة له :

« أرد حياتي وأعيدها لخالقي » وكان يعرف أنه سيلقى حتفه ، وخرج من مقصورته بعد أن أدّى صلاته ، واجتاز البطارية العالية حيث كان ثلاثون مدفعاً من عيـار ١٢ تمد فوهاتها من الكوّات ولما صعد الى الطابق العلوي أشار لسفن اسطوله بالعبارة التالية : تنتظر انكلترا من كل رجل أن يقوم بواجبه •

England expect that every man will do his duty

وانطلقت موجات من الهتافات الحماسية من فوق كـل السفن الانكليزية •

وراح يذرع بفتور سطح السفينة بمحاذاة المقدم هاردي الذي كان صديقـه أيضاً •

نلسون هدف أحد رماة الحدق :

كان أحد رماة النخبة يقبع في برج المراقبة فوق السفينة الفرنسية رودوتابل، والذي كان يترصّد الضابطين اللذين لم يكترثا لحماية نفسيهما • فأسند بندقيته الى كتفه واستهدف ملياً الضابط الذي يحمل أكبر قدر من الأوسمة وأطلق رصاصة ، فانهار نلسون في منتصف الطريق بين الصاري الكبير وصاري المؤخرة :

ــ لقد قتلوني ، لقد تهشم عمودي الفقري •

وقام الجنود بانهاضه ونزلوا به الى مكتب الاشارة واكتشف الطبيب الجراح البحري ، الدكتور بيتّي ، مكان الجرح ، وسبر مسار الرصاصة واعترف بأن ماقاله الرجل الذي يعاني النزع صحيح ، ولا فائدة من أي عمل كان• فبلّل شفتيه بالماء•••

وكانت المعركة على أشدها اذ كانت السفينة فكتوري في وضع غـير مريح • فقد عملت نيران السفينة الفرنسية رودوتابل علـى بعثرة جثث القتلى على سطحهـا فضلا عن الجرحى • وفي الوقت الذي كان يستعد فيه البحارة الفرنسيون لاقتحـام سفينة نلسون هرعت السفينة الانكليزية تيميرير على أثر طلب النجدة واستطاعت أن تطرح بعد أول رشقة ٢٠٠ محارب فرنسي على أرضيـة الطابق العلوي الخشبية •. واستغرقت المعركة مدة ساعتين دون رحمة ثم تحولت السفينة رودوتابل الى حطام وغرقت •

وسمع نلسون صراخ الهجوم المنطلق من بحارته وجاء الضابط هاردي ليخبره أن كل شيء يتم حسب خطته ، فكان رد نلسون الذي يعاني النزع الأخير •

ــ سأعيش أيضا نصف ساعة أخرى ، ولكن عندما ألفظ آخر أنفاسي قصّوا خصلة من شعري وارسلوها الى حبيبتي ليدي هاملتون ولا تقذفوا بي من فوق حافة السفينة •

ومات وهو يقول :

ــ بفضل من الله لقد قمت بواجبي •

وهكذا انتهت معركة الطرف الأغر • وكانت الخسائر جسيمة ولكنها كانت نصراً كبيراً لإنكلترا : فقد أسرت عمارة نلسون ١٨ سفينة حليفة • وفقد الفرنسيون والاسبان ٥٠٠٠ قتيلاً عدا ٣٠٠٠ من الجرحى •

وتم نقل جثمان نلسون الى انكلترا على سفينته فكتوري وجرت مراسم الدفن في ٨ كانون الثاني من عام ١٨٠٦ •

وماتت الليدي هاملتون فقيرة في مدينة بولونيا الفرنسية عام ١٨١٥ وعاشت ابنتها هوراسيا بصورة غامضة وتزوجت من كاهن هو الدكتور وارد وتوفيت في سنة ١٨٨١ تاركة العديد من الابناء والاحفاد ، في حين ماتت الليدي نلسون في عام ١٨٣١ •

وظل إسم الطرف الأغر خالداً ــ ٢١ تشرين الاول ١٨٠٥ ــ مثل اسم اوسترليتز ــ ٢ كانون الاول ١٨٠٥ ــ من جهة أخرى والتي هزم فيها الامبراطور نابوليون الاول جيوش امبراطوري الروسيا والنمسا •

★ ★ ★

نافارين

— ٢٠ تشرين الاول ١٨٢٧

مقدمــة : في خريف عام ١٩٧٣ اغرقت الزوارق المصرية البارجـة الاسرائيلية ايـلات الى الشمال من سواحل شبه جزيرة سيناء ، مما أعـاد للذاكرة آخر معركة بين الدولة العثمانية والخديوية المصـريـة من جهـة وبين الدول الاوروبية المتحالفة ، معركة جرت قبل قرن ونصف من الزمن تقريبا .

فقد سعت الدول الاستعمارية على اختلافها ، وبصورة منهاجية ، الى استئصال كافة الاساطيـــل العربية والاسلامية من البحار ، كتدمـير الاسطول العربي التجاري والحربي في الخليـج العربي والمحيـط الهنـدي على أيدي البرتغاليين في القرن السادس عشر ميلادي ، واحتلالهـم مسقط والبحرين والقطيف ، ردحـا مـن الزمن ، وكانت آخر مأساة بحرية هي لجوء فرنسا الى بيع قطع الاسطول المغربي بالمزاد العلني بعد فرض الحماية الفرنسية على المملكة المغربية في عام ١٩١٢ .

« المترجـم »

لقد وقعت آخر معركة بحرية خاضتهـا الاساطيل الشراعية بتاريخ ٢٠ تشرين الاول من عام ١٨٢٧ ميلادية ، أي قبل قرن ونصف من الزمن ، وبالتحديد فيخليج نافارين ، حيث يقع ميناء يوناني صغير على البحر الايوني ، وحيث أبادت القـوات الانكليزية والفرنسية والروسية المتحالفة الاسطولين العثماني والمصري اللذين لـم تقم لهما قائمة بعد هذا التاريخ وتحولا الى اسطولين هزيلين ثانويين لا يحسب لهما حساب في الاستراتيجية العالمية .

لم يكن أحد من الفريقين في حـالة حرب معلنة رسميا وكان كـل فريق يلقي باللائمة على الطرف الآخر بأنه هو الذي أطلق القذيفة الاولى التي أدت الى هـذه المبارزة المأساوية التي تمخضت عن دمار أكبر قوة بحرية عربية اسلامية في الازمنـة الحديثة •

والحقيقة لقد كانت بـلاد اليونان ، شأن كل دول البلقان ، تؤلف جزءا مـن الامبراطورية العثمانية منذ أن سقطت القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م في أيدي جيوش السلطان محمد الفاتح ، بعد أن استعصت على الجيوش العربية في الماضي وتحطمت أمام أسوارها كل الهجمات التي شنها الامويون والعباسيون والحمدانيون، وليس أدل على ذلك من وجود ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الانصاري في أحد أحيائها الخارجية • ولكن الروم أو اليونانيين ، كانوا يتمردون كلما آنسوا ضعفا من الدولة العلية ، أو كلما انشغلت بحرب مع الروس ، أعدائها التقليديين ، كما كانت ثوراتهم في الفترة الاخـيرة بتحريض خفي تارة أو مكشوف تارة أخرى ، من قبـل الدول الاوروبية الكبرى، ولا سيما روسيا القيصرية التي دخلت ميدان التوسع الاستعماري متأخرة ، الى أن أعلنوها حربا حقيقية في سنة ١٨٢٠ وكادوا يظفرون باستقلالهم بعد معارك ضارية لولا استنجاد السلطـان العثماني بالخـديوي محمد علي باشا الذي أنجده باسطوله الناشىء وبجيشه الحديث التدريب • ولقد تمكن الجيش المصري بسرعة فائقة أن يأسر الحامية اليونانية المرابطة في نافارين بعد حصار استغرق خمسة عشر يوما ، واتبع هذا الجيش في شبه جزيرة المورة سياسة الارض المحروقة وعمـد الى نفي الكثير مـن العائـلات اليونانيـة التي كانت على رأس حركـة التمرد •

وقد أيقظ هذا الانتصار الساحق لـدى الدول الاوروبية النزعـة الصليبية الكامنة واعتبرت ذلك ماسا بكرامتها ، وانتاب دهاقين الاستعمار الاوروبي شعـور القلق من هذا النصر العربي الاسلامي المبين ، ولا سيما بعد معركة ميسولونجي التي هلك فيها الشاعر الانكليزي الشهير بيرون ، والتي خاضها الاتراك والمصريون ببسالة فائقة وبعد سقوط اثينا ذاتها بأيديهم ، وبمبادرة من القيصـر الروسي نيقولا الاول

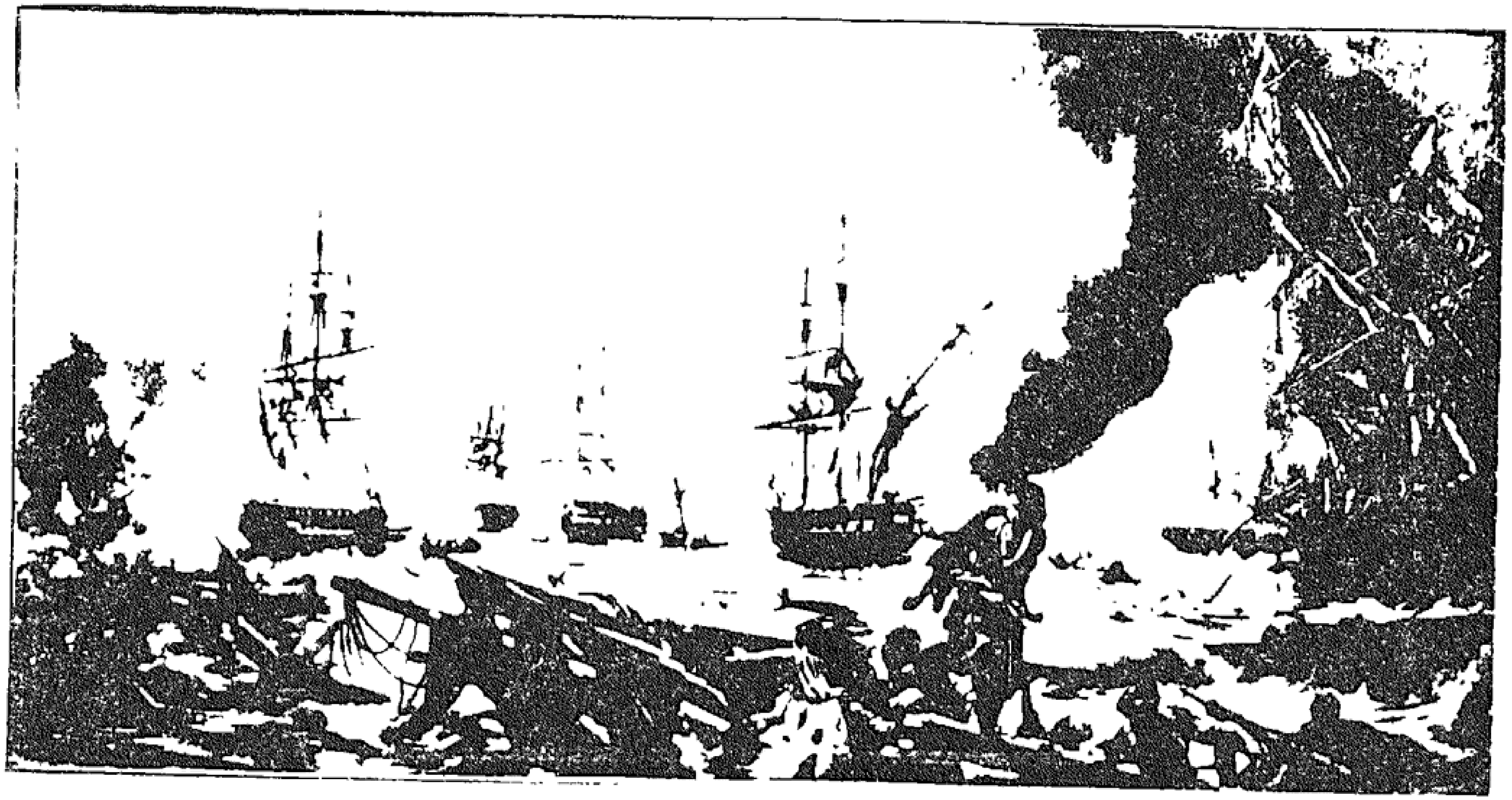

معركة نافارين : لوحة بوتروك

عقدت معاهدة في لنــدن بتاريخ ٦ تموز ١٨٢٦ بين فرنسا وانكلترا وروسيا تقضي بدعوة الباب العالي الى عقد معاهدة مع اليونانيين في خــلال شهر واحد والتفاوض معهم لعقد سلام يحقق استقلال اليونان الذاتي . وقــد أبلغ سفراء الدول المذكورة نص المعاهدة الى السلطان العثماني بتاريخ ١٨ آب من العــام نفسه ، ولكن هــذا الانذار لم يحظ بأي اهتمــام والحقيقة كان انذارا غــير مقبول من وجهــة النظر الحقوقية .

وقد تحولت الوساطة المقترحة الى وساطة مفروضة وقرر الحلفاء القيام بتظاهرة قوامها اثنتان وتسعون قطعة حربية شراعية اتجهت للاحتشاد في خليــج نافارين، في مكان غير بعيد من ميدان المعارك في اكتيوم وليبانت .

الاسطول المتحالف يفرض التحكيم :

وهكذا تكونت قوة انكليزية فرنسية روسية ، مؤلفة من عشر بوارج وعشــر فرقاطات وخمسة مراكب حاملة للجنود وسفينة انذار ، وعهد بقيادة الاسطول هــذا الى الامــيرال الانكليزي السير ادوارد كودرينغتون ، وعمره ٥٧ سنة ، وكان تحت امرته الاميرال الفرنسي هنري دو ريني ، وعمره ٤٥ عاما ، الذي كان يقود الفرقاطة سيرين ، والاميرال الروسي هايدن .

وفي الثاني والعشرين من شهر ايلول تقابل الكونت دو ريني الفرنسي - فــي ميناء نافارين مع ابراهيم باشا ، ابن خديوي مصــر ، والمكلف بقمع التمرد اليوناني وأنذره بطبيعة الخطر الذي يتعرض له فيما اذا استمر في اصراره على مواصلة أعماله الحربية ، ودام الاجتماع ساعتين كاملتين دون التوصل الى النتيجة المرغوبة سوى الاتفاق على عقد لقاء ثان غامض بعد ثلاثة أيام .

وفي خلال هــذا الاجتماع أصر القائد الفرنسي على فكرته قائلا : نحن نطلب منكم عقد هدنة طوعا أو كرها ، فأجابه ابراهيم باشا : « أنا في حــيرة من أمري ، فعيون الاتراك مفتحة علينا ، واذا أذعنّا لكم فسيغضبون » ولكن القــائد الفرنسي

رد عليه : « فكر جيدا في وراثتك العرش ، فأبوك رجل عجوز ، قلق ومهدد ، فكر في مصر الغنية أكثر مما تفكر في شبه جزيرة المورة اليونانية التي تعمل على تحويلها الى صحراء » •

وقد قبل ابراهيم باشا بعقد نوع من هدنة بعد أن أرسل كتابين الى القسطنطينية والقاهرة سائلا المشورة في الموقف الذي عليه أن يتخذه لمواجهة هذا التدخل ، كما تعهد بعدم خروج اسطوله الى عرض البحر من خليج ناڤارين ما لم يتسلم جوابا صريحا • وكانت هذه الهدنة بحرية فقط لان المعارك ظلت محتدمة على البر اليوناني • وخاصة في مسينا وفي أركاديا ، لان ابراهيم باشا لم يشأ أن يترك القوات التي تقع تحت امرته عاطلة عن العمل •

لكن هذا الركود الذي يسبق العاصفة ما لبث ان اضطرب نتيجة خطيئة الاسطول اليوناني الصغير الذي كان بقيادة اللورد كوكرين الانكليزي • ولم يجد هذا الاسطول مناسبة أفضل من أن يختار هذه الفترة بالذات للدخول في خليج باتراس وتهديد قلعة ڤاسيلادي القريبة من مدينة ميسولونجي • وما أن علم ابراهيم باشا بالامر حتى اعتبر مفاوضته مع الاميرال الفرنسي لاغية وأمر بأن تقلع من ميناء ناڤارين بارجتان وفرقاطة ونقيرتان وبعض الحراقات وعهد بقيادتها لأمير البحر بترونابك كي يقترب من الميدان ويطرد السفن الحربية التي يقودها كوكران •

الفتيلة المشتعلة بين الاصابع :

ولكن الاميرال كودرنغتون سرعان ما اعترض هذه الفرقة البحرية قرب رأس پاپا مع أنها كانت راسية بانتظار هبوب الرياح الموائمة لاشرعتها كي تدخل خليج ليپانت ، ونقل الاميرال كودرنغتون تعليماته لقائد الفرقة التركي وأفهمه بوجوب احترام الهدنة • ولكنه ترك للقائد كوكران حرية الحركة ، وأمر القائد التركي بالعودة من أحيث أتى ، وتأكيدا لانذاره ، أطلقت سفنه بعض القذائف فوق رؤوس البحارة المصريين والاتراك كانت أكثر تأثيرا من الانذار الشفوي ، ولم يتشبث الاميرال التركي بموقفه بل عاد الى ميناء ناڤارين تحاشيا للصدام •

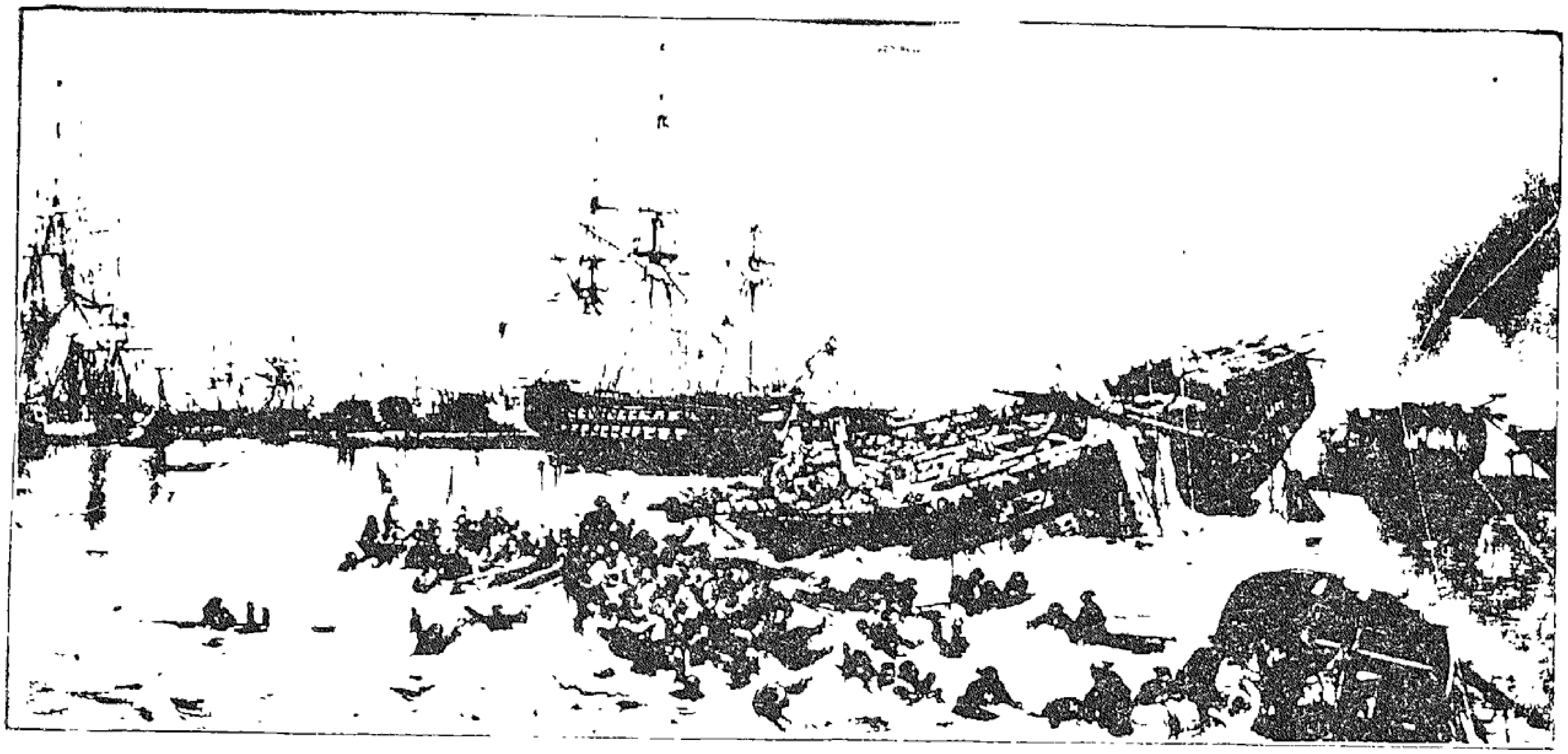

الاسطول الحليف الفرنسي الانكليزي الروسي يدمر الاسطول التركي بعد ثلاث ساعات من المعركة

وفي ١٤ تشرين الاول انضمت الى الوحدات الانكليزية والفرنسية قرب ميناء زانط القوة البحرية الروسية المؤلفة من اربع بوارج وأربع فرقاطات بقيادة الاميرال هايدن • وفي العشرين من الشهر المذكور ، وعند الظهيرة ، كان الريح موائما فدخل الاسطول الحليف خليج ناڤارين كي يرابط فيه ، ولينذر الاتراك والمصريين ، بشدة، بلزوم الانسحاب والعودة الى موانيء بلادهم الاصلية •

وكان كودرنغتون يتقدم في الطليعة على متن البارجة آسيا المزودة بأربعة وثمانين مدفعا ، وفي اثرها البارجتان آلبيون وجنوا وفرقاطتان ، وكان في مؤخرته القائد الفرنسي ريني فوق البارجة سيرين التي كانت تواكبها البوارج سيبيون وتريدان وبرسلاو ، والفرقاطة آرميد ، وسار وراءه الاميرال هايدن الروسي على البارجة آزوف تتبعه ثلاث بوارج واربع فرقاطات •

وهكذا حشرت الاساطيل المعادية قاطبة في خليج ناڤارين الذي يضم منذ الثامن من ايلول مائة وعشرين سفينة حربية ، بين تركية ومصرية ، تحمل قرابة خمسة آلاف محارب مع ذخائر بقصد احتلال جزيرة هيدرا اليونانية •

وكان هذا الاسطول مرابطا على شكل حذوة حصان ويضم ثلاث بوارج كبيرة وبارجة مسطحة وست فرقاطات وسبعا وعشرين نقيرة وسبعا وعشرين حراقة وسفن شحن عديدة • واجمالا كان هذا الاسطول مزودا بحوالي ١٩٦٢ مدفعا مقابل ١٢٩٤ مدفعا على الاسطول الحليف الاوروبي ، ولكن المدافع التركية المصرية كانت موزعة على سفن من نوعية أدنى وعاجزة عن التصدي للبوارج الاوروبية ذات الطوابق الثلاث وسواها من الفرقاطات الضخمة • والواقع لم يكن الاسطول الذي يحمل راية الهلال على مستوى خصمه • وكان في كل نهايتي حدوة الحصان ثلاث حرّاقات في وضع طيب • هذا وكان مدخل الخليج الذي لا يزيد عرضه عن ميل واحد محصّناً من طرف ناڤارين بقلعة حصينة مع بطارية مدفعية رابضة عند رأس جزيرة سفكتريا وكان الجنود الاتراك على أهبة الاستعداد الى جانب مدافعهم وفتيلة المدافع مشتعلة في ايديهم بالانتظار •••

وفي ثلاث ساعات قضي الامر :

في الساعة الثانية ظهرا دخلت البارجة آسيا ميناء ناڤارين غير عابئة بالبطاريات التركية الصامتة • وألقت مراسيها الى جانب سفينة الامـيرال التركي وحذت كـل السفن البريطانية حذوها ، ومن ثم رابطت البارجة الفرنسية سيرين على مرمى رصاص المسدس من أول فرقاطة تركية في خط الدفاع وهي الفرقاطة ايزانيا المزودة بأربعـة وستين مدفعا في الوقت الذي اطلقت فيه حراقة مصرية قذيفـة قتلت ضابطا بريطانيا ضمن قارب تابع للفرقاطة دارماوث التي ردت على ذلك بنيران كثيفة كانت بدايـة المعركة الرهيبة ، وفوجىء الاميرال ريني ، الذي كان ينادي من مكبرة الصوت قائد البارجة التركية ايزانيا ، بطلقتي مدفـع أودت بحياة أحد بحارته • وعندها أرسـل كودرنغتون زورق مفاوضة ليأمر ابراهيم باشا بوقف اطلاق النار ولكن قنبلة قتلت البحار الانكليزي الذي كان فوق المركب المذكور ، وهنا عمت المعركة التي لم يعـد هناك مجالا لاخماد أوارها ، وتحول خليج ناڤارين الى جحيم بسبب تلاحم وكثـافة التراشق •

قائد الاسطول الفرنسي الاميرال ريني

وبينما كان الروس منهمكين في الزحف نحو مواقعهم المحددة لرسو سفنهم سقطوا تحت وابل من نيران البطاريات الساحلية والقلاع التي كانت تستهدف البارجتين الفرنسيتين تريدان وبرسلاو ، وعندها خاضت سفن الحلفاء معركة خططوا لها مع انضباط وخبرة فضلا عن تنسيق مثالي بين بعضها البعض .

وانتهى كل شيء في الساعة الخامسة مساء بعد أن أبيد معظم الاسطول التركي المصري الذي حارب بكفاءة وشجاعة نادرتين ، فلم يستسلم أي قبطان بل نسف الكثير من سفنهم ، وقفز الذين بقوا على قيد الحياة من فوق سفنهم لبلوغ الساحل سباحة . أما الفرقاطة التركية ايزانيا التي كانت معقودة الراية لألمع رجال البحر الاتراك ، وهو القبطان حسن بك ، فقد كانت مشتبكة مع نظيرتها الفرنسية سيرين، وتعرضت لتدمير شديد أطاح بصواريها واحترقت وقفز حسن بك مع ٥٦٠ من رجاله في البحر ، وسط انفجارات مروعة ، وحطام سفن محترقة أحاطت بسفينة الاميرال الفرنسي ريني التي استطاعت تدمير حراقة تركية وسفينة حربية صغيرة ، ونالها الحريق الذي سرعان ما أمكنت السيطرة عليه ، مثلما تعرضت لهجوم قوات تركية كلفها تحطيم عدد من صواريها فضلا عن ست قذائف حطمت كل قوارب النجاة فيها .

وهذا وقد تعرضت بارجة الاميرال الانكليزي الى نيران تركية شديدة أطاحت بصاريها الرئيسي واقتلعت عددا من مدافعها ، كما لم تنج البارجة الروسية آزوف من أضرار أحرقت معظم أشرعتها وسقطت أكثر من خمسين قذيفة على سطحها وبقرت سبع منها في خاصرتها . أما البارجة الفرنسية سيبيون فقد تعرضت لهجوم حراقة تركية كادت ترسلها الى القاع ، وجنحت بصورة خطيرة نحو البارجة دفنه لولا اشارة استطاعت أن تحرفها عن مجموعة من السفن التركية ، كما حوصرت الفرقاطة الفرنسية آرميد من قبل عدد من السفن المعادية ولكنها تملصت منها بمهارة .

وكان الحريق يلتهم الاشرعة وحطام السفن الجانحة في سائر أرجاء الخليج ، وكان منظر سطح البحر رهيبا في خليج ناڤارين الذي تحول الى بحر متوهج بألسنة اللهيب التي اكتنفتها سحب الدخان الكثيفة والتي كانت تتطاير في أواسطها أعمدة

الشرر قاذفة معها أنقاض السفن والبحارة المشوهين • وفي خلال ذلك كان الساحل غاصا بالبحارة الناجين ومن الجنود الذين كانت تعتصر قلوبهم اليأس والقنوط ومن اليونانيين الذين غمرهم فرح الانتقام والشماتة الممزوج بالبؤس والمجاعة • وكانت السماء صافية الاديم ترتسم في أجوائها صورة كئيبة عن آخر معركة بحرية كبرى في العهد العثماني ، وكان رصيدها ٦٠٠٠ قتيل تركي ومصري مقابل ١٧٥ قتيل من الحلفاء الأوروبيين • فنحو الساعة الخامسة والربع خفت حدة القذف المدفعي الى أن توقف نهائيا وتلاشى الاسطول التركي المصري من الوجود • اذ تم القضاء على مائة سفينة حربية ما بين تدمير كلي أو غرق • وهكذا كانت المعركة عبارة عن عملية ابادة حقيقية في حين جنحت البقية الباقية من فلول الاسطول الى الساحل أو أحرقها بحارتها عمدا كيلا تسقط غنيمة باردة في أيدي رجال الاساطيل الحليفة • وخسر الاتراك والمصريون ٦٠٠٠ قتيل وألف جريح ، بينما كانت خسائر الجانب الآخر

ضئيلة نسبيا • فمن الجانب الفرنسي قتل ثلاثة واربعون بحارا منهم عشرون فـوق البارجة سيرين وخمسة وعشرون جريحا • وفقد الانكليز ثلاثة وستين قتيـلا ومائة وتسع وعشرين جريحا ، أما الروس فكانت خسائرهم ٥٩ قتيلا و ١٤١ جريحا •

وفي ٢٥ تشرين الاول عادت السفن المتضررة أدراجها ، فأبحرت السفن الفرنسية نحو ميناء مرسيليا وطولون، في حين تم جرّ السفن الانكليزية والروسية الى أحواض جزيرة مالطا لاصلاحها • ونقل الاميرال الفرنسي ريني مقر قيادته الى البارجة تريدان التي لم تتضرر كثيرا كي يظل في البحر الابيض المتوسط تحسبا لكل طارىء • ونال ترقية من الحكومة الفرنسية ، وأصبح وزيرا للحربية في عهد الملك لويس فيليب ، ومنحه ملك بريطانيا وسام الحمام ، في حين كافأه قيصر روسيا بالميدالية الماسية مـن جوقة القديس الكسندر نيوسكي •

وقد أثارت معركة ناقارين ردود فعـل وأصداء متضاربة في صحف اوروبا ، فقد دهش الكثيرون من قساوة « التظاهرة » القاسية المفرطة في سفك الدماء ، ومن شراسة الدرس الذي أصيبت به البحرية الاسلامية دون اعلان حرب رسمية • وقد انتقدت الحكومة البريطانية الاميرال كودرنغتون واستدعته الى لندن لتبرير تصرفه • ولكن الحكومة المذكورة ــ ويا للنفاق السياسي ــ ما لبث أن تغاضت عن فعلته وعينته قائدا للبارجة كانل فليت، ولا سيما ان الاسطول البريطاني سبق له ان ارتكب عملية مماثلة قبل عشرين سنة خلت دعيت بقضية كوبنهاغن ، ولم يكن باستطاعتهـا استنكار عملية ناقارين الغادرة التي تشابهها مـن حيث الشكل وان تباينت من حيث الدواعي •

★ ★ ★

فوتشيو

نسافات الاميرال كوربيه تغرق الاسطول الصيني

٢٣ آب ١٨٨٤

ابتداء من النصف الثاني من عهد الامبراطورية الثانية أصبحت فرانسا تواجه بعض المشكلات مع الطونكيين في جنوبي الهند الصينية ، ولكنها كانت تصطدم في الشمال ، وذلك في اعقاب ظروف متنوعة ، تكون أحيانا على قدر لا بأس به من التفاهة ، مع « الرايات السود » والتي لم تكن أكثر من أفواج قومية كانت تقوم الصين بتسليحها .

ففي العشرين من شهر تشرين الثاني ١٨٧٣ استطاع المقدم البحري فرنسيس غارنييه أن يحتل هانوئي ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة في ٢١ كانون الاول من العام ذاته ، أي بعد شهر واحد . غير أن المقدم البحري هنري ريفيير عاد الى هانوئي في الثاني من آذار ١٨٨٢ ولاقى حتفه في ١٩ أيار . وعندها قررت الحكومة الفرنسية أن ترسل الى الشرق الاقصى حملة فضلا عن عمارة بحرية صغيرة عهدت بقيادتها للعميد البحري كوربيه (Courbet) ، كي يتخذ التدابير اللازمة احتياطاً من تدخل محتمل من جانب الاسطول الصيني ، ذلك لان الصينيين ــ الذين كانوا لا يزالون ابناء الامبراطورية السماوية ــ يملكون اسطولا حربيا كانت وحداته ترابط متمركزة في أطراف دار الصناعة القائمة في فوتشيئو ، تجاه جزيرة فورموزة ، أو تايوان الحالية ، ذلك الاسطول الذي كان مستعدا لعرض عضلاته اذا ما راودته نفسه . هذا كما كانت هذه السفن ، التي لا تفتقر لقيمة عسكرية أكيدة ، قادمة من دور

الصناعة البحرية الانكليزية والالمانية . وكان للانكليز ، بالفعل ، فرقة بحرية تتجول في بحر الصين وتراقب حركة الملاحة فيه عن كثب ، وهــل من الضروري أن نضيف الى ذلك بأنهم كانوا « متعاطفين » مع الصين ؟ .

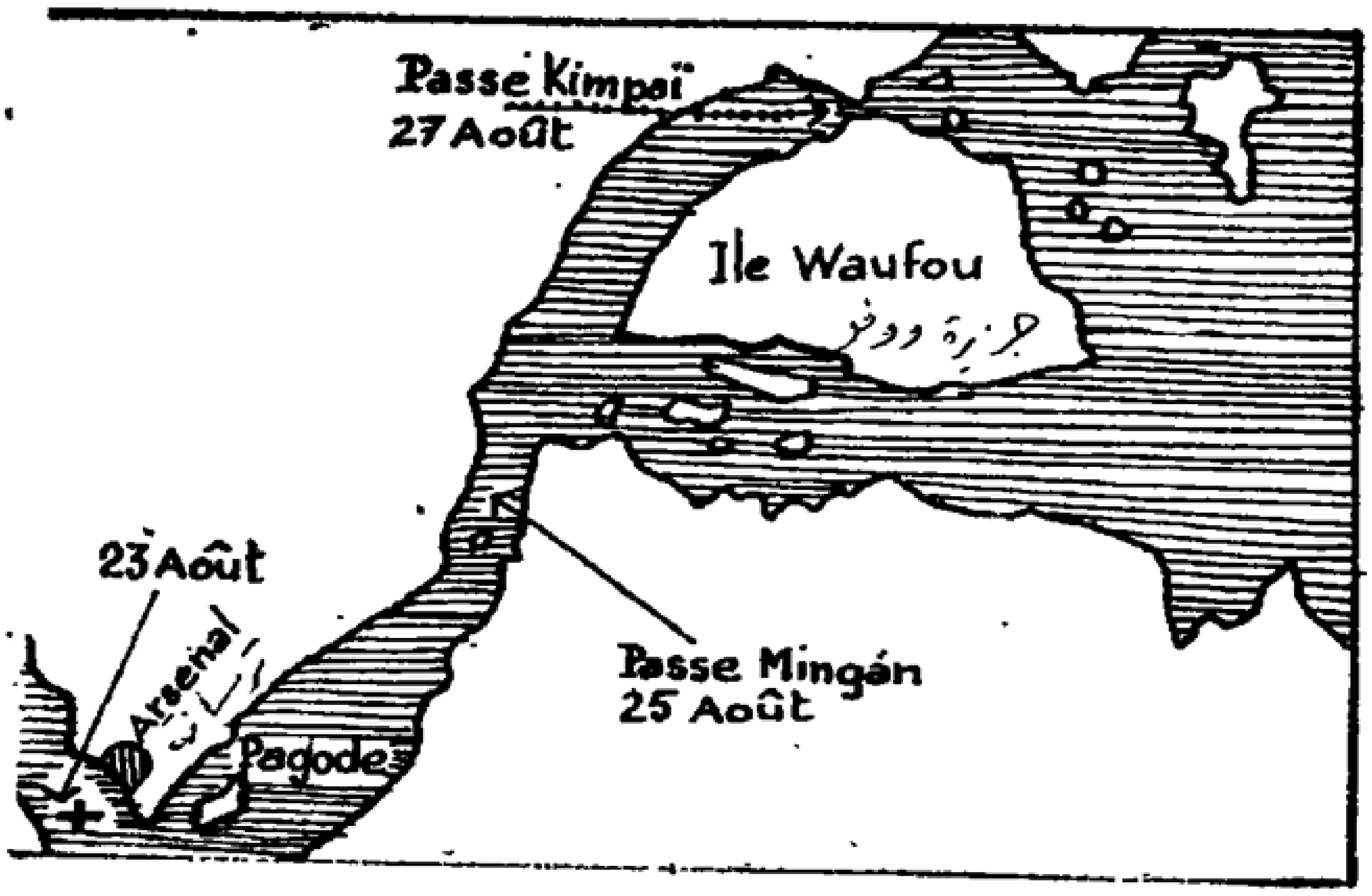

مصب نهـر مـين

وجرى استدعاء الاميرال كوربيه الى باريس من قبل وزير البحرية الذي نقل اليه تعليمات الحكومة وأوصاه باتخاذ الحذر الشديد .

وكان من العبث إثارة أزمة دولية وتقديم ذريعة للانكليز الذين لا يرغبون في أكثر من ذلك . وقــد كان كوربيه رجلا يعــود أصلا لشمالي فرنسا ، من مدينــة آبيفيل (Abbeville) ، وقد ولد لأسرة من التجار في ١٨٢٧/٦/٢٧ . وقد أصبح يتيماً في سن مبكرة ، ونشأ نشأة مسيحية ، واجتــاز امتحــان القبــول في معهــد البوليتكنيك بنجاح في ١٨٤٧ وبعد أن اختار الانتساب الى البحرية الوطنية ، ارتقى لرتبة ملازم ثان في عام ١٨٤٩ والى ملازم أول في ١٨٥٢ . وقــد تميز بحدة ذكائــه وبقدرته على تحمل المسئوليات مما جعله جديرا برتبة عميد بحري في ١٨٨٠ . وقد أقلع من ميناء الجزائر في السابع مــن حزيران ١٨٨٣ على متن المدرعة بايــار التي تحمل رايته وألقى مراسيه تجاه سايغون في ١٣ تموز التالي . وفي السابع عشر مــن

الشهر المذكور بلغ نقطة تجمع الاسطول في مرسى آلونغ في خليج الطونكين• وكانت الفرقة الخاضعة لقيادته مؤلفه من القطع الحربية التالية : بايّار ، شاتورينو ، لنكس (Lynx) ، آتالانت ، فيبير ، دراك ، وانامت • وكانت السفينتان الاخيرتان عبارة عن نقالتين سبق لهما آن جلبتا الى سايغون حوالي ٣٠٠٠ رجل من المشاة ورجال المدفعية • أما العميد البحري ماير فقد كان يضم تحت قيادته فرقة بحرية أخرى كانت تتألف من السفينة فيكتورنوز ، ڤيللار ، كرسان ، ڤولتا ، والزورق المسلح لوتان ، ولم يلبث أن لحق به دعم مؤلف من السفينتين تريومفانت وتورڤيل • وكان هذا الاسطول يؤلف قوة بحرية جسيمة انضمت اليها نسّافات صغيرة أشير اليها بأرقام ترتيبية • وكان ذلك بداية ظهور هذا النوع من المراكب الحربية • في الواقع لقد تم قذف أوائل الطوربيدات خلال هذه العمليات •

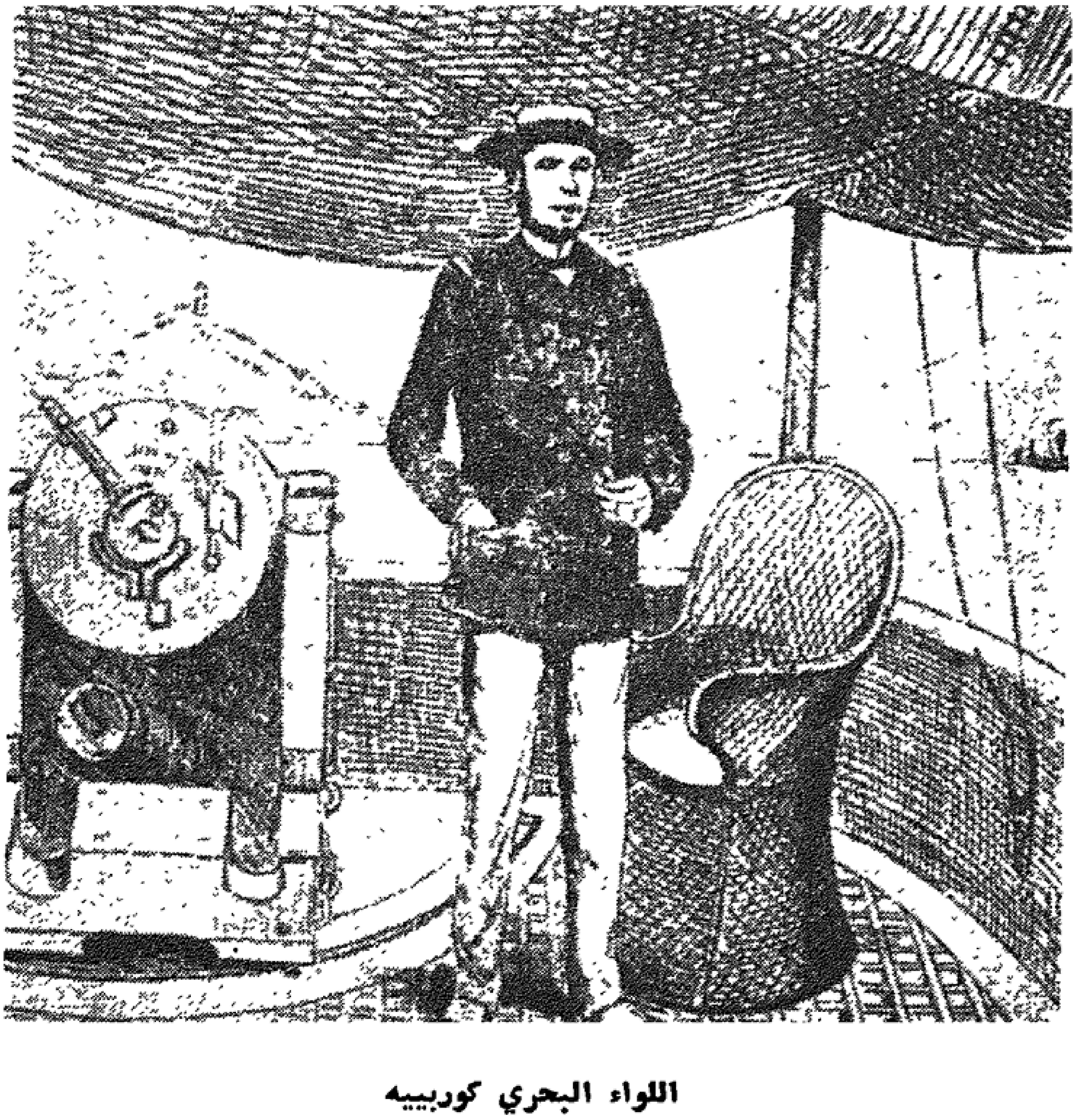

اللواء البحري كوربيه

وفي ١٨ آب ألقت هذه العمارة البحرية مراسيها بموازاة ساحل ميناء توران (Tourane) بعد أن قذفت المدينة بالقنابل ثم تلا ذلك انزال القوات الى البر . وجرت عمليات حربية برية قام كوربيه خلالها بالتنسيق فيما بينها بصفته قائداً للقوات البرية والبحرية. وهكذا تمت له السيطرة على قلعتي سونتاي وباكنينه (Bac - Ninh) اللتين كان رجال الرايات السود يستخدمونها للقيام بغاراتهم في الدلتا . وكان كوربيه من فوق سرج حصانه ، على رأس أفواج الجيش ، يتصف بمثل الهدوء ورباطة الجأش اللذين كان عليهما فوق سطح سفينته . وعلى إثر سقوط مدينة هونغهوا تم توقيع اتفاق تيانتسين اعترف فيه الصينيون بالحماية الفرنسية على اقليم آنّام في الهند الصينية، وفتحوا اقليم يونّان في جنوب الصين أمام التجارة الفرنسية. ولكن لم يكن لهذا الاتفاق أي حظ بالاستمرار أكثر من الاتفاقات السابقة ...وفي الواقع حدث في ٢٤ حزيران من عام ١٨٨٤ أن تعرضت فرقة فرنسية متجهة للاستيلاء على لانغسون لهجوم من قبل بضعة آلاف من الجنود النظاميين الصينيين وأبيدت عن بكرة أبيها . وعندها أعطت الحكومة الفرنسية الأمر باستئناف الحرب ومنحت الاميرال كوربيه حرية التصرف المطلقة ، ومن الطبيعي الاّ يكون هناك مجال لنقل الحرب الى داخل الامبراطورية الصينية الواسعة ، بل المقصود هو النيل من هيبتها عن طريق تدمير بحريتها .

وقبل قليل من ذلك الوقت استطاع كوربيه التقدم صُعداً في نهر مين حتى ميناء فوتشيئو[1] وكان هناك اسطول صيني على قدر من الاعتبار راسياً أمام هذا الميناء الحربي الكبير . أما وضع الاميرال الفرنسي وسفنه الحربية فقد كان في حالة غير مأمونة اطلاقاً إذ كان الاسطول الفرنسي منعزلا في قلب البر الصيني . وقد كانت مدينة فوتشيئو عبارة عن مدينة تضم مليوناً من السكان تبدو عليها مظاهر عدم المبالاة تماماً بما يجري أمامها من أحداث . ولم يكن الاسطول الصيني مؤلفاً فقط من سنابيك (خيزرانيّات) مسلحة بل ومن سفن عصرية أيضاً . وكان يعتمد على

---

(1) لقد احتفظ نهر مين باسمه على الخرائط الحديثة لمنطقة مضيق تايوان التي نشرها الامريكيون ، ولكن اصبح اسم فوتشيئو فوشو أو (Foochow)

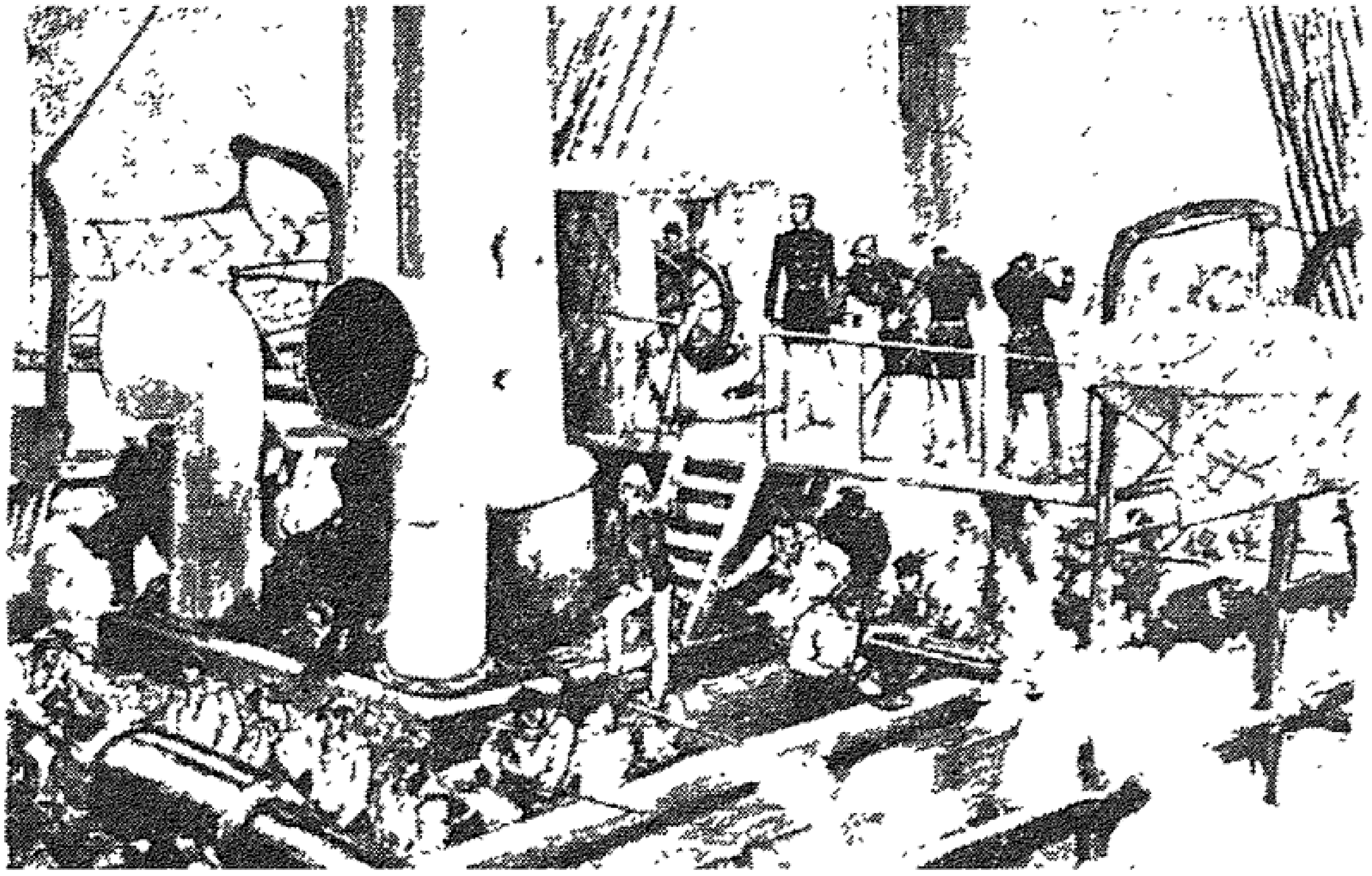

اللواء البحري كوربيه فوق عبارة السفينة « فولتا » خلال قصف ترسانة فوتشينو وقد قتل القبطـان توماس على سكان السفينـة

تحصينات متينة • ولكي نبلـغ السفن الفرنسية التي صعـدت النهر حتى مرسى الهيكل« الپاغودة Pagode » ميناء فوتشينو، كان عليها أن تسلك الذراع النهري الصالح للملاحة والذي كانت تواكبه الحصون من الجانبين فضلا عن بطاريات كانت في منعة جزئية • ولم تطلق خلال هذه الفترة أية قذيفة مدفع • أما الأميرال كوربيه ، الذي سبق له أن كان مديراً لمدرسة النسّافين في فرنسا ، فقد كان شديد الثقة بهذه النسافات الصغيرة المجهزة بطواقم مختارة • وقد استخلص من تقديراته ان باستطاعته تدمـير خصمه الصيني خلال نصف ساعة من الزمن •

وكما هو منتظر في مثل هـذا الوضع فقد كانت هناك عمارات أجنبية جاءت لتشهد ما سيحدث • فقد كانت هناك سفن حربية انكليزية والمانية وامريكية راسية أيضا في ميناء فوتشيئو • ولقد توقّع بعض ضباطها أن يذهب اسطول كوربيه نحو

قاع البحر • والواقع كان الصينيون يعتبرون الوصول الى الميناء الحربي الصيني من المستحيلات لاسيما وأن فوهات البطاريات المنصوبة على ضفاف نهر مين كانت مصوبة على الخصوص باتجاه البحر • وقد استغل كوربيه فترة سلم كي يتسلل الى النهر ، ولكن أصبح عليه أن يخرج منه تحت غطاء من النار • واجمالا كان نجاح العملية يستند على استغلال النسافات الصغيرة بصورة عقلانية التي كان عليها أن تقترب من الاهداف المعادية كي تكون على مدى من مرماها ثم ترسل اليها طوربيداتها، وذلك قبل أن يحدد العدو مواقع هذه النسافات المذكورة ويدمرها لانها كانت لا تتمتع بأي نوع من الحماية •

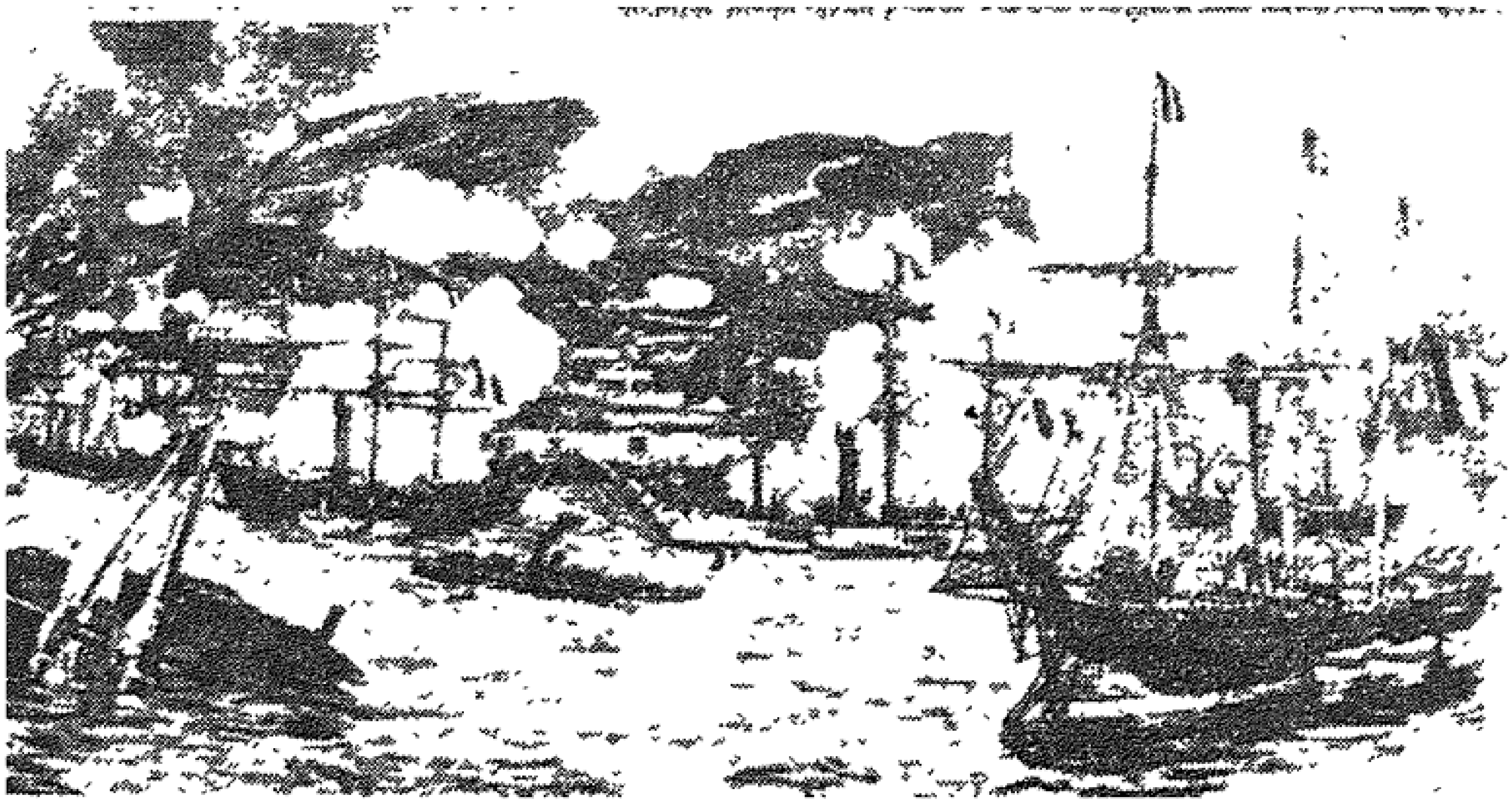

معركة فوتشيئو

ويجري نهر مين بين جبال عالية ، وكان عرض ممر كامبائي ، الذي يصله بالبحر، لا يتجاوز ٢٠٠ متراً • وكانت تقوم قلعة منتصبة فوق مرتفع تغطيه حتى الساحل المعاقل والمتاريس• أما على اليمين فيقوم تل أقل ارتفاعاً يشتمل على تحصينات صغيرة هذا في الوقت الذي كانت تقوم فوق الجزر المتناثرة في النهر بطاريات محمية ،• والواقع كانت كل هذه الزمر من التحصينات قليلة الجدوى ضد عدو قادم من العالية، اذ لم يكن هذا الممر مغلقاً مما كان يشكل غلطة ثقيلة النتائج •

وفي شهر آب ١٨٨٤ كان يرابط في مرسى الباغوده (Pagode) الزورق المسلح

فولتا الذي يحمل شارة الاميرال والسفينة لينكس، وآسپيك ، ولا ڤيپير والطرادات دوغــواي تروان ، ساءون ، وديستان في حـين كان يرابط في السافـلة السفينتان تريومفانت و شاتورينو ، هذا فضلا عن وجود عدد من النسافات أيضاً .

وكانت سفن المدفعيـة والسميريات (avisos) الصينية تحيط بالاسطـول الفرنسي ، وكانت العلاقـات مستمرة في فترات السلم ، حتى ان الفرنسيين قاموا في ١٧ آب بتزيين سفنهم بالبيارق والستائر الملونة بمناسبة عيـد امبراطورة الصين . وكانت طرادة صينية كبيرة تلقي بمراسيها بجوار سفينة القيادة ڤولتا .

ولمّا تلقّى الاميرال كوربيه الأمر بمباشرة المعركـة استدعى قادة الوحـدات بتاريخ ٢٣ آب كي يصدر اليهم أوامره :

- أولاً اغراق كل ما يطفو فوق سطح الماء .
- مهاجمة بطاريات المدفعية الساحلية .
- وأخيراً العودة الى عرض البحر تحت ستار من قذائف المدفعية .

وكان على النسافتين ٤٥ و ٤٦ مهاجمة السفن الحربية الموجودة في عالية السفينة ڤولتـا أي الى الغرب منها وستقوم الطرادات باغراق الزوارق المسلحة الصينية ثـم تعمد الى تدمير السفن الحربية الصغرى أي السنابيك . وكان الطقس بديعاً ، هادئاً، منبسطاً ، والحر خانقـاً . أما سفـن الخصم الصيني فقـد كانت متقاربة للغـاية ، ومتراصة في هـذا الحوض الذي كانت ترسـو فيـه كذلك سفن أجنبية ومراكب تجاريـة ...

وفي ٢٣ آب ١٨٨٤ ، وعند انحسار موجة الجزر عند الساعة الثانية بعد الظهر فتحت السفن الفرنسية جميعاً نيرانها ورفعت العلم الوطني في أعلى صواريها . وكانت المفاجأة كاملة . وأخذت الزوارق المسلحة الصينية تغرق الواحد تلو الآخر كما قامت السفن الفرنسية باتـلاف الخيزرانيات الصينية المسلحة (السنابيـك) ، هذا كمـا

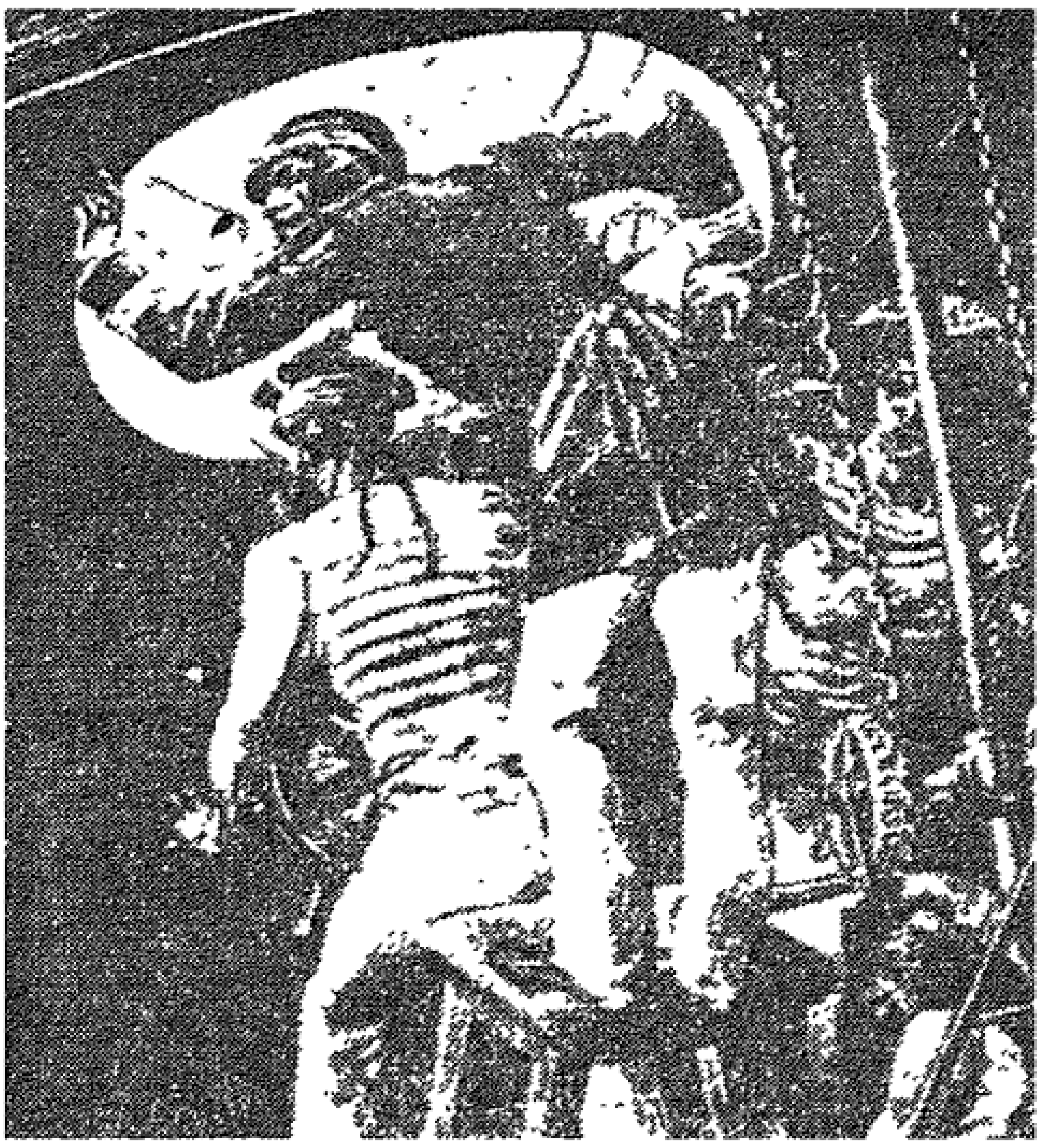

النقيب البحري لاتور قائد النسافة «٤٥» يغرق الغراب الصينية « فوسينغ »

استطاعت النسافتان اللتان كانتا تحت قيادة المقدّمين بويه دو لابيرار ودوزان بكل سهولة أن تقضي على الطرادات الصينية المعـادية مما سمح بدخول أول طوربيدين فرنسيين في تاريخ الحرب البحرية • أما فوق سفينة القيادة ڤولتا فقد كان الوضـع حماسياً ولكن الاميرال استطاع أن ينقل الى جميع مرءوسيه اندفاعه وشجاعتـه • وقد تعرض مرافقه راڤل الى جـروح بعد اصابته بشظية قذيفـة • وكان يتكدس بجوار الباغودة (المعبد) خليط من هياكل السفن والصواري التي غربلتها القذائف كي تؤلف مقبرة الاسطول الصيني الذي خسر ٢٠٠٠ رجل بين قتيـل وجريح فضلا عن غرق تسع سفن حربية • أما الخسائر الفرنسية فقد اقتصرت على ١٠ قتلى و ٤٨ جريحا منهم ٦ ضباط • هذا كما جرى قذف دار الصناعة البحرية الصينية بشدة من جانب الاسطول الفرنسي • وفي اليوم التالي ، أي في ٢٥ آب ، صعـد الاميرال الى متن السفينة دوغواي — تروان التي أخذت على عاتقها فتح طريق العودة نحو البحر تحت غطاء من نيران قطـع مدفعيتها الضخمة • وتم عبور مضيق مانفان في ٢٦ آب وجرى نسف قلعة كيمبائي في ٢٩ منه وهكذا كان الانتصار شاملا •

وبعد قليل من الوقت حظي الاميرال كوربيه بالوسام العسكري ، وهو المكافأة الرفيعة الشأن التي تمنح للضباط القادة الذين سبق أن أمسكوا بزمام القيادة تجاه العدو . ثم انطلق ليضرب الحصار تجاه جزيرة فورموزة . وفي ١٥ شباط ١٨٨٥ قام بعثرة اسطول معاد في ميناء شيپو (Shei-poo) في خليج هو نغتشيئو (Hong-tchéou) ، عند مصب نهر اليانغتسيه كيانغ . وقام زورقان من حاملات الطوربيد باغراق فرقاطة وسفينة غراب من صنع أوروبي وكان يقود

مرسى الباغوده في ٢٢ آب ١٨٨٤

الزورق الاول النقيب غودرون وعلى متن الثاني الملازم دوبوا . وبعدئذ وفي أواخر شهر آذار من عام ١٨٨٥ اجتاح كوربيه جزر بسكادورس . وكانت مشاريع أخرى تراود مخيلته كعزمه الذهاب لتدمير الترسانة البحرية الواقعة في پورت آرثر في خليج پتشيلي والتي اكتسبت شهرة واسعة بعد عشرين عاما من ذلك التاريخ . ولكنه لم يكن يملك الوسائل اللازمة ولا النور الأخضر من حكومته . وجاء التوقيع بالحروف الاولى على معاهدة السلام مع الصين لتضع حداً للعمليات الحربية .

وقبيل عودة كوربيه الى فرنسا اعتلت صحته وفاضت روحه فوق السفينة الحربية بايّار في الحادي عشر من حزيران ١٨٨٥ . وبموته خسرت فرنسا بحاراً كبيراً ، ورجلاً باسلا ، شديداً على نفسه وعلى الآخرين ، ولكنه محبوب للغاية من

جانب مرءوسيه • وقد كان متعباً نفسياً ، مرهقاً ، وكان ينوء منذ شهور عديدة من علتين بطيئتين من أمراض هذه البلاد الحارة وهما الزحار وداء الكبد ، وجاء الموت ليختطفه فجأة وخلال بضع ساعات • ووضع جثمانه في الجعة على متن سفينته ، وفي ٢٣ حزيران أقلعت السفينة باتجاه فرنسا ودخلت خليج طولون في مساء ٢٤ آب • وتمت مراسم الجنازة في قصر الأنفاليد في ٢٧ آب ١٨٨٥ •

وفي صبيحة اليوم التالي تم نقل التابوت الى مدينة آبڤيل مسقط رأس الاميرال حيث يستريح في المقبرة التي تحمل شعار المدينة فيديليس (Fidelis) ، وهي كلمة تلخص سيرة حياة هذا البحار العظيم كلها •

★ ★ ★

تسوشيما

٢٧ أيـار ١٩٠٥

مقبرة الاسطول الروسي في مضيق كوريـا

ما أن فرغت روسيا من تسوية نزاعاتهـا القديمـة مـع جيرانها ، مـن أتراك وسويديين ، حتى وجدت نفسها في حالة حرب جـاهزة في السادس من شهر شباط ١٩٠٤ ، ولكن مع اليابانيين هـذه المرة • فقـد استقر الروس في ميناء بور آرثـر (بونجو حالياً) على البحر الأصفر ، متذرّعين بضرورة ذلك لإنجاز تمديد الخـط الحديدي العابر لسيبيريا• وهكذا أصبحوا على اتصال مباشر مع ميناء فلاديفوستوك وكانوا يسيطرون على مواقع مثالية للهيمنة على بحر اليابان • وكانت طوكيو تنظـر الى هذا الحدث الطارىء بعين كلها ريبة وحذر •

وقام الاسطول الياباني دون أي اكتراث بالشكليات وباللياقة بالانقضاض على بور آرثر بقيادة اللواء البحري هيهاشيرو توغو حيث كان الاسطول الروسي يلقي مراسيه ، دون مبالاة ، في الميناء الخارجي ، وكان الهجوم على بيرل هاربور في عـام ١٩٤١ التكرار الحديث لهذه العملية •

ضياع بور آرثر :

لقد كان اللواء البحري توغو (Togo) قائداً متميزاً بكفاءة عالية ، في حدود الثامنة والخمسين من العمر ، وقد سبق له أن برهن عليها في الحرب مع الصين، وكان ينصب رايته فوق السفينة ميكازا ، وهي دارعة حديثة تزن ١٥٠٠٠ طن •

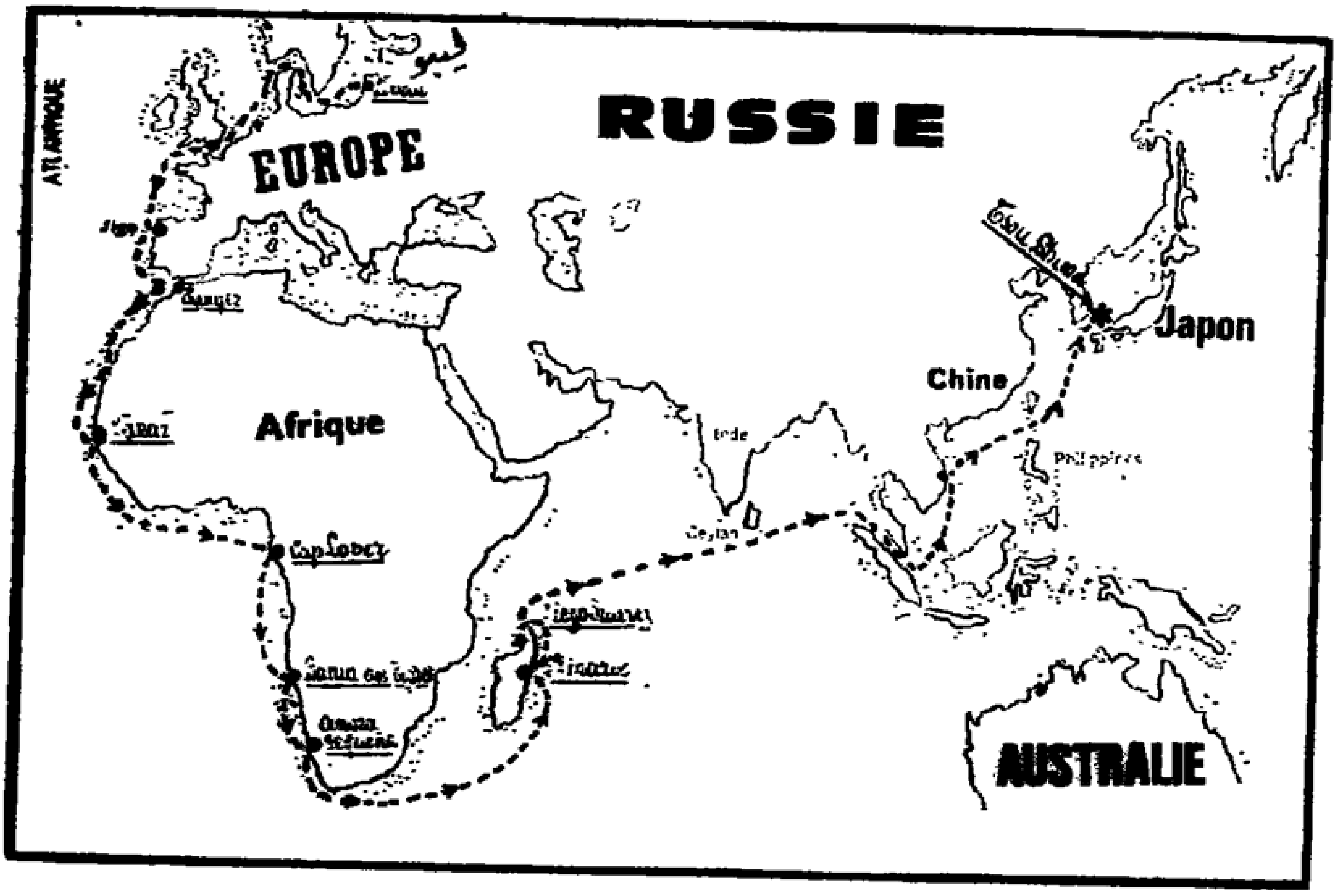

الطريق التي سلكها اسطول الاميرال روجستفنسكي من ليباو في بحر البلطيك حتى تسوشيما .
وقد استغرقت الرحلة سبعة شهور مع توقف متطاول في مدغسكر .

أما خصمه فقد كان اللواء البحري ستارك (Stark)، وهو بحار محبوب ولكنه يفتقر الى الحيوية . وقد كان الروس مقتنعين بتفوقهم على الاسطول الياباني ، من حيث العدد ، والنوعية ، وفي التقنية . ولكنهم لم يلبثوا بعد قليل ان اكتشفوا أنهم ارتكبوا خطأً كبيراً في التقدير : والواقع لقد كانت بحرية امبراطورية القيصر متشنجة بسبب الفوضى والتسيّب .

وقد اكتفى اليابانيون في بور آرثر بكيل ضربة قاصمة للاسطول الروسي وانسحبوا تحت جنح الظلام . وقد انصبّت حزم طوربيداتهم على بارجتين وطرادة ثقيلة . ولكن توغو كان أقل نجاحاً بعد بضعة أيام في محاولته محاصرة الاسطول الروسي لأن السفن الضحيّة التي دفع بها الى مدخل الميناء تحولت عن مسارها لأن الأنوار الكشافة بهرت قباطنتها أو جرى إغراقها قبل بلوغها الهدف .

وقد كلفت هذه الإهانة اليابانية القائد الروسي منصبه ، وحل مكانه الاميرال

ماكاروف ، وهو ضابط نشيط وحاذق ، وفضلاً عن ذلـك كان تكتيكياً بكل ما في الكلمة من معنى ولم يتأخر عن الإمساك بزمام الأمـور • ولم يلبث أن حـاز على احترام بحارته وانطلق على رأس فرقة من النسافات لملاقاة الاسطول الياباني • وقد وجد اليابانيون ان شيئاً ما قد تغيـّر وأخذوا يفكرون في المشكلة ، الى أن تكفلت نوبة نحس بتسوية القضية • فقـد غرقت البارجـة بتروبافلوفسك بفعل لغم ياباني وجرّت معها نحو الأعماق ستمائة بحـار من طاقمها واثنـين وثلاثين ضابطاً و •••

نيقولا الثاني امبراطور الروسيا

الاميرال ما كاروف • وهكذا انقطع رأس أسطـول القيصر وجاء القائد الجديـد الاميرال ويثفت (Witheft) ليعيد الاسطول الى دروب المواقف الدفاعية والتحصّن• وفي اليوم الوحيد الذي حاول فيه الخروج الى عرض البحر انقضّت قذيفة من عيار ٣٠٥ على عبّارة سفينته وأصبح هذا الاميرال الأخير في ذمة التاريخ •

موتسو ـ هيتو امبراطور اليابان

وتعاقبت الاحداث بتسارع عندما ضرب اليابانيون الحصار على ميناء بور آرثر الذي سقط بأيديهم في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٠٥ • أما السفن التـي نجت

من مدفعية الحصار فقد عمد بحارتها الى خرقها ولإغراقها • وكانت الكارثة كاملة • وهكذا زال من الوجود اسطول المحيط الباسفيكي الأول •

رحلة طولها ٣٠٠٠٠ كيلو متر :

أما في اميرالية القيــادة في العاصمة سان بتروسبورغ (لينينغراد حالياً) فقــد استبعد كبار القادة الحل الرشيــد الذي كان يقضي بأن يسترد الاسطول أنفاسه ، والكف عن الإنفاق على رحلة دورانية رديئــة التجهيز • وقرروا تكوين اسطول ، أطلق عليه اسم اسطول الباسفيك الثاني ، ليرد الاهــانة لليابانيين • وبعد أن جرى تجميع هذا الاسطول في ميناء ليباو (Libau) في بحر البلطيك ، أسندت قيــادته الى اللواء البحري سينوفي بتروفيتش روجستفنسكي (Rojestvensky) ، وكان عليه أن يقطع مسافة ٣٠٠٠٠ كم كي يبلــغ منطقــة العمليات في البحر الأصفر • وكانت مقاييس البوارج تحول بينها وبين عبور قناة السويس •

الاميرال شيروتوغو بطل معركة تسوشيما

وبعد أن شاع الخبر لـم تكن هناك دولة ترحّب رسمياً بـأن تتم في مياهها الاقليمية عمليات تموين السفن الروسية الحربية ، وهي عمليات لاغنى عنهـا ؛ على اعتبار ان هذه السفن محاربة ، ولا تريد أية دولة التعرض لمصاعب مع انكلترا ••• التي كانت متعاطفة مع اليابان • أما فرنسا فلم تكن قادرة أن ترفض ذلك بصـراحة وعلناً نظراً لمعاهدة التحالف مع القيصر نيقولا الثاني • ومع ان فرنسا كانت تعلـن حيادها على رءوس الأشهـاد فقد تفاهمت وزارة الخارجيـة الفرنسية مـع الروس وأفهمتهم بأنها لن تتركهم في ورطة بسبب التموين ، وأنها قبـل أن تصـدر الأوامر للسفن الروسية بمغادرة الموانىء الخاضعة لها ••• ستسمح لهم بالتمون بالمياهالعذبة وبالفحم وبالأقوات• وقد أثارت سلبية فرنسا الكثير منانفعالات الغضب ، ولاسيما في لندن ، ولكن الأمور خمدت ••• باسم الاتفاق الودي بين الدولتين •

الاميرال كاميمورا ، قائد العمارة الثانية من الاسطول الياباني

وأقلعت الفرقة الاولى والثانية من اسطول الباسفيكي الثاني من ميناء ليبـاو

في ١٢ تشرين الاول ١٩٠٤ • وكانت تضم هذه العمارة سبع بوارج هي : كنياز — سوڤاروف ، الامبراطور اسكندر الثالث ، بورودييينو ، اوريل ، اوسليابيا ، سيسوافكيلي ونافارين ، ومن طرادين مدرّعين هما الاميرال ناخيموف وديمتري — دونسكوا ومن أربعة طرادات خفيفة هي : اورورا ، سفيتلانا ، جمتشوغ ، وآلماز ، ومن سبع مدمرات وتسع نقّالات أو سفن مساعدة • واتخذ اللواء البحري روجستفنسكي من السفينة كنياز سوخاروف مقراً لقيادته ، وهي بارجة جديدةتزن ١٣٥١٠ طن ومسلحة بأربعة مدافع من عيار ٣٠٥ وبستة مدافع من عيار ٧٥ معطاقم بلغ تعداده ثمانمائة وثلاثون رجلا • ومع ان روجستفنسكي كان ضابط أركانحرب لامعاً ، ذكياً ، وشجاعاً ، فهو لم يكن قائداً بحرياً مرموقاً ، ويتصف بميله للدفاع أكثر من حبه لمباشرة الهجوم • ويجب أن نعترف بأنه أحسن قيادة مرءوسيه حتى نهاية هذه الرحلة المذهلة التي تعادل ثلاثة ارباع محيط الكرة الأرضية ، مع تمويناتهم ••• والتي أعدّت على عجل وارتجالا • ولم يترك أحداً من رجاله خلفه ، وهي مفخرة يستحق عليها أفضل مكافأة وليس •• الكارثة الختامية• وكان هناك اسطول مؤلف من سبعين سفينة من ناقلات الفحم تخص شركة خطوط هامبورغ — أمريكا الألمانية ، يقوم بتأمين حاجة الاسطول الروسي من الوقود ، كلما دعتالحاجة الى ذلك ، بعد أن تم استئجاره وتوزيع سفنه على كل مسار طريق الأرمادا الروسية •

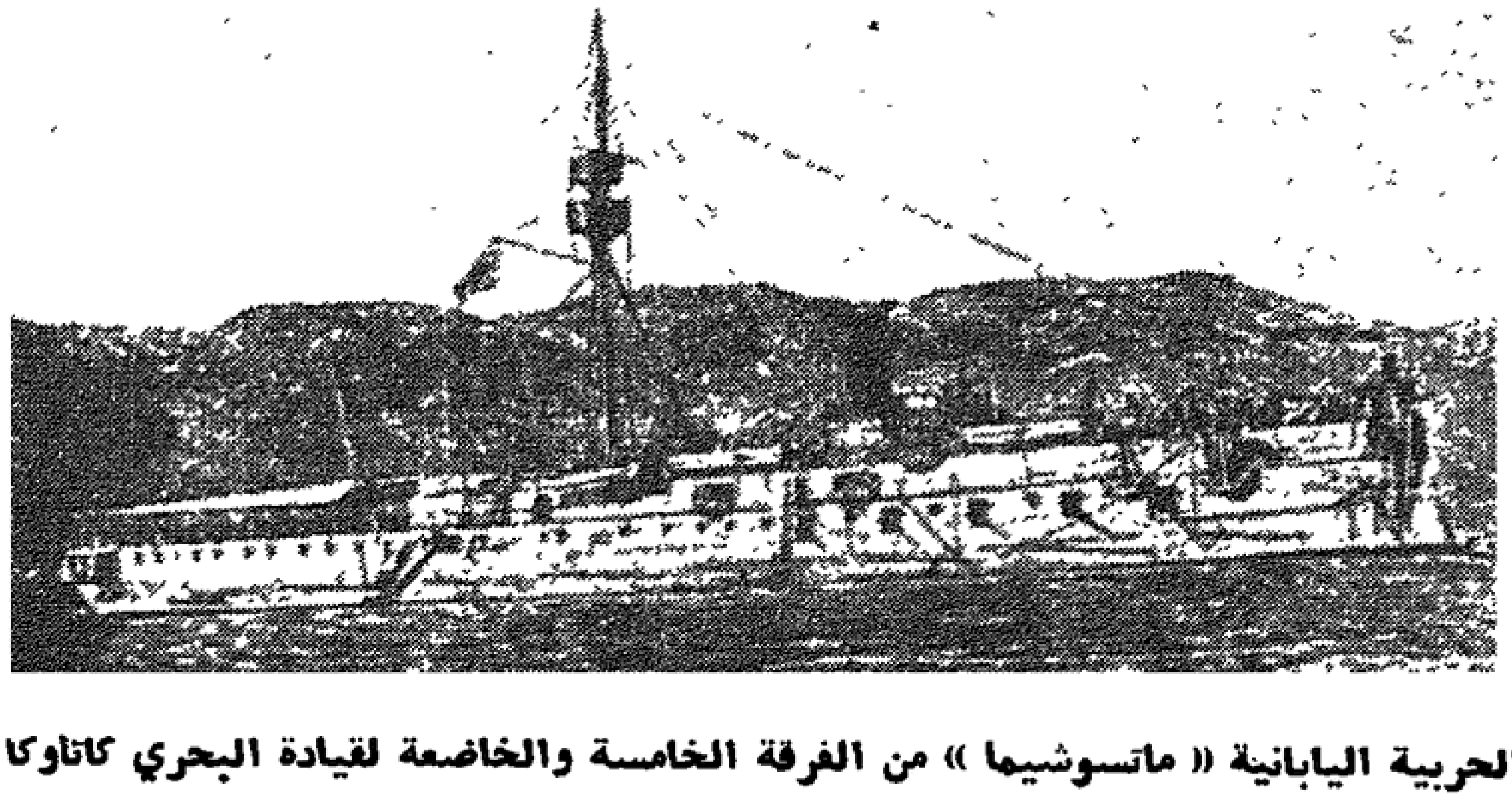

السفينة الحربية اليابانية « ماتسوشيما » من الفرقة الخامسة والخاضعة لقيادة البحري كاتاوكا

حوادث دبلوماسية ... متسلسلة :

لقد ابتدأت المشكلات والهموم بينما كانت العمارة البحرية لا تزال في بحر الشمال ، في منطقة دوغر بانك • ففي ليلة ٢١ الى ٢٢ تشرين الاول اعتقدت قيادة الاسطول انها أبصرت من خلال الضباب شبح بضع نسافات يابانية (في بحر الشمال !...) وراحت ترمي من كل الجهات الى أن عرف الاميرال أنه يقذف وابلا من القنابل على اسطول مسالم مؤلف من سفن صيد انكليزية كانت الأنوار تسطع منها حسب الاصول ! وعندما توقفت النيران استبان أن سفينة صيد انكليزية من ميناء هل (Hull) قد غرقت وان خمس سفن أخرى قد أصيبت بأضرار بالغة، وكان هناك مع الأسف قتيلان وستة جرحى • وفي خلال هذه البلبلة كان الروس يطلقون النار على بعض سفنهم• وهكذا نالت الطرادة الخفيفة اورورا خمس اصابات أدت احداها الى مقتل كاهنها على اثر جرح قاتل • وقد أدّى ذلك الى استنفار في انكلترا ضد « اسطول الكلب المسعور » لاسيما وان العمارة استمرت في طريقها ، خلافاً لكل القوانين البحرية ، دون تقديم أي عون للصيادين ودون تقديم أي اعتذار• وهبّت فرقة من البحرية الملكية لمطاردة الاسطول الروسي ولم تعد الى قاعدتها قبل الحصول على وعد من حكومة نيقولا الثاني بتسوية قضية الأضرار والتعويض على عائلات الضحايا ، وقد ارتفعت الفاتورة الى ٦٥٠٠٠ جنيه استرليني •

وفي ٢٦ تشرين الاول وصل الاميرال روجستفنسكي الى ميناء فيغو (Vigo) الاسباني حيث كانت بانتظاره خمس سفن من ناقلات الفحم الالمانية ، وهي الاولى من سلسلة طويلة ، والتي قامت بتموين سفنه دون أن يتلقى أية معارضة صريحة • وكان ميناء التوقف التالي هو طنجة في ٦ تشرين الثاني حيث انقسمت الأرمادا الى شطرين • فبينما هبط معظم السفن الضخمة نحو المحيط الاطلنطي ، بمحاذاة الساحل الافريقي ، للالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، اتجهت فرقة تضم بارجتين صغيرتين، وثلاث طرادات خفيفة ، واثنتين من مطاردات النسافات ، كي تعبر قناة السويس • وكانت بقيادة الاميرال فلكرسام وتحدد اللقاء في بداية عام ١٩٠٥ في مدغسكر •

الاميرال روجستفنسكي قائد الاسطول الثاني في الباسفيكي

وكاد الاميرال روجستفنسكي يفشل بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ، في ميناء دكار، في إملاء خزانات سفنه بالمؤن لان نزاهة قائد البحرية الفرنسية هناك دفعته لأن يطلب منه مغادرة المرسى بعد انقضاء مدة الاقامة المسموح بها في كل ميناء حيادي لسفينة محاربة ، وهي أربع وعشرين ساعة . وبينما كان التلغراف يفرقع بصورة محمومة مع اوروبا كان الاميرال الروسي لا يعبأ بشيء وعندما وصل تأكيد الاوامر من باريس كان لدى السفن الحربية ما يكفي من الوقت لتعبئة كل خزاناتها بما تريد ، وحتى أكثر من حاجتها ، اذ حملت كل بارجة ٢٠٠٠ طن من الفحم عوضا عن حاجتها العادية وهي ١١٠٠ طون .

أما في ليبرفيل ، عاصمة الغابون ، فلم تشكل قضية التموين في الاول من كانون الاول أية عقبة . وفي السابع من كانون الاول ، وأمام ميناء موسّاميدسي ، احتج البرتغاليون شكلياً ولكن الروس هزئوا بالزورق المسلّح الذي تقدم ليدعوهم

للخروج • وفي ١٦ كانون الاول وتجاه ميناء آنغرا بيكينا ، في ناميبيا الحالية ، تجاهل الحاكم الألماني وجود الروس زاعماً بأنه لا يرى الاسطول الروسي من مسكنه، وانه لم يكن يملك الوسائل لاخراجهم من مياهه الاقليمية فيما لو كانوا موجودين فعلاً !

وكانت المرحلة التالية ، وهي الاكثر طولا ، هي التي قادت الأرمادا الى ميناء سانت ماري في مدغسكر ، في شمال الساحل الشرقي • وكان رأس الزوابع ، الواقع الى الشرق من رأس الرجاء الصالح ، يستحق سمعته • فقد كانت هناك أمواج ترتفع الى ١١ متراً تتلاعب بالسفن الروسية • وكانت رحلة عذاب لايكاد ينتهي ، تخللتها حوادث من كل نوع ، وأعطال انتابت المواقد والمكائن • وفي السادس من كانون الثاني ١٩٠٥ بلغ الاسطول أخيراً ميناء سانت ماري حيث انطلق منها قاصداً مرسىً منعزلا ، هو مرسى باسّانداوا ، قرب نوسيبيه ، على الساحل الغربي كي ينتظر هناك بكل حيطة وحذر الفرقة الخفيفة التي يقودها فلكرسام ، كي يمكن الاقلاع من هناك نحو بحار الصين •

ثلاثة شهور من الركود :

وفي ميناء نوسّيبيه تلقّى الاميرال روجستفنسكي حفنة من الانباء السيئة : سقوط بور آرثر وابادة الاسطول الاول ، ضرورة اصلاح سفن الاميرال فلكرسام، خبر وصول عمارة تعزيز مؤلفة من أخلاط من سفن قديمة ، تمّ جمعها من الترسانات الروسية ، ووضعت تحت قيادة اللواء البحري بنوغاتوف ، فضلا عن مصاعب متوقعة بالنسبة للامدادات المقبلة لان سفن الفحم الالمانية أصبحت تخشى مهاجمة اليابانيين •

وهنا استلم برقية سرية تطلب منه بيان رأيه ، وكان يبدو ان رجستفنسكي على بيّنة من أمره ولم يكن لديه أي وهم وكان جوابه مؤيداً لذلك :

« ليس لديّ أي حظ في السيطرة على البحر اعتماداً على القوات الموضوعة

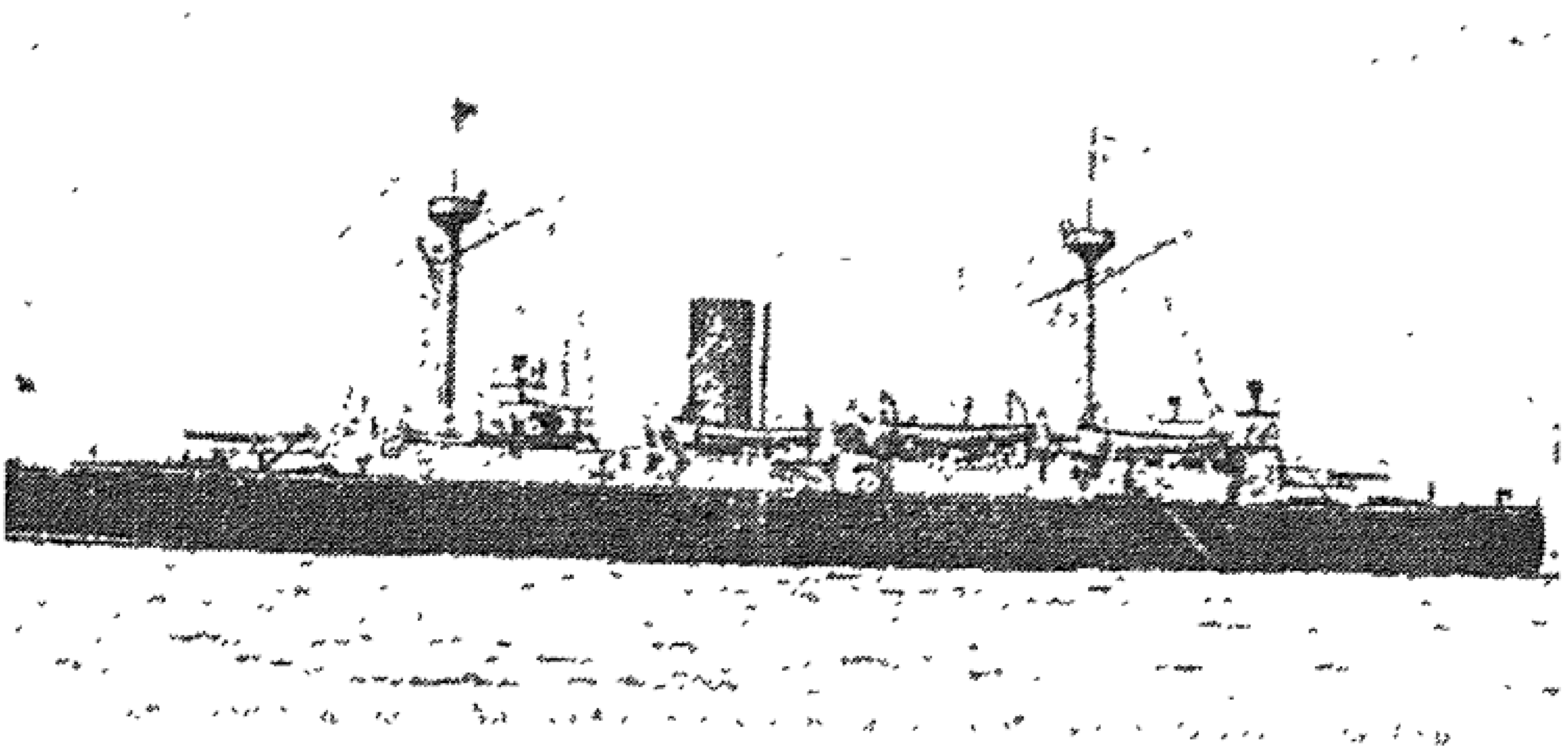

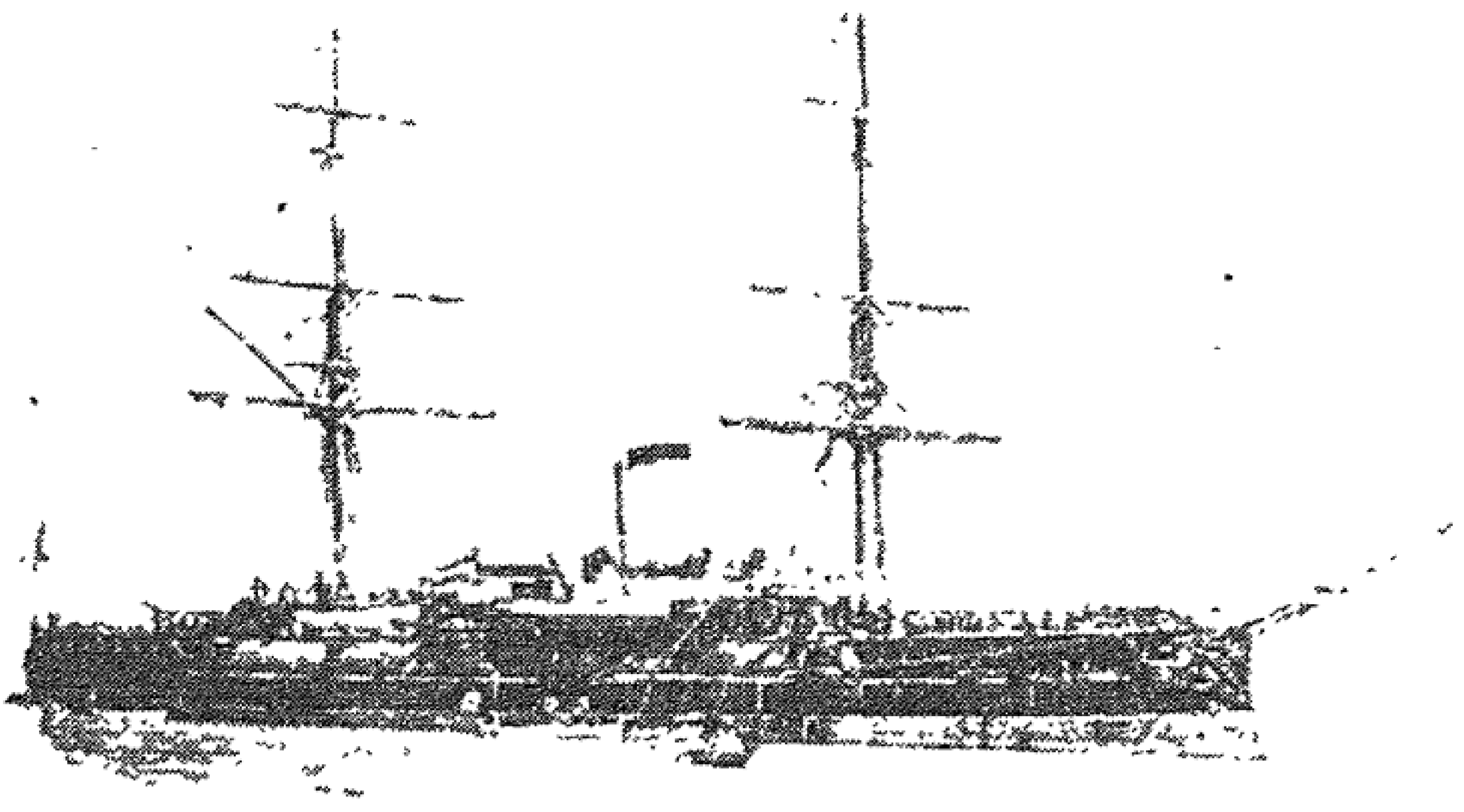

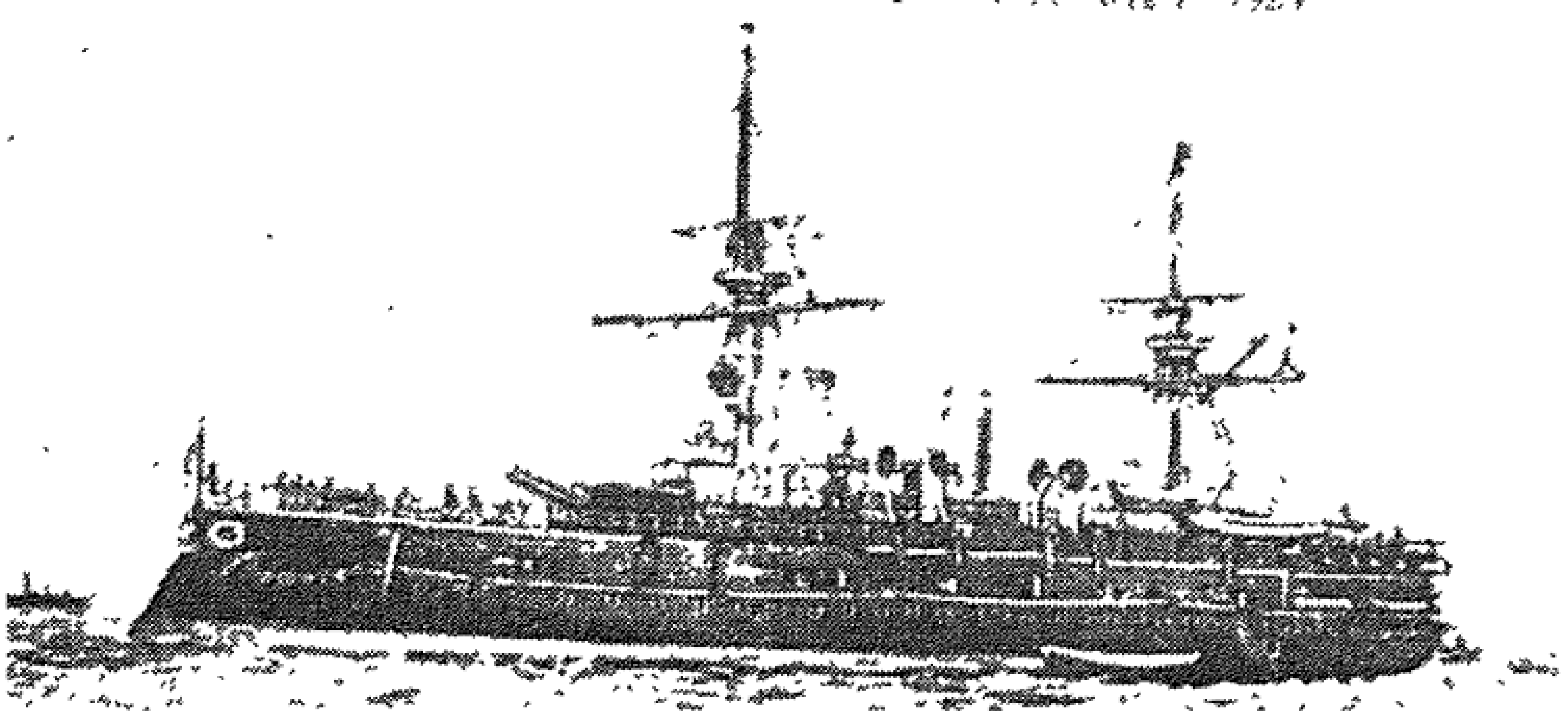

الطرادة اليابانية « نـانيوا ـ كان » سفينة قيادة الفرقة الثالثة بقيادة الاميرال اوريو

الطرادة الروسية من الدرجة الاولى « الاميرال ناخيموف » وزن ٨٥٠٠ طن انزلت الى البحر في ١٨٨٥

البارجة العمارة « نيقولا الاول » من وزن ٩٦٧٠ طن وقد انزلت البحر في عام ١٨٨٩

تحت إمرتي. أما إرسال امدادات مؤلفة من سفن لم يسبق لها أن خضعت لاختبارات، والتي يتصف البعض منها ببناء مختل معيوب ، فلن يــؤدي لاكثر من جعل اسطولي أشد عرضة للهجوم . وأعتقد أن السبيل الوحيد الممكن هو استخدام كل القــوات المتوفرة لشق طريق نحو فلاديفوستوك ، وتهديد مواصلات العدو من هذه القاعدة المذكورة » .

وأضاف الاميرال الى ذلك بأنه يرغب في إعفائه من منصب القيادة ... بسبب صحي ، وهذا يعطي فكرة عن حالته النفسية . غير أن الحكومــة الروسية تظاهرت بالصمم على طول الخط . وقد دعيت الأرمادا لاستئناف مسيرتها مع تكليفها بالمهمة المحددة : الاستحواذ على السيطرة البحرية وقطــع مواصلات الجيوش اليابانية في منشوريا في أقصر فترة ممكنة. والواقع كانت الحكومة الروسية تفتقر للإلهام عندما رفضت ، لاعتبارات الكبرياء ، باعطاء الامر لاسطولها كي يعود أدراجه .

وتدخلت تعقيدات مختلفة لتمديد ركود الأرمادا في المياه الملغاشية لمدة ثلاثــة شهور . ولم يقلع الاسطول الا في ١٦ آذار وفي حالة صحية تعيسة ونفسية قتاليــة منخفضة جداً بعد هذا الكسل والبطالة الطويلين . وكان كل واحد مستعداً للتضحية بالذات مع اليقين بأن ذلك عبثاً . وكان فالكرسام مريضاً وفي حــالة خطرة ، ولفظ أنفاسه قبل نهاية الرحلة ولكن الخبر ظل في طي الكتمان كيلا تنهار معنويات البحارة أكثر مما هي عليه .

« العدود في المربع ٢٠٣ » :

لقد تلقت ناقلات الفحم التابعة لخطــوط هامبورغ ــ امريكا ، خلال المسيرة الطويلة البالغة ٤٧٠٠ ميلا عبر المحيط الهنــدي ، أقول تلقت ضمانات فيما يتعلــق بسلامتها ، فكانت تنتظر دائماً في المواقع الجيدة لنقــل الفحم الى سفن الاسطــول الروسي . وفي ١٤ نيسان عبرت الأرمادا مضيق بورنيو . وفي ٩ أيار دخلت خليج فانفونغ (Van-Fong) وعلى مسافة ٥٠ ميلا الى الشمال من كامرانه (Cam-Ranh)

على الساحل الشرقي للهنـد الصينية ، التقى الاسطول باللواء البحري نيبوغاتوف بالفرقة الثالثة المسحوبة من « المتحف الأثري البحري » المؤلفة من البارجة القديمـة نيقولا الأول التي كانت مصدر فرح سكان ميناء تولون الفرنسي لـدن زيارتها في عام ١٨٩٣ ، ومن الطرادة القديمة المدرّعة فلاديمير موناماخ التي لا تساوي أكثر من قيمة حديد الخردة الذي تتألف منه ، ومن سفن خفر السواحل الصغيرة مثل جنرال ـ اميرال آبراكسين ، والاميرال اليسينيافين ، والاميرال اوشاكوف ومن ستة سفن مساعدة اضافية • وبعد ان انطلقت هذه الحملة من ميناء ليباو في ١٥ شباط عبرت قناة السويس وكانت تلهث دون جدوى لبلوغ ميناء التجمّع في مدغسكر •

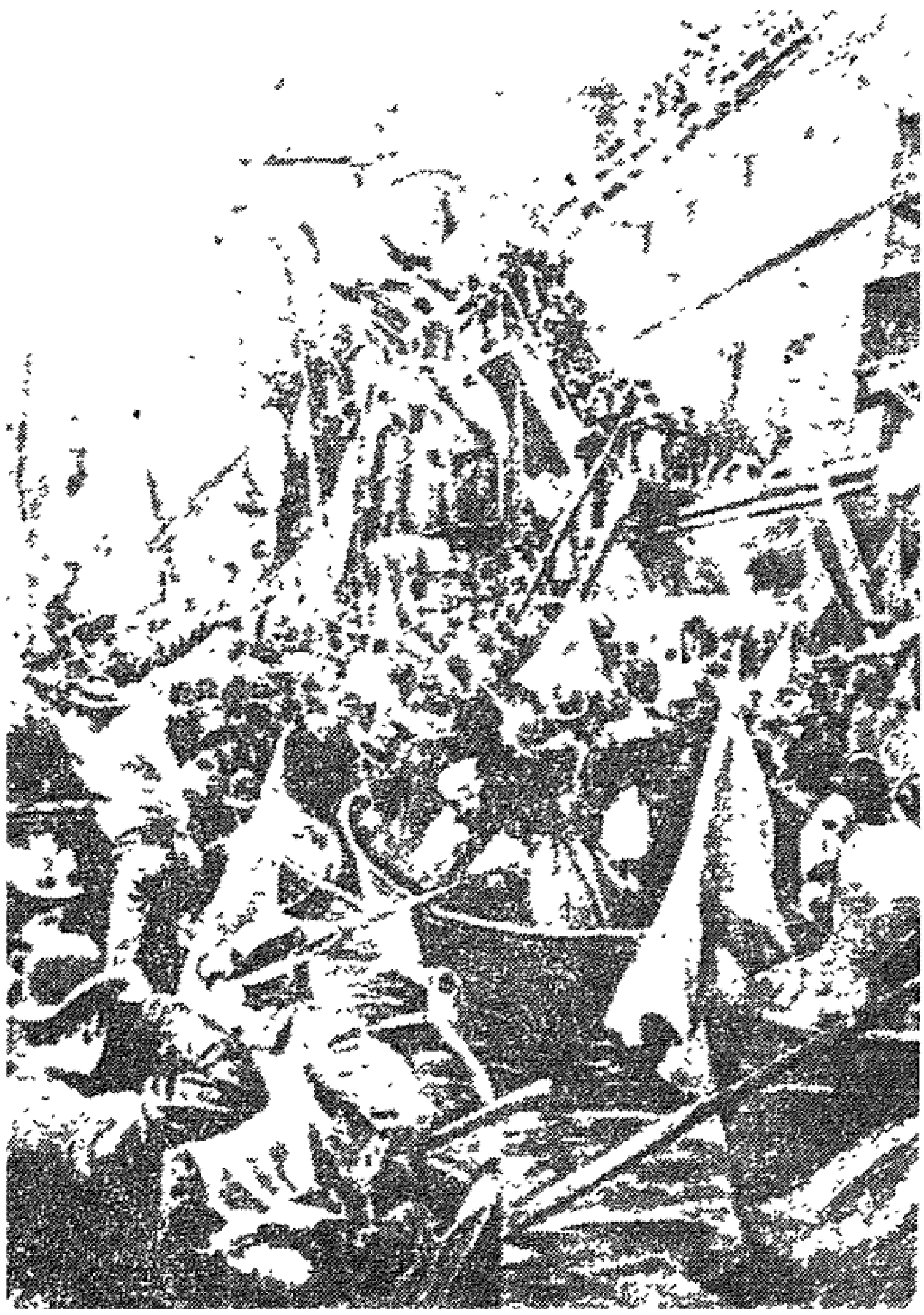

جمهور الزوار المتجهة لصعود البارجة نيقولا الاول عند زيارتها لميناء طولون الفرنسي في ١٨٩٣

وفي الرابع عشر من أيـار أقلع الاسطول الثاني الباسفيكي بكامله من ميناء فان فونغ في آخر مرحلة والذي يحدد آخر الخط فيها مصيره وخاتمته • واذا كانت قيادته على اعتقاد بأنها ستستغل مفعول المفاجـأة فقد كانت مخدوعة واهمة • فلم يكن اليابانيون من الذين يقبلون بأن يظلوا غافلين عن تحركات مثل هذا الاسطول• فقد كانوا ينتظرونه فوق أقدام ثابتة غير وجلة ، إذ كانت قواتهم مرابطة منـذ ستة شهور في مضيق كوريا ، لان الاميرال العبقري توغو كان يدرك بثاقب بصيرته بأن العدو سيجرب حظه من هذا الممر بالذات •

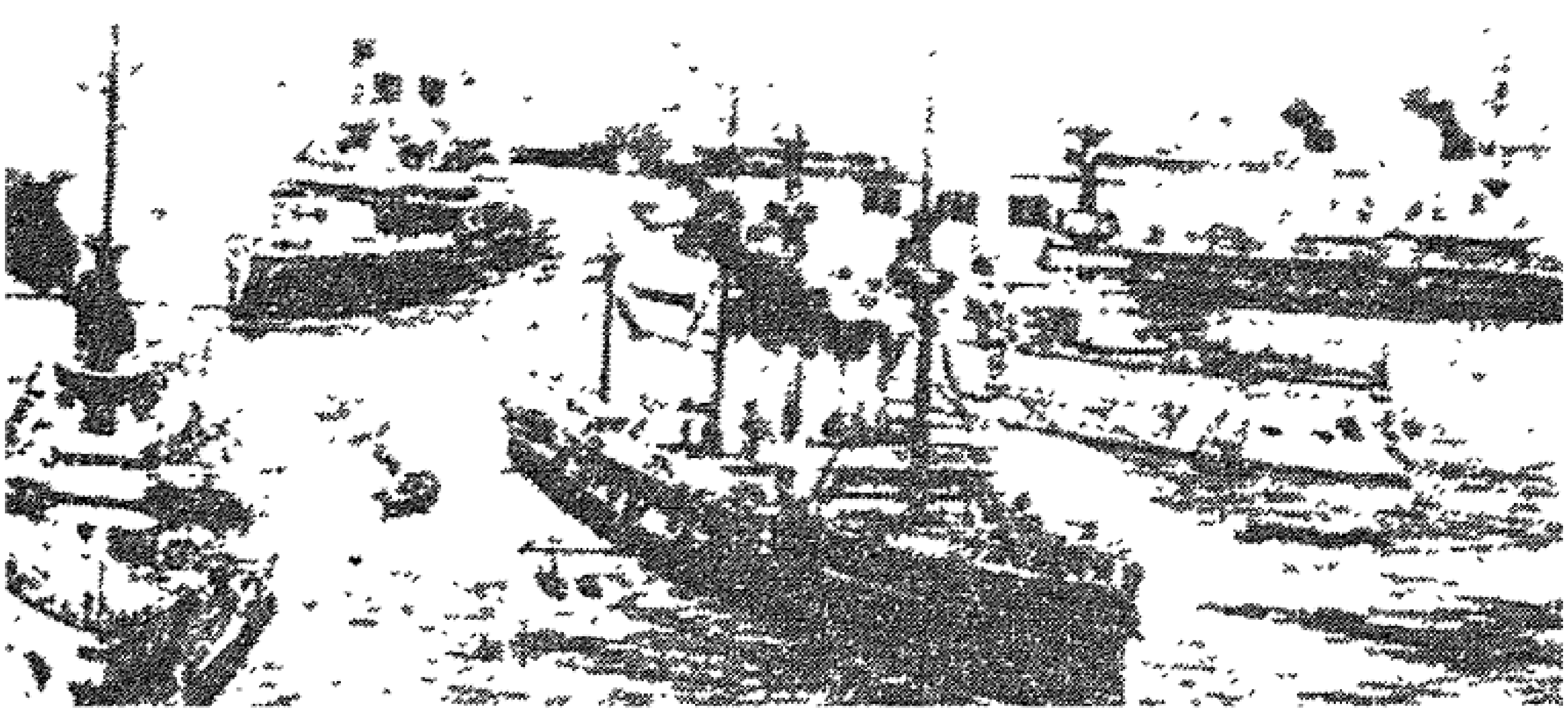

نمـاذج من سفن الاسطول الروسي

وفي ليلة ٢٥ الى ٢٦ أيار تقاطعت الطرادة اليابانية المساعدة شيناتو مارو مـع السفن الروسية التي لم تكترث حتى بإطفاء أنوارها • وسرعان ما حددت موضعها باللاسلكي « العدو موجود في المربع ٢٠٣ » • وقد عمد اليابانيون ، بقصدالتعجيل في فهم برقياتهم ، الى تربيع خرائطهم ، وهي الطريقـة التي اقتبسها الالمان في عام ١٩١٤ • وقد أشار قبطان الطرادة اليابانية شينا نومارو الى اعتقاده بأن الاسطـول المعادي يتجه نحو المضيق الشرقي ، أي في اتجـاه شطر مضيق كوريا الواقع بـين جزيرة تسوشيما وجزيرة كيوسيو ، أي على مسافة ٦٠٠ ميل من فلاديفوستوك •

وكان ذلك هو الاستعداد الشامل للمعركة الفاصلة . فقد أعطى الاميرال توغو يوم ٢٧ أيار الساعة السادسة والنصف ، مـن فوق سفينة القيادة ميكازا ، اشـارة الانطلاق بعد أن أرسل الى طوكيو البرقية التالية : « لقد علمت للتو أن الاسطول المعادي أصبح تحت أبصارنا . وقد أقلع اسطولنا لمهاجمته والقضاء عليه » .

وفي الساعـة السادسة والدقيقـة ٤٥ كان للطرادة ايدزومي أول تماس مـع الاسطول الروسي الذي كان يبعد عنها مسافة ٩٠٠٠ م . وفي الساعة التاسعةأبصرت فرقة الاميرال كاتاكوا ، بدورها ، العمـارة الروسية ولكنها اكتفت بسلوك طريـق موازية لطريقها مستغلة كثافة الضباب . وكان طلاء السفن الروسية رديءالاختيار . فقد كانت ذات هيكل أسود مـع مداخن صفراء فاقعة شديدة البريق ، مما يجعلهـا تتجلى بشكل باهر من خلال الضباب . أما استشفاف السفن اليابانية فقد كان أكثر صعوبة لانها كانت مطلية باللون الرمادي .

غير أن روجستفنسكي الذي لم تكن لديه ، كما يبدو ، أية فكرة واضحة عما ينوي أن يفعله فقد كان ينتظر برهة أكثر مواءمة لفتح النار . وقد خاب أمله عندما أطلقت البارجة اوريل قذيفة مدفع سهواً ، ولكن المدافع اليابانية لم تحرّك ساكنـاً اطلاقـاً .

وعند الظهيرة كان الروس منهمكين في تبديـل التشكيل وذلك بالارتصـاف قبالة الرأس الجنوبي لجزيرة تسوشيما وذلك عندما ظهر الاسطول الياباني ، الذي قدم من اليسار ، وكأنه يعتزم قطـع الطريق على الروس . وفي الساعة الثالثة عشرة والثلث تقدم الاسطول المذكور ، من الميمنة هذه المرة ، على شكل صف نظيم ، وكان يضم الاسطول المقاتل عمارة الاميرال توغو الاولى ، المؤلفة من ست بوارج ، تتبعها العمارة الثانية بقيادة الاميرال كاميمورا والمكونة هي أيضا ، من ست طرادات مدرعة من فئة ايدزومي ، ومن الفرقة الرابعة المعقـودة الراية للامـيرال اوريـو ، وكانت تشتمل على اربعين نسّافة . وكان مجال الرؤية يمتد حتى ٩٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ متر ، وكانت الريح تهب من غرب الجنـوب الغربي ، بقوة ٤ الى ٥ (معتـدلة وباردة) .

وقد نصب توغو اشارة المعركة عالياً : « يتعلق مصير الامبراطورية بهذه المعركة ، وليقم كل واحد بواجبه » •

خريطة ميدان المعركة

هزيمة نكراء مفزعة :

في الساعة الرابعة عشرة وثماني دقائق فتحت البارجة سوفاروف النار على مسافة ٦٣٠٠ م ولحقت بها كل سفن الخط الروسي • وراحت « أشجار الحور الفضية » تزيّن البحر بأعمدة الزبد المتصاعدة من فوق سطح الماء • ودنا توغو أكثر فأكثر لإحكام الرمي قبل الاجابة والرد على الرمي الروسي• وانقض ، على الخصوص، على البارجة سوفاروف والبارجة اوسليابيا وهي سفينة الاميرال فلكر سام ••• المتوفي منذ أربعة أيام • وأصيبت اوسليابيا بثلاث قذائف متقاربة من عيار ٣٠٥ بقرتها تحت مستوى العوم ، فغرقت مع خسمائة وخمس عشرة رجل من مجموع ثمانمائة رجل كانوا يؤلفون طاقمها ••• ومعهم جثة الاميرال •

وبعد أن أخذ اليابانيون الخط الروسي بالرمي الضام راحوا يتابعون إطلاق نار جهنمية دون توقف• فكان رجال مدفعيتهم يرمون بسرعة وبصورة ممتازة وكانت

القذائف المتفجرة أكثر قدرة • فكانت تنهال وكأنها المطر الهاطل دون انقطاع • وقد أصيبت البارجة سوفاروف ببضع مقذوفات ضخمة عملت على تمزق برجها وتعطل سكّانها وغدا هيكلها مثقّباً بالاصابات وفريسة النيران ، ومالت جانحة بزاوية مقدارها ٨ درجات • وأصيب الاميرال روجستفنسكي بأربعة جروح نقل على أثرها الى السفينة بويني في الساعة السادسة عشرة والنصف مع عدة ضباط • وبعد أن أصيبت سوفاروف بالعديد من القذائف وببضعة طوربيدات في الساعة ١٩ غرقت ورايتها في الاعلى ، مع كل طاقمها •

ثم جاء دور البارجة الكسندر الثالث كي تغرق وتهبط نحو الاغوار البحرية • ولم تكتب النجاة لاكثر من أربعة من رجال طاقمها الذي كان يضم ثمانمائة وثلاثين رجلا • واستمرت المجزرة على أثر انفجار البارجة بورودينو التي كانت ضحية قذيفة من السفينة اليابانية فوجي (Fuji) والتي سقطت بكل دقة في عنبر ذخيرتها • وقد نجا رجل واحد من كل طاقمها البالغ ثمانمائة وأربعة وثلاثين محارباً ، وهو ضابط أمكن التقاطه بعد بضع ساعات بواسطة مركب صيد ياباني •

وقد أدت خسارة هذه البوارج الأربع الى زعزعة الحالة المعنوية التي سبق ان كانت متدنية لدى البحارة ، وأشارت الى منعطف في المعركة وذلك في الفترة التي أرخى الليل فيها سدوله • ولما كانت القيادة الروسية تلعب لعبة خاسرة منذ البداية، فقد أصيبت بالذهول والهلع بعد أن أصبح الاميرال الاكبر طريح الفراش يتلوّى من جراحه ، وأصبحت فاقدة أي رد فعل هجومي • وكانت الأوامر المعطاة في البداية ترمي قبل كل شيء الى اسعاف ونجدة البواخر المتضررة واستنقاذ الضباط الكبار منها •

ولما حاول الاميرال نبوغاتوف لمّ شمل السفن المبعثرة نصب شارة «اتبعوني» وانسحب باتجاه الجنوب الغربي • ولكن النسّافات اليابانية التي ظلت في وضع الاحتياط حتى ذلك الحين انطلقت من عقالها كيلا تنجو منها تلك الفريسة • وقد حققت هذه « الكلاب السلوقيّة » النصر في الخاتمة • فقد كانت أربعة طوربيدات

جيدة التصويب كافية لتحطيم البارجة نافارين التي لم يسلم من طاقمها سوى ثلاثة من نوتيتها من مجموع رجالها البالغ ستمائة واثنين وعشرين رجلا بين مقاتل وبحار • أما البارجة سيسوافيكيلي ، ووزنها ١٠١٤٠٠ طن ، فقد تلقت اصابة قاتلة تتجت عن طوربيد أصابها في مؤخرتها ، وظلت في حالة نزع طيلة الليل قبل أن تغرق مع بزوغ الفجر • أما الطرادة الاميرال ناخيموف ، ووزنها ٨٥٠ طن ، والطرادة فلاديمير مونوماخ ، ووزنها ٥٥٩٠ طن ، فقد تعرضتا لأعطال خطيرة فعمد بحارتها الى خرقهما واغراقهما كيلا تقعا في الأسر • وقد كان ذلك عبارة عن هزيمة منكرة للجيوش الروسية •

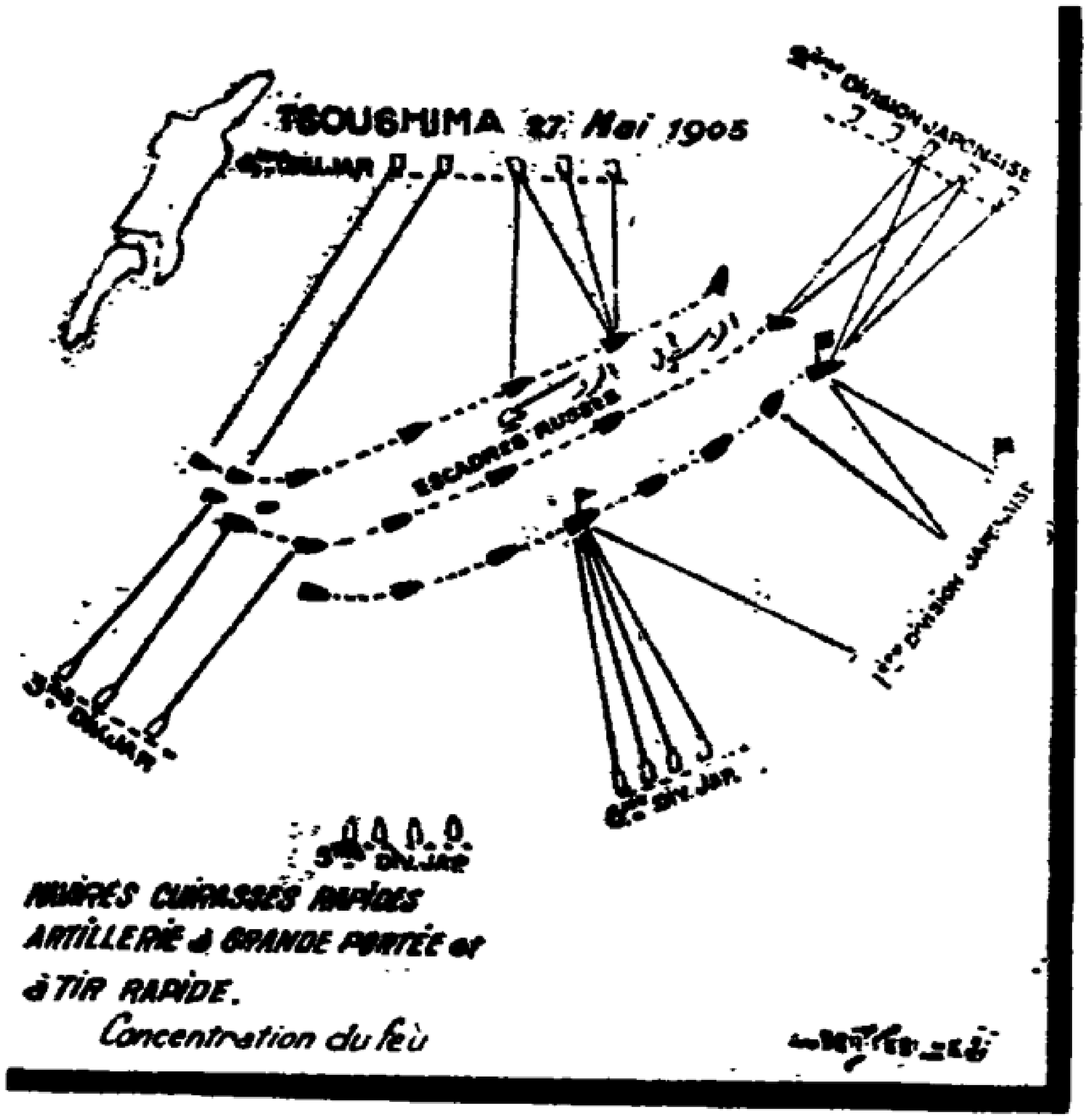

خارطة معركة تسوشيما

وعند الفجر ، وبينما كان توغو لايزال منهمكا في قطع طريق فلاديفوستوك في وجه الهاربين ، رأى الاميرال الروسي العنيد نيبوغاتوف على رأس خمس سفن حربية وهي البارجة اوريل التي أصيبت بسبع واربعين قذيفة ، والبارجة نبقولا

الأول التي أصيبت عشر مرات وسفن خفر السواحل وهي الجنرال ـ الأميرال آبراكسين ، والاميرال سينيافين ، والطرادة الزمرد • وعندها طوقه توغو بقوات أكبر بكثير ولم يبق أمام نيبوغاتوف من مخرج سوى رفع الاشارة الدولية للاستسلام• وعندها صرّح أمام ضباطه : « سأُعدَم رمياً بالرصاص دون ريب بسبب هذا المسلك ، ولكن ما أهمية ذلك ، فأنا رجل كهل ، وحياة ٢٤٠٠ رجل من الموجودين فوق هذه السفن هي أكثر أهمية من حياتي وسيخدمون بالمستقبل كي يردوا للبحرية الروسية شرفها ومجدها » •

محاولة اليابانيين في اغلاق مدخل ميناء بور آرثر

وقد تمّ أسر السفن جميعاً باستثناء واحدة هي الزمرد التي بحثت عن نجاتها في الهروب ولكنها لم تستطع أن تفلت من مصيرها المحتوم ، فقد استلقت على الساحل الى الجنوب من فلاديفوستوك وتلفت •

ومع أن الاميرال توغو كان مشغولا بتزويد السفن المأسورة ببحارة يقودونها فقد تعرض لهجوم شجاع من قبل سفينة ناجية هي سفينة خفر السواحل الاميرال اوشاكوف • وهنا ارسل اليها السفينة ايوات وياكومو لدعوة قائدها للاستسلام • ولما رفض تمت تسوية حسابه ، فغرقت السفينة حوالي الساعة العشرون • وقد استفحلت الكارثة الروسية أيضا بجنوح طرادتين وخسارة ست نسافات منها أربع غرقت واثنتان سقطتا بالأسر ، احداهما السفينة بيدوفي التي نقل اليها الأميرال روجستفنسكي ، للمرة الثانية ، والذي كان دائماً فاقداً للوعي •

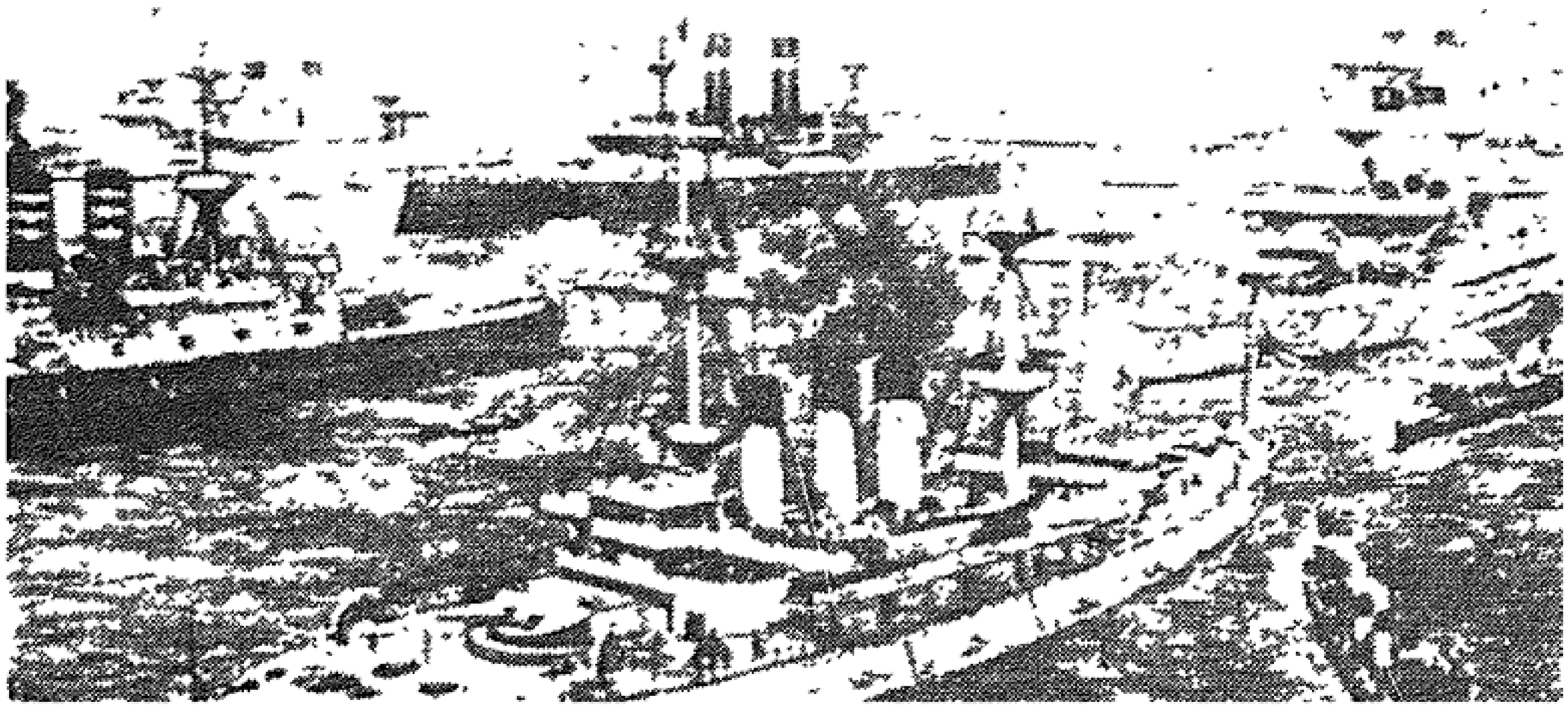

نماذج من سفن الاسطول الياباني

الاستسلام لم يعد مألوفا :

لم يبق من البوارج الروسية الثمانية سوى اثنتين وكيف ؟••• في أيدي اليابانيين • وهكذا أرسل اسطول الامبراطور موتسوهيتو اثنتين وعشرين سفينة ، من بين السبعة والثلاثين التي كانت تتشكل منها الأرمادا المعتوهة ، في اتجاه قاع البحر وأسر منها ست • وقد التحقت ست سفن بالميناءين الحياديين شنغهاي ومانيلا حيث ألقي بطاقميهما في السجن • وقد استطاعت السفن الثلاث الاخيرة أن تتسلل من خلال شباك الحصار الياباني وتصل الى فلاديفوستوك نجحت واحدة منها سي

العودة فيما بعد الى الروسيا • وهكذا كلف هذا الانكسار حياة ٤٨٣٠ رجلا من جنود القيصر •

أما اليابانيين الذين لإقدامهم وحذقهم الدور الكبير في نجاح هذه المعركة فقد انحصرت خسارتهم في ثلاث نسّافات غرقت احداها نتيجة تصادم عَرضي • وقد تعرضت ثلاث من بوارجهم وهي آساما ، كاساغي ، نانيوا لأضرار من النوع الذي يمكن إصلاحه • أما خسارتهم من الارواح البشرية فلم تتجاوز ١١٧ قتيلا •

ولم تعد هناك رغبة إطلاقاً لدى الروسيا ، التي أذهلتها هذه الكارثة ، في استئناف الحرب • ففي ٢٩ آب ١٩٠٥ جرى الاحتفال بتوقيع السلام في الولايات المتحدة ، وقد لعب الرئيس تيودور روزفلت دور وسيط بين المعسكرين •

أما القادة الذين سلّموا راياتهم في تسوشيما فقد تمت محاكمتهم إثر عودتهم• وقد صدر الحكم على بضعة منهم بالاعدام ، منهم الاميرال نيبوغاتوف ، ولكن لم يقض أحد منهم نحبه رميا بالرصاص ، لان القيصر استبدل أحكام القصاص هذه ببضعة أعوام من السجن • ولكن مما يستحق الذكر والتسجيل ان هذه الاحكام بسبب الاستسلام كانت تؤلف منعطفا تاريخياً • فبعد معركة تسوشيما ، اللهم ماعدا بعض الاستثناءات ، عزفت السفن الحربية عن عادة تسليم راياتها في سبيل انقاذ طواقمها ، بينما كان المألوف في الحروب السابقة ، ألاّ يجد أحد حرجاً أو عيباً في التسليم بعد مقاومة طويلة وشجاعة •• وقد أدى هذا المفهوم الجديد بالضرورة الى مجازر كارثيّة وعديمة الجدوى ، كتلك التي صحبت ضياع البارجة بسمارك وشقيقتها شارنهورست ، هذا كيلا نتكلم عن غيرهما من حوادث الإغراق خلال الحرب العالمية الثانية •

★ ★ ★

كورونيل وفولكلاند

١ تشرين الثاني ــ ٨ كانون الاول ١٩١٤

إهــانة كان لها ثــار

لقد اتخذت المعارك البحرية أبعاداً جديدة مع حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ لأن الطيران والغواصات قسرت القباطنة على الارتياب بما قد يوجد تحت البحر وفوقه .

هذا كما خضعت الاساطيل البحرية ذاتها لتحول جذري على أثر ظهور البارجة من طراز دريدنت (ومعناها حرفيــاً : التي لاتخشى شيئاً) ، وهي نــوع من طرادة مدرعة مجهزة بمدفعية ثقيلة : مثلاً عشرة مدافع من عيــار ٣٠٥ موزعة على خمسة أبراج مزدوجة .

وتستطيع سفن دريدنت أن تقطع ٢١٫٥ عقدة على الرغم من كتلتها التي تزن ١٨٠٠٠ طن . ولكن الاساطيل الاوروبية الكبرى ، التي أعجبت بهذا النوع الجديد من السفن الحربية ، لم تلبث أن قامت بالسير على منوالها ..

وفي بداية عام ١٩١٤ كانت المانيا تملك أثنتي عشرة سفينة دريدنت وثمانيــة طرادات حربية كبيرة ، تبلغ سرعتهــا ٢٦ عقدة . وقــد عمد الامــيرال تيربيتز الى إرسال طرادتين مدرعتين حديثتين نحو المحيط الهادي ، حيث كان لبلده مصالح تستدعي الدفاع ،وهما شارنهورست وغنيسنو ، وحمولة كل منهما ١١٤٢٠ طن . وكانت كلاً من هاتين الطرادتين تقطع ٢٢ عقدة في الساعة ويحميها تصفيح مــن فولاذ سماكته ١٨ سنتيمتراً ، مثلما كانت كل منهما مجهزة ببطارية مدفعية في أوسطها مؤلفة من ستة

مدافع من عيار ٢٠٠ وثلاثة من عيار ١٥٠ ، وكانت تصحبهما ثلاث طرادات خفيفة هي: « ايمدن ، نورنبرغ و ليبزيغ ، مجهزة كل منها بزمرة من مدافع جانبية مؤلفة من خمسة مدافع من عيار ١٠٠ • واتخذت قاعدة لها في أرخبيل جزر كارولين ، التي كانت خاضعة للانتداب الالماني »• وعندما أعلنت الحرب كان الاميرال تيربيتز يخشى من أن تقوم القوات المتحالفة من انكليزية ونمساوية ويابانية بتحطيم فرقته البحرية •

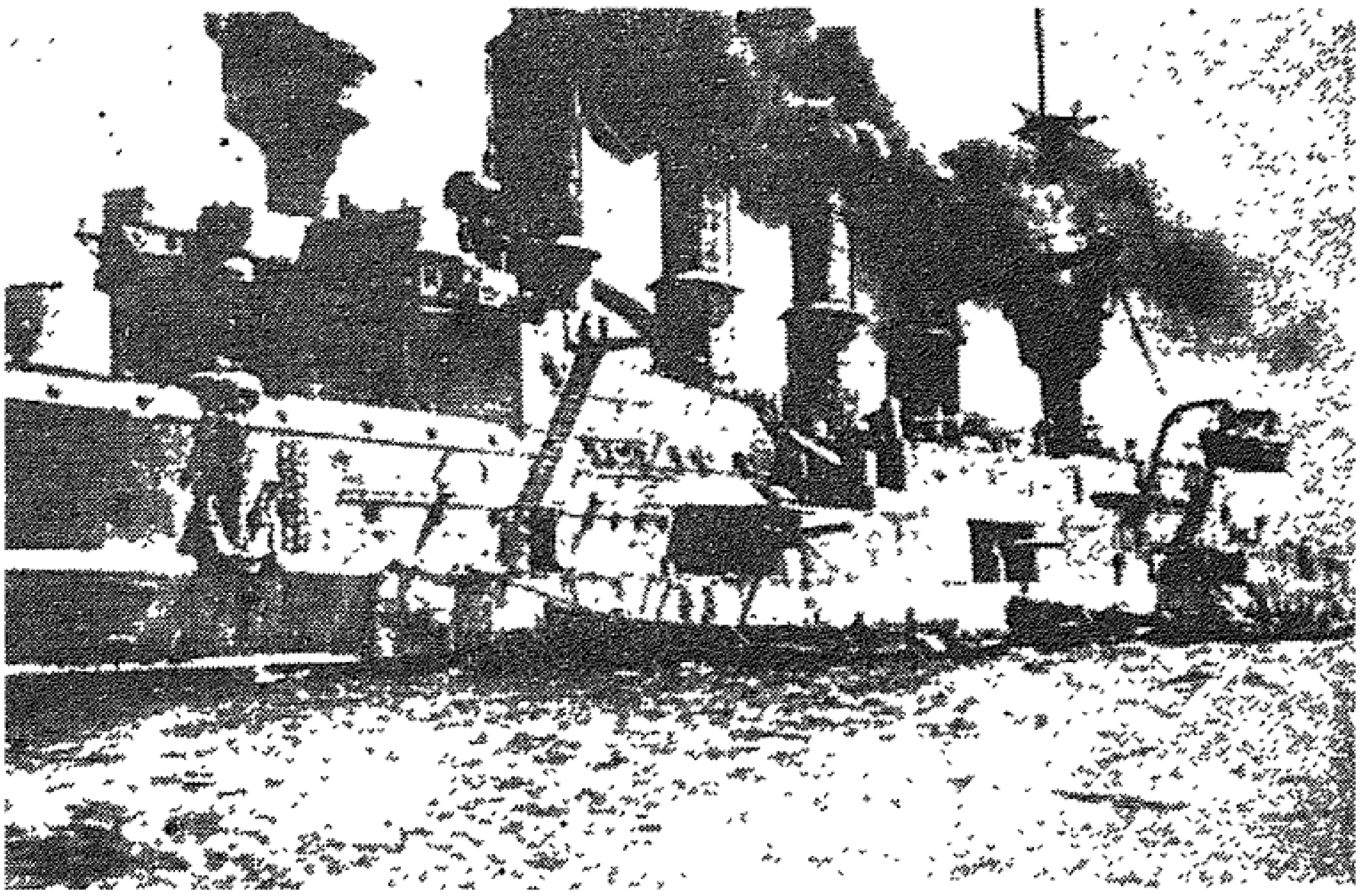

الطرادة المدرعة الالمانية شارنهورست أثناء تموينها بالفحم في ميناء فالباريزو
بين معركة كورونل ومعركة فلكلاند التي غرقت خلالها

ولما كان لألمانيا جالية كبيرة مستوطنة في أواسط الشيلي ، فقد أمرت اسطولها الذي كان يقوده اللواء البحري الكونت مكسيميليان فون سبي ، البالغ الثالثة والخمسين من العمر ، بالاتجاه نحو هذا الساحل المضياف من أمريكا الجنوبية •

واستغلت هذه الفرقة البحرية رحلتها بالقيام ببعض العمليات الهجومية ، فقصفت مدينة بابيت ، وهو ميناء فرنسي في تاهيتي ، فضلا عن بعض القواعد التابعة للحلفاء • وحلّت الطرادة « درسدن » مكان الطرادة « ايمدن » ، التي

راحت تكسب شهرتها في الاعتراض لقوافــل السفن التجــارية المعادية في المحيط الهندي •

وقامت الاميرالية البريطانية ، من جانبها ، ودون تبصر ، بأن أرسلت في أعقاب الأميرال سبي العمارة الرابعة التي يقودها العميد البحري كريستوفر كرادوك ، البالغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ، والتي كانت تتألف من طرادات عتيقة جعلتها رحلة طويلة ، في عباب المحيط الأطلنطي ، تلهث من الاجهــاد • ولمــا كان كرادوك يفتقر للاتصالات اللاسلكية السريعة، فقد أبحر دون انتظار دعم السفينة كانوبوس ، وهي طرادة قديمة كانت تسير بأقصى سرعتها (١٢ عقدة !••) كي تلحق به ، ولكنها كانت مع ذلك ، على مسافة ٣٠٠ ميل خلفه بتاريخ الاول من تشرين الاول ١٩١٤ ، وذلك عندما كان الانكليز والالمان في وضع مواجهة أمام كورونل ، وهو ميناء صغير على ساحل الشيلي ، جنوب فالباريزو ، في اقليم كونسبسيون •

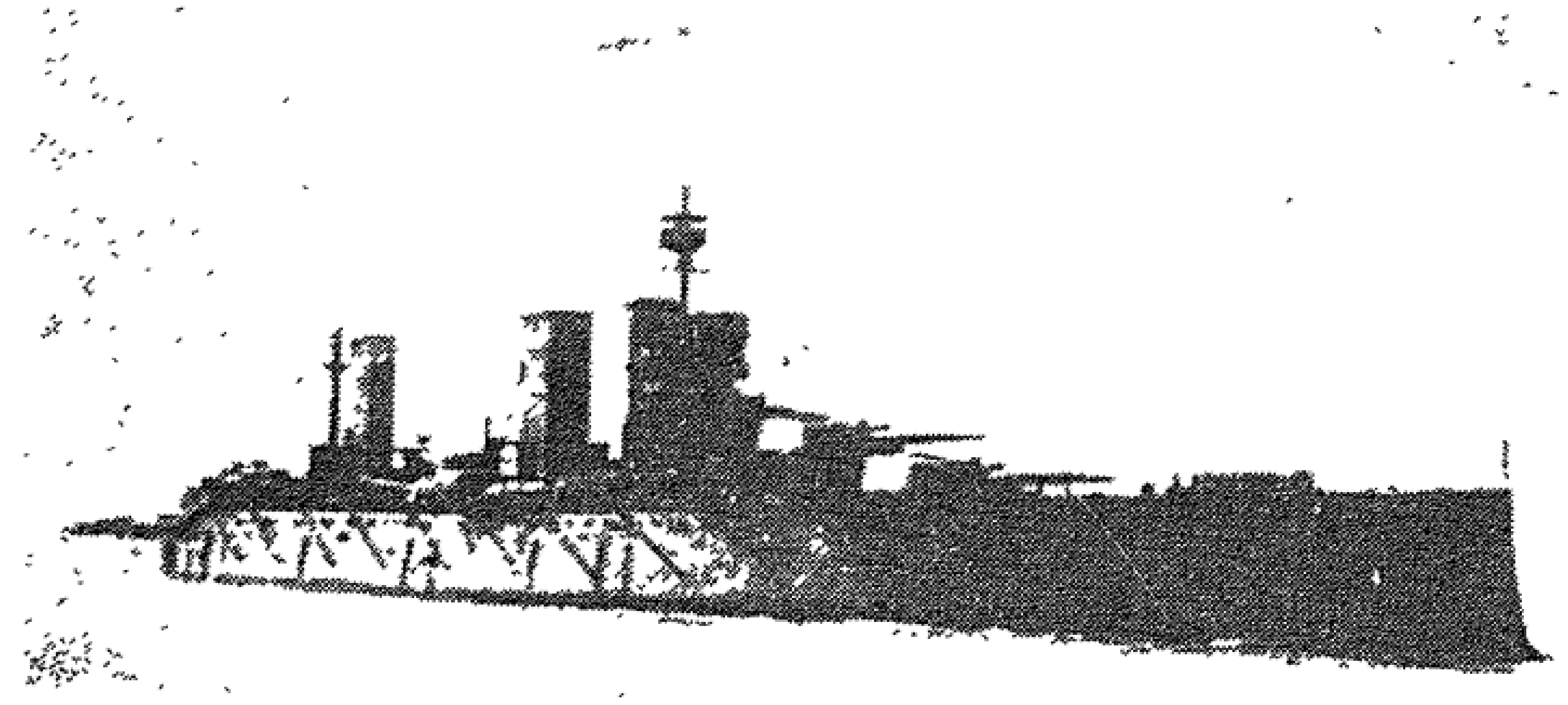

الطرادة الانكليزية « برنسيس رويال » التي رابطت أمام قناة باناما لقطع الطريق على العمارة الالمانية

ولم يكن باستطاعة كرادوك ، الذي اتخذ من السفينة غودهوب مقر قيادته ، وكانت مسلحة بمدفعين من عيار ٢٨٠ وبثمانية مدافع من عيار ١٥٠ ، أن يتقدم بأكثر من سفن أقل وزناً ، وهي : الطرادة ما نماوث (مدفعــان من عيار ١٥٠) والطرادة غلاسكو (مدفعان من عيار ١٥٠ وخمسة مدافع من عيار ١٠٠) والسفينة التجارية المسلّحة اوترانتو (ثلاثة مدافع من عيار ١٣٠) ولها جميعاً قيمة عسكرية تافهــة • وظل الاميرال يلح على الاميرالية ، دون جــدوى ، في طلب نجدة السفينة ديفانس ،

وهي طرادة مدرعة مسلّحة بتسعة مدافع مــن عيــار ١١٠ و ١٩٠ والمجهزة بطاقــم حسن التدريب ، والتي كان يرغب في إرسالها الى ميناء مونتيفيديو لقطع الطريق على العمارة الالمانية ، هذا اذا ما حاولت هذه الانتفاف من وراء رأس هورن .

وفي الساعة ١٦ و ٣٠ دقيقة من يوم عيد جميع القديسين ، أبصــرت الطرادة نيبزيغ العدو واتجه كل من الاسطولين في اتجــاه الآخر . وكانت الريح تهب مــن الجنوب بقوة مقدارها ٦ (أمواج هول كبــيرة) . وعقد اللواء البحري فون سبي مؤتمراً أحكم فيه التكتيك مع قباطنته : معركة عن بعد ثم اقتراب بعد تسديد الرمي وإحكامه . ولا يبدو ان الانكليز قد تبنّوا أوضاعاً قتاليــة مسبقة ، ولكنهم لــم يقصروا عن خصومهم في لقاء العدو ببسالة .

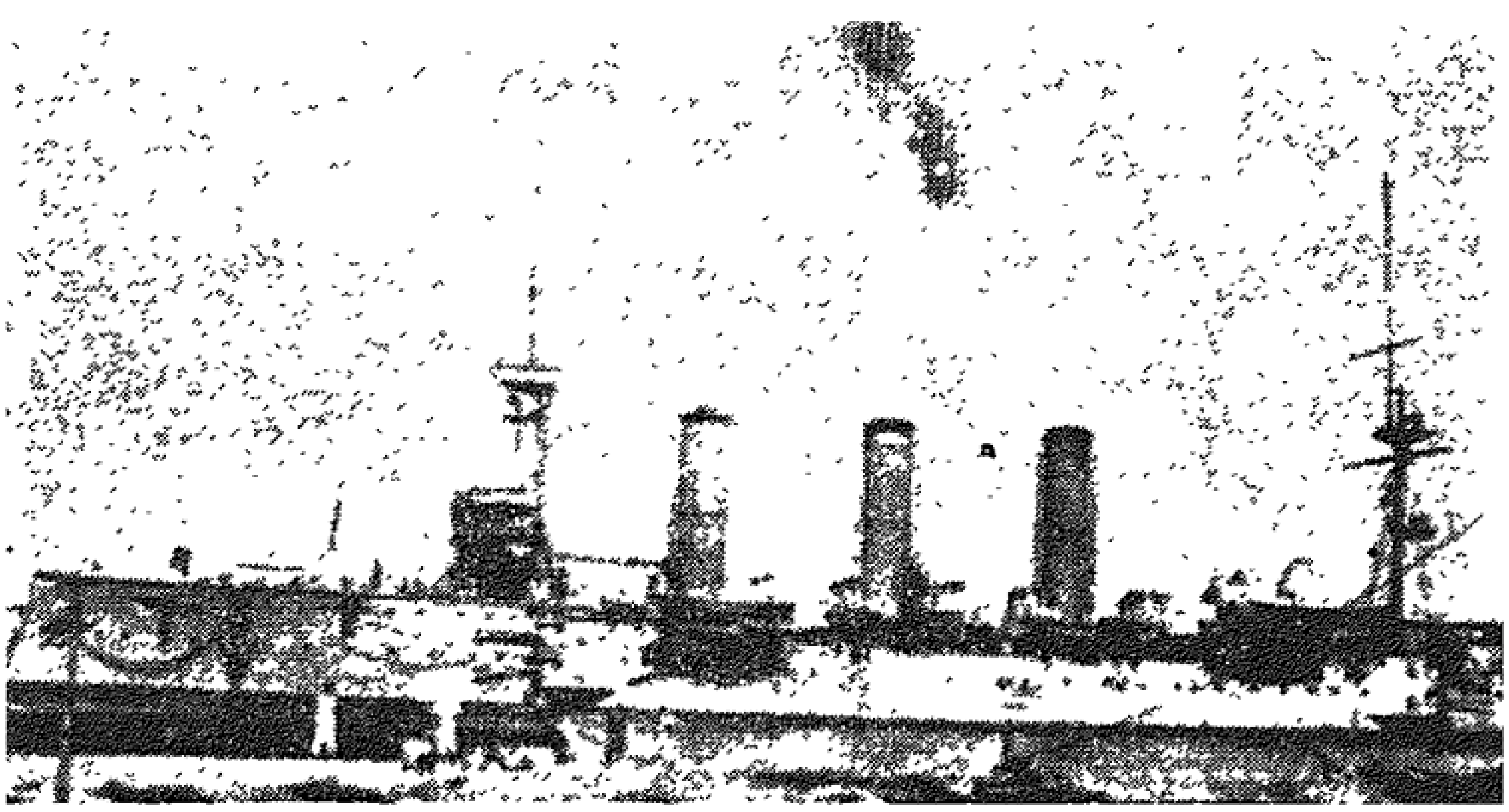

الطرادة الانكليزية « مونماوث » التي غرقت في معركة كورونل

نجاعــة الرمي خمسة بالمئــة :

وفي الساعة ١٧ و ٤٥ دقيقة تقدم الانكليز على شكل خط رتل (في الترتيب : غود هوب ، مونماوث ، غلاسكو ، اوترانتو) وأقبل عليهم الالمان كذلك (بالترتيب: شارنهورست ، غنيسنو ، ليبزيغ ، درسدن) . وكان كل من الطرفين يبحر بسرعــة ١٧ عقدة ، ولكن الالمان كانوا يتقدمون لميدان المعركة شيئا فشيئا ، في حــين كانت مسيرة الطرادة المساعدة اوترانتو تكبح من سرعة تقدم الانكليز .

وفي الساعة ١٩ غابت الشمس في الافق خلف السفن البريطانيـة التي كانت اشباحها ترتسم في السماء . وكان هذا ما توقعه الاميرال سبي الذي فتح في هـذه البرهة رمياً غزيراً ، سرعان ما انتظم وأصبح ناجعـاً على مسافة تقريبية تبلغ نحـو ١٠٠٠٠ متراً . وسلطت شارنهورست مدافعها على سفينة القيادة الانكليزية غـود هوب في حين استهدفت غنيسنو الطرادة مونماوث . وظلت كل من الطرادة لايبزيغ و درسدن في المؤخرة . اما الطرادة نورنبرغ فلم تفلح في الانتظام في الرتل .

ولما كان المسدّدون الالمان على مستوى عال من التدريب فوق شارنهورست ، فقد كانوا عبارة عن أبطال حقيقيين . فبعد الصلية الثالثة أفلحوا في تعطيـل أجهزة ادارة الرمي في غود هوب . وكانوا يرمون بسرعة تفوق رمي الانكليز بثلاث مرات، أو رشقة واحدة كل خمس عشرة ثانية مقابل رشقة واحدة كل خمسين ثانية للبحرية البريطانية . ولما اقترب الاميرال سبي لمسافة ٩٠٠٠ متر قاد معركة ذات رمي رهيب على الهدف. وكانت قذائفه الهاجمة ، العادية أو الاختراقية، تهشم السفينةغودهوب التي أصبحت فريسة للنيران . وفي الساعة ١٩ و ٥٦ دقيقة غاصت سفينة الامـيرال البريطانية في الاعماق . وجرّت معها نحو الهاوية ٩١٩ رجلا بما فيهم العميدالبحري كرادوك . وبعد أن ظل البحر مضيئاً ، حتى ذلك الوقت ، بحرائق سفينة غودهوب، عمد الى إطفاء الجمر المتوهج وسرعان ما غمره الظلام .

أما مصير مونماوث فلم يكن أحسن حظاً إطلاقاً . فبعد أن انسحق برجها لدن أول صدمة ، افترسها الحريق ، وتمزقت بفعـل أربع رشقات من السفينـة الالمانية غنيسنو ، فانسحبت من ميـدان المعركة حوالي الساعة ٢٠ متجهة نحـو الشمال ، فأصبحت ــ لسوء حظها ــ تحت مرمى نورنبرغ التي لم تتكلف الكثير من العنـاء وسوّت معها الحساب خلال ثماني دقائق ، دون أن تقترب منها أكثر من ٦٠٠ متر. وانقلبت مونماوث لتغرق ، ورايتها عالية ، في الساعـة ٢١ و ٢٨ دقيقة . وحـالت الأمواج العالية دون أية محاولة للانقاذ . وهكذا هلك معها مائـة وخمسة وثلاثون رجلا ، وهو كل طاقمها .

وقد استطاعت السفينتان الانكليزيتان أن تلوذا بأذيال الهرب : إذ تنحّت نحو الغرب بناء على أوامر صادرة مــن كرادوك ، وسارت في إثرها السفينة غلاسكو في الساعة العشرين ، بعد أن أصابتها خمس قذائف ، وكانت على صواب ، لأنها لو ظلت لوحدها لما أمكنها اطلاقاً الصمود في وجه الاسطول الالماني .

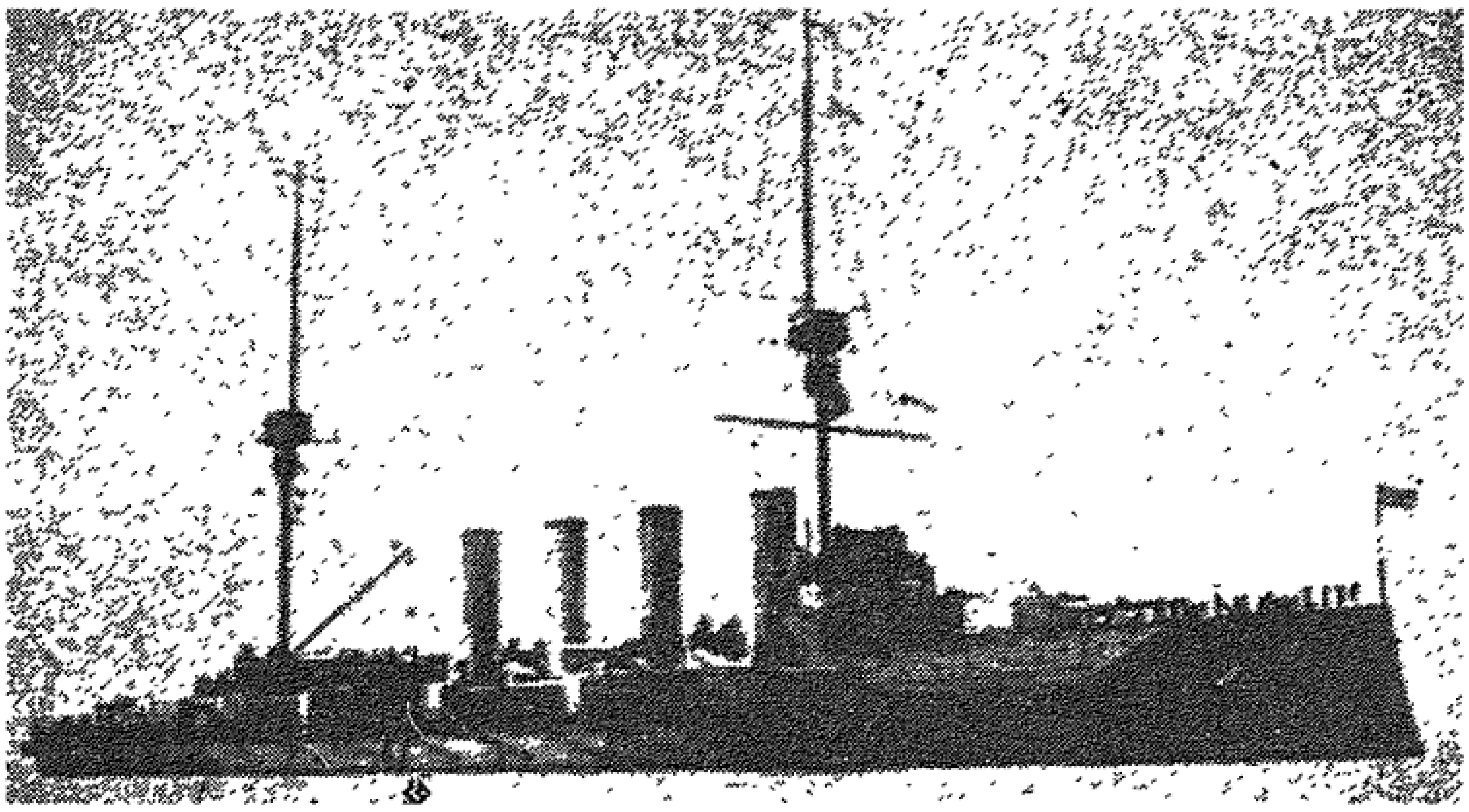

الطرادة المدرعة الانكليزية « ديفانس » التي كان غيابها أحد أسباب هزيمة كورونل

ومع الفجر أدرك الاميرال فون سبي انه أصبح سيــد ميدان المعركة . وأذاع على فرقته البيان التالي :

بمعونة الله استطعنا كسب معركة رائعة ، أقدم على أثرها التهاني والشكر لكل الطواقــم ...

ولم تصب شارنهورست بأكثر من قذيفتين لم تلحق بأحد جروحاً . أما الطرادة غنيسنو فقد تلقت أربع قذائف وأصيب اثنان من رجالهــا بجراح . وهكذا أطلــق الاسطول الالماني ١٧٢٣ قذيفة توزعت كما يلي : شارنهورست ٦٣٧ ، غنيسنو ٤٤٢ ، ليبزيغ ٤٠٧ ، درسون ١٠٢ ، نورنبرغ ١٣٥ . وكانت نسبة الطلقات على الهــدف تعادل خمسة بالمئة ، وهو رقم يعتبر مرضياً للغاية نظراً للحالة التي كان عليها البحر . والنتيجة كان هناك بعض الأعطاب وجريحان من جانب ، وغرق طرادين ومصرع ١٦٥٤

رجلا بين قتيل وغريق في المعسكر الآخر ، وكان النصر الالماني نصراً مؤزراً• ويعود الفضل فيه الى التفوق التقني ، ولقدرة الرمي ، ولأفضلية التهيئة ، لان ظهور الالمان كانت في نطاق الظل • أما الطرادتين العتيقتين التابعتين للاسطول الملكي فقد كانتا ، مع مدفعيتهما التي عفا عليها الزمن ، وبطاقميها القليلي التدريب ، اذ كان بينهم الكثير من الاحتياط ، أقول كانتا تسعيان الى الانتحار بظلفهما ، دون أن يكـون لديهما أي حظ في اتخاذ القرار ضد الخصم • وقـد كانت هزيمة عديمة الجـدوى ، بمعنى أن البحرية البريطانية لم تلحق أي ضرر يذكر بالألمان • وتذوق هـؤلاء نشوة الظفر ، واتجهوا نحو فالباريزو حيث كان مواطنوهم يختصونهم باستقبال انتصاري• واستمر الحبور العارم خمسة أسابيع لاغير •

خصمان يتعرضان لمفاجأة متبادلة :

لقد قررت انكلترا بعـد أن تعرضت للخزي الأليم أن تمحو إهـانة معركـة كورونل في أقصر مهلة ممكنة • ولقد كانت أول مبادرة قام بها اللورد فيشر ، بعد أن خلف الامير لويس اوف باتنبرغ في ادارة الحرب البحرية ، كانت ان منح اللواء البحري السير فريديريك تشارلز ستاردي ، البالغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، ورئيس عمليات الاميراليـة ، قيادة فرقة ، كانت تضم سفينتين مـن طراز دريدنت حديثتين وهما : آنفنسيبل و آنفنكسيبل من فئة حمولة ١٧٢٥٠ طن ، وسرعـة ٢٥ عقدة ، والمسلحتين بثمانية مدافـع من عيار ٣٠٥ واثني عشر مدفعا من عيار ١٠٠ • وبُعثت طرادة قتال أخرى ، هي برنسيس رويال ، الى جوار قناة بناما ، تحسباً لمـا قد يخطر ببال قادة السفن الالمانية من مغامرة في هذه الأصقاع وقام ونستون تشرشل في الاركان العامة بمساندة هذا المخطط بحماسة وسهر على الاسراع فيها ، بقصـد تسوية الحساب مع اللواء البحري فونسبي •

وأقلعت السفينة آنفنسيبل ورصيفتها آنفلكسيبل من ترسانة ميناء ديفونبور في أشد ما يمكن من السرية ، في الحادي عشر من تشرين الثاني وفرض عليهما اسكات اللاسلكي الاجباري ، وقامتا بالتموين بالفحم في جزر الرأس الأخضر بتاريخ ١٧ من

الشهر المذكور ، وبلغنا ساحل البرازيل ، بين باهيا وريودوجانيرو في ٢٦ تشرين الثاني بعد « هرولة » بلغت ١٠٠٠٠ كم أو ما يعادل ربع محيط الكرة الارضية • ولما تلقى اللواء البحري ستاردي الامر باتجاه نحو جزر فلكلاند (أو جزر مالوين) وهو أرخبيل في المحيط الاطلنطي الجنوبي تجاه ساحل الارجنتين ، بحثاً عن العدو، عمد الى تنفيذ الأوامر في ٢٦ تشرين الثاني •

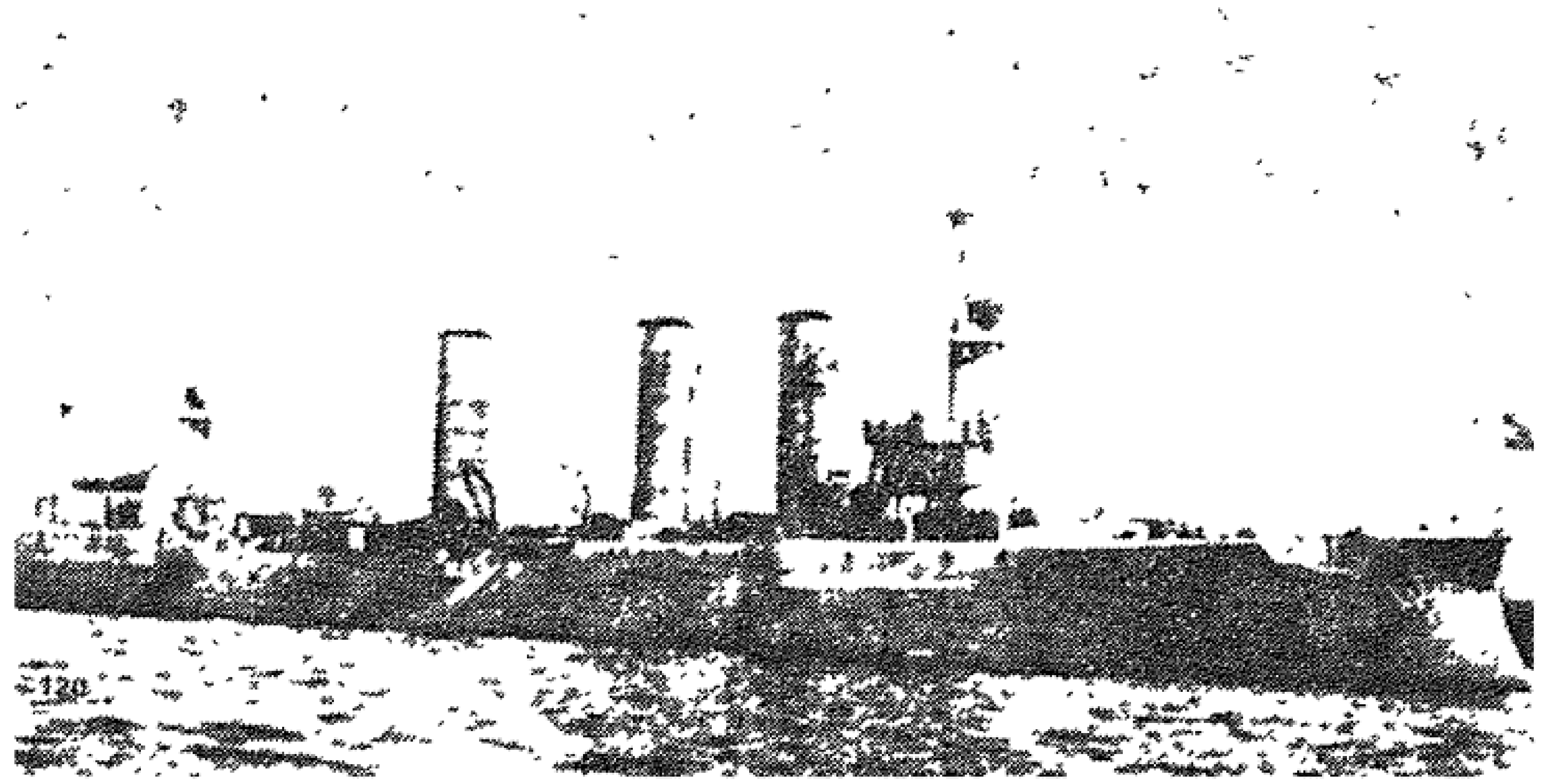

الطرادة الالمانية « نورنبرغ » التي غرقت في معركة فلكلاند بتاريخ ٨ كانون الاول ١٩١٤ وجرت معها الى الهوة ٢٩٠ رجلا من أصل ٢٩٧ الذين كان يضمهم طاقمها

وقد اكتملت قواته برفد الطرادات المدرعة كارنافون ، كورنول ، وكنت وبالطرادتين الخفيفتين غلاسكو (الناجية من معركة كورونل)وبريستول ، وبالسفينة التجارية المسلحة اوراما •

وفي السابع من كانون الاول ، ألقت العمارة مراسيها في قاعدة بورستانلي السرية ، في جزر فلكلاند ، كي تملىء عنابرها بالفحم • وهناك التقت بالسفينة كانوبوس ، التي استقرت في الوحل كي تنجو من الغرق ، وبذلك لعبت دور بطارية دفاع • وفي صبيحة اليوم التالي ، في السابعة والنصف ، أبصر أحد أبراج المراقبة دخان سفن غير معروفة الهوية في الجنوب • وكان هو الاميرال فون سبي • ولما كان هذا يجهل وجود سفن معادية انكليزية ، فقد وصل لتدمير مركز اللاسلكي

وترسانة المحطة ، التي تعرف عليهـا في قائمة عثر عليها فـوق متن سفينة تجـارية ماسورة • وهكذا ألقى بنفسه في شدق الذئب ولكن لم يعرف ذلـك ، فقد كـان السر محفوظاً بأمانة • وقد كانت المفاجأة المتبادلة لدى الخصمين كاملة •

وقد كان تحت قيادة الامـيرال فـون سبي الطرادة المدرعـة شارنهورست وغنيسنو ، وطراداته الخفيفة . وسفينتي تموين وسفينة مستشفى ، هي سيدليتز • ولما أصبحت غنيسنو في الساعة ٩ و ٢٥ دقيقة في متناول مدى الرمي أخذت«أشجار الحور الفضية » تطيف بها في حين كانت الانفجارات القوية مسموعة ، صادرة مـن الخليج • وفتحت كانوبوس نيرانها ، وعوضاً عن أن يقوم فون سبي بالرد المناسب، أبعد سفينتي التموين والسفينة سيدليتز كي يكون مطلق اليدين • وحاول التعرف على قوات الخصم الذي جاء ليلحق به الهزيمـة • وفي هـذه الفترة كان الانكليز يغادرون الخليج لمطاردته• وكان الطقس صحواً والبحر رهواً ، لاتكاد الريح الخفيفة الشمالية الغربية تسبب أكثر من موجات خفيفة للغاية •

وفي الساعة العاشرة والنصف رفع الاميرال ستاردي اشارة « المطاردة العامة » وأعطى لكل قبطان مطلق الصلاحية بالتصرف كما يشاء حسب الظروف • وأخـذت السفن الانكليزية تزيد من سرعتها تدريجياً كي تبلغ السرعة القصوى •

ألف وخمسمائة بحار يلقون حتفهم مع بوارجهم :

ولقـد انطلقت أول قذيفة حـوالي الساعة ١٦ من فوق السفينة آنفلكسيبل باتجاه لايبزيغ ، التي كانت تبعد عنها مسافة ١٤٥٠٠ متراً •

وفي الساعة ١٣ والنصف استشف الاميرال فون سبي التفوق الساحق لاسطول خصمه ، فأصدر ، دون أي خجل ، الامر لطراداته الخفيفة بالتبعثر والهرب،واندفعت كل من كنت وكورنويل وغلاسكو لمطاردتها •

ولما كان فو سبي عاجزاً عن الافلات مع بارجتيه من نوع « دريدنت » فقـد اتخذ كل التدابير لخوض المعركة ، وانحرف عن طريقه كيلا يتضايق رجال مدفعيته

بدخان سفنهم نفسها ، ونشبت المعركة في الساعة ١٣ والنصف • غير أن الاميرال ستاردي الذي كان يتحرز من مهارة الرماة الالمان ، فقد ظل على مسافة ١٢٠٠٠ متراً على الرغم من التصفيح الاكثر سماكة في سفنه •

وفي الساعة ١٣ و ٤٤ دقيقة ، وبعد الصلية الثالثة أصيبت السفينة آنفنسيبل ولكن دون خطورة • وهبطت المسافة الى ١١٠٠٠ متر عندما فتحت المدافع الالمانية من عيار ١٥٠ نيرانها ، فتقهقر ستاردي لمسافة ١٤٥٠٠ متراً مما أدى لتوقف المعركة ما بين الساعة ١٤ و ١٤ وخمسين دقيقة •

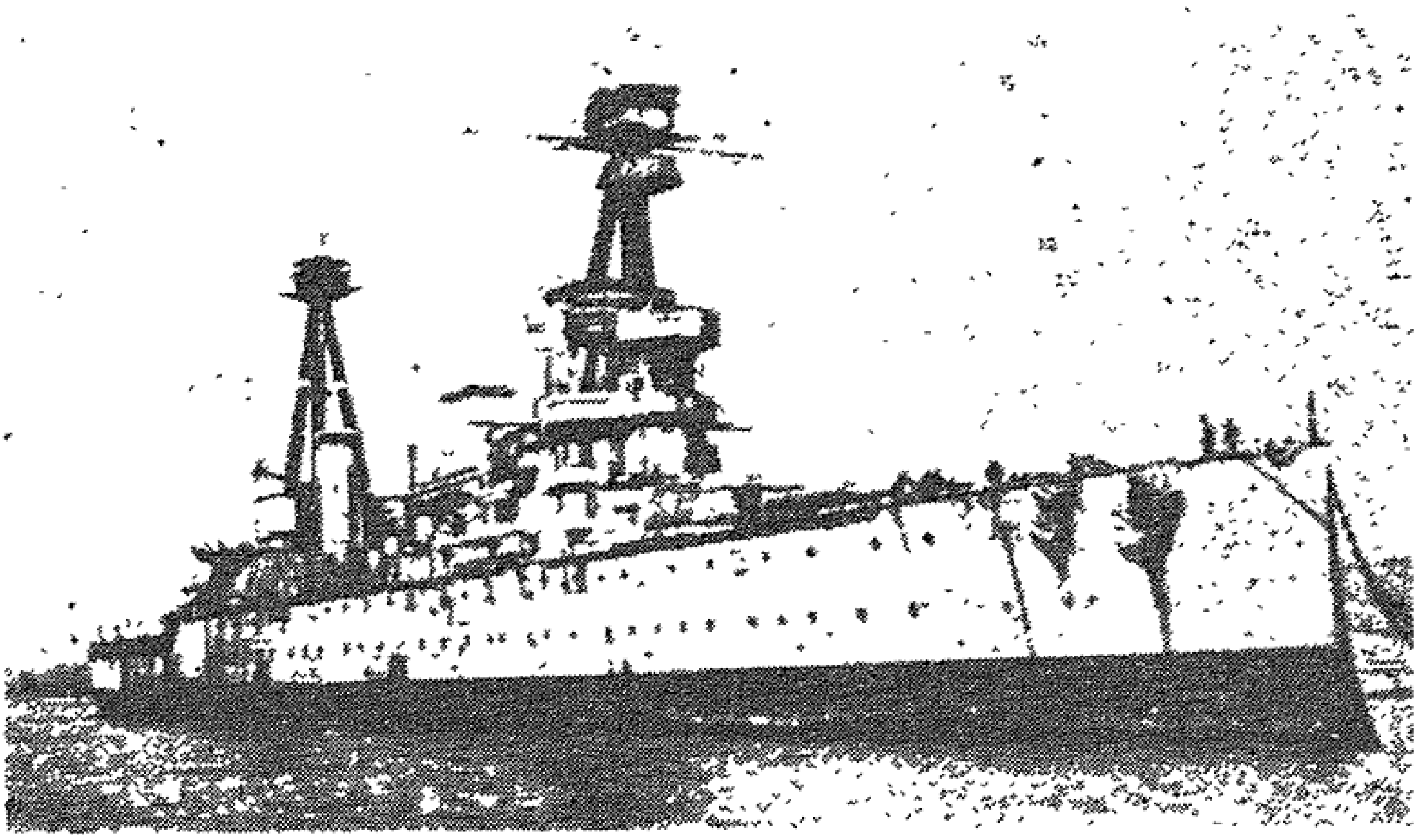

البارجة الانكليزية « آنفلكسيبل » من طراز دردنت المنتصرة في معركة فلكلانـد

وتسخنت المعركة من جديد عندما عادت المسافة الى ١٠٨٠٠ مترا • واستفحلت تخريبات القذائف الانكليزية ، وتكاثرت أعمدة الماء حول المدرعـات الالمانية التي أصيبت مرة بعـد مرة • واشتعلت الحرائق وانهمر المـاء في الثغرات التي فتحتهـا المقذوفات •

وفي الساعة ١٦ وأربع دقائق دخلت شارنهورست مرحلة النزع ، فقد أطيـح بأربع مداخن من مجموع أربعة ، فغاصت من جانبها الايسر ، وكانت ألسنة النيران

تتصاعد من مؤخرتها ، وأطلقت آخر قذيفة من برجها قبـل أن تنقلب مـع رايتهـا الخفاقة في أعـلاها • ومكثت لفترة مـن الوقت مستلقية عـلى خاصرتها ، وكانت مروحتها تدور في الفراغ ، ثـم اختفت في وسط جيشان ضخم ، وهي تجر معها الى الموت ثمانمائة وستين ضابطا وبحاراً ، ولـم يقدر لأي من طاقمها النجاة ، كما لـم تتقدم أية سفينة انكليزية للقيام بعملية الانقاذ •

أما نهاية غينسنو فقد كانت عبارة عـن مجزرة أخرى • ففي الساعة ١٦ و ٤٥ دقيقة توقف جهاز القيادة في أعقـاب اصابته بقذيفة ، وراحت ترسم دوائر حـول نفسها ، مع استمرارها في الرمي تحت وابـل من المقذوفات من كـل العيـارات• وتحولت شيئا فشيئا الى كتلة من حطـام بعد أن مـالت على جانبها بمقـدار سبع درجات • ولم يبق فيها سوى مدفع واحد صالح للرمي وهلك معظم أفراد طاقمهـا بعد مقاومة بطولية • وتجمع الناجون فوق السطح وحثهم القائد مايركر على الهتاف ثلاث مرات بحياة الامبراطور غليوم الثاني ، ثم أصدر أمره بإغراق السفينة بعد فتح مآخذ المياه • والتقط الانكليز مائة وسبعة وعشرين ناجياً مات عدد منهم بعد قليل متأثرين بجراحهم •

وفي هذه البرهة أخذ المطر بالتساقط • ولو كان قبل ذلك بثلاث ساعات لسمح للسفن الالمانية بالاحتجاب بفضل تضاؤل الرؤية • وكان الاميرال فون سبي ، ذاته، في عداد المفقودين مع أحد أولاده وقائدي البارجتين • وفي مقابل سفينتين كبيرتين غارقتين و ١٥٤٠ بحاراً بين قتيل وغريق في المعسكر الالماني ، لم يكن هناك سـوى خمس عشرة اصابة في الهدف ، وقتيل واحد وثلاثة جرحى في المعسكر البريطاني • وقد سجل الانكليز تفوقهم بسرعة حركتهم ، وبتنقلاتهم ، وبمدى ووزن صليـات مدافعهم • وهكذا كانت تحمل كل مـن آنفنسيبل وآنفلكسيبل وكارنافون سوية مقدار ١٤٥٠٠ رطل من القذائف مقابل ٣٩٠٦ رطل بالنسبة للبارجتين شارنهورست وغنيسنو •

وينسب المؤرخون شرف النصر أيضاً الى اللورد فيشر والى ونستون تشرشل

الذين أعدّا هذه المفاجأة الرهيبة التي قادت الى أحد الانتصارات الكاملة النادرة التي كسبتها البحرية الملكية •

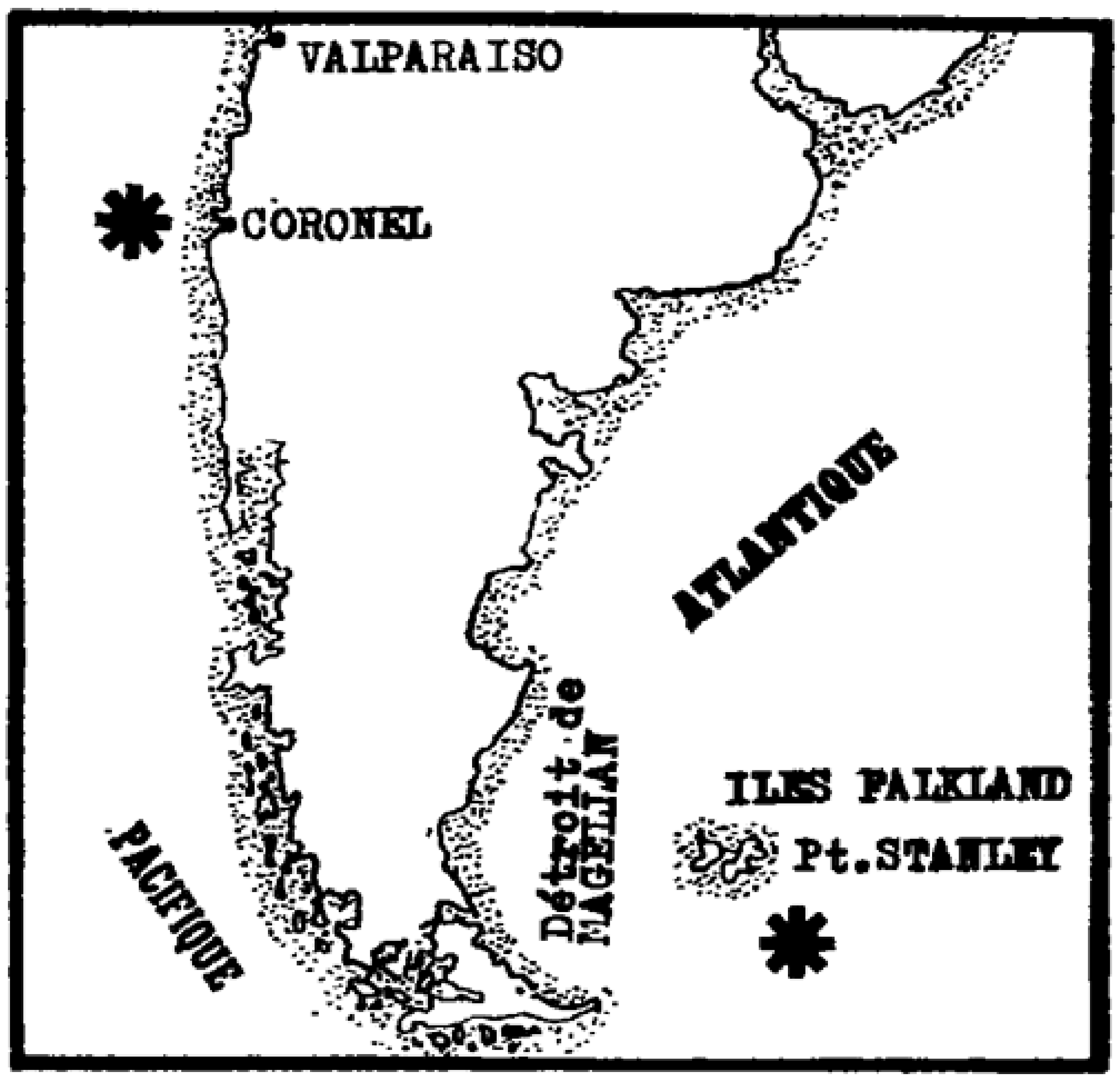

خريطة ساحة معركتي كورونل وفلكلاند

إغراق السفن الهاربة الواحدة بعد الاخرى :

غير أن الطرادات الالمانية الخفيفة ، التي كانت الجنوب من ساحة المعركة ، والتي سبق أن أمرها الاميرال فون سبي بالتبعثر لم تكن أفضل حظاً • ولما كانت غلاسكو هي الاكثر سرعة فقد أخذت على عاتقها مطاردة درسدن التي انطلقت باتجاه جزيرة أرض النار كي تتمون بالفحم بسرعة ٢٢ عقدة ، ولكنها عزفت عن المتابعة ، ورجّحت مهاجمة لايبزيغ التي كانت على مدى أفضل • وفي الساعة ١٤ و ٥٣ دقيقة فتحت نيرانها وردت عليها لايبزيغ التحية بالمثل • وفي الساعة ١٥ و ١٣ دقيقة بدأت السفينة الالمانية تتلقّى الضربات الموجعات بعد أن تحولت الى طريدة واضطرت لتخفيض سرعتها • ووصلت السفينة كورنوال للاشتراك في الغنيمة ، وضمّت صوت مدافعها الى مدافع غلاسكو • وفي الساعة ١٩ لم تعد لايبزيغ أكثر من حطام ينطلق منها الدخان الكثيف مع هيكلها الممزق ، وكانت كل مدافعها غير صالحة للعمل •

في حين كانت الحرائق تلتهمها • وأمر قائدها بفتح مآخذ المياه • وبعد رمي متقطع استمر ست ساعات غرقت ليبزيغ في الساعة ٢١ و ٢٣ دقيقة • وقد قتل مائتان وثمانون رجلا من طاقمها بما في ذلك قبطانها • ولم يعثر الانكليز على أكثر من ثمانية عشر رجلا ، بين ضابط وبحار ، متشبثين بالحطام في مياه مثلجة •

وقامت كنت ، من جهتها ، بالابحار بسرعة ٢٣ عقدة ولحقت بالسفينة نورنبرغ في الساعة ١٧ • وانعطفت السفينة الالمانية بكل جرأة لكي تقاتل الدارعة التي كان وزنها متفوقاً بثلاث مرات • وقامت كنت بالمرابطة على مسافة ٥٤٠٠ متراً وأصلت الطرادة الالمانية الخفيفة بكل صلياتها من مدافعها التسعة من عيار ١٥٠ • وبعد أصيبت نورنبرغ تحت مستوى العوم • غرقت في الساعة ١٩ و ٢٧ دقيقة • ولم يسلم من طاقمها سوى سبعة ناجين من مجموع كان يضم مائتين وتسعين رجلا •

ولحق الانكليز بالناقلتين الالمانيتين اللتين لاذتا بأذيال الفرار منذ البداية، وهما بادن وسانتا ايزابل وأغرقوهما • ولكن ما فعلوه لم يكن هو الأفضل لأن هاتين السفينتين كانتا مشحونتين بالبترول وبالفحم وبالمؤن الثمينة اذ كان من الاكثر فائدة محاولة أسرهما •

ولم ينج من عمارة الاميرال فون سبي ، الى حين ، سوى السفينة المستشفى سيدليتز ودرسدن• فقد كانت الاولىمعزونة تماماً ، وقصدت ميناء حيادياً وعرضت نفسها للاعتقال • أما درسدن فقد استدارت من حول رأس هورن واختفت في الخلجان المنعزلة على ساحل الشيلي حتى ١٤ آذار من عام ١٩١٥ أي الى اليوم الذي تم فيه اكتشاف أمرها في مرسى جوان فرناندز وقامت غلاسكو وكنت باغراقها ، في المياه المحايدة ، وذلك بتجاوز القوانين الدولية التي سبق لها ذاتها أن استخفت بها بالاساءة الى حياد ولا مبالاة حكومة جمهورية الشيلي •

وهكذا كان الثأر البريطاني لإهانة معركة كورونل بحد ذاته تظاهرياً أيضا قدر المستطاع •

* * *

جوتلاند

31 أيار 1916

الاسطول البريطاني الكبير يربح الحرب ... ولكن بصورة طفيفة

بتاريخ ٣١ أيار من عام ١٩١٦ ، وتحت سماء ملبدة بالضباب ، وقعت المجابهة بين أكبر أسطولين على وجه الارض ، خلال ساعات معدودات ، في بحر الشمال ، الى الغرب من شبه جزيرة جوتلند الدانمركية . وللمرة الاولى ، والمرة الوحيدة في تاريخها ، اصطدمت الآرمادا البريطانية المرهوبة « غراند فليت » بمنافستها الفتيّة الألمانية ، والتي لم يكن لها من العمر سوى عشرين عاما ، وهي اسطول « هوشسيفلوت » أي « أسطول أعالي البحار » الذين كانت تبدو تجهيزاته غاية في كمالها مثلما كانت طواقمه أعلى تدريباً ، مثلما كان رماة مدفعيته أكثر مراناً وخبرة. أما بالنسبة للانكليز فلم يسبق لهم أن خاضوا معركة من مثل هذا المستوى منذ أيام اشتباك الطرف الأغر ، ضد اسطول نابوليون الاول ، ذلك أن بحرية صاحبة الجلالة كانت تحيا على تقاليدها القديمة ، المعتمدة على العدد وعلى الشجاعة ، حتى التهور ، ولكن سيظهر عليها أنها كانت عاجزة عن إبادة عدوها هذا مع إحاطتها به وتخريبه بالمدفع وبالطوربيد .

وكان الرأي العام العالمي ينتظر هذه المعركة البحرية منذ قرابة العامين . فكان يتساءل ، حتى مع بعض الوقاحة ، عن الموعد الذي سيقرر فيه هذان الخصمان النزول الى الساحة والى التلاحم بصورة جدية . ولكن الرأي العام المذكور لايخفي إعجابه باصرار البريطانيين ، مع كل برودة أعصابهم ، على البقاء قابعين في قواعدهم ،

بانتظار خروج الالمان ، في حين كان يزدري حذر هؤلاء ، ولكنه كان يتحرق شوقاً كي يصفّق للضربات التي سيكيلها هؤلاء لأولئك ، شأن النظارة في المسرح الذي يضربون الارض بأقدامهم لدى كل ضربة طائشة . فمنذ شهر آب من عام ١٩١٤ كان الجو مشحوناً بالتوقعات ، أي ابتداء من الوقت الذي أقبلت فيه البحرية البريطانية الى مضيق بادوكاليه لدعم الاسطول الفرنسي الصغير ، الذي كان يستعد للتضحية بنفسه للحيلولة دون تقدم العدو لتدمير الموانىء الفرنسية على سواحل بحر المانش والمحيط الاطلنطي دون قصاص ، لان أربعة أخماس العمارات البحرية الفرنسيةكانت مرابطة في البحر الابيض المتوسط . ومنــذ ذلك الوقت ، كان الخصمان الرئيسان يترصدان بعضهما ، ويؤجــلان باستمرار نشوب هــذه المعركة الكبرى التي كان لا محيد عنها ، مع ذلك ، فعلى نتيجتها كان يتوقف رهان النزاع العالمي .

إذن ماذا حدث حتى ذلك الوقت ؟ ففي المقام الاول تمت إبادة العمارة الالمانية التي كان يقودها الاميرال فون سبي والتي سردنا قصتهــا في المقالة السابقة ، ثــم كانت هناك معركة مطاردة انتهت بتلاشي الطرادات الالمانية التي كانت تقوم بمصادرة كل السفن التجارية في كل المحيطات . ثم كان القصف المفاجىء الذي كانت تتعرض له السواحل الانكليزية والتي كانت ترتعد فرائص سكانها هلعــاً ، فكانوا يطالبون بأصوات عالية تدخلا حاسماً ضد هؤلاء « القراصنة » الذين كانوا ينشرون المــوت بين هؤلاء المدنيين الابرياء . بيد أنه لم يظهر على قائد الاسطول الكبير الامــيرال جيلليكو أنه كان يتعجّل الانتقال الى حل المعضلة .

ترى من هو اللورد جيلليكو ؟ لقد كان طبعاً من كبار رجال البحر ، ورجلاً هادئاً ، فاتراً ، يبلغ الخمسين من العمر . وكان يتمتــع بكل ثقة قادة البحرية — أو أمرائها — ، إذ كانوا يقرون كل تصرفاته الحذرة ، وكانت عبارة ونستون تشــرشل على كل الالسنة ، وهو أحدهم ، وهي « أن جيلليكو هو القائد الوحيد الذي قــد يخاطر بخسران الحرب ، خلال ساعات معدودة » والتي لا تعني إطلاقاً أنه رجل غير كفؤ ، ولكنه اذا قامر بالاسطول ، وهو حصن البلاد وحاميهــا ، واذا ما تعرض الى فشل ذريع ، فانه لن يكون بمقدوره تعويض السفن المقاتلة أو طرادات الاشتباك ،

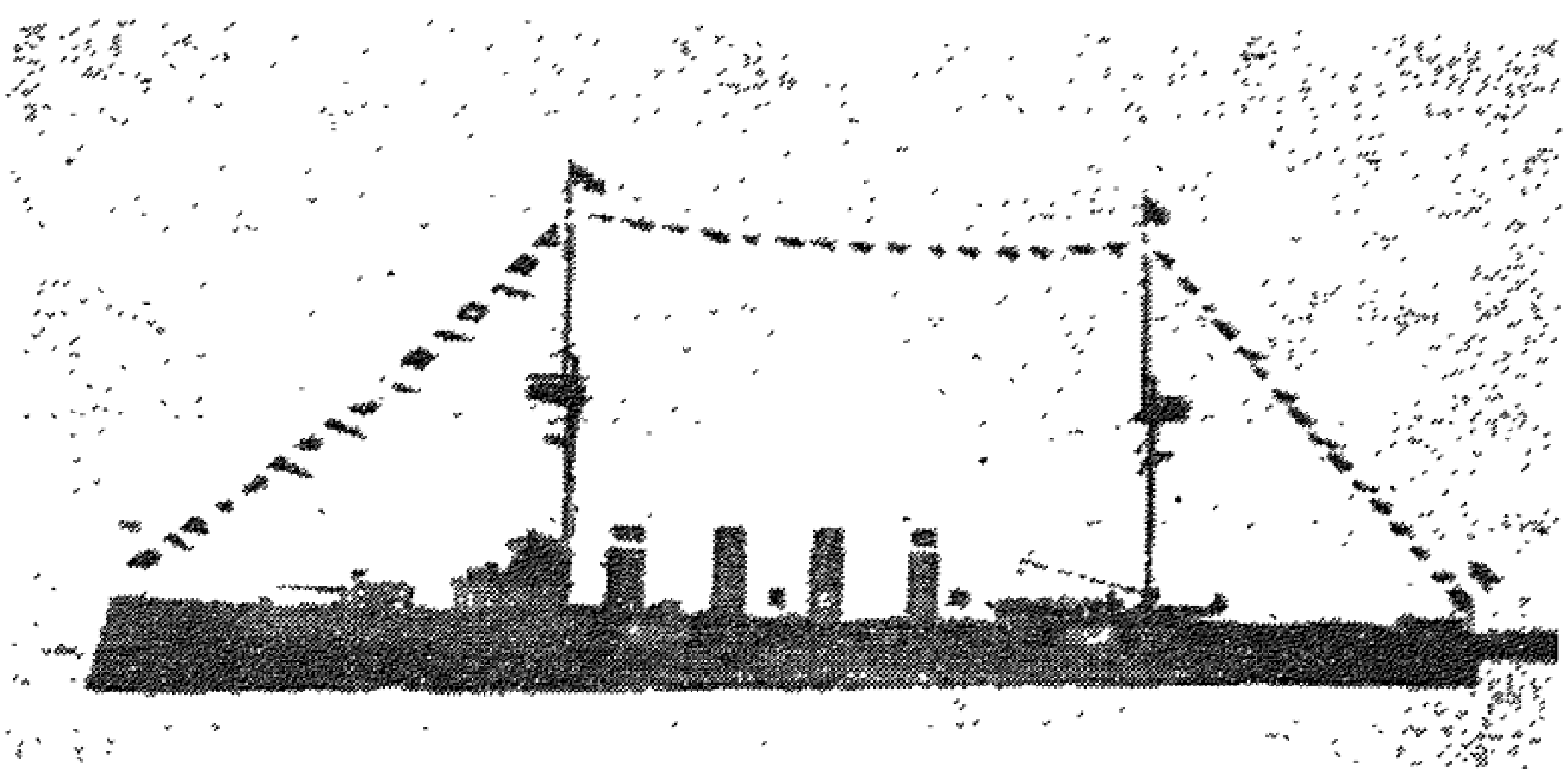

البارجة الانكليزية « بلاك برنس » من حمولة ١٣٣٥٠ طن التي احترقت في وسط الليل عند محاذاتها الاسطول الالماني فانفجرت وغرقت ، وهلك معها ثمانمائة وستة وخمسون بحارا .

ذلك أنه اذا خسر فوج من المشاة نصف عناصره على البر فلا يعني ذلك هزيمة حربية، إذ بالامكان الاعتماد على الاحتياط ••• أما اذا غرقت ثلاث طرادات من الطراز الاول ، فمعنى ذلك وجوب الانتظار مدة بضعة أعوام كي تقوم الترسانات البحرية ببناء مثيلاتها ••••

إذن كان الاميرال جيلليكو يتريث اذ كان ينتظر الفرصة السانحة • وكان « اسطوله الكبير » في ميناء سكابافلو Scapa Flow ، وهو مقام فتان في جزر أوركاد في شمالي الجزر البريطانية ، وكان عبارة عن عمارة منعزلة في خليج فيرث أوف موراي • أما طرادات الاشتباك التي يقودها الاميرال ديفيد بيتي ، فقدكانت ترابط ، الى جانب عمارة من البوارج ، في خليج اوف فورث ، بالشمال • واذا كان جيلليكو حذراً فقد كان بيتي ، على خلافه ، يتصف بشهرة متينة على أنه « مقدام » وسيقدم البرهان على ذلك ، ولكن دون أن ينجو من الخسائر فعلاً •••

وفي المقابل كان هناك اللواء البحري شير الذي تولّى قيادة أسطول « هوشسفلوت » في مطلع عام ١٩١٦ والذي لم يكن لديه أي وهم في أنه « لايعادل

في الوزن » ، ولكنه كان ، مع ذلك ، قادراً على تلقين خصومه درساً . وقد كان الرأي العام الالماني يلتهب حماسة من النجاحات الحقيقية التي أحرزتها جيوشهم على كل الجبهات الارضية ، وقد دفع ثمناً غالياً في سبيل امتلاك بحرية عصرية ، ولكن ليس لكي يراها ماكثة في مرساها في ميناء ويلهلمسافن . وكان الاميرال شير معروفاً بأنه رجل متحمس ، وكان يتعرض بالحاح لمطالبة البرهنة على ذلك ، غير أن الحمولة والتسليح اللتين كانتا تحت تصرفه لم تكونا تسمحان له بالتقدم بحزم لمباشرة المعركة في ميدان مغلق . وقد كانت قواته مرابطة في ميناء كوكسهافن وفي ميناء ويلهلمسهافن، وفي مرسى شيللينغ ، وهي موانىء كانت تتمتع بتغطية جزيرة هيليغولند الحصينة .

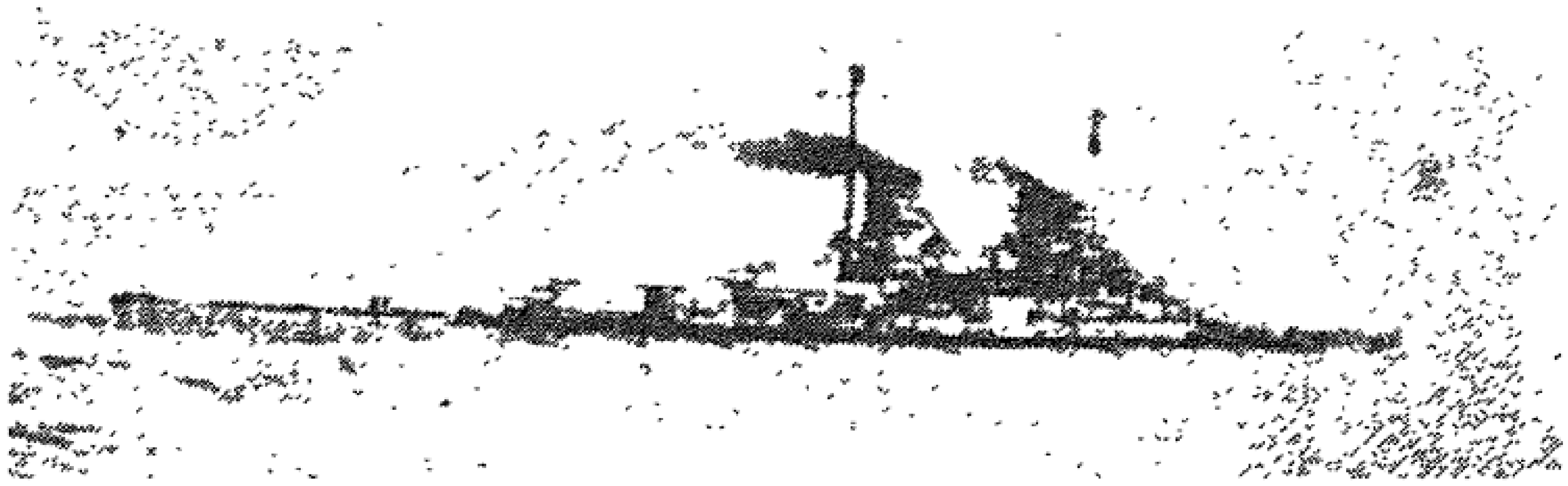

طرادة القتال الالمانية « لونزو » من حمولة ٢٨٠٠٠ طن وقد غرقت وسقط من رجالها ٢٩٦ قتيلا و ١٠٠ جريحا .

ولما كانت هذه القوات جيدة الانضمام فقد كان بمقدورها ، في أي وقت شاءت ، أن تغادر قواعدها كي تنطلق للقيام بعملياتها سواء في اتجاه النرويج أو في اتجاه انكلترا. ومن الأرجح أن أي قائد مقدام كان سيختار الحل الأول . وعلى خلاف ذلك فقد رأينا ان القوات البريطانية كانت مبعثرة ، لان المهمات المناطة بها كانت حماية السواحل المعرضة لتنكيد غارات الطرادات الخفيفة المعادية . واذا كان معظم العمارات ، المؤلفة من البوارج ، باقياً في جزر أوركاد ، فان العمارة القتالية الثانية كانت في ميناء كرومارتي ، والخامسة في ميناء روزيث بقيادة بيتي . وقد احتفظ الاميرال جون جيلليكو تحت يديه بالعمارتين القتاليتين وبثلاثة طرادات مقاتلة تحت إمرة الاميرال هود ، فضلا عن عمارتين من الطرادات المدرّعة ومن عدد كبير ، نوعاً ما ، من الطرادات الخفيفة .

وكان الوقت يمضي ، وها قد أقبل الربيع ، غير أن الطقس كان لايزال غائمـاً والسماء مشحونة بالضباب • وكان يبدو على الهجوم البري الكبـير على الجبهـة الغربية ، على فردون ، أنه يتطور بنجاح • أما على الجبهة الشرقية فقد غادر الروس ميدان المعركة إذ لم يعد لجيوشهم وجود بسبب الثورة البلشفية • وهنا قرر اللواء البحري شير أن يحسم الامر في منتصف شهر أيار • وكانت الخطـة التي هيأهـا بسيطة ، ولكنها كانت تشتمل على احتمالات في الحصول عـلى نتائج محسوسة :

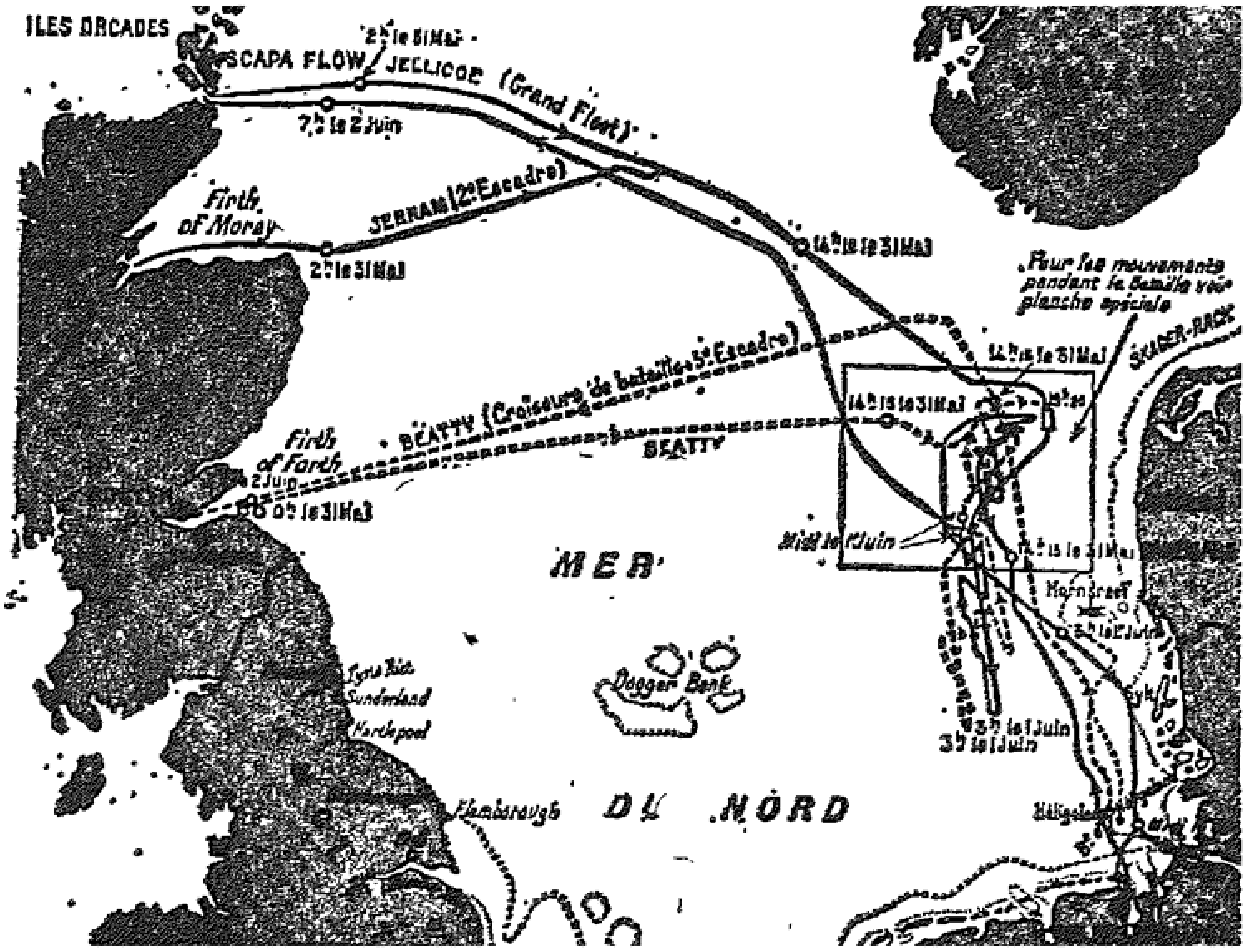

ساحـة معركـة جوتلنـد

وهي التظاهر بالاتجاه نحو النرويج لاجتذاب العدو نحو مضيق سكاجراك ، بـين النرويج والدانمارك • وما أن أنبئت الطرادات الانكليزية بذلك حتى اندفعت لمطاردة أعدائها الالمان الذين تحوّلوا جانبيا لمسايرة الريح ، كي تحثهم على الاقتراب مـن اسطول البوارج حيث لن يكون الاسطول الالماني أكثر من لقمة سائغة بالموازنة مع القوات الانكليزية • ومن ثم وبعد أن يقوم الامـيرال الالماني باغراق بعض هـذه

الوحدات الرائعة التي كانت المملكة المتحدة شديدة الاعتزاز بها ، سينكفىء بنشاط وحيوية نحو قواعده دون انتظار تدخل سفن الاميرال جيلليكو العملاقة التي ستصل، بعد فوات الاوان ، من ميناء سكابا • ولم يكن من المستبعد ، في تصوره ، استئناف الضربة مرتين أو ثلاث وبذلك « يقضم » قوات خصمه الانكليزي على دفعات •

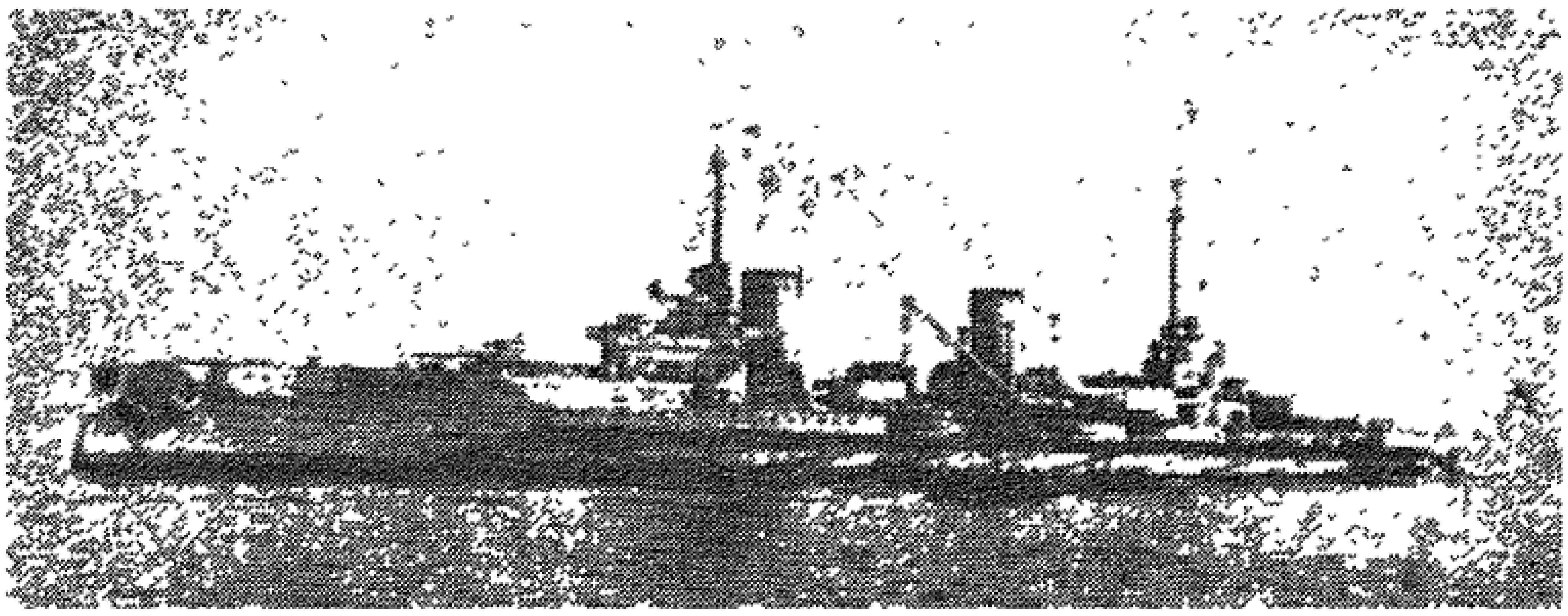

الطرادة الالمانية المقاتلة فون درتان

القوات البريطانيـــة :

لقد كان تحت تصرف الاميرال جيلليكو أربع عمارات قتالية ، أي ٢٨ بارجـــة كان يتراوح وزنها بين ٢٧٥٠٠ و ١٩٠٠٠ طن • وقد كانت هـــذه عبارة عـــن سفن صغرى بالمقارنة مع الوحدات القوية في المحيط الباسفيكي في عام ١٩٤٥ ••• وكانت هذه الوحدات تقطع في الساعة سرعة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ عقدة ، كما كانت مسلّحة بمدافع من عيار ٣٨٠ ، ٣٤٣ ، و ٣٠٥ مم • وكانت تعود السفن الاكثر عمراً لعـــام ١٩٠٩ وأحدثها لعام ١٩١٤ • وقد كانت العمارة الاولى بقيـــادة الاميرال بورني ، وكان يقـــود الثانية الاميرال جر ّام ، والرابعة تحت قيـــادة الامـــيرال ستوردي ، والخامسة بقيادة الاميرال ايفان توماس • وكان يضم المجمـــوع ٢٨ بارجة • وكان الاميرالان بورني وستوردي في مينـــاء سكابا مع البوارج الآتية : آيرون ديوك ، رويـــال آواك ، سوبرب ، كندا ، بينبـــو ، بيللو روفون ، تيمـــيرير ، فانكوارد ، كولـّوسوس ، كولليغوود ، نبتون ، سان فنسان ، مارلبورو ، روفنـــج ، هركـــول وآجينكور • أما الأميرال جر ّام فقد كان في ميناء كرومارتي مع البارجة كينغ جورج

الخامس ، سنتوريون ، ايرين ، آجــاكس ، اوريــون ، مونــارك ، كونكــيرورو و ثوندرور ، هذا في حين كان الاميرال ايفان توماس يلقي مراسيــه في ميناء روزيث مع البارجة برهام ، فاليانت ، ورسبيت ، ومالايا • وكانت هذه البوارج الاربع من فئة حمولة ٢٧٥٠٠ طن وأنزلت للبحر في عام ١٩١٣ • وكانت ترابط في ميناء روزيث أيضاً العمارة الرائعة المؤلفة من طرادات قتالية يقودها الاميرال ديفيد بيتي ، الذي كانت رايته منصوبة على الطراد ليون (٢٨٠٠٠طن) • وكانت هناك قوات الاميرالات

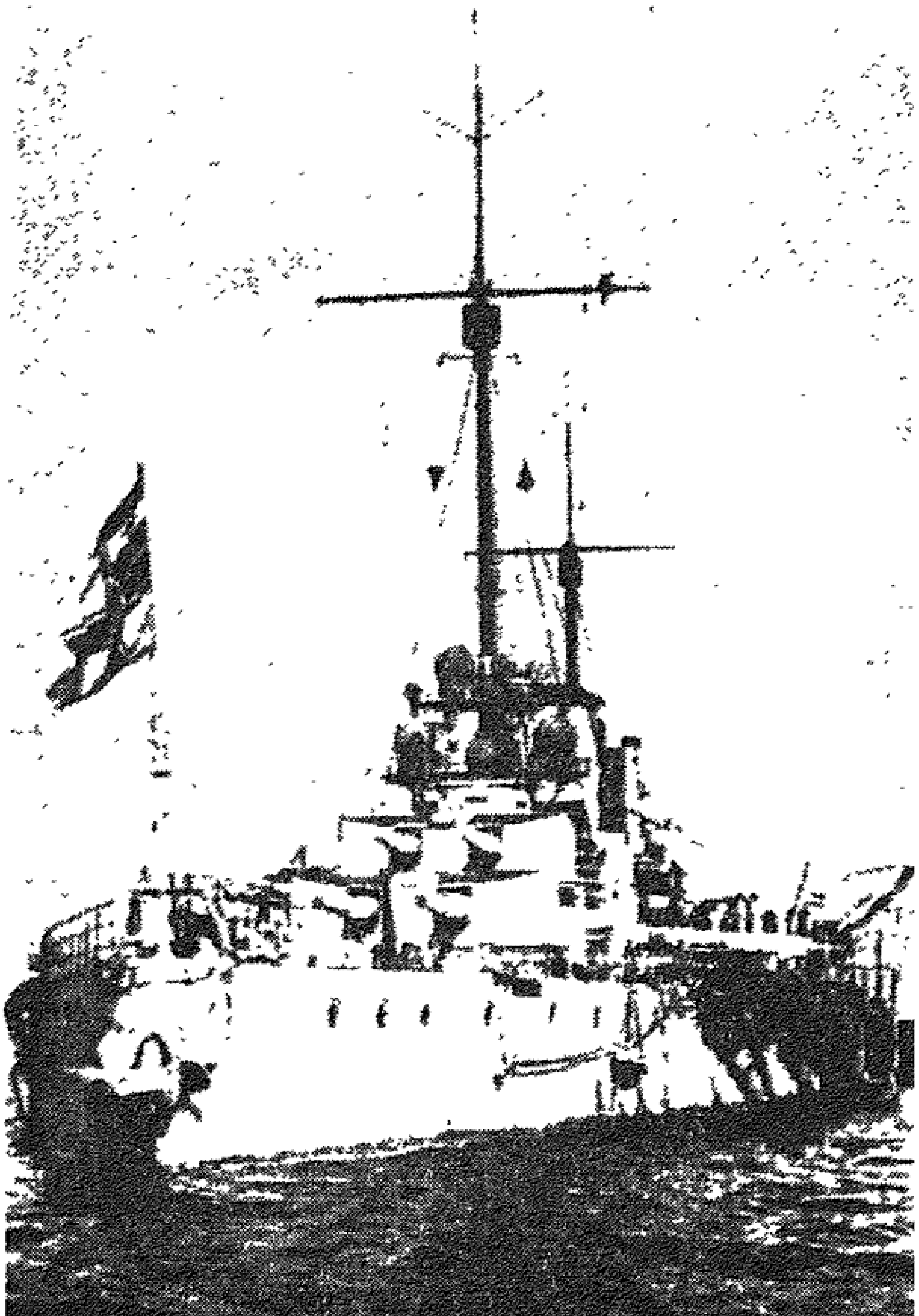

الطرادة القتالية الالمانية « مولتكه »

دوبروك ، باكنهام ، و هــود ، وكانت تتألف من : البرنسيس رويال ، كوين ماري، تايغر ، نيوزيلند ، آنديفا تيغيبل ، آنفنسيبل ، آندومبتابل ، آنفليكسيبل التي تقطع ما بين ٢٥ الى ٢٨ عقدة في الساعة والمسلحة بمدافع من عيار ٣٤٣ و ٣٠٥ ولكنهـا كانت ضعيفة التصفيح • وأخيراً كانت هناك البوارج المدرعة : ديفنس ، واريــور، بلاك برنس ، كوكرين ، شانّون • ويجب أن نضيف الى جانب هذا التعداد الجسيم ١٩ طرادة خفيفة ، و ٧٢ مدمرة ووحدات أخرى أقل أهمية •

الألمـــان :

أما العدو الالماني فقد كان يحشد ثلاث عمارات قتالية مؤلفة من ٢٢ بارجة ، أقل حمولة وتسليحاً بقليل ، تحمل مدافع من عيار ٣٠٥ و ٢٠٨ مم • وكان الاميرال هيبر يضم تحت إمرته خمسة طرادات مقاتلة ، من حمولة ٢٦٠٠٠ طن الى ١٩٠٠٠طن مع تسليح مدافع من عيار ٣٠٥ و ٢٨٠ قادرة على مواجهة سفن الاميرال بيتي ، هذا بالاضافة الى ٦٢ نسافة •

مقدمـات المعركـة :

انطلقت الطرادات الالمانية من قاعدة شيللينغ في الساعة الواحدة صباحاًبتاريخ ٣١ أيار ، وفي الساعة الثالثة أقلعت عمارتان مدرعتان بدورهما • وخرجت عمارةمن نهر الإلب كي تلتحــق بالاسطول على مقربة مــن ساحــل هليغولند بحيث يبلــغ المجموع ١٠٠ سفينة حربية متنوعة •

وسرعان ما علمت الامــبرالية في لندن بالامر ، ذلــك ان محطات الاعتراض اللاسلكية وحاسبات الزوايا استطاعت أن تلتقط وأن تفك رموز الاشارات المعادية التي كان يبثها اللاسلكي الالماني ، لان الانكليز كانوا قد استحوذوا علــى رمــوز الاشارات الرقمية الالمانية ، والتي عثر عليها الروس على متن الطراد ماغدبورغ الذي جنح على سواحل بحر البلطيك ونقلوها الى حليفتهم • إذن سيحدث « أمر ما » لأن الاسطول الالماني قد غادر قواعده ، ولكن ما هو هذا الامر على وجه الدقة؟ وقدعلم

الاميرال جيلليكو بهذا التحرك في ليلة ٣٠ أيار ، أي حتى قبل أن يخرج الالمان الى عرض البحر • وهنا أصدر أمره بالاقــلاع والتمركز في القسم الشــرقي من بحــر الشمال • وفي الساعة ٢١ ونصف أقلعت عمارتا البوارج اللتان يقودهما الامــيرال بورني والاميرال ستوردي ، بالاضافة الى طرادات مقاتلة من ميناء سكابا • وفــي الساعة ٢٢ غادر الاميرال جرّام ميناء كرومارتي بينما كان الأميرالان بيتي وايفــان توماس يخرجان من ميناء روزيث• وفي الاجمال كان هناك ١٢١ سفينة توجّه دفّتها نحو مضيق سكاجراك • وبينما اتجه الاميرالان نحو غرب بانك جوتلند ، كان على العمارات الثلاث المؤلفة من بوارج يقودها الاميرالات بورني ، ستوردي ، وجرّام

الاميرال جون جيلليكو القائد الاعلى للاسطول الاول الانكليزي

أن تتجه سوية انطلاقاً من نقطة واقعة على مسافة ١٠٠ ميل ــ ومن قبيل التذكــير يعادل الميل البحري ١٨٥٢ متراً ــ الى الغرب من ليندسنس ، وهي النهاية الجنوبية لبلاد مملكة النرويج • وأخيراً انضم جرّام للقائد العام جيلليكو في يوم ٣١ أيــار حوالي الساعة ١١ وربع • وهكذا اتخــذ الاسطول الكبير ترتيب الســير ، تحفه النسافات ، وتتقدمه الطرادات الخفيفة والبوارج المدرعة، بسرعة ١٩ عقدة • وكان

الطقس صحواً ، والبحر رهواً ، مع نسيم خفيف مـن الغرب ، ولكن كان الضباب يحجب الافق والرؤية ضعيفة •

وفي خلال هـذا الوقت كان اسطول « هوشسيفلوت » يمر الى الغرب مـن هيليغولند متجهاً نحو الشمال بسرعة ١٦ عقدة • وعلى مسافة ٥٠ ميلا ، في المقدمة، كانت الطرادات القتاليـة والطرادات الخفيفة • وهكذا كان الجميـع ، من انكليز وألمان ، يتجهون نحو مدخـل مضيق سكاجراك • وكانت هناك مفاجأة ، ذلـك أن بارجة الاميرالية فريدريش در غروس تبادلت عنـد إقلاعها رمز النداء مـع محطـة ويلهلمسهافن مما جعل الانكليز يحددون موقعها في القاعدة المذكورة •

ترتيب القطعات في أسطول جوتلند :

آ ــ البريطانيون :

أولا :

الاسطول الكبير : الاميرال سيرجون جيلليكو

١ ــ العمارة القتالية الاولى : ويقودها اللواء البحري السير سيسيل بورني•
الفرقة السادسة : مالبورو ، ريفنج ، هركول ، آزينكور •

الفرقة الخامسة : كولوسّوس ، كوللينغوود ، نبتون ، سان فنسـان ، والطرادة الخفيفة بيللونا •

٢ ــ العمارة القتالية الثانية : ويقودها الاميرال سير جرّام •

الفرقة الاولى : كينغ جورج الخامس ، آجاكس ، سنتوريون ، ايرين •
الفرقة الثانية : اوريون ، مونارك ، كونكـيرور ، ثنديرر ، والطراد الخفيف بواديسيو •

٣ ــ العمارة القتالية الرابعة ويقودها اللواء البحري سير ستوردي •

الفرقة الرابعة : بينبو ، بيلليرفون ، تيميرير ، فانغوارد .

الفرقة الثالثة : آيرون ديوك (السفينة الحاملة لراية جيلليكو) ، رويال آواك ، سوبرب ، كندا ، والطرادات الخفيفة بلانش ، آكتيف ، والمدمرة آواك .

الاميرال فون شير القائد الاعلى الالماني

٤ ـ عمارة الطرادات القتالية وقائدها اللواء البحري سيرهود .

وتضم آنفنسيبيل ، آنفلكسيبيل ، آندومبابل ، والطرادين الخفيفين شستر و كانتربري .

٥ ـ عمارة الطرادات بقيادة اللواء البحري السير آربوثنوت .
وتتألف من ديفانس ، واريور ، دوق اوف اديمبورغ ، بلاك برنس .

٦ ـ عمارة الطرادات الثانية ويقودها اللواء البحري هيث .

وتتشكل من : مينوتور ، كوكرين ، شانّون ، همشاير .

٧ ــ عمارة الطرادات الخفيفة ويقودها الكومودور لوميزوريه •

وتحوي : كالليوب ، كونستانس ، كوموس ، كارولين ، رويااليست •

٨ ــ اسطول النسافات الصغيرة : ويقودها الكومودر هاوكسلي :

وتتشكل من طرادة كاستور الخفيفة ، والأساطيل الصغرى : الرابع والحادي عشر والثاني عشر (٥٠ سفينة) •

ثانيا : قوة الطرادات القتالية : بقيادة الأميرال سير ديفيد بيتي •

العمارة الاولى : ليون ، برنسيس رويال ، كوين ماري ، تايغر •

العمارة الثانية : نيوزيلند (اللواء البحري باكنهام) ، آنديفاتيغيبل •

العمارة الخامسة : بقيادة اللواء البحري ايفان توماس : فاليانت ، وارسبيت ، مالايا •

عمارة الطرادات الخفيفة الأولى : غالاتيئا ، فائيتون ، آنكوستان ، كورديليا •

عمارة الطرادات الخفيفة الثانية : ساوثامبتون ، برمنغهام ، نوتنغهام ، دبلن •

عمارة الطرادات الخفيفة الثالثة : فالماوث ، يارماث ، بركنهيد ، غلوسستر •

سفينة نقل طائرات آنغادين •

اسطول النسافات الصغير : الاسطول الاول والتاسع والعاشر والثالث عشر (٢٧ سفينة) •

ثالثا : الالمان :

اسطول أعالي البحار بقيادة الاميرال فون شير •

العمارة الثالثة : اللواء البحري بهنكه : غروسركورفورست ، ماركغراف ، كرونبرينز •

اللواء البحري نوردمان : برنز لويتبولد، كيرزين، فريدريش درغروس •

العمارة الاولى : اللواء البحري شميدت : ثورنجن ، هيلغولند ، اولندنبورغ، اوستفريسلند •

اللواء البحري انجلهاردت : بوزن ، زايلند ، ناسّو ، وستفالن •

العمارة الثانية (طراز بريد ريدنت)

اللــواء البحري موف : دوتشلند ، بومــيرن ، شليزيان ، شيلزويغ — هولشتاين •

اللواء البحري ليختنفليد : هانوفر ، هسّن •

مجموعة الكشافات الاولى (طرادات قتال)

الاميرال هيبر قائد اسطول الطرادات الالمانية ... وخصمه المباشر الاميرال بيتي (الى اليمين)

اللواء البحري هيبر : لاتزو ، درفلينجــر ، سيدليتز ، موتتكه ، فــون دس شان •

اللواء البحري بوديكر : فرانكفورت ، بيللو ، ايلبينغ ، ويسبادن •

مجموعة الكشافات الثانية •

مجموعة الكشافات الثالثة •

ستين • مونيخ ، فراونلوب ، ستوتغارت ، هامبورغ •

اسطول النسافات الصغير : الطراد الخفيف روستوك ، ريجنسبورغ ، ٦١ سفينة •

الخسائر الانكليزية : كوين ماري ، آنديفاتيغيبل ، آنفنسيبل ، ديفانس ، واريور ، بلاك برنس ، آردانت ، فورتون ، نستور ، نوماد ، شارك ، سباراوهاوك ، تيبيراري ، توربولنت •

الخسائر الالمانية : لوتزو ، بوميرن ، البينغ ، فرادنلوب ، ويسبادن وخمس نسافات •

(عن تاريخ الاساطيل الحربية البريطانية من تأليف الدكتور اوسكارباركز لندن ١٩٥٦) •

الصدام :

نحن في بداية ما بعد الظهيرة • فبعد الساعة ١٤ بقليل أبصرت الطرادتان الانكليزيتان الصغيرتان غالائيتا و فائيتون ، الموجودتان على الجناح الأيمن من مجموعة الكشافات ، أبصرتا في الشرق سفينة شحن متوقفة ••• فاتجهتا نحوها فوجدتا نسافة ألمانية كانت لديها الفكرة ذاتها ، وهي ايلبينغ • وفي الساعة ١٤ ونصف أرسلت اشارة مفادها أن العدو على مرأى منها وفتحت النار عليه • وهنا أطلقت الطرادات الانكليزية لسرعتها العنان وكانت السفن الالمانية هنا ثلاث هي : ايلبينغ ، فرانكفورت ، بيلو • أما السفينة ليون ، التي كانت عليها راية الاميرال بيتي ، فقد أشارت باللاسلكي للسفن التابعة للأميرال بالانطلاق بسرعة ٢٢ عقدة في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي • أما الاميرال ايفان توماس الذي لم يلتقط الاشارة فقد أضاع ثماني دقائق ثمينة وألفى نفسه على مسافة عشرة أميال خلف بيتي •

ومنذ ذلك الحين أخذت الأخبار تتوارد بسرعة • فقد أبصرت السفينة غالاتيئا حوالي الساعة ١٤ ونصف سحبا من الدخان الكثيف ، وهي أدخنة أسطول بلا ريب، وقد كانت بالواقع طرادات الأميرال هيبر المقاتلة • وراح بيتي يحاول قطع الاسطول المعادي عن قواعده • وحوالي الساعة ١٥ و ٢٠ دقيقة شاهد الاميرال هيبر القـوات الانكليزية من فوق جسير سفينته لونزو ، في حين لم يبصر الأميرال بيتي الالمان إلاّ بعد اثنتي عشرة دقيقة بسبب رداءة الرؤية لديه •

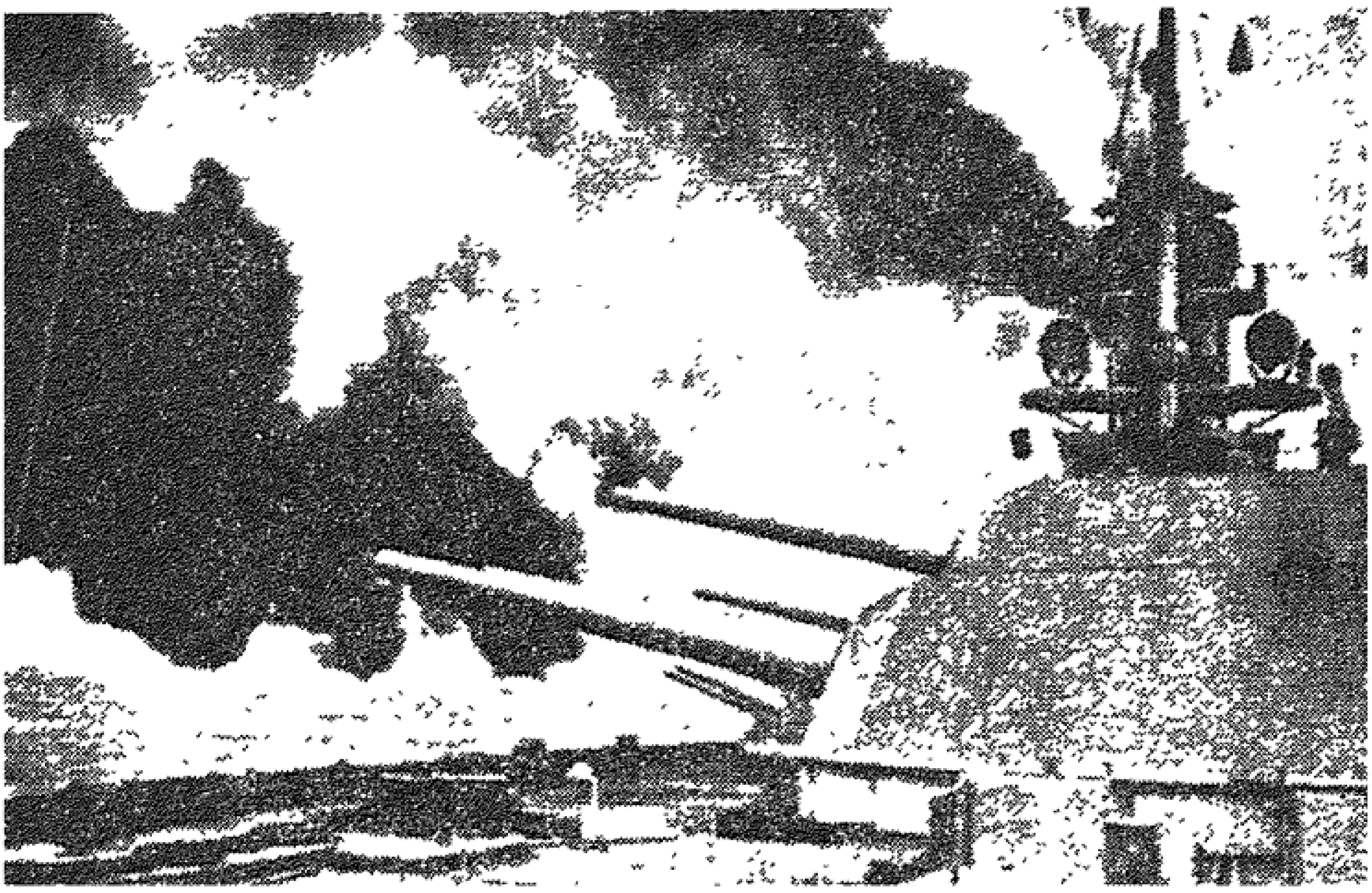

الالمـان يهـاجمـون ...

وعاد الاميرال هيبر أدراجـه كي يلتحق بالاميرال شير وتعقبه الانكليز • وفي الساعة ١٤ و ٤٨ دقيقة على الضبط ، فتح الاميرال هيبر النار على مسافة تنحصر بين ١٤٠٠٠ و ١٥٠٠٠ م • ورد عليه الانكليز بالشيء ذاته على الفور تقريباً •

وهكذا أنشبت المعركة أظفارها •

وقد كان الرمي الألماني في غاية الدقة • وبعد الساعة ١٦ بقليل انفجرت السفينة الانكليزية آنديفاتيغيبل بعد أن انهمرت صلية على برجها قبل برهة وأشعلت النيران في عنابر ذخيرتها ، ولكن المسافة الفاصلة تتجاوز ١٢٠٠٠ م • هذا كما تلفت محطة

اللاسلكي فوق السفينة ليون • وتلقّى اسطـول النسافات الالمانيـة أمراً بالهجوم وأعقب ذلك تلاحم جنوني بين هذه السفن الصغرى المنطلقة بسرعة ٣٠ عقدة والتي كانت تتبادل قذائفها على مسافة ١٠٠٠ م • ووقعت خسائر لدى كلا الجانبين • وراح الالمان يركزون نيرانهم من السفينة درفلينجر ومن فوق سيدليتز على السفينة كوين ماري التي انفجرت وغرقت في الساعة ١٦ و ٢٦ دقيقة • وبعد عدة دقائق أبصـرت الطرادات الخفيفة الانكليزية ، التي كانت تتقدم على السفينة ليون بمسافة ميلين ، أقول أبصرت فجأة الرتل الطويل المؤلف من البوارج الالمانية • وفوجيء الأمـيرال بيتي بالأمر بعد أن عرف ذلك • ولكنه وجد نفسه مضطراً للتقيد بالنظام • وهنـا وعلى مسافة ١٢ ميلاً وجد اسطول أعالي البحار الالماني الذي كان يعتقد أنه لايزال في ميناء ولهلمسهافن • وتقهقر ليطلع الاميرال جيلليكو على الوضع • بيد أن عمارة الاميرال ايفان توماس خاضت المعركة لانها لم تشاهد اشارات تغيير الطريق • وهكذا ضاعت دقائق ثمينة • وفي الساعة ١٦ و ٥٠ دقيقة فقط أخذ يتبع ملتحقاً بالطرادات القتالية التي لاذت بالفرار بأقصى سرعتها • وفي الساعة ١٧ أدركهم الاميرال شـير وصبّ نيران مدافعه على بوارج ايفان توماس التي غرقت • كما أصيبت السفينتان وارسبيت و مالايا بأضرار ولكن دون أن يمنعهما ذلك من متابعة المعركة ، مثلما نال العطب من السفينتين الالمانيتين لوتزو وسيدليتز • وتوقفت النيران مع تزايد المسافة • وفي الساعة ١٧ و ٥٦ دقيقـة تمكنت السفينة ليون أخيراً من الالتحـاق بالاسطول الكبـير •

الاساطيل المدرعـة :

لقد وصل جيلليكو لساحة المعركة قادماً من الشمال الغربي • وفي الساعة ١٤ وثلث بلغت مسامعه أنباء الصدام الاول • ولكن لم يخطر بباله أنه يواجه الاسطول الالماني برمته فاتجه نحو الجنوب الشرقي بسرعة ٢٠ عقدة • وقبل الساعة ١٦ بقليل أُخطِر بالاشتباك الذي خاض غماره الاميرال بيتي ، فأصدر أوامره للاميرال هود بأن يهرع لنجدة الطرادات المقاتلة ، فانطلق هود بسرعة ٢٥ عقدة • وفي الساعة ١٦ و ٣٥ دقيقة فقط عرف جيلليكو بأن اسطول أعالي البحار الالماني في الميدان • وبعـد

عشرين دقيقة بادر الى اطلاع الاميرالية في لندن بأنه مشرف على خوض المعركة • وفي الساعة ١٧ عملت الاميرالية ، التي حصلت للتو على معلومات أكيدة ، على اطلاعه على الموضع الصحيح للاسطول المعادي الذي كان على مسافة بضعة أميال لاغير تقريباً ••• ولكن عن طريق أية معجزة ؟ ذاك هو سر المخابرات العامة ••• وقد استغل جيلليكو طبعاً هذا الاخطار أطيب استغلال »

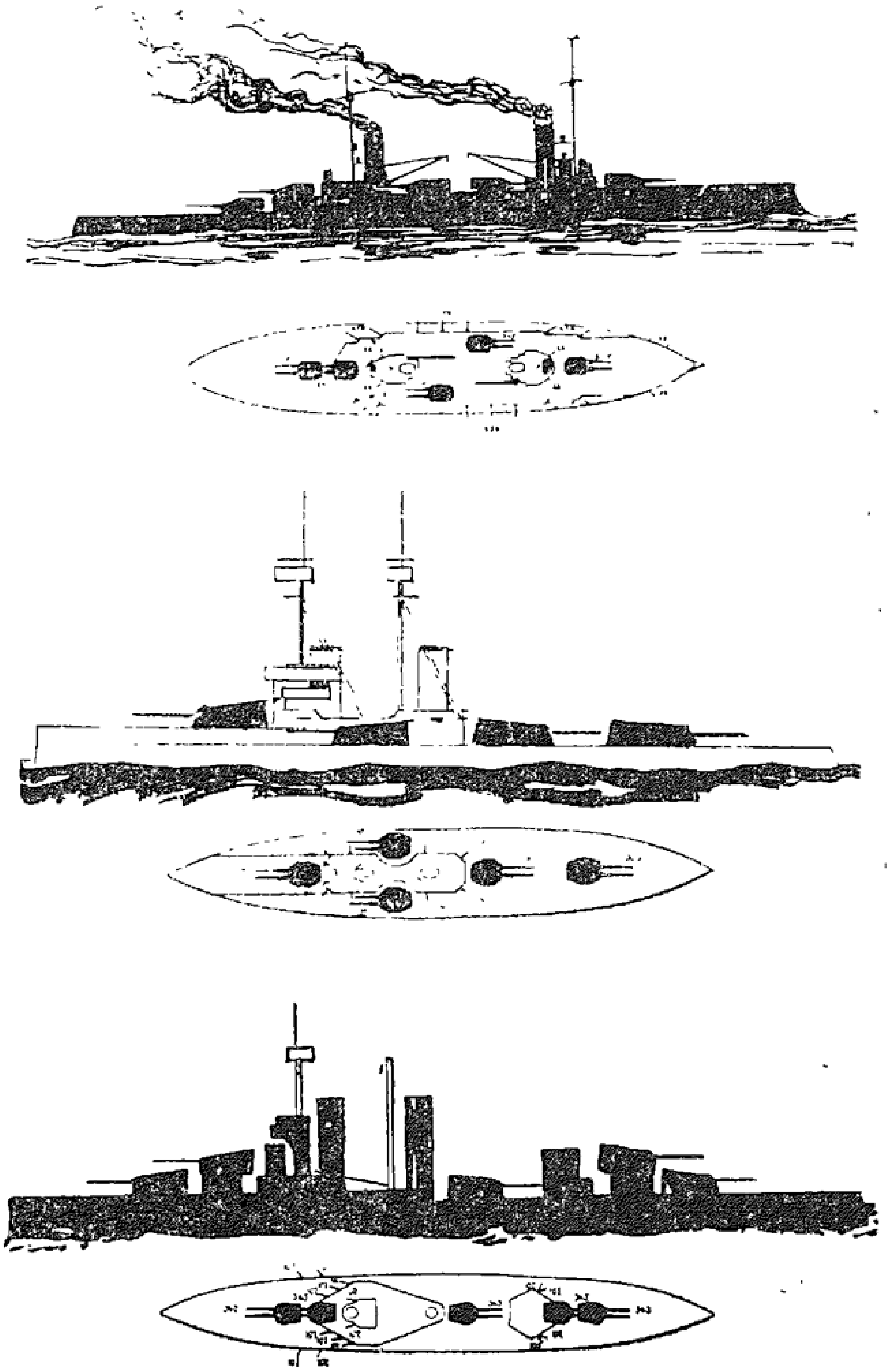

السفن « كايزر » و « بلليروفون » و « كينغ جورج الخامس »

واحتدم سعير المعركة من جديد لان الاميرال هود كان مستمرا في طريقهفأتلف ثلاثة سفن المانيــة هي : ويسبادن ، فرانكفورت و بيلو • وخــلال ذلك رأى هيير اسطول جيلليكو فلجأ الى التقهقر بســرعة ••• وفي الساعة ١٨ اتجه ما تبقّى مــن اسطول الطرادات القتالية التي يقودها بيتي ــ وهي أربع وحدات ــ نحو الشــرق لتسير أمام جبهة البوارج • وسأل جيلليكو بالاشارات بيتي : « أين هــو اسطول القتال المعادي ؟ وكانت الساعة ١٨ • وبعد ست دقائق فقط أرسل بيتي اشارة ناقصة وغير مفهومة ، وهكذا ظل جيلليكو باستمرار دون علم بالتفاصيل ، ولو كان مــن طينة قائد كبير لعرف ذلك بالحدس ، وعلى كل حال فقد كان عليه أن ينشراسطوله، ولكن على رتله الايمن أم على رتله الايسر ؟ وظل يكرر سؤاله على بيتي في الساعة ١٨ و ١٠ دقائق • وقد أجاب الاخير : « رأيت الاسطــول القتالي الالماني من جهــة الجنوب الغربي » • وعندئذ أرسل جيلليكو الاشارات الى الاسطول ، دون تردد ، بالانتشار على الجناح الايسر • وكانت الساعة ١٨ وربع • وأنجز الاسطول الكبير دورته مما استغرق خمساً وعشرين دقيقة ، وكان طول الخط يبلغ ١٢ كم •

وهكذا عادت الطرادات المدرعة للتجمع • وفي أثناء هذا الوقت أفلحت البوارج الالمانية في إغراق ديفانس وألحقت العطب بالسفينة واريور • أما السفينة وارسبيت التابعة لعمارة ايفان توماس فقد أصيبت بأضرار جسيمة واضطرت للعودة الى ميناء روزيث لانها أصبحت عاجزة عن متابعة القتال • كما أبصــرت السفينتان الالمانيتان درفلينجر و لوتزو الطرادة البريطانية آنفنسيبل فأصلتاها ناراً حامية اشعلت النيران في أنبارها مما أدّى لانفجار هذه الطرادة البديعة • وكانت هي السفينة الرابعة التي يغرقها الالمان ، وكان ذلك في الساعة ١٨ و ٣٣ دقيقة •

وفي أثناء ذلك تم انتشار الاسطول البريطاني الكبير وكانت تشكيلة جيلليكو غاية في الإحكام • ولما كانت هذه على شكل زاوية قائمة فقد كان خطها يتوج رأس الاسطول الالماني وراح يقطع عليه T • ماذا تعني هذه العبارة ؟ لما كانت مدفعية السفن موزعة في المقدمة وفي المؤخرة فان قدرة الرمي تكون أكبر اذا كانت من جانب السفينة • ولكي يستغل هذه القدرة على الوجه الاكمل ، فان من الــلازم تشكيل

عمارة على هيئة رتل خطّي والتصدي للعدو من الجانب ، فاذا كانت هذه العمارة في المقدمة ومتعامدة مع خط الرتل المعادي الذي كانت تحجب سفنه بعضها البعض ، فإنها ، أي العمارة ، ستتمتع بتفوق ناري ساحق ، وهكذا « حجز T » .

ولما كان الاميرال شير متجهاً نحو الشمال الشرقي فقد سقط أمام البوارج الانكليزية التي كان يجهل وجودها بسبب رداءة الرؤية ، وفي الساعة ١٨ ونصف فتحت عمارة الاميرال جرّام النار على طليعة البوارج الالمانية ، وبالخصوص على كونيغ ،

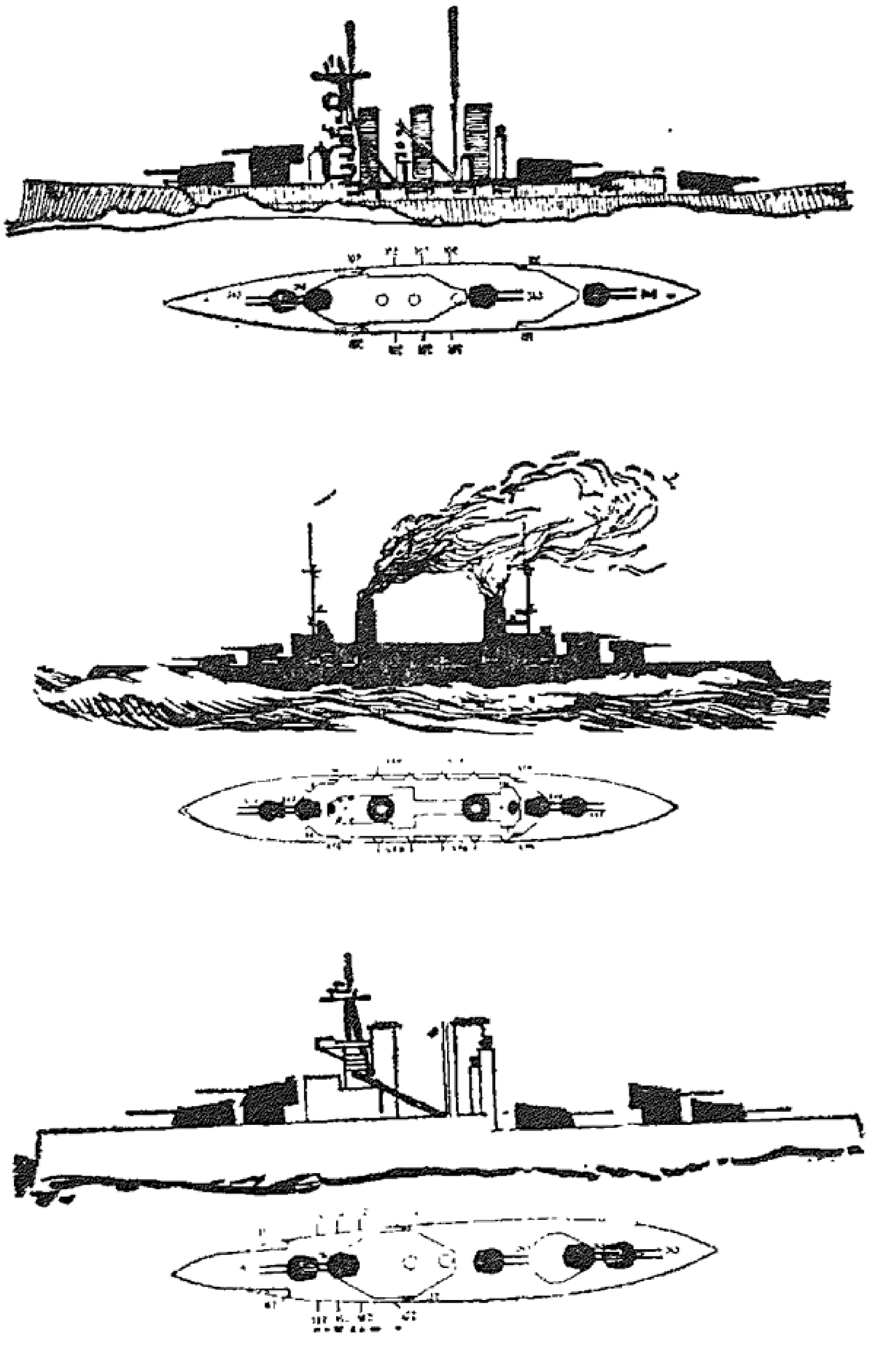

السفن « تايغر » و « درفلونجر » و « ايرم ديوك »

وهي سفينة الارشاد في اسطول أعالي البحار الالماني • وسرعان ما أصبح في وضع لا يمكن الدفاع عنه • وهنا أصدر شير أوامره بتشكيل « رأس على ذنب » من على يمينه وتمت الاستدارة بصورة تدعو للاعجاب ، وبذلك اختفى الاسطول الالماني عن الانظار • ولم يعرف جيلليكو الاتجاه الذي انسحب نحوه الخصم ، والذي لم تلحق به أية خسارة ، في الوقت ذاته •••

وحسب الاميرال شير أنه لايزال أمامه قرابة ساعتين من النهار المنير ، فقرر العودة في اتجاه الشرق كي يكيل ضربة جديدة للانكليز • ولكن كيف ستتاح له فرصة العودة الى قواعده ؟ لا أهمية لذلك ، ففي الساعة ١٨ و ٥٥ دقيقة حقق عملية « رأس على ذنب » للمرة الثانية ، وفي الساعة ١٩ و ١٠ دقائق وجد نفسه ، مرة أخرى ، تحت نيران البوارج الانكليزية • وهكذا ألقى نفسه في عش زنابير جهنمي• ولكي يفلت منه أصدر أمراً لطرادته القتالية بالاندفاع قدماً للنهاية • وهكذا أصيبت السفينة لوتزو بأضرار خطيرة وأخذت الطرادة درفلينجر على عاتقها خوض المعركة وأفلحت في الانسحاب من تحت النيران المعادية ، وكانت معجزة أخرى • ومن ثم أخذت النسافات الالمانية دورها في الهجوم • وحققت بوارج الاميرال شير عملية « رأس على ذنب » ثالثة مع انضباط رائع • وفي الساعة ١٩ ونصف اتجه الانكليز نحو الجنوب الشرقي في حين سار الالمان غرباً • وهكذا اختفى الخصمان عن أبصار بعضهما البعض ضمن سحب الضباب والدخان • وقد نجح الاميرال شير في التملص بفضل هجوم نسافاته مما قسر جيلليكو على التواري •

وأرخى الليل سدوله • وانتهت المعركة باستثناء بعض الاشتباكات المبعثرة تحت جنح الظلام • وبعد منتصف الليل بقليل ، ودون أن يساور أي انسان ريب ، سواء في هذا المعسكر أو في ذاك ، تقاطع الاسطول الالماني مع مسار الاسطول الانكليزي مع فارق زمني لايتجاوز العشر دقائق • وفي الساعة الثانية صباحا ، من اليوم الاول من شهر حزيران ، اتجه الاميرال جيلليكو شمالا في حين كان الاميرال شير يرتد الى قواعده •

وأصدر الالمان بلاغـات النصر التي أسهبت في سرد الخسائر البريطانية الثقيلة في حين أغفلوا ذكر ما نالهم من خسائر وقعت في صفوفهم • ولـم يكن في مقـدور الأميرال البريطاني ، حتى الاول من حزيران ، أن يرسـل أكثر من أخبار شديـدة الاقتضاب • أما الاميرالية البريطانية فقـد اعتصمت بالصمت كي تصدر فيما بعـد بضع نشرات تفتقر للفطنة • وقـد أصاب العالم نوع من ذهول : هل نجا الاسطول الألماني من الدمار ؟ وهل نجح في إغراق بضع وحـدات انكليزية بديعـة ؟ وراحت صحافة لندن تهاجم جيلليكو وكالت المديح لبسالة بيتي الجنونية •

وكان من الواجب التريث والانتظار حتى نهاية الشهر كي يمكن معرفة الواقع بصورة تقريبية من هذا الجانب أو من الآخر • وفي النهـاية قرر الالمـان الاعتراف بخسائرهم • ودبّج الاميرالات البريطانيون تقاريرهـم والتي كانت طافحة بعبارات الثناء على الاسطول الكبير الذي كانت رمايته أدنى بكثير من مستوى رمي خصومه• وأخيرا جاء ذكر تهورات الاميرال بيتي الذي فوّت فعلا على اسطول بريطانيا فرصة النصر الساحق .• ولكن لم يلحق أي أذى بمكانته إذ حـلّ مكان الاميرال جيلليكو على رأس الاسطول البريطاني ، فقد كان الاميرال بيتي يتمتع برعاية كبيرة من جانب وزير البحرية ونستون تشرشل الذي رأى فيـه نلسون جديداً • ومن المعروف أن أخطاء ونستون تشرشل لم يرد عنها تعداد في نهاية أيام حياته •

★ ★ ★

مأساة المرسى الكبير

٣ تمـوز ١٩٤٠

معركـة بحريـة وحيـدة الجـانب

في الثالث من تموز ١٩٤٠ ، وبعد مضي أحد عشر يوماً على استسلام فرنسا وعقدها الهدنة مع المانيا النازية ، ظهر اسطول بريطاني ، يقوده السير جيمس سومرفيل ، أمام قاعدة المرسى الكبير البحرية ، قرب وهران في الغرب الجزائري • وكان اسطول المحيط الأطلنطي ، الفرنسي ، الذي يقوده الاميرال مارسيل جنسول، راسياً في الميناء ، بعد أن جرى تجريده جزئياً من السلاح • وقد وجّه اليه سومرفيل إنذاراً ، حمله الكومودر هولند الذي يعتبر صديقاً لفرنسا ، وربما وقع اختياره لهذا السبب ، انذاراً جرى تدبيجه في لندن بأمر من رئيس الوزراء ونستون تشرشل ينص على ما يلي : أمام الاسطول الفرنسي الخيار بين الإقلاع الى ميناء بريطاني والاشتراك في الحرب الى جانب البريطانيين ، أو الابحار باتجاه جزر المارتينيك في أمريكا الوسطى تحت حراسة انكليزية كي ينتزع سلاحه • وقد رفض الاميرال جنسول هذا الانذار المهين ولكنه لجأ الى إطالة أمد المفاوضات •

مـن هـو المسؤول ؟

لقد شرع سومرڤيل يطلق نيرانه فجنحت البارجة بريتانيا ، وأصبحت البارجة بروفانس تالفة ، ومالت طرادة المعركة دنكرك على حافة الساحل ، هذا في حين أفلحت الطرادة ستراسبورغ الشقيقة الصغرى لدنكرك، أن تقلع وأن تصل الى ميناء طولون الحربي • وقد هلك في هذه العملية ألف وثلاثمائة من رجال البحرية الفرنسية • وقد

أثار هذا الهجوم على البريطانيين شطراً عظيماً من الرأي العام في فرنسا ، ذلك البلد الذي كان لايزال يعاني من صدمة الهزيمة ، وفي بقية عناصر البحرية الفرنسية التي كانت ، بصورة تقليدية ، العدوة المنافسة للبحرية الملكية البريطانية . وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٢ أغرق الاسطول الفرنسي نفسه كيلا يسقط بأيدي الألمان ...

وقد أسدل ستار النسيان أذياله على كل ذلك، سواء بين الفرنسيين أو الانكليز. فقد تناسى الفرنسيون هـذه المأساة لان الانكليز قد عادوا أصدقاء وحلفاء ، وكان من الأيسر أن تلصق على هذه القضية عبـارة دارلان أو عبارة فيشي ، كما تناسى الانكليز ذلك لانهم لا يستطيعون إدعاء شرف هذه المأساة التي أطلقت عليها جزيرة التايمس في الخامس من تموز ١٩٤٠ عبارة « النصر السوداوي الحزين » .

وقد قام الكاتب العسكري جول روا في كتابه المعنون « قضية شرف ، المرسى الكبير ، ٣ تموز ١٩٤٠ » الذي صدر عام ١٩٨٣ بنبش هـذه القضية العتيقة بكل ضراوة وعصبية جنونية ، فهو لم يعمد الى معرفة واستجلاء فحسب بل الى التعرف على المسؤول ؟ هل هو الاميرال جنسول ؟ الاميرال دارلان ؟ ونستون تشرشـل ؟ سومرفيل ؟ . وقد قابل عدداً من الناجين من هذه الملحمة الوحيدة الجانب ، في حين رفض آخرون استقباله . فقد كان هناك تداخل لكثير من العواطف ، ومن المبادىء، ومن نوبات وخز الضمير ، فاختلق قضية « دعوى » أمام المحكمة العليا . فاستدعى رئيس قضاة ، ومحلّفين ، ومحامين وشهود محاولا أستشفاف معالم هذه القضية . وكان المتهم غائباً ، وهو الاميرال مارسيل جنسول ، الذي توفي بسلام في ١٩٧٣، عن عمر ناهز ثلاثاً وثمانين عاماً ، والذي وضعت عمرته ذات النجـوم ، بشكل رمزي ، فوق أريكة المتهم .

وقد سجل وقائع الجلسة ، ومرافعات الخطبـاء ، الذين أنحـوا باللائمة على الدفاع ، والانفعالات الصامتة ، والمداخلات الحامية من جانب الخوري اوتريك الذي كان ضابطا سابقاً على متن الطرادة دنكرك ، والذي يعمل مديرا لملجأ متسولين فـي مدينة طولون . ترى ما هو السبب الذي منـع جنسول من نقل نص الانذار الـى

الاميرال دارلان القائد العام للاسطول ووزير البحرية ولا سيما اقتراح الابحار الى جزر المارتينيك الفرنسية ؟ فقد كان دارلان الشخصية الاولى : فهـو الذي أوجـد الاسطول الحربي الفرنسي وكان يعتبر نفسه المالك لهذا الاسطول • فهو لم ينكسر حربياً ، وكان ذلك ورقة رابحة لفرنسا وله ذاته • فبعد حادثة مرسى الكبير انتقـل دارلان من وضع « المقاومة » الى شبه متعاون وكخليفة للماريشال بيتان •

ولكن لم يكن قائد البحرية الفرنسية في نهاية خط الهاتف في صبيحة الثالثمن تموز • فقد كان شريط الهاتف واهياً للغاية : ذلك أن الاميرالية الفرنسية اتخـذت لنفسها مقراً في بلدة نيراك (محافظة لوت و غارون) والى جانبها سيارة متوسطـة الحجم تضم أجهزة الاتصال اللاسلكي ، وكان دارلان متجهاً في طريقه نحو العاصمة الموقتة كليرمون فير ّان • وقد تدخل ، بعد فوات الاوان ، وكان على غير اطلاع تام بتفاصيل الحادث ، ولم يكن تدخّله في محله •

ولماذا كانت السفن الفرنسية مربوطة بالساحل بصورة جعلت مدافعها عـاجزة عن الاطلاق فعلا إلا ّ باتجاه البر ؟ ويكرر الخوري اوتريك ، بلا ملل ، قوله : لمـاذا لم يحسن قائد الطرادة دنكرك تجهيز وسائل الاقلاع وحبال المراكب (كابلات) ؟

ولماذا كان سومرفيل ، الذي عاد الى بلاده جذلان فرحاً بصحبة عصفوره ، من نوع كناري ، وصورة زوجته ، وقد غمره الكرب والبؤس بعد عودته ؟ لأنه اعتقـد أن الفرنسيين سيخضعون لمشيئته على خلاف ما كان يعتقد الامـيرال نورث الذي فقد مكانته وجرى عزله بعد قليل •

هيجـان الضمير الوطني :

لقد عالجت المحكمة التي اتخذت لها مقراً في مخيّلة جول روا كل تفاصيل هذه المشكلات ، ولكن ربما دون الإلحاح بما يكفي على الوضـع المأسوي لبريطانيـا العظمى ، تلك الجزيرة المحاصرة والذي قد يصبح مصيرها في كفة القدر اذا انحـاز رابع اسطول عالمي الى المعسكر الالماني • وقد أقسم دارلان على ألا يترك الاسطول

ليسقط في يد هتلر • ولكن دارلان قد يتلاشى ، وقد يستعاض عنه بآخر ••• كما سبق لجدّه أن اشترك في معركة الطرف الأغر •

ولكن كل ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً الى جانب المشكلة الكبرى : أين كان الشرف ؟ هل في هذا الاميرال جنسول الذي كان كقطعة رخام ، والذي استسلم للنوم في مساء المأساة ، والذي لم يعتقد أن الانكليز سيطلقون النار على سفنه ، والذي كان يماطل ، ويحاول تحاشي أية عمل مثير ، وبذلك حرم نفسه من القدرة على الإقلاع ، وعلى المقاومة ، وربما أنقذ بعدم مباشرته المعركة حياة آخرين ؟ لقد كان جنسول سيء الحظ ، فقد وضعه درالان في هذا المنصب لانه كان من أخلص رجاله، ولم يستقبله إطلاقا بعد حادثة المرسى الكبير ، ووضعه جانباً •••

هل كان الشرف في منازلة حلفاء الأمس واكتساحهم ، دون الاهتمام بالنتائج، والعودة الى قاعدة طولون ؟ ألا يكون للشرف في مثل هذه الحالة علاقة بالسياسة ومع الاستمرار في الحرب ؟ ولكن الشرف لم يكن في نظر جول روا يعني انحيازاً الى جانب الجنرال ديغول •

ولما كان جول روا هو الشخصية الرئيسية ، فقد رتب أمر هذه « القضية » كي يستجلي الامر واضحاً من خلالها • ولم يتمكن من أن يخلص الى هذا «الهيجان في الضمير الوطني » كما يدعوه ، في اسلوبه ، الدفاع ، وهو الطالب الكهنوتي الذي أصبح عميداً في السلاح الجوي والذي اعتزل « جيش النابالم والتعذيب » في الهند الصينية • ويقيم جول روا في فينيي (Figny) ، غير بعيد عن باريس • وقد كتب تحت عنوان « الالتزام والعظمة العسكرية » : « الشرف هو الضمير ، ولكنه الضمير المتحمّس ، والذي يحمل الرجل تارة على ألاّ يعيش بعد الإهانة ، وتارة يدعمه ببريق وعظمة يصلحانه ويمسحا عنه الدنس » •

وقد برأت الحملة ساحة عمرة مرسيل جنسول ، ما العمل سوى ذلك ؟ هل نلقي عليه اللوم لأنه كان على سوية تقل قليلا عن سوية أبطال الاسطورة ؟

وفي ٢٦ نيسان ١٩٦٤ نقلت سفينــة حراسة في الاسطــول الفرنسي تابــوت فرانسوا دارلان من مدينة الجزائر الى المرسى الكبير ، اذ سبق أن سقط قتيلا ، مع أكداس أسراره ، بتاريخ ٢٤ كانون الاول ١٩٤٢ ، في العاصمة الجزائرية بعد اطلاق عدة رصاصات عليه من شاب عادي ، ولكنه شاب كان يؤمن بالشرف •

جــان بلانشيه

* * *

ماتاپان

٢٨ آذار ١٩٤١

اخراج الاسطول الايطالي من الساحة نهائيـا

لم تكن البحرية الايطالية ، في مطلع عام ١٩٤١ ، تدلّل أو تتكشف عن نفسية قتالية كبيرة بعد أن تلقت ضربة قاصمة في ميناء تارنت بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٤٠ حيث تعرضت لهجوم الطائرات القاذفـة والنسافة من فوق حاملـة الطائرات ايللو ستريوس • وقد تعرضت البوارج الثـلاث ليتوريو ، كافـور ، ودويلو لضربات قاصمات • أما البوارج الثلاث الاخرى فقد قذفتها في ميناء نابولي طائرات قادمـة من جزيرة مالطة • إذن كانت كل السفن الحربية في موانىء البحر الابيض المتوسط • غير أنه لما كانت العمليات البرية منتشرة في كل مكان تقريباً في الحـوض الشرقي ، سواء في اليونان أو في ليبيـا ، ولما كانت الامدادات الموجهة للجيوش البريطانيـة تجتاز البحر على شكل قوافل ، فقد طالبت أركان الحرب الايطالية البحرية الايطالية بالتدخل • وقد كان الاسطول الايطالي تحت قيـادة الامـيرال ياشينو الذي تـم استدعاؤه الى روما بتاريخ ١٥ آذار حيث أعلمه رئيس أركان حرب البحرية ورئيسها المعاون ــ وهما الاميرالان ريكاردي وكامبيوني ــ بأنه نظراً للضغط الذي يمارسه الالمان على الحكومة الايطالية ، فان من اللائق المبادرة للقيام بعملية ما ، وعلى الاقل تنفيذ غارة ترمي لشل حركة النقل الانكليزية نحو مصر واليونان ، والتي ستترجـم على شكل سهمين هجوميين في شمالي جزيرة كريت وفي جنوبها •

ولم تكن البحرية الايطالية تملك حاملات طائرات •

وتم تمركز القوات البحرية في ميناء سينا ، في شمال جزيرة صقلية ، بتاريخ ٢٧ آذار . ونصب الاميرال ياشينو رايته على السفينة فيتوريو فينيتو ، وهي أقدر البوارج الايطالية . وكان تحت تصرفه القطعات التالية :

ـ فرقة النسّافات الثالثة عشرة التي كانت سفنها تتمتع بمدى عمل مرتفع .

ـ فرقة الطرادات الثالثة بقيادة اللواء البحري سانسونتي وتضم : تريستا ، تزانتو ، بولزانو .

ـ فرقة الطرادات الاولى ويقودها اللـواء البحري كاتانيئو وتشتمل عـلى : زارا ، بـولا ، فيـوم .

ـ فرقة الطرادات الثامنة تحت إمـرة اللـواء البحري لغنـاني : ابروزي ، غاريبالدي .

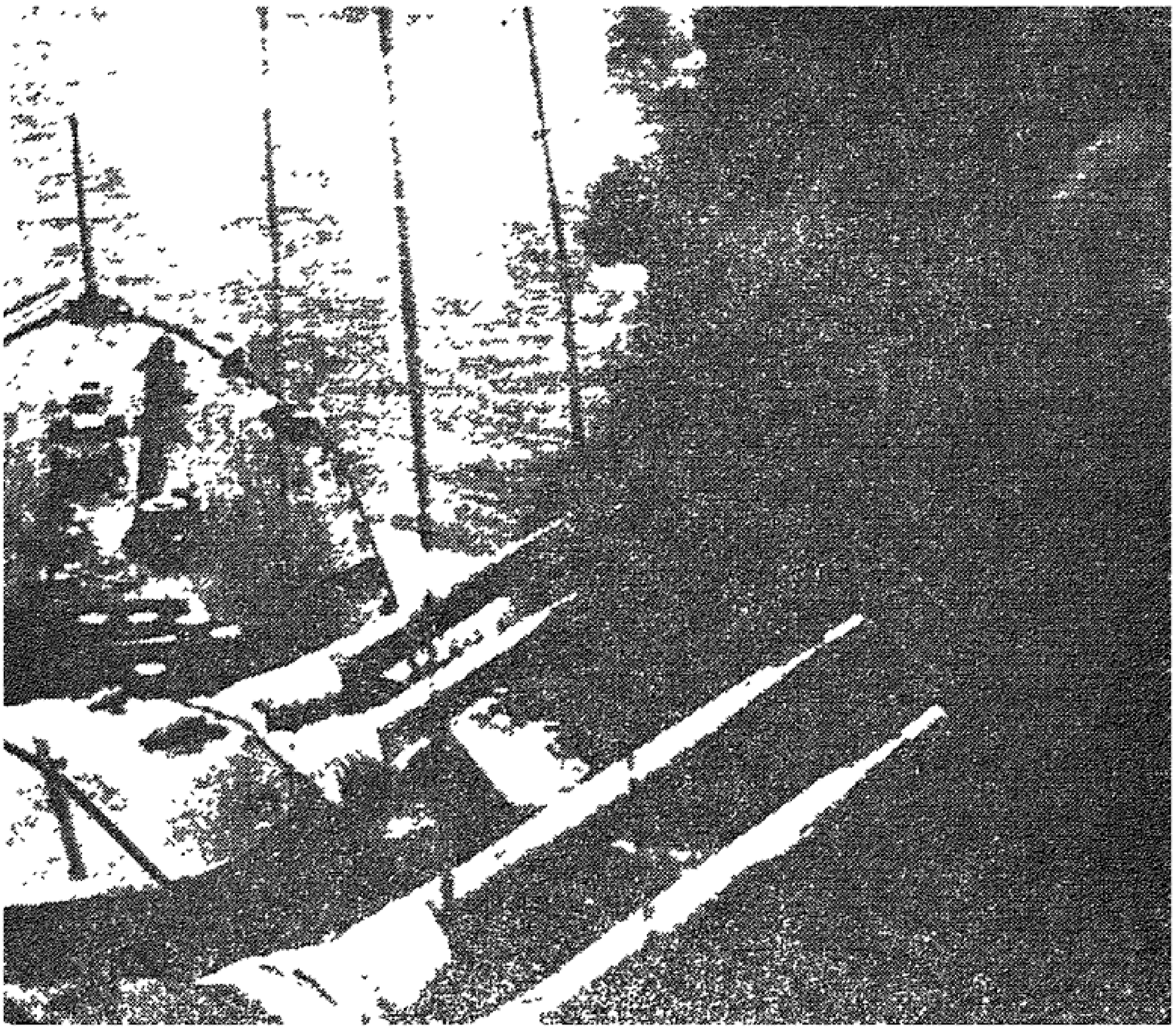

البارجـة بارهـام في معمعـان المعركة

وانطلق الاسطول وهو يمخر عباب بحر هائج ، تحت طقس غائم ورؤية ضعيفة. ولم تكن هناك أية طائرة ايطالية أو ألمانية في السماء . وفي الوقت نفسه شاهدت طائرة استطلاع مائية انكليزية فرقة الاميرال سانسونتي، وكانت هذه الطائرة منطلقة من مالطة . وراح ياشينو يقود اسطوله في اتجاه بنغازي في محاولة منه لخداع الخصم . وكان يعرف أن العمارة البريطانية لم تغادر بعد قاعدتها . وفي ساعة متأخرة من الليل تلقى أمراً باللاسلكي من رئاسة الاركان البحرية الايطالية يقضي بصرف النظر عن العملية في شمال كريت ، ولكن عليه القيام بالثانية مهما كلف الثمن .

وكان على رأس العمارة البريطانية في البحر المتوسط الشرقي الاميرال آندرو براون كوننغهام ، المعروف بين رجاله اختصاراً بالحروف الثلاثة آ.ب.ث ، والذي كانت تناط به مهمات متعددة : منها إمداد ميناء طبرق الليبي بالقوات المحاربة في برقة، ونقل الفرق المهيأة لدعم الجيش اليوناني ، وتقييد حركة الاسطول الايطالي . ومن المعروفة أنه كان في الاسكندرية اسطول فرنسي مشلول الحركة منذ حادثة المرسى الكبير في الجزائر . وكان الاميرال الانكليزي يتوقع قيام العدو بانطلاقة محتملة : وابتداء من ٢٥ آذار أصدر أوامره باتخاذ زمرة من التدابير الاحترازية أولاً والاستطلاعية ثانياً ، وضرب موعد لقاء مع الاميرال بريدهام ويبل ، الذي كان اسطوله راسياً في ميناء بيريه اليوناني مع أربعة طرادات وأربع مدمرات ، وذلك بتاريخ ٢٨ من الشهر المذكور تحت ضوء النهار في جنوب شرق غفادو .

وفي ساعة متأخرة من ليل ٢٧ آذار أقلع الاميرال كوننغهام مع البارجة وارسبيت التي تحمل رايته ، وفاليانت وبارهام ، ويتولى قيادتها اللـواء البحري راولينغس ، وحاملة الطائرات فورميدابل التي كانت تحت إمرة اللـواء البحري بويد ، والتي حلّت مكان حاملة الطائرات ايللو ستريوس التي أعطبت نتيجة غارة ألمانية بتاريخ ١٠ كانون الثاني من العام ذاته ، وكانت تخفر هـذه القوات فرقتان من المدمرات . وهكذا غادر الاميرال بريدهام ويبل ميناء بيريه مع الطرادات الاربعة : اوريون ، آجاكس ، برث ، وغلوسستر .

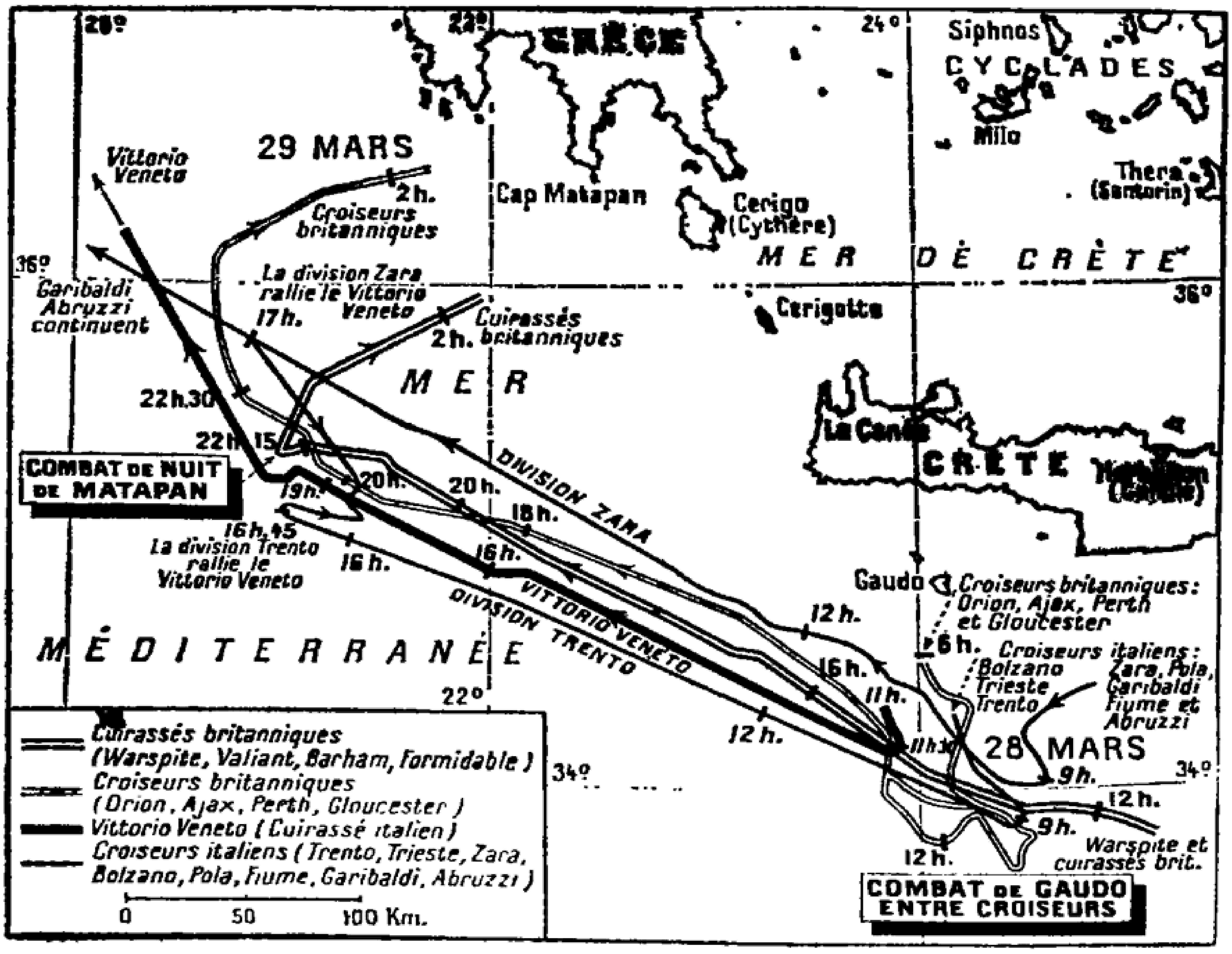

معركة رأس ماتابـان البحريـة

غير أنه لم يخطر ببال قادة هذه العمارة الصغيرة إطلاقاً أنها تسير على مقربة من الاسطول الايطالي ، مع أن طائرة مائية ايطالية ، قاذفة عاملة مع السفينة فينتوريو فينيتو استطاعت أن تتعرف على العمارة الانكليزية في الساعة ٦ و ٤٥ دقيقة من يوم ٢٨ آذار ، في حين لم يكتشف البريطانيون خصومهم إلا بعد ربع ساعة من الوقت. ومرت اثنتي عشرة دقيقة قبل أن يفتح الايطاليون نيرانهم من مسافة ٢٢٠٠٠ متراً . فقد كانت سفنهم مسلحة بمدافـع من عيار ٢٠٣ مم بينما لم يكن الانكليز يملكون سوى مدافع من عيار ١٥٢ مم . بيد أن المسافة كانت على قدر من البعد مما جعـل رماية الطليان دون نتائج محسوسة . وهنا ارتأى بريدهام ويبل أن أفضل حل هو جر خصومه نحو الاسطول القتالي الذي كان على موعد مضروب معه كما رأينا. وهنا استشعر ياشينو بالمكيدة والفخ المنصوب له فتحول جانباً ، ولكنه لم يكن على علم

بأن بوارج الاسكندرية قد أقلعت مبحرة ، ولكن لما عرف أن الطرادات التي كـان يتبادل معها طلقات المدفعية كانت تلاحقه قرر مهاجمتها ، من موقع القوة ، وصبّت سفينة الاميرال نيرانها من مدافـع ذات عيار ٣٨١ مم ، ولكن دون نتائج فعلية لان الطرادات المعادية توارت عن الأنظار للمرة الثانية •

وعندئذ انبعثت من ناحية الشرق ست طائرات نسافة انكليزية أقلعت من فوق حاملة الطائرات فورميدابل في الساعة ٩ و ٤٠ دقيقة • وانقضت في الساعة ١١و١٥ دقيقة ولكن دون نتائج أيضاً • غير أن الاميرال ياشينو أصبح الآن مكشوفاً فاتخذ قراره بالإنكفاء نحو قواعده •

وفي خلال النهار تعرضت القوة البحرية الايطالية لهجمات جوية عديدة شنتها طائرات بريطانية أقلعت من جزيرة كريت ومن اليونـان وتعرضت البارجة فيتّوريو فينيتو لغارات من طائرات من طراز آلباكور المزودة بطوربيدات ، هذا فضلا عـن طائرات من طراز بلنهيم • وأصيبت البارجـة على مستوى المروحة الخارجيـة من الجانب الايسر على عمق خمسة أمتار تحت سطح العوم • وتوقف ساعد السكّان عن العمل وتعطلت فيها المكائن ، وكانت تحمل ٤٠٠٠ طن من الماء العذب ، ومع ذلك نجت من هذه المحنـة •

وبعد الظهر أصبح الاميرال كوننغهام على مسافـة ٦٠ ميلا من الطليان الذين كانوا يعتقدون أنهم على مسافـة أكبر • واستأنفت الطرادات تلاحمها مع العـدو الايطالي • وأطلقت حاملة الطـائرات فورميدابل سرباً من قاذفاتها للمهاجمة عنـد الغسق • وهنا أمر ياشينو أسطوله بتشكيلة « القنفذ » • وقد اكتشفته طائرة قاذفة محمولة على البارجة وارسبيت حـوالي الساعة ١٨ على مسافة ٤٥ ميلا مـن أمـام البارجة ، وكان يسير بسرعة ١٥ عقـدة • وفي الساعة ١٩ ونصف قامت السفينتان آلباتروس و سووردفيش بعبء الهجوم خلال عشرين دقيقة • ولم تلبث الطرادة بولا أن أصيبت فتوقفت مكائنها عن الحركة، وانطلق الطرادان زارا و فيوم وأربع نسافات للبحث عنها • وقد حاول الامـيرال كوننغهام ، هـو أيضا ، أن يستطلع الامر فهرع لإرسال ثماني نسافات بقيادة العقيد البحري ماك بقصد مهاجمة العدو •

وتعرضت فرقة الطرادات الاولى ، المنكودة الحظ ، ونقصد بها فرقة الاميرال كاتانيئو التي كانت تبحث دوما عن الطراد بولا ، أقول تعرضت للاصطدام مع الاسطول الانكليزي في وسط الليل • وفي الساعة ٢٤ ونصف حققت السفينة فاليانت تماساً بالرادار المنصوب على مقدمتها اليسرى فأمر كننغهام بالاقتراب من العدو • وأبصر رئيس أركان حربه من خلال منظار الرصد الليلي شبح طرادين ايطاليين ، وأشعلت المدمرة منوارها فاكتشفت الطرادة فيوم ، فلم يتأخر الانكليز عن اطلاق نيرانهم ولا سيما من البارجة وارسبيت المجهزة بمدافع من عيار ٣٨١ على مسافة ٣٠٠ متر أي رمي عن كثب • وأوقدت السفينة فاليانت وبارهام منواراتها وراحت تطلق نيرانها ، بدورها ، وفي خلال بضع ثوان أصبحت السفينتان زارا وفيوم طعمة للنيران، مثلما أصيبت مدمرتان وهما آلفييري وكاردوكشي واستغرق الرمي سبع دقائق وتلاشت فيوم في الساعة ٢٣ ونصف ، أما الطراد زارا فقد لقي مصرعه بفعل طوربيد بعد ذلك بقليل • وغرق الطراد بولا في الساعة الرابعة صباحاً بعد أن أخلى طاقمه •

وفي اليوم التالي ، أي ٢٩ آذار ، أصبحت السفن الحربية الانكليزية على مسافة ٣٠ ميلا جنوب رأس ماتابان في أقصى جنوب اليونان دون العثور على أي أثر للعدو • فقد اختفى العدو الايطالي ، واستنقذت المدمرات ٩٠٠ رجلا من فوق الماء مثلما عثرت النسافات اليونانية على ١١٠ من البحارة في حين التقطت سفينة المستشفى الايطالية غراديسكا ١٦٠ رجلا • وفي الساعة ١٧ ونصف عاد الانكليز أدراجهم الى قاعدتهم في الاسكندرية •

وبلغت خسارة الطليان ثلاثة طرادات ونسّافتين و ٢٤٠٠ قتيلا ، واقتصرت الخسائر البريطانية على طائرة واحدة •

وابتداء من نهاية آذار ١٩٤١ هذه لم تعد القوات البحرية الايطالية تجرؤ على المخاطرة بنفسها في البحر الابيض المتوسط الشرقي •

* * *

في الأطلنطي

أيــار ١٩٤١

المطـاردة المأساوية للبارجــة بسمارك

لقد وقعت مأساة بحرية لا نظير لها ، في المحيط الاطلنطي ، حوالي نهاية شهر أيار من عام ١٩٤١ ، أي بعد سنة من انهيار الجبهة الحليفة في الغرب ، وقبل شهــر من غزو الجيش الالماني للاتحاد السوفياتي . وكان الطقس صحوا تماما في المنطقــة غير المحتلة من فرنسا . وكان الرأي العام ، الذي لم يبرأ بعد من انفعالاته ، يتابــع مع بعض الاهتمام تطور الاحداث ، فقد بهره ، منذ بعض الوقت ، هجوم الماريشال رومل « ثعلب الصحراء » في افريقيا الشمالية ، والاستيلاء على اليونان والهجــوم الالماني على جزيرة كريت بواسطة المظليين ، وقصف لندن من الجو ، ومعركة ماتابان البحرية ، وكان يسجل كل ذلك في حالة من البلبلة المعنوية .

وقد علم فجأة من بعض عناوين الصحف الفرنسية « الموجّهة » ولا سيما من الصحافة السويسرية التي كانت تتسلل الى مناطق الجنوب الشرقي من فرنسا ، بأن معركة تنشب في المحيط ، تشتبك فيها أجمل الوحــدات السطحية المتحاربة : مــن انكليزية وألمانيــة .

فقد غادرت عمارة قتالية ، مؤلفة من البارجــة بسمارك ومن الطراد الثقيــل برنز اوجين ، بصورة مباغتة ميناء غوتنهافن ــ وهو ميناء جدينيا البولوني سابقا ــ

بتاريخ العشرين من أيار صباحا . وقد كانت هذه العمارة تحت إمرة اللواء البحري لوتجنس . أما البارجة بسمارك التي يقودها ليندرمان ، فقد كانت عبارة عن سفينة حربية رائعة ، تزن ٤٦٠٠٠ طن ، وتستطيع أن تقطع ٣١ عقدة ، أو ٥٧ كيلو متراً في الساعة . وكان يبلغ طولها ٢٤٦ مترا مع عرض مقداره ٣٦ مترا ، وتحمل طاقما يبلغ تعداده ٢٤٠٠ رجلا، وتديرها محركات تبلغ قوة عنفاتها ١٧٥٠٠٠ حصانا ، وقادرة أن ترمي قذائفها لمسافة ٣٠ كيلو مترا ، من وزن ٩٠٠ كيلو غرام ، من مدافعها الثمانيــة من عيار ٣٨٠ مم ، ويحميها تصفيح من الفولاذ الممزوج بالكروم والنيكل ، وبعبارة

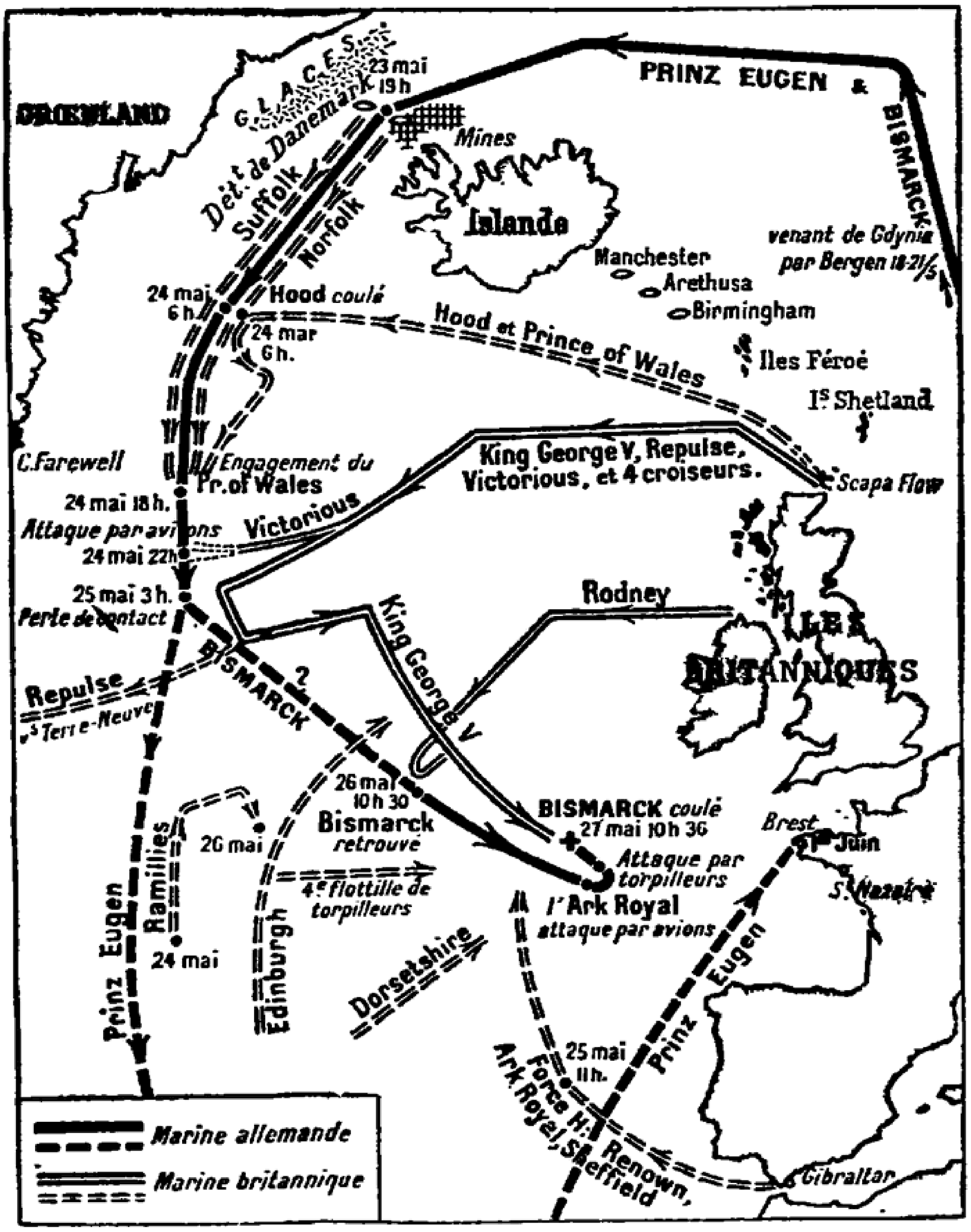

ميـــدان معركة الاطلنطي

موجزة كانت أقدر سفينة عاملة في المياه الغربية • أما السفينة برنزاوجين فكانت تزن ١٩٠٠٠ طن وتحمل على متنها طاقما تعداده ١٤٠٠ رجلا •

وكانت هذه المرة الاولى التي كانت تقوم فيها هاتان السفينتان بعمليات حربية في أعالي البحار • وكانت مهمتهما على التحديد : ايقاع البلبلة في الحركة التجارية البريطانية • وقد أذاع الاميرال غنترلوتجنز ذلك على أركان حربه بتاريخ العشرين من أيار ، وأن الاقلاع نحو عرض البحر سيكون في خلال ساعتين ، والاتجاه بسرعة ٢٨ عقدة ، نحو البلت الكبير ومضيق سكاجر"اك ، الفاصل بين السويد والدانمارك، وذلك ضمن الكتمان المطلق• وكان على البارجة المماثلة تيربيتز ، التي تم بناؤها للتو"، ان تحل مكان البارجة بسمارك في مرسى غوثنهافن كي تقدم ــ بصورة موقتة ــ البديل في وجه الاستطلاعات الجوية الانكليزية • وفي ظهيرة الحادي والعشرين من أيار دخلت بسمارك ميناء برجن للتمون بالمازوت : وعلينا أن نعرف أن هذه السفينة الجبارة تستهلك من هذه المادة خمسين طن في الساعة • وقد تم إرسال ناقلات نفط موسوقة بهذا الوقود الثمين ، منذ بعض الوقت ، وبصورة سرية شديدة ، الى المحيط الاطلنطي ••

وفي الساعة ١٧ كانت عمارة اللواء البحري لوتجنس تقلع نهائياً ، منطلقة في اتجاه الشمال ، بسرعة ٢٨ عقدة •

ولم يكن من المستطاع الانتقال من بحر النرويج الى المحيط الاطلنطي ، بالطبع، سلوك أكثر الطرق قصرا ، أي طريق جزر أوركاد وشتلاند ، وجزر فيرويه والتي تخضع لرقابة صارمة ، إذن يجب المرور من شمال أو من جنوب جزيرة آيسلندة • وكان على لوتجنس أن يختار ، فرجح ، وهو في مضيق الدانمارك ، الطريق الذي يمر بين جزيرتي آيسلنده وغروئنلنده • وربما كان من الافضل أن يمر بمحاذاة جزر فيرويه ، ولكنها ستكون عملية بالغة الخطورة ، تتضمن مخاطر جسيمة ، من دون خفارة مضادة للغواصات ، ودون مظلة جوية ، في بحار تهيمن عليها قوات بحرية جوية بريطانية رهيبة •

واجتازت العمارة الالمانية الدائرة القطبية في يوم ٢٢ أيار • ترى هل ستمضي مدة طويلة قبل أن يكتشف أمرها ؟ كلا • ففي يوم ٢٣ من الشهر المذكور اعترضت طرادة انكليزية الالمان في مضيق الدانمارك بعد أن أرشدتها اليها شقيقتها الطرادة سوفولك ، بواسطة الرادار • فأطلقت البارجة بسمارك بعض الصليات من عيار ٣٨٠ مم اختفى على أثرها الطراد البريطاني بحذر ضمن الضباب الذي كان يغطي المضيق • غير أن الطرادتين الانكليزيتين استمرتا في ملاحقة السفينتين المعاديتين ، على مسافة ما ، وكانتا ترسلان التحذيرات في الوقت ذاته الى الاميرالية البريطانية • إذن نحن في انتظار معركة لن تتأخر كثيراً •

وفي الرابع والعشرين من أيار ، وفي الساعة الخامسة صباحا ، هرعت أكثر سفن البحرية الملكية جسامة ، قادمتان من الشرق وهما الطرادة المقاتلة هود ، من وزن ٥٥٠٠٠ طن ، التي لاتقل تسليحاً عن البارجة بسمارك ، والبارجة برنس أوف ويلز ، التي تحمل عشرة مدافع من عيار ٣٥٦ مم • وكانت هود تحمل راية الاميرال هولند • وهنا فتح لوتجنس النار عليه من مسافة ٢٢٠٠٠ م • وكان هولند يركز رمي مدفعية عمارته على السفينة الالمانية الطليعية ، وهو يفكر بأنها هي البارجة بسمارك • وقد كان ذلك خطأ قاتلا لانها كانت هي برنز اوجين • وبالفعل لقد حدث ما وقع تماما في معركة جوتلند ، ذلك أن الانكليز كانوا يرمون بصورة رديئة على خلاف رجال المدفعية الالمان الذي كان رميهم غاية في الاحكام • ولم يطل أمد المعركة اذ انفجرت الطرادة هود لتختفي في أعماق المحيط مع ٢٤٠٠ رجل من طاقمها، الذي لم تقدّر النجاة لاكثر من ثلاثة منهم • ولا يزال التساؤل مطروحاً عن نوعية تلك المعجزة • أما البارجة برنس أوف ويلز فقد نالت إصابات قاسية وانسحبت من الميدان • وكانت قيادتها تعتقد أنها ستتحول الى هشيم ، بدورها ، لان السفن الالمانية كانت أكثر سرعة •

ولكن كانت هناك مفاجأة : ذلك أن الاميرال لوتجنس رفض إنجاز عمله التدميري وتابع طريقه نحو الجنوب ••• أي نحو موت محتوم • وأبرق للاميرالية

الالمانية بتقرير لاسلكي يفيد بأنه ينتوي الوصول الى ميناء سان نازير الفرنسي وسيحاول فك التماس والالتحام بدفع ملاحقيه ــ وهما السفينتان نورفولك وسوفولك ــ وأمر قائد السفينة برنز اوجين بمتابعة مسيرته نحو الجنوب ، أي نحو قواعد التموين • ثم انعطف نحو الغرب بعد أن أرسل بضع صليات نحو سوفولك التي لم تلح كثيرا على رد الصفعة ، ثم انكفأ مرة أخرى نحو الجنوب • وكل ما يريده الآن هو بلوغ خليج غاسقونيا في جنوب غرب فرنسا • ولكن شاهدته طائرة استكشاف انكليزية في هذا الوقت • وعندئذ أعطى القائد العام البريطاني ، السير جون توفي ، الامر لحاملة الطائرات ايللوستريوس ، التي وصلت قادمة من جزر أوركاد بصحبة البارجة « الملك جورج الخامس » بارسال طائراتها للانقضاض قبل هبوط جنح الظلام • وقد تم هذا الهجوم في الوقت المرغوب ، ولكن دون نجاح • وقد أصاب طوربيد ، بدقة ، قوقعة بسمارك ولكن التصفيح الفولاذي المخلوط بالكروم والنيكل قاوم بشكل طيب •

ولاحظ الانكليز في الخامس والعشرين من أيار ، وعند الفجر ، أنهم فقدوا التماس مع العدو • وراح اللواء البحري لوتجنس يبحر في اتجاه الجنوب الشرقي ، وكان بمقدوره تحاشي تمركز العدو لو كان لديه ما يلزم من عبقرية وحذق ، وذلك لو حاول الابحار من شمال شرق آيسلندة وجزر فيرويه والعودة سليماً الى قاعدته • ولكن مصيره كان قدراً مقدوراً • ولما كان يتوهم دائماً أنه مكشوف بالرادار فلم يتردد ، هذا البائس ، من إبراق رسالة لاسلكية الى الاميرال الالماني « الغربي » الذي كانت قاعدته في فرنسا المحتلة • وقد التقط الانكليز هذا البث ، بيد أن العاملين في أجهزة القياس بالمنقل الراداري « راديو غوينمتري » والذين يبثّون الرفوعات على المصورات البحرية ، ارتكبوا خطأ كارتوغرافياً يبعث على الهزء ، ذلك ان تدريج الخرائط المستعملة كان مغلوطاً ••• وبذلك حددوا موقع بسمارك ••• الى الشمال من آخر موضع معروف عنها • إذن هل عادت أدراجها ؟ واندفع المطاردون الانكليز في هذا الاتجاه • وظلت البارجة الالمانية طيلة النهار تمخر عباب بحر خاوٍ ، مقفر • وفي فجر ٢٧ أيار لم يكن هناك ، أيضاً ، من شيء يلوح في

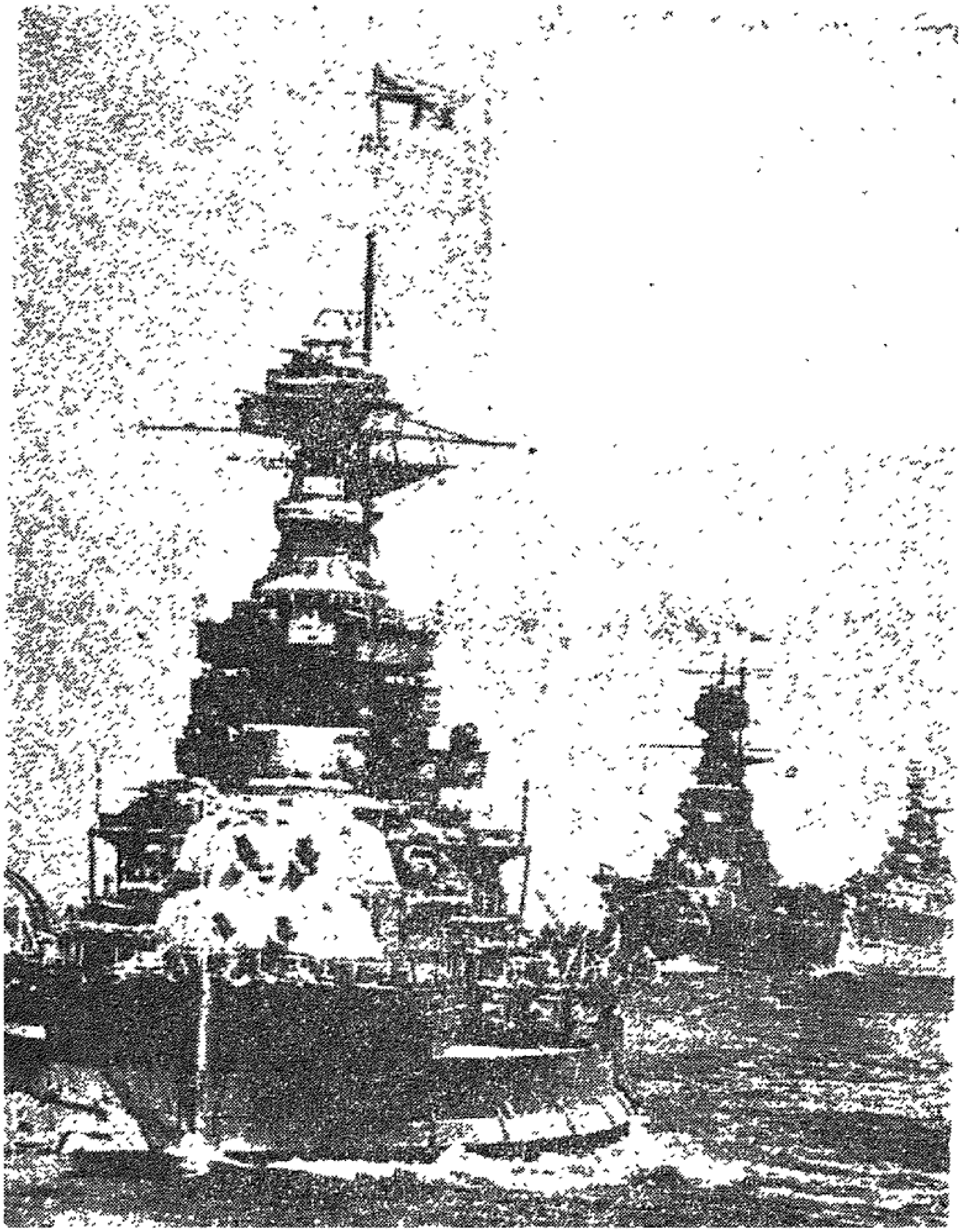

البوراج الانكليزية « فانغوارد » « هـود » و « رينوون »

الأفق ، ولما كان البحر هائجاً فقد هبطت السرعة الى عشـرين عقدة • وفي الساعـة العاشرة والنصف ظهرت في الأفق طائرة من طراز « كاتالينا » أشارت الى موضـع « سفينة حربية كبرى » • وقد فوجئت أركان الحرب البريطانيـة بذلك وهي التي تبحث عن عدو في الشمال الشرقي ، بينما كان ذلك العدو في الجنوب الشرقي •

وأقبلت من قاعــدة جبــل طارق قــوة بحرية ، مؤلفة من طرادة قتالية تدعى « رنوون » ومن حاملة الطائرات « آرك روياك » ومــن الطرادة « شيفيلد » والتي سرعان ما وجــدت نفسها في وضع غــاية في جــودته للتدخــل • وكانت طائرات « سووردفيش » تقلــع من فوق حاملة الطائرات ، بالرغم من رداءة الطقس ، التي خفضت سرعة بسمارك الى حدها الأدنى • ولم يكن يدخل في روع الطيارين وجود أي مجال للخطأ اذ أكدت القيادة لهم أن ليس هناك أية سفينة حربية في الميــدان • ولكن كانت هناك شيفيلد التي كانت تحاول البحث عــن العدو الالماني بالرادار أو بالنظر ••• ولما رأى قائدهــا الطائرات أدرك أن هذه تتخذ من طرادته هدفاً لها ، وهكذا نجا من طوربيداتها بأعجوبة حقيقية •

وظلت البارجة بسمارك تبحر في اتجاه الجنوب الشرقي • وها قد مرّ عليهــا يومان دون أن تطلق قذيفة مدفع واحدة ، وها قد أقبلت ليلة أخرى • ولكن هاهي الطائرات المعادية تظهر في الجو ، وهي طائرات سووردفيش ذاتهــا ، التي تعرضت لنيران كل قطع الدفاع الجوي • وقد انفجر طوربيد قبل أن يدرك قوقعة البارجــة بسمارك وهكذا تحاشت هذه البارجة أربعة طوربيدات على الاقل • وفجأة أقبلت عليها طائرة من خلفها وقدحت القذيفة جسم السفينة مــن فوق • فتوقف السكّان (الدفة) عن الحركة وثبتت على مقدار ٢٠ درجة من اليسار : وعلى الرغم من سلامة المكائن فقد قضي على هــذه السفينة الضخمة بأن تدور على نفسهــا ، وتراوح في مكانها • فقد أصاب الانكليز المنطقة الحيوية الوحيدة غير المحمية بالفولاذ الممزوج بالكروم والنيكل ، ولم تعد البارجة بسمارك تتحكم في مناورتها ، ولا أمل يرجى من وراء أية محاولة لاصلاحها ، وهرع نحوها كل الاسطــول البريطــاني • وأرســل الاميرال لوتجنس آخر رســالة : « سنحارب حتى النهاية • لنا ثقــة راسخة بكم ، يا سيدي الفوهرر ، وفي انتصار المانيا » •

وتحت جنح الظلام بدأت المدمرات بالظهور وراحت تهاجم بالطوربيد ولكن دون نتائج تستحق التقدير • وفي فجر اليــوم التالي ، أي ٢٧ أيار ، وصلت سفينة الاميراليــة

« الملك جورج الخامس » مع « رودني » الى مكان العمليات ، وباشرت رودني فتح نيران مدافعها من عيــار ٤٠٦ مم ولحقت بها مدافــع سفينة الامــيرال • وتصدّت بسمارك للهجوم ولكن مع رمي بطيء • وعملت أوائــل الصليات البريطانيــة على تهشيم الجسير الذي كان يقف عليه الاميرال لوتجنس • وكان في ذلك بداية المجزرة التي ستستمر مدة بضــع ساعات • وأقبلت الطرادة الثقيلة « دوستشاير » لتأخــذ مكانها في المعركة ، ولكن البارجة الالمانية لم تغرق على الرغــم من هــذا الطوفان الفولاذي المتساقط عليها ، وظلت رايتها خفاقة في أعلاها • وقد كان هناك على الأقل ثلاث إصابــات في الصميم • وقذفت دورستشاير طوربيدين عــلى مسافة ٢٠٠٠ م ثم انبقرت ، عن قصد ، في قعرها بواسطة حشوات الاغراق الذاتي • وأخيراً غاصت بسمارك • ورفض قائدها القفز الى الماء فغرق مع سفينته العزيزة عليه • وقد أطلق أسمه بعد قليل على البطارية الكبــيرة التي كانت تطلق من مضيق بادوكاليه عــلى الاراضي البريطانية • وقد بلغ عدد الناجينْ حوالي المائة من طاقمها التقطتهم السفن الظافرة •

وبعد أن امتارت السفينة الالمانية التاجية برنز اوجين بالمازوت من ناقلة نفط، أفلحت في بلوغ ميناء برست دون عناء أو عائق •»

★ ★ ★

في الباسفيكي

أيار ١٩٤١

أمريكا واليابان تأخذان بتلابيب بعضهما بعضا

خلال الفترة الواقعة بين الهجوم المباغت على بيرل هاربور ، وبين انفجاري القنبلتين الذريتين فوق مدينتي هيروشيما وناغازاكي ، وقعت عمليات بحرية لا مثيل لها إطلاقاً ، حتى هذا التاريخ ، فوق صفحة مياه المحيط الهادي اللامتناهية بين اسطولين جبارين : هما اسطول الولايات المتحدة والاسطول الياباني • فقد حصل اليابانيون في البداية على بعض الانتصارات التظاهرية ، ولكنهم لم يفلحوا في التوصل الى مكاسب نهائية • والواقع لم تكن قضية بيرل هاربور ، بحد ذاتها ، تؤلف الضربة القاضية التي كانت الدوائر البحرية اليابانية تتوقعها منها • غير أنه سيكون من نافلة القول في ان الانتصارات الصاعقة التي حققها اليابانيون في الارخبيل الاندونيسي تسمح لنا بالاقتناع بأن القوات المسلحة لدى حكومة طوكيو كانت هي المتفوقة من حيث التنظيم • فقد احتدمت المعارك البحرية منذ شهر كانون الثاني ١٩٤١ وتمخضت عن احتلال رابول (Rabaul) في جزر بريطانيا الجديدة • وفي شهر أيار احتل اليابانيون مواقع لهم على الساحل الشمالي لجزيرة غينية الجديدة وعزموا على احتلال مدينتي تولاجي وبور مورسبي ، كي تكون لهم حرية المناورة المطلقة في بحر المرجان ، وكي يجتاحوا ، في مرحلة تالية ، جزر ميداوي (Midway) وجزر آلوشيان كي يقسروا العمارات البحرية الامريكية ــ أي ما تبقى منها ــ على قبول خوض اشتباك يمكن من خلاله تصفية الحساب نهائيا بين أساطيل الدولتين •

وسنعرض بالتتالي هـــاتين المعركتين البحريتين الكبيرتين : أي معركة بحـــر المرجان ومعركة ميداوي •

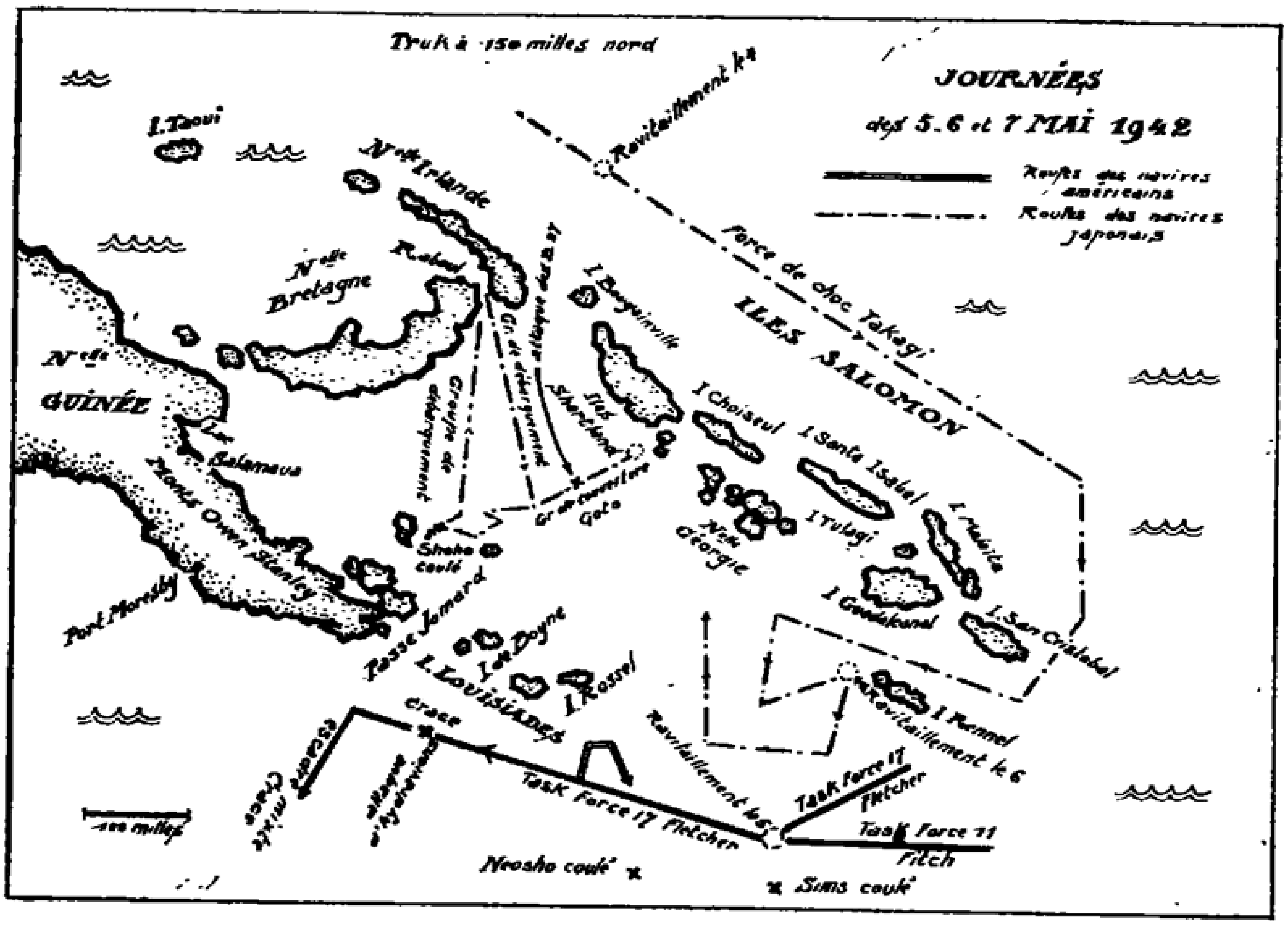

مسار المعركة في يوم الخامس والسادس والسابع من أيـار ١٩٤٢

معركة بحر المرجـــان :

يقع بحر المرجان بـين استراليا وأرخبيل سليمـــان ، أي في معزل عن مســـار التيفونات ، تطيف به جزر مخضوضرة شبه خاوية من السكان بسبب وخامةمناخها• والى الشمال منه تقع جزيرة بريطانيا الجديدة وغينيا الجديدة الشرقية ، التي تدعى أيضاً بابوازيـــا •

وكانت الخطة اليابانية ــ خطة MO - ترمي الى احتـــلال جزيرة تولاجي في بحر سليمان والتي تملـــك ميناءاً ممتازاً ، والى الاستيلاء على بور مورسبي عـــلى الساحل الجنوبي من جزيرة غينيـــة الجديدة ، والذي يحـــوي على مطـــار يمكن استخدامه كقاعدة لغارات قد توجه الى استراليا • أما القوات البحرية الامريكيـــة

فقد كانت قليلة العدد في هـذه المنطقة البحرية ، ولكن من جهة أخرى ، لم يكـن بمقدور اليابانيين تقديم أكثر من جـزء محدود نوعاً ما من اسطولهـم ، لأن تجهيز عملية الهجوم على ميداوي بقيادة الاميرال ياماموتو (Yamamoto) استحوذ على أفضل الوحدات البحرية • أما التحرك في بحر المرجان فقد عهدت القيادة اليابانية به للاميرال اينويه (Inouye) ، قائد الاسطول الرابع ، وكانت رايته فـوق الطرادة العتيقة كاشيما في ميناء رابول ، في أرخبيـل بسمارك ، الواقـع شمال جزيرة غينية الجديدة • وكان يتصرف الاميرال المذكور بالقطعات التالية :

ـ أول مجموعة انزال تضم احدى عشرة مـن ناقلات الجنـد تخفرها ست مدمرات : القصد نحو بور مورسبي •

ـ مجموعة انزال ثانية بقيادة العميد البحري شيما ، وهي أقل أهمية،وهدفها جزيرة تولاجي •

ـ مجموعة دعم يقودها العميـد البحري ماروشيجه ، وتضم ناقـلة طائرات مائية وطرادتين ، ومقصدها جزر لويزياد ، في جنوب شرق جزيرة غينية الجديدة •

ـ مجموعة تغطية تحت قيادة العميد البحري غوتو (Goto) مع حاملة خفيفة للطائرات ، شوهو (Shoho) ، وأربع طرادات ومدمرة •

ـ مجموعة تدخل بقيادةالعميد البحري تاكاجي ،كانتتتخذ قاعدتها، بالاصل ، في تروك (Truk) (١٥٠ ميلا الى الشمال مـن رابول) وتضـم حاملتي الطائرات الكبيرتين زويكاكو و شوكاكو وطرادتين وست مدمرات • أما قائد حاملتيالطائرات فقد كان العميد البحري هارا •

ـ قوة تحتمائية (ست غواصات) ووحدتا الطيران البحري المتمركز على البر في رابول •

وكان مسار مخطط العملية على الشكل التالي : احتلال جزيرة تولاجي في ٣

أيـار ، وبور مورسبي في السابع منه • أما قوة التدخـل القادمة من تروك ، فقـد كان عليها ، بعـد تمر من شمال شرق جزر سليمان ، أن تندفـع في بحر المرجـان (Corail) من الجنوب ، كي تقضي على القوات المعادية التي قد تكون متواجدة فيـه •

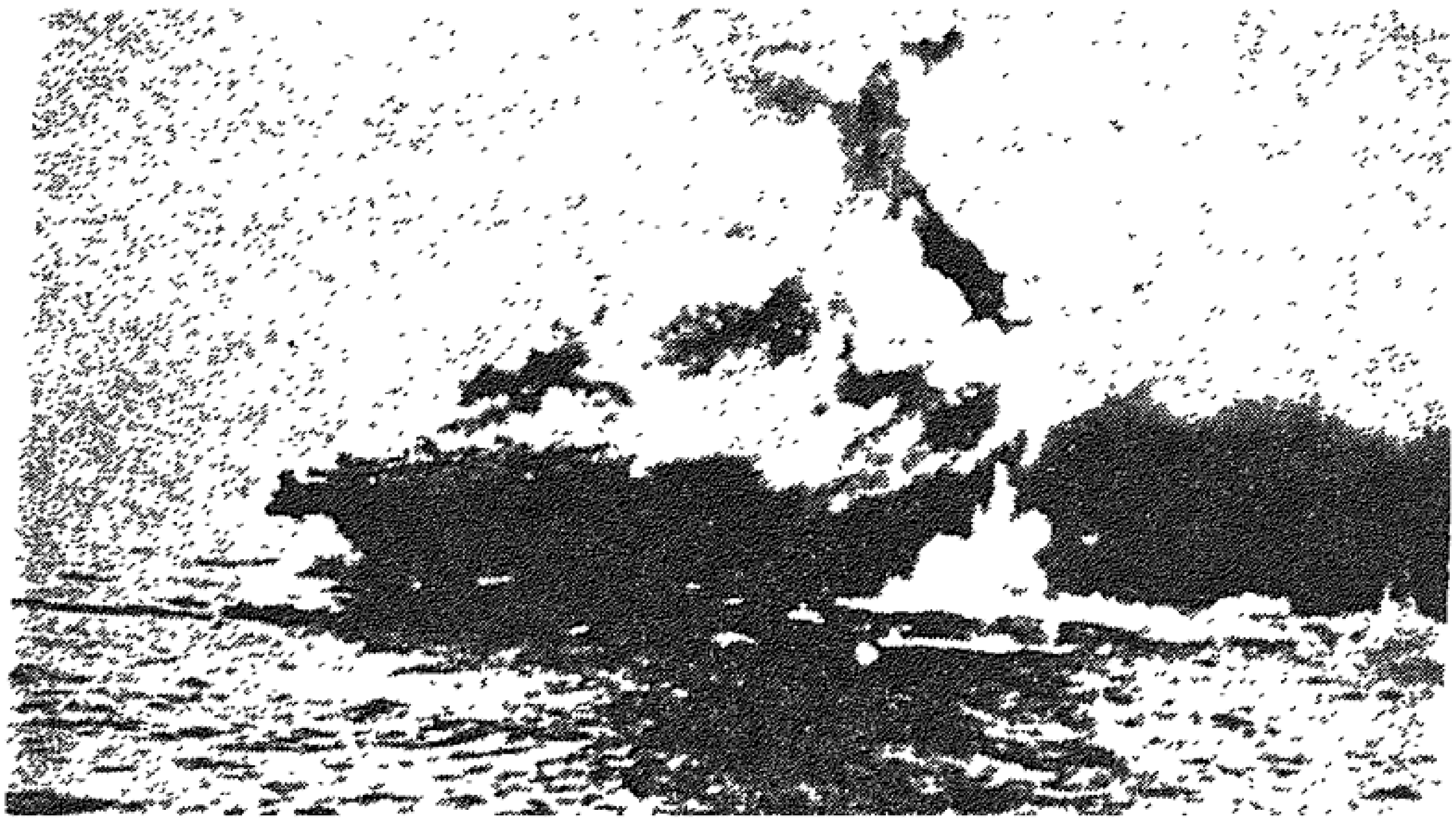

معركة بحر المرجان . حاملة الطائرات الامريكية « لكسنغتون » بعد هجوم الطيران الياباني

أما الاميرال الامريكي نيميتز (Nimitz) ، القائد الاعلى في المحيط الهادي فقد بلغت مسامعه منذ السابع عشر من نيسان بأن عملية معادية كانت قيد التجهيز في بحر المرجان ، وأنها كانت تستهدف أساساً بور مورسبي وانها ستقلع منطلقـة، على الاكثر ، في بداية أيـار •

وكان يتخذ مقر قيادته في بيرل هاربور ، وكانت تحت تصرفه ، في جنوب غرب المحيط الهادي ، القطع التالية :

ــ قوة العمل ١٧ (Tash force) : بقيادة اللواء البحر فلتشر (Fletcher) وحاملة الطائرات يوركتاون وثلاث طرادات وست مدمرات •

ــ قوة العمل ١١ ــ وعهد بقيادتها للعميد البحري فيتش (Fitch) ، وتضـم حاملة الطائرات لكسنغتون وطرادتين وخمس مدمرات •

ـ طيران محمول ويتألف من ١٥٠ طائرة (نسّافات ، قاذفات ، مطاردات) •
ـ عمارة مختلطة داعمة ، ويقودها العميد البحري البريطاني غريس (Grace) وتشتمل على طرادتين استراليتين وطرادة أمريكية •

وفي الاول من أيار تولى اللواء البحري فلتشر قوتي العمل ١٧ و ١٤ في المنطقة الواقعة الى الغرب من جزر هبريد الجديدة • وكانت تعليمات الاميرال نيميتز تحتم عليه ما يلي : « اتخاذ بحر المرجان ميداناً للعمليات واغتنام كل الفرص الموائمة لتدمير سفن العدو الحربية والتجارية وطيرانه » •

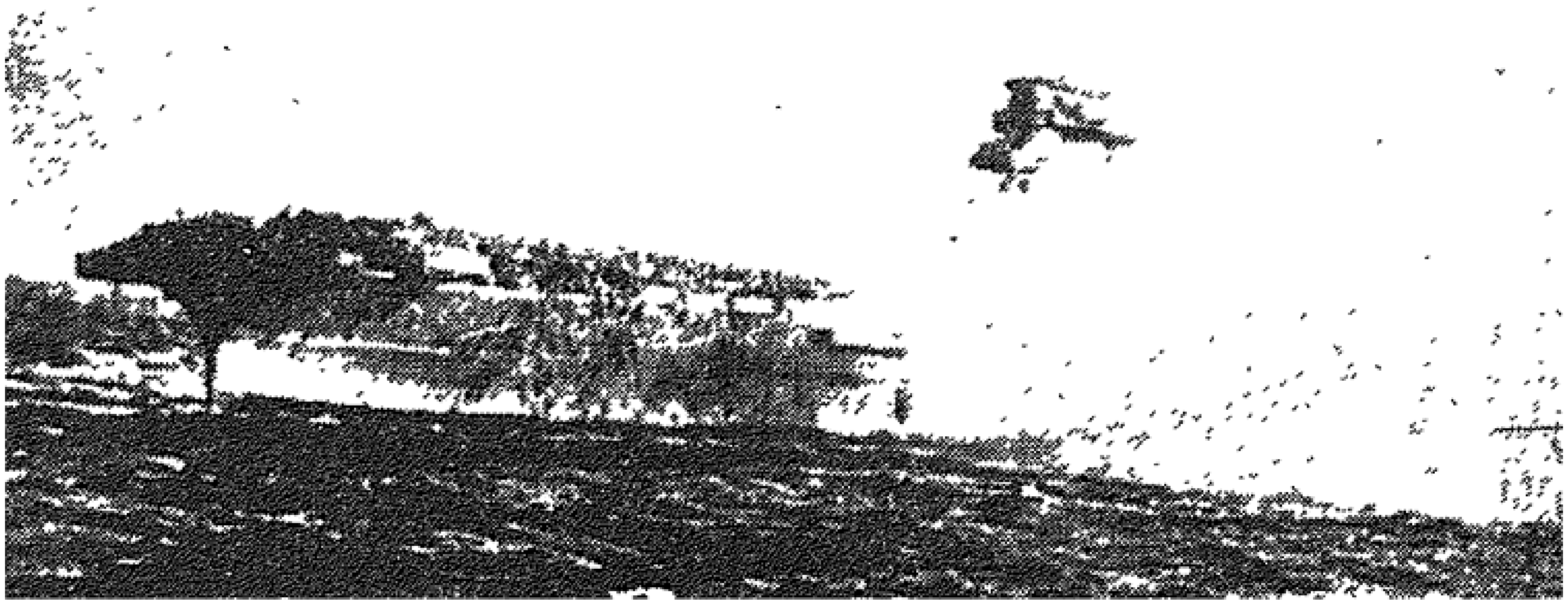

طاقم حاملة الطائرات « لكسنغتون » وهم يغادرون سفينتهم ، وقد تم التقاطهم جميعا بحيث لم يفقد واحد منهم

وفي الثالث من أيار نزلت مجموعة العميد شيما في جزيرة تولاجي التي سبق للاستراليين أن جلوا عنها • وما أن علم اللواء فلتشر بالامر حتى سار بقوة العمل١٧ باتجاه جزيرة وادي القنال (Guadalcanal) ، وفي الرابع من أيار أطلق طائراته من على متن حاملة الطائرات يوركتاون علـى جزيرة تولاجي : وكانت نتيجة هـذه « المعركة » لاشيء تقريبا • وفي أثناء هذا الوقت كان العميد الياباني تاكاجي مـع حاملتي الطائرات يحاذي جزيرة سليمان ، هذا في حين كانت قوة الانزال اليابانيـة الموجهة الى بور مورسبي تقلع في الرابع من أيار ، في المساء ، انطلاقا من رابول •

وكان الخامس من أيار أول يوم في معركة بحر المرجان • وبعد ان انضمت قوتا العمل ١٧ و ١١ الامريكيتان لبعضهما ، وشحنتا بالمؤن ، اتجهتا نحو الشمال الغربي،

هذا بينما أخذ العميد توكاجي يتوغل في بحر المرجان بين جزيرتي سان كريستوبال وجزيرة رينـــل (Rennel) .

وفي السادس من أيار انضمت العمارة الصغيرة المختلطة التي يقودهـا غريس الانكليزي الى جملة القوات الامريكية • ونصب اللواء البحري فلتشـر رايته على الطرادة مينابوليس ، واستأنف طريقه نحو الشمال الغربي • أما تاكاجي فاتجه نحو الجنوب وتقاطع ، دون أن يعرف ، مع الطريق التي سلكها الامريكان • وكان الطقس رديئا والسماء ملبدة بغيوم منخفضة ، بحيث كان الاستطلاع الجوي عديم الجدوى • ولكن في الساعة العاشرة والنصف أقلعت أربع طائرات من طراز « القلاع الطائرة » وتابعة للطيران البري المتمركز في مورسبي ، وانقضت على «حـاملة الطـائرات» الصغيرة شوهو التي كانت على مسافـة ٦٠ ميلا من جزر شورتلنـد : ولكن دون نجاح يذكر •

وفي الساعة السادسة من صباح السادس مـن أيار أبصـرت طائرات العميد الياباني تاكاجي حاملة النفط نيوشو والمدمرة سيمس (Sims) وحسبتها حامـلة طـائرات وطرادة ، ووصلت الطـائرات القاذفـة ، في الساعة التاسعة ، وما لبثت السفينتان الامريكيتان أن غاصتا في الاعماق • ولكن استطاعت الطرادة الامريكية أن تسقط ست طائرات يابانية ، وأثناء عـودة الطيارين اليابانيين لقواعدهـم فوق حاملتي الطائرات اليابانيتين اكتشفوا حاملتي الطائرات الامريكيتين ولكن ذلك بعد ان استنفذوا حمولتهم من القنابل • وفي صباح السابع من الشهر كان فلتشر وعمارته في جنوب جزيرة روسل (Rossel) ، فاتجه شمالا ، في حين أصدر أوامره للعميـد البريطاني غريس بالتوجه نحو مخرج ممر جومار لاعتراض مجموعة الانزال التـي تستهدف بور مورسبي • أما الطرادتان الاستراليتان فقد كانتا عرضة لقنابل الطائرات اليابانية القادمة من رابول ولكنهما نجتا من المجزرة وعادت مجموعة الانزال اليابانية أدراجها • وانكفأ العميد غريس نحو اوستراليا ، ظناً منه بـأن الخطر قد استبعد •

وعندئذ اتجهت قوة الاميرال فلتشر شمالا وأطلقت طائراتها ــ ٩٣ طائرة ــ على

حاملة الطائرات اليابانية شوهو التي تم اكتشافها ، وقد أصيبت هذه بثلاث عشرة قنبلة وسبعة طوربيدات كي تغرق حــوالي الساعة الحادية عشرة والنصف • وقــد استغرق الهجوم عشرين دقيقة وعادت مجموعة التغطية اليابانية التي يقودها العميد البحري الياباني غوتو هاربة في اتجاه الشمال •

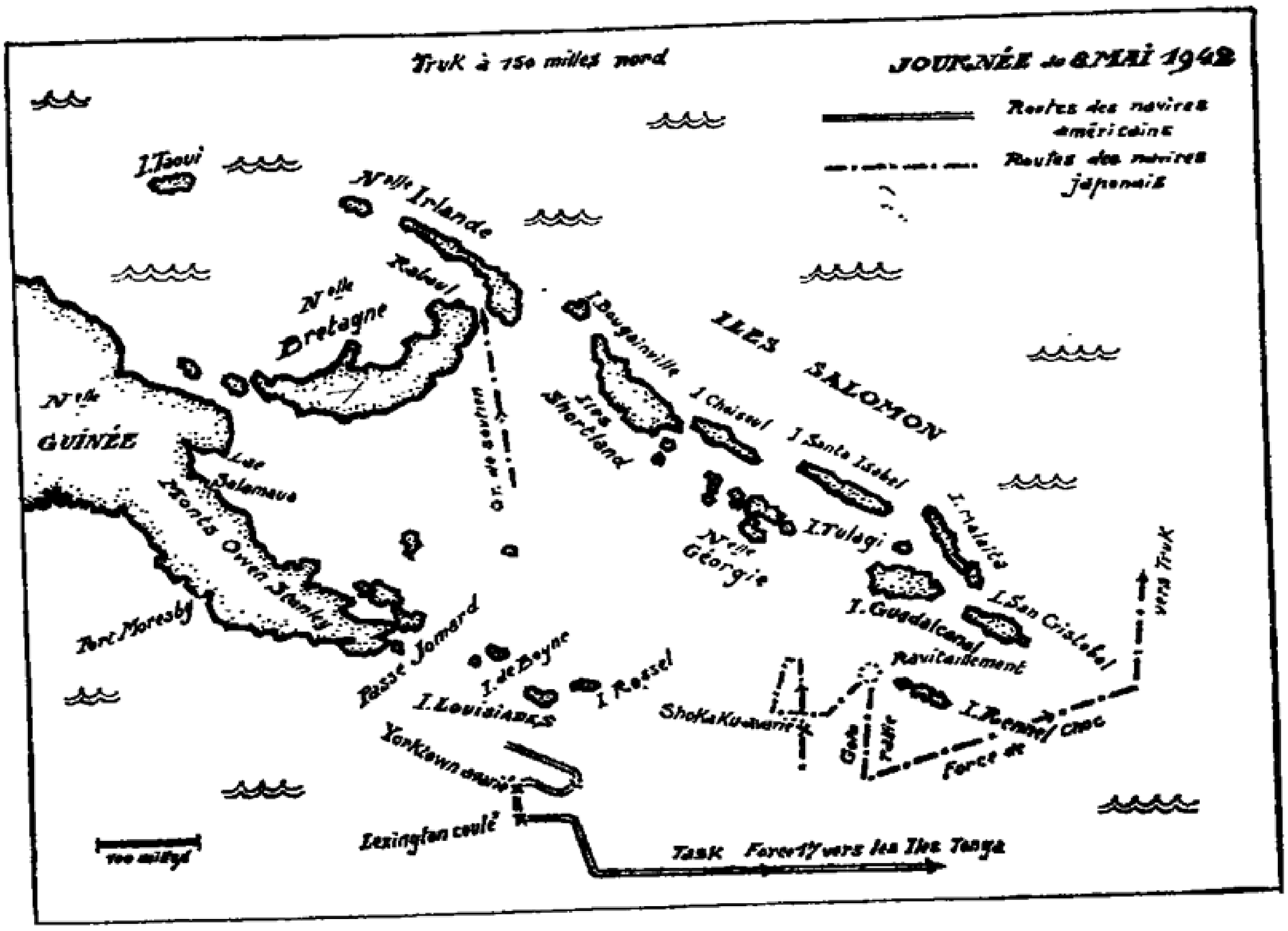

ميدان معركة الباسفيكي في يوم ٨ أيــار ١٩٤٢

أما الاميرال تاكاجي فقــد أطلق ، من جانبه ، طــائراته للبحث عن العمــارة الامريكية• وسرعانما وجدت نفسها ، بالصدفة ، فوق حاملتي الطائرات الامريكيتين لكسنغتون و يوركتان ، فتعرضت للمدفعية المضادة للطائرات التي أقلعت على التو• وهكذا خسر اليابانيون عشر طائرات ، وعادت بقية الطائرات اليابانية الى قواعدهــا فوق الحاملتين ليلا في وضع من الفوضى بحيث فقدت احدى عشرة طائرة أثناء عملية الهبوط •

وهنا أصبح الصدام بين الجانبين أمراً محتوماً •

وفي صبيحة الثامن من أيار انطلقت طــائرات الاستكشاف الجوي من كــلا

الجانبين • وكان كل من الاميرال تاكاجي والاميرال فلتشر يجهل تماما موقع خصمه• وفي الساعة الثامنة والربع استشف" الطيارون الامريكان السفن اليابانية على مسافة ١٧٥ ميلا الى الشمال الشرقي من قوة العمل التي اكتشف اليابانيون ، بدورهم، أمرها وقد كان لدى اليابانيين حينئذ ١٢١ طائرة مقابل ١٢٢ طـائرة لدى الامريكيين •• ووقع الهجوم على حاملة الطائرات اليابانية شوكالو الذي قامت به ٣٩ طائرة منطلقة من سطح حاملة الطائرات الامريكية يوركتان • ولكن كانت النتيجة تافهة تقريباً • ولكن ظهرت في الافق طائرات الحاملة لكسنغتون على شكل موجة جديدة ، وألقت قنبلة ثقيلة واحدة على الحاملة اليابانية شوكاكو التي أصيبت بعطب خطير واضطرت للعودة الى اليابان في حـالة بائسة للغاية • وتعرضت حاملتـا الطائرات الامريكيتان لهجوم قوامه ٦٩ طائرة يابانية عجزت المطاردات الامريكية عن اعتراضها• وفي حوالي الساعة الحادية عشرة أصيبت لكسنغتون بطوربيدين وقنبلتين مثلما تلقت يوركتان قنبلة • وتصاعدت النيران في حاملتي الطائرات الامريكيتين واعتقـد اليابانيون أن التلف قد أعطبهما تماماً• وحدث انفجاران فوق الحاملة لكسنغتون في الساعة ١٣ • وفي الساعة ١٤ و ٤٥ دقيقة • وقـد تم إخلاء طاقمها في الساعـة ١٧ وأقبلت مدمرة امريكية لتسدد اليها طلقة الخلاص بواسطة طوربيد أرسلها نحو قعر المحيط •

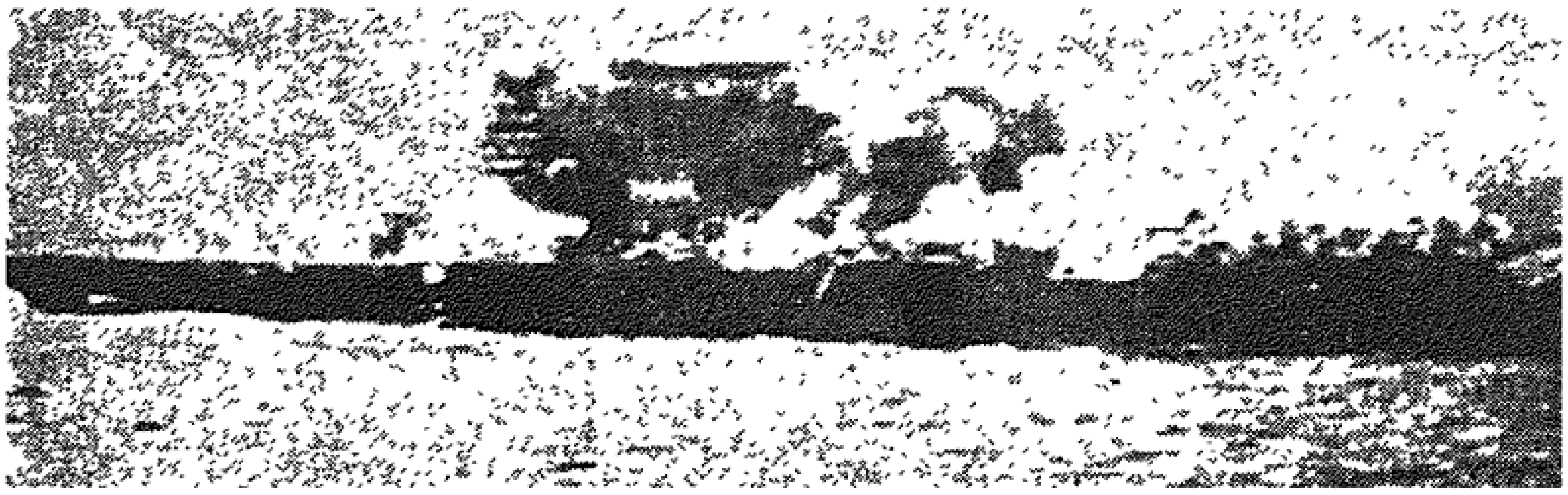

نهـاية حاملة الطائرات « لكسنغتون »

وفي مساء الثامن من أيار غادرت قوة العمل (Task force) مياه بحر المرجان وراحت تبحث عن المؤن في نوميئا وفي توتغاتابو ، وانسحب الاسطول الياباني نحو تروك بعد أن تقرر تأجيل الهجوم على بور مورسبي الى شهر تموز •

وقد توزعت خسائر المعركة على الشكل التالي :

الامريكيون : خسارة حاملة طائرات قتاليـة ، غرق ناقـلة نفط ومدمرة ، ٦٦ طائرة أسقطها اليابيون ٥٤٣ قتيلا ، حاملة طائرات معطوبة •

ـ اليابانيون : غرق « حاملة طـائرات » خفيفة ، غـرق مدمرة ، اسقاط ٨٠ طائرة يابانية ، ٩٠٠ قتيل ، عطب « حاملة طائرات » قتالية ، ومدمرة •

واذا كان الظفر من نصيب أبناء الشمس المشرقة « اليابانيين » على الصعيـد التكتيكي ، فقد كان نجاحاً استراتيجياً للامريكان •• ذلك أن اليابانيين لم يحققوا هدفهم وهو الاستيلاء على بور مورسبي الذي لم يستطيعوا احتلاله ــ ولم يحتلوه إطلاقاً ــ كما ان « حاملتي الطائرات » الكبيرتين شوكاكو وزويكاكو لم تتمكنا من الاشتراك في معركة ميداوي •

وقد كانت معركة بحر المرجـان أول معركة تجري « فيما وراء الافق » بـين عمارتين لم تكونا فيمدى رؤيةبعضهما البعض، بل كانتا تقتتلان بالاستعانةبطيرانهما المحمول لاغير • فقد أصبحت حاملة الطائرات أكثر سفن القوات البحرية أهمية •

وقد أدركت القيادة العليا الامريكية ذلك بشكل صحيح وكانت تعليماتها تحتم ترجيح مهاجمة « حاملات الطائرات » المعادية قبل سواها من السفن الحربية • وقد وجّهت صناعتها نحو بناء «جسور سفن مسطحة » التي وفرت لها النصر علىالقوات اليابانية • وقـد استطاعت أن تبني ١٣٦ حاملة طائرات خلال الحرب بينما لم تنتج الترسانات اليابانية سوى ١٩ حاملة طائرات •

* * *

ميدواي

٣ حزيران ١٩٤١

المعركة التي انقذت البحرية الامريكية

يقع آتول[1] ميداوي المرجاني ، في المحيط الهادي ، مباشرة الى الشمال من مدار السرطان ، وجنوب خط العرض ٣٠ والى الغرب من خط الطول ١٧٠ وعلى مقربة من خط الطول ١٨٠ . وتعتبر ميداوي ، التي تمثل أكثر الحلقات بعداً عن جزر هاوائي ، وذلك اذا استثنينا آتول كوريه (Kuré) ، غير المأهول ، تعتبر أصغر ابعاداً من جزيرة وايك (Wake) ، ولا تتصف بأية خاصة من خصائص جزيرات بحار الجنوب : كالنبات والازهار ، والسكان الاصليين ذوي الجاذبية الخاصة . ولهذا الآتول قطر يمتد على تسعة كيلو مترات ولا تشكل الارض اليابسة أكثر من جزء ضئيل من مساحته . وتتألف ميداوي من جزيرتين ، هما ساند و ايسترن ، ويقل طول الاولى عن خمسة كيلو مترات في حين لا يتجاوز طول الثانية كيلو مترين . إذن ما هي ميداوي على الضبط ؟ انها حبة رمل ضئيلة في متاهات المحيط الأعظم .

وفي عام ١٩٣٥ أنشأت فيها شركة خطوط بان آميريكان للطيران فيها مطاراً ، ومساكن ، وفندقاً صغيراً . وفي شهر آذار ١٩٤٠ قامت فيها قاعدة لاستقبال الطائرات الحربية من طراز كاتالينا . ودخلت هذه المنشئات حيز العمل في ١٨ آب من سنة ١٩٤١ ، أي قبل ستة شهور من اندلاع الحرب بين الولايات المتحدة واليابان . وقد تحولت جزيرة ساند الى مدينة يقطنها أخلاط من الناس ، مع بضع مئات من الشغيلة ،

---

(١) آتول (Atoll) جزر دائروية الشكل ، مرجانية ، في المحيطات المدارية .

وعدة كتائب من جنود البحرية (المارينز) الى جانب حظيرة كبيرة وميناء اصطناعي لإيواء الطائرات المائية ومستودعات للبنزين • وانشيء في جزيرة ايسترن مدرج للطيران طوله ١٨٠٠ م • ويبدو كل ما ذكر في أيامنا كشيء عفا عليه الزمن بصورة صارخة ، ولكن كان في تلك الايام عملا رائعاً •

الاميرال ياماتو : القائد الاعلى للاسطول الياباني

وقد قذفت ميداوي لاول مرة بالقنابل خلال ليلة ٧ الى ٨ كانون الاول ١٩٤١• وبعد خمسة عشر يوما جيء بامدادات الى الآتول ، وبعد سقوط جزيرة وايك بأيدي اليابانيين ، أصبحت ميداوي أكثر القواعد الامريكية بعداً نحو الغرب في المحيط الباسفيكي • وكان من المحتم على اليابانيين أن يهتموا بها ، لانهم لايستطيعون مراقبة ما يجري فيها ، نظراً الى أن الآتول يقع خارج مدى نطاق عمل طائراتهم المتمركزة في وايك • اذن كان عليهم أن يتقدموا في اتجاهها ليروا ما يحدث عن كثب ، أكثر •

ولما عجز اليابانيون عن اجتياح بور مورسبي ، فقد التفتوا نحو الشمال ، لان الوقت كان يعمل في غير مصلحتهم كما كان الاسطول الامريكي يسترد أنفاسه ، ومن الواجب تدميره في أقصى سرعة ممكنة وبأشد ما يمكن من القسوة • وقد قال الاميرال ياما موتو ، القائد الاعلى ، وكرر ذلك ، بأن اليابان إذا عجزت عن أن تربح الحرب في عام واحد ، فمعنى ذلك انها فقدت كل قدراتها • اذن كان الهدف الاول قسر الامريكيين على الاشتباك في معركة محتدمة فوق البحر والقضاء عليهم دفعة واحدة • وعلى اليابانيين الانطلاق نحو عقر دار الامريكيين ، على مقربة من جزر هاوائي ، والتقدم بخطوة اضافية لما وراء المحيط الدفاعي الذي كان لايزال غير بعيد كثيراً عن القواعد المعادية ، ودفع النطاق المذكور حتى محوره الاقصى الممتد من جزيرة كيسكا (جزر آلوشيان) ، ميداوي ، جزر جيلبرت ، جزيرة وادي القنال ، ومورسبي •

الخطة اليابانية :

ولتحقيق ذلك عمد الاميرال الياباني ياماموتو (Yamamoto) الى تعبئة كل القوات البحرية العاملة تحت إمرته • ولسوء الحظ كانت اثنتان من « حاملات طائراته » الكبرى ، من أصل ثمان ، معطّلتين وفي ورشات التصليح في اليابان • غير أن الاميرال ياما موتو أصرّ ، بعد معركة بحر المرجان ، على الاندفاع شرقاً ونظم حركته على الشكل التالي :

ـ قوة ترسل الى جزر آلوشيان مع حاملتي طائرات ، تعمل مع كل الاستقلال في حركيتها •

ـ ووجه نحو ميداوي ثلاث مجموعات من غواصات مهمتها مراقبة تحركات الاسطول الامريكي واقامة قواعد تموين لطائرات الاستطلاع الضخمة •

ـ قوة صدام يقودها الاميرال ناغومو ، تشتمل على أربع حاملات طائرات ، ومجموعة دعم ، ومجموعة مرافقة للحراسة •

ـ مجموعة لاحتلال ميداوي يقودها الاميرال كوندو •

ـ وظـل القسم الاعظم من القـوات تحت أوامر ياما موتو شخصيا ، ويضم بوارج هي أضخم مثيلاتها في العالم (٦٠٠٠٠ طـن) وطرادات ثقيلـة وخفيفـة ، و « حاملة طائرات » خفيفة •

الاميرال شستر نيميتز ، القائد الاعلى للاسطول الباسفيكي

وبعبارة مقتضبة كانت تضم هـذه الحملة خمسين وحدة بحرية ، تمثل زهـرة الاسطول الموجود في جيش بحرية الميكادو ••

ولكن كان هناك ظل يخيّم على هذه اللوحة : وهو أن الاميرال الياباني كـان يجهل الوسائل المتوفرة لدى خصمه ، لان مصادر استخباراته كانت شبه معدومـة، إذ سبق أن تم القضاء على كل شبكة التجسس اليابانية في جزر هاوائي • والواقـع لقد كان الاميرال ياما موتو « أعمى » بسبب افتقاره الى وسائل طيران بعيدة المدى• فحاول تكوين فكرة عن نوايا الامريكيين ، الذين كان لا يقدّر قواتهم حق قدرها ،

كما كانت نظرته اليهم لا تخلو من شيء من الازدراء • أما القادة الذين كانوا يعملون تحت أوامره فقد كانوا ثملين بنشوة زمر الانتصارات التي حققوها ، فقد كانت لديهم الثقة المطلقة برؤسائهم ولم يكن لديهم سوى فكرة وحيـدة : القضاء بأسـرع وقت ممكن على ما تبقّى من الاسطول الامريكي بعد غارتهم المباغتة على بيرل هاربور ، وبعد معركة بحر المرجان غير الحاسمة •

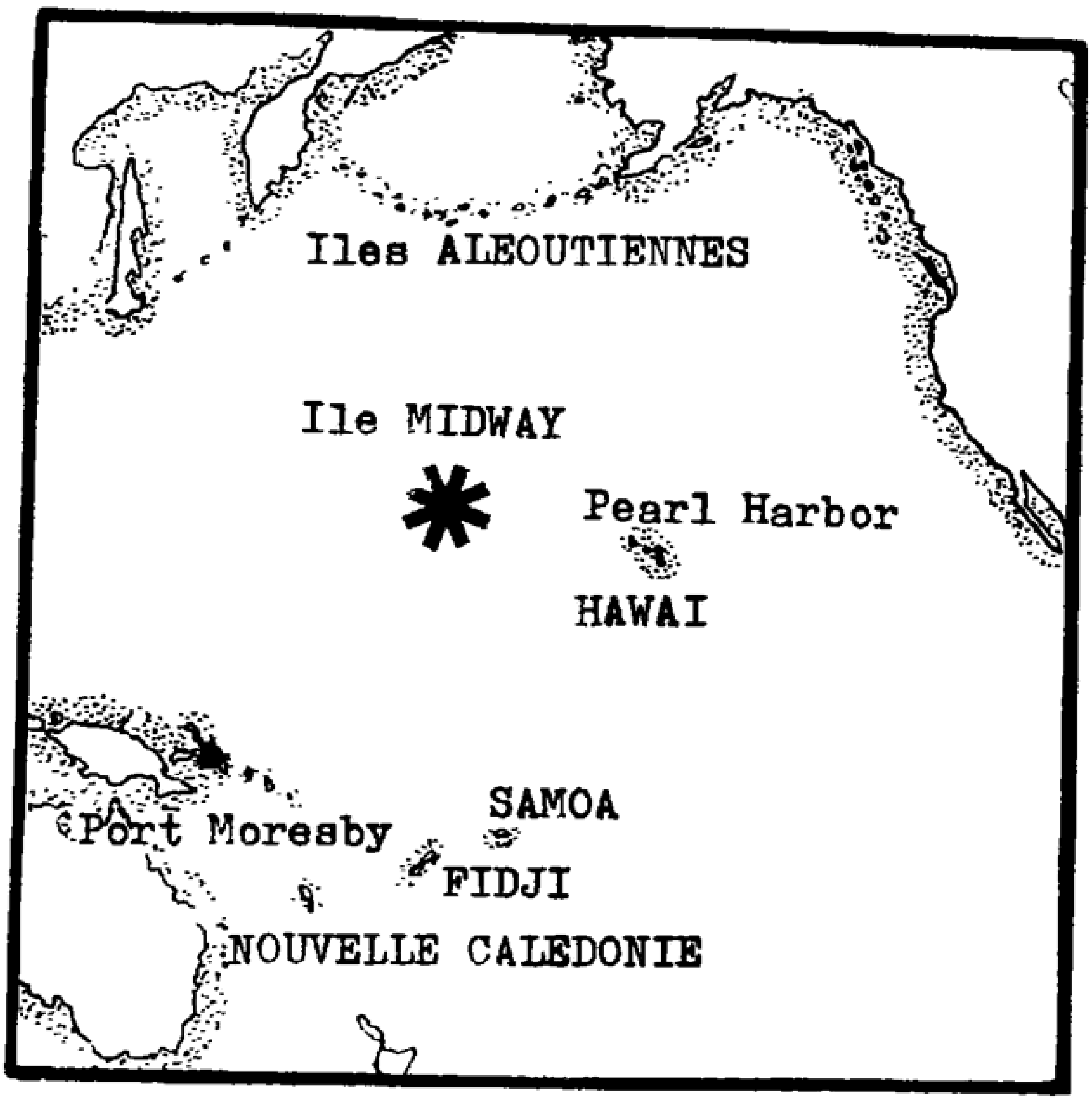

ميـدان معركة ميداوي

وقد ارتكب الاميرال ياما موتو أول غلطـة ببعثرة قواته عندما أرسل قسمـاً من « آرماداته » نحو جزر آلوشيان النائية شمالا ، وبتجزئة المجموعات الاخرى ، وبتقدمه ، هو ذاته ، مع معظم بوارجه على مسافة يومين من قوة الصدام المرافقة • وأخيراً كان يعتقد أنه تجـاه حاملة طائرات واحدة ، في حـين كان عليـه أن يواجه ثـلاث •

من الجانب الامريكي :

وكان من حسن طالع الأمريكيين أن كان لديهم قادة من ذوي الكفاءة العاليـة

جداً : مثل الاميرال نيميتز (Nimitz) ، قائد أسطول الباسفيكي ، وهو بحار كله حيوية يتميز بدقة الحس والذكاء ، ويتصف بطاقة جبّـارة على العمل ولديه عبقرية إصدار القرارات السريعة . وكان يعمل تحت أوامره اللواء البحري فلتشـر (Fletcher) والامـيرال سبروانس ، وهما قائدا قوتي العمل (Task Force) . وقد تلقى نيميتز الاوامر بالحفاظ ، بالغا ما بلـغ الثمن ، على خط يربط ميـداوي بجزيرة ساموا وجزر فيجي وميناء بريسبان الاسترالي ، وبالدفاع عن مثلث ميداوي ــ جونستون ــ هاوائي، وبحماية خطوط المواصلات بين الولايات المتحدة ونيوزيلندة واستراليا .

واذا كان اليابانيون مفتقرين للمعلومات الجوهرية عـن اعدائهم ، فقد كـان الامريكيون ، على خلافهم ، مطلعين على كل ماهـم بحاجة اليـه ، وكانـوا يقرأون تفاصيل مخططات خصومهم بعد أن أفلحوا في فك رموز الشفرة البحرية المعادية . ولم يكن الاميرال نيميتز يجهل، منذ شهر نيسان، بأن هجوما يتحضّر ضد ميداوي. وبينما كانت معركة بحر المرجان على أشدها ، كان يعرف أن خصومه يركّزون القسم الأعظم من أسطولهم في بحر اليابان الداخلي. وما أن خمد وطيس المعركة حتى لـمّ شمل « حاملة طائراته » الوحيدة في أقصى سرعة ممكنة ، والتي كان التقنيّـون يرون بأن إصلاحهـا يستغرق شهراً كامـلا ، بيـد أن « حاملة الطـائرات » يوركتـان (Yorktown) عادت لحالتها الطبيعية ، سليمة ، خـلال ثمان واربعين ساعـة ! وكانت كل سفنه مجهزة بالرادار . وأخيراً كان لدى الاميرال نيميتز مركزاستخبارات ممتاز في ميدواي ذاتها . هذا كما حصل على معلومات إضافية من جزر آلوشيان. وهكذا تكوّنت لديه ، في قاعدة قيادته ، في بيرل هاربور ، فكرة واضحة تماماً عـن الموقف ، ولكن لحسن حظه ، كان هو بدوره ، يبخس قيمة قوة خصمه ، مما سمح له بالانطلاق نحو المعركة دون مخاوف وهمية كبيرة .

وعليه اكتفى نيميتز بأن أرسل نحو الشمال قوة صغيرة ، ولكنها كافية للتصدي لأي طارىء ، موضوعة تحت قيادة الاميرال ثيوبالد . واحتفظ لنفسه بما تبقى ، أي

اللـواء البحري فلتشر

بقوتي العمل (Task) ، واتخذ وضع الانتظار الى الشمال من ميداوي • وكان من حسن حظه أيضا أن كان نصب حاجز الغواصات اليابانية قد جرى بعد يوم من مرور اسطوله من جزر هاوائي نحو ميدواي • وبذلك لم تكتشف الغواصات المعادية شيئا من أمره •

دور ميداوي :

وهكذا كان الاميرال نيميتز يتصرف بثلاث « حاملات طائرات » كبيرة هي : يوركتان التي أمكن تضميد جراحها، وهورنت (Hornet) وآنتربرايز (Enterprise)

وهي الحاملات التي قامت بالغارة على طوكيو بفضل طائرات من طراز دوليتل • وفي الحقيقة كان يملك « حامــلة طائرات » رابعة ، هي جزيرة ميــدواي ذاتها ، والتي استقبلت تعزيزات عظيمة منذ شهرين •

وعندما قصد الاميرال نيميتز ذاته جزيرة ميدواي للتفتيش، في مطلع شهر أيار، كانت الجزيرتان الصغيرتان محاطتين بحزام من بطاريات عديدة من مدفعية الموقــع الثابتة ، ومن المدفعية المضادة للطائرات • وقد تمّ تعزيز دفاعاتها بصورة محمومة ، هذا فضلا عن بناء ملاجىء تقاوم قنابل الطائرات ، كما تم انزال كتيبة جديدة مــن رجال البحرية مع دبابات خفيفة • وقد جرى نشر سلاسل من ألغام أرضية وألغــام بحرية • وقد أمكن تخزين ملايين الغالونات من البنزين في مستودعات تحت الارض• وتمركزت فوق الجزيرة مائة وعشرون طائرة قتالية • ورابطت في القناة عشرة زوارق سريعة من قاذفات الطوربيد • وارتفع عدد القوات المقاتلة الى ١٤١ ضابطا و ٢٨٨٦ جندياً • وأخيراً وقبل اسبوع من نشوب المعارك جرى تمرين الانــذار ، الذي كاد أن يتحول الى كارثة ، ذلك أن جندياً حرك رافعة بشكل معكوس ، فاشتعلت النيران وأحرقت ٤٠٠٠٠٠ غالون من البنزين ، وقد أمكنت السيطرة على الحريق ولكن••• كان الحر لايطــاق •

ياما موتو ينطلق :

لما كان الاميرال ياماموتو يعتمد ، دون أدنى ريب ، على مفعول المباغتة ، ولما كان يحسب أن عملية ميدواي ستتم دون إطلاق قذيفة واحدة ، وكان موقناً أن اسطول الولايات المتحدة لا يملك بوارج سريعة ، ولم يكن يقدّر عدد « حاملات الطائرات» المعادية حق قدره ، وكان يجهل أن الاميرال نيميتز لديه كل المعلومات الضــرورية ، ولم يكن يتصور أن يراه في مياه منطقة ميدواي قبل السابع أو الثامن حزيران ، فقد أصدر أوامره بالاقلاع •

وقد انطلقت « مجموعة الحملة المتقدمــة » التي يقودها الاميرال كوماتسو ، والتي تضم ثلاث مجموعات من الغواصات ، في الطليعة ، وكانت في وضع متقــدم

جداً بالنسبة لبقية اسطول الحملة • واندفعت غواصتان حتى منطقة « رصيف الفرقاطة الفرنسية » كي تشكل محطة قادرة على تموين القاذفات الكبرى ذات المحركات الاربع ، وبلغت المكان المقصود في ٢٦ أيار ووجدت فيه ••• سفينتي تموين امريكيتين ، ولكن الغواصتين لم تصر؟ على مباشرة القتال • وانتشرت المجموعة الرئيسة من الغواصات على شكل حاجز موجّه من شمال الشمال الشرقي نحو جنوب الجنوب الغربي ، بين درجتي العرض ٢٦ و ٣٢ شمالا وخطي الطول١٦٥ و ١٧٠ غرباً • وقد وصلت متأخرة ، بعد فوات الفرصة ، فلم تعترض سبيل الاسطول الامريكي ، وعجزت عن تقديم شيء من المعلومات •

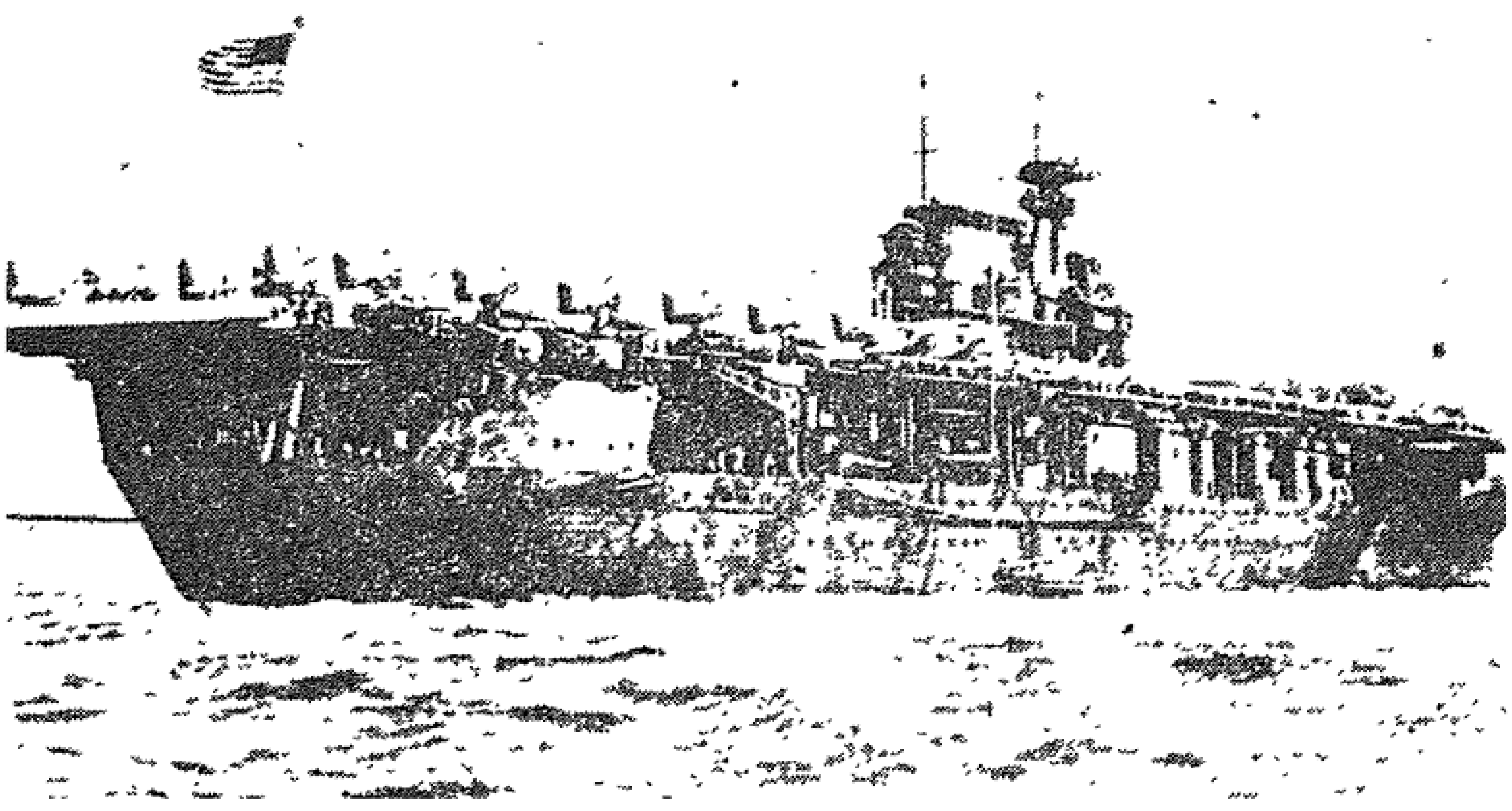

حاملة الطائرات« يوركتان » قبل قليل من نشوب معركة ميداوي حيث جرى اغراقها بفعل الطيران الياباني

واندفعت بعدئذ قوة المنطقة الشمالية ــ جزر آلوشيان ــ بقيادة الاميرال هوزوغايا ، مع « حاملتي الطائرات » ريوجو وجونيو ، وثلاث طرادات ثقيلة ، وناقلات الجند التي كان قصدها جزيرة كيسكا وجزيرة آفاك آتّو ، وكان قوامها ١٥٠٠ رجل • وغادرت قوة الصدام (Choc) التي عقدت رايتها للاميرال ناغومو بحر اليابان الداخلي بتاريخ ٢٦ أيار ، مع حاملات الطائرات آكاجي ، كاني ، هيريو، سيريو وتحمل (٨٤ مطاردة ، و ٨٤ قاذفة قنابل ، و ٩٣ طائرة من حاملات الطوربيد)،

هذا وكانت مجموعة الدعم مؤلفة من بارجتين ، ومن طرادتين ثقيلتين ، ومن مجموعة حراسة مؤلفة من احدى عشرة مدمرة مع طرادة خفيفة . وقد خرج القسم الاعظم من هذه العمارة من البحر الداخلي الياباني بقيادة الاميرال كوندو ، مع بارجتين ، و « حاملة طائرات » خفيفة وأربع طرادات ثقيلة وثماني مدمرات . وكانت القوة المذكورة مصحوبة بمجموعة دعم منضمة مؤلفة من أربع طرادات ثقيلة ومن مدمرتين وسفن نقل تحمل ٥٠٠٠ رجل . وغادرت هذه المجموعة جزيرة غوام في السابع والعشرين من أيار ، وأخيراً خرج مع عمارة الاميرال ياماموتو آخر مجموعة من البوارج يقودها الاميرال تاكاسو الذي كان عليه أن ينحرف باتجاه جزر آلوشيان ، في الشمال الاقصى من الباسفيكي .

وقد كانت هذه « الآرمادا » إحدى أقدر التمركزات في المحيط الهادىء ، هذا إن لم نقل أقواها اطلاقاً . غير أنها لم تكن مع ذلك ، خالية من نقاط الضعف . فقد كان الاميرال ياماموتو ، المريض ، يعاني من آلام في معدته ، كما لم يكن لدى حاملات الطائرات الوقت الكافي للقيام بالاصلاحات التي لاغنى عنها قبل عملية بحرية جديدة . ولكن كانت الثقة عارمة لدرجة أنه تم اختيار الاسماء اليابانية التي ستطلق على الجزر الجديدة الصغرى المفتوحة ...

وكانت النية متجهة لقذف ميناء دوتش هاربور بالقنابل في الثالث من حزيران ، والنزول في جزيرة ميدواي في مساء الخامس منه وجر القوة البحرية الامريكية الى المعركة واستئصال شأفتها تماماً من المحيط الأعظم .

ولكن الامر الباعث على القلق ، في كل ذلك ، هو أن الاميرال نيميتز لم يلعب لعبة خصمه ... بل لعبته الخاصة ، مع الكثير من الذكاء ، فكان هو الذي سجل الأهداف الرابحة على عدوه ..

نيميتز ينهض بأعباء مسئولياته :

لقد لجأ الاميرال الامريكي الى تشعيب قواته على الصورة التالية :

ـ مجموعة حاملات الطائرات تحت أوامر الاميرال فلتشر وتضم قوة العمل١٧ Task (حاملة الطائرات يوركتان ، مع طرادتين وست مدمرات) •

ـ قوة العمل ١٦ بقيادة الاميرال ريموند سبروانس مع حاملة الطائرات آنتر برايز ، وحاملة الطائرات هورنت ، وعلى متن كل منهما ٧٩ طائرة ، مع ست طرادات واحدى عشرة مدمرة •

الاميرال سبروانس الذي كان يقود عمليات الاسطول الاميركي الخامس في المحيط الهادي

وفضلا عن ذلك كان هناك اسطول صغير مؤلف من تسع عشرة غواصة •

أما الطيران المتمركز في ميدواي فقد كان يشتمل على التحديد على ما يلي : ٣٢ طائرة من طراز كاتالينا ، ست طائرات من طراز آفانجر ، عشرين طائرة من نمط

بوفالو ، سبع طائرات ف ٤ ـ ف ٣ ، احدى عشرة طائرة فانديكاتور ، ست عشرة طائرة س ب ، وأربع طائرات ب ٢٦ مارودور ، وثلاث عشرة طائرة من القلاع الطائرة ، وست طائرات ب ١٧ •

نعم هذا كل ما هنالك ، وهو ليس بالكثير •

ولكن لنتأمل هذه الجملة التي كتبها أحد مؤرخي هذه المعركة « لقد كان بمقدوره أن ينظم تصرفاته بكل نجاح استناداً الى المعلومات الدقيقة جدا عن مخططات وعن استعدادات اليابانيين ، التي كان يتلقاها منذ العاشر من أيار ، والتي كانت تمثل تركيباً للمعلومات المستقاة من أكثر المصادر تنويعاً » ، ويتصف الرؤساء العسكريون عادة بشدة التكتم حول هذه النقطة ، ويرجحون ألا ينظر اليهم عامة الناس على أنهم عباقرة •

وقد كانت حالة الاستنفار سائدة منذ الرابع عشر من أيار في كل قاطع جزر هاوائي • وكان على كل قطعات الاسطول الالتحاق والتواجد في بيرل هاربور ، واتخذ الاميرال نيميتز قراره الرئيسي بالنسبة للمعركة ، وذلك بعد تسليمه بمصداقية المؤشرات الواردة من رئيس مصلحة استخباراته ، والتي كانت تؤكد أن ميدواي وجزر آلوشيان تؤلفان الاهداف الرئيسية لعدوه• وكان ضباط المخابرات يتدارسون في كل يوم تقريباً خارطة تحركات الاسطول الياباني ، ولكنهم وجدوا ، في وقت متأخر ، ان تقديراتهم كانت صحيحة ، ولكن مع خطأ طفيف ، وهو أن قوة عدوهم كانت تتجاوز تقديراتهم بنسبة الخمس •

وقد تم نشر مخطط العمليات مساء السابع والعشرين من شهر أيار ، ولم يكن مشجعاً إطلاقا • وكانت الاوامر المعطاة لقادة قوتي العمل (Task Force) تنص على ما يلي : « إنزال أكبر قدر ممكن من الاضرار والاصابات بالعدو وذلك باللجوء الى تكتيك استنزاف مكثف » ، وهو ما يعني بالكلام الواضح : تنفيذ الهجمات الجوية • وأمر بنميتز باتخاذ مواضع مبدئية في شمال شرق جزيرة ميدواي ، أي

فيما وراء مــدى فاعلية طائرات الاستطلاع اليابانية • أما الاستكشافات الجـوية الامريكية فيجب أن تندفع حتى مسافة سبعمائة ميل في مقدمة الجزيرة ، أي غرباً ، ومن المنطقي أن تتمكن من اعتلام مكان حاملات الطائرات المعادية قبل أن يكـون وجود الاسطول الامريكي معروفا من طرف العدو •

وظل الاميرال نيميتز في مقر قيادته في بيرل هاربور ، ولما كان الاميرال فلتشـر متقدما على الاميرال سبروانس فقد أسندت اليه مهمة القيادة العليا لقوتي العمـل بمجرد انضمامهما لبعضهما البعض • ولكن علينـا أن نتذكر ان جملة قوتي العمـل والاميرال ثيوبالد ، وقاعدة ميدواي ، والغواصات ، ظلت جميعاً تحت هيمنة القائد الأعـلى •

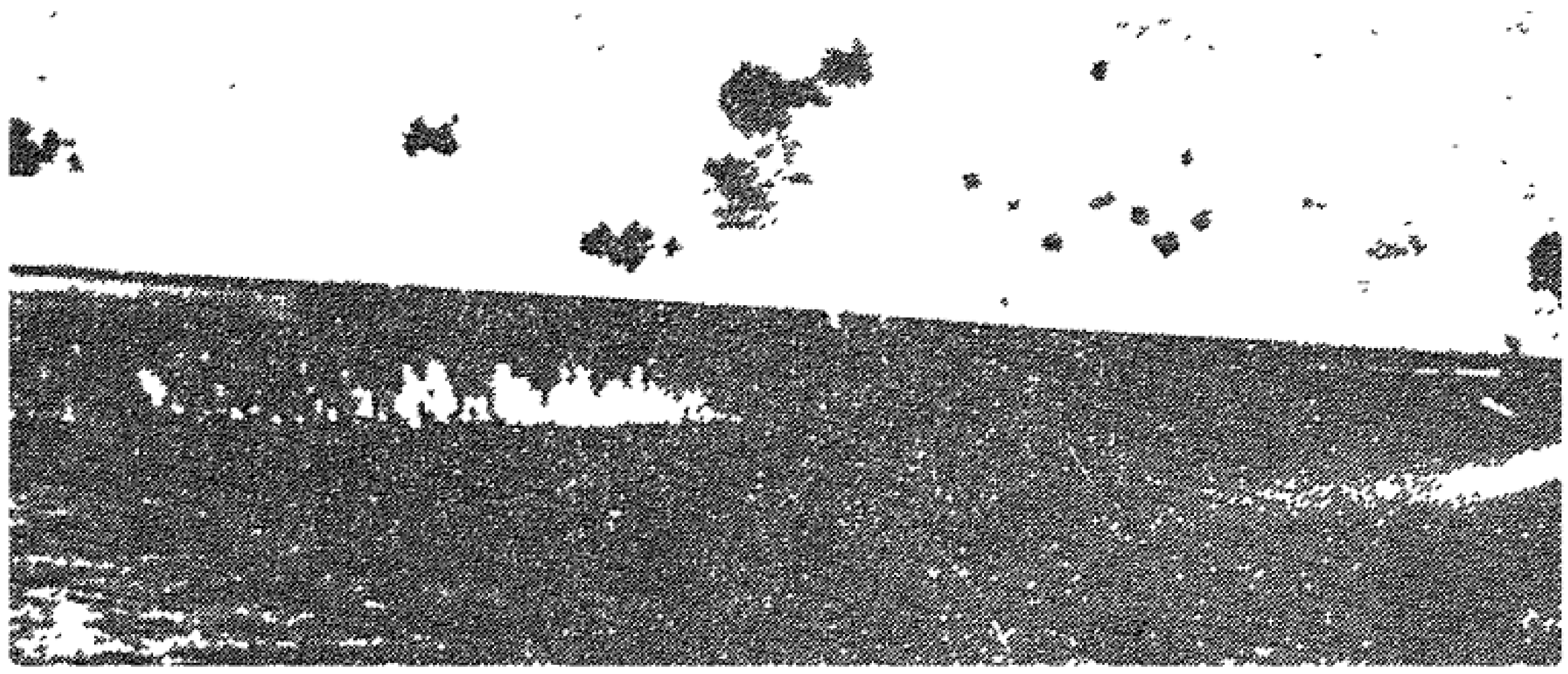

رمي السد الدفاعي خلال معركة ميداوي للحيلولة دون اقتراب الطائرات اليابانية

وقد كانت الاسابيع الثلاثة السابقة للمعركة أشـد توتراً وعصبية من سـائر الاوقات التي شهدتها هيئة أركان حرب الاميرال نيميتز خلال الحرب ، ولم يكـن القلق مبرراً على الاطلاق أكثر من مثل هذه الحالة • وقد كان نيميتز شديد الثقـة بنفسه وبمعلومات استخباراته • واذا تركنا ذلك جانبـا فهـو لم يكف عن ارسال السفن الناقلة للتعزيزات بين الساحل الغربي للولايات المتحـدة وبين ميناء نوميئـا (عاصمة جزيرة كاليدونيا الجديدة) ، واستراليا ونيوزيلندة ، اذ كان يحسب ، وهو

على صواب ، ان المعركة بعد أن تنشب شمال خط الاستواء ، ستندلع على العـور في جنوبه ».

وقد وصلت قوة العمل ١٦ بقيادة الاميرال سبروانس ، مع حاملتي الطائرات آنتر برايز وهورنت ، الى بيرل هاربور ، في السادس والعشرين من أيار ، كي تغادره في الثامن والعشرين منه ، هذا في حين وصلت قوة العمل ١٧ بقيادة فلتشر مع حاملة الطائرات يوركتاون الى بيرل هاربور في السابع والعشرين من أيار كي تنطلق خارجة منه في صباح الثلاثين من الشهر المذكور • وفي الثاني من حزيران انضمت قوتا العمل الى بعضهما على مسافة ٣٢٥ ميلا شمال شرق ميدواي • وكانت هناك اثنتا عشـرة غواصة تحوم متجولة في غرب آتول ميدواي ، وكانت ست غواصات تعمل فيمنطقة جزر آلوشيان ، وأربع غواصات على مسافة ثلاثمائة ميـل شمال واهـو (Oahu) وثلاث غواصات في وضع الاحتياط •

هاهم اليابانيون :

لقد لعبت الاوضاع النوئية دورا كبيرا في سير مقدمات المعركة • فقـد كانت هناك عواصف وزخات مطر شديدة وسحب ثقال تهدد باستمرار غرب وشمال غرب ميداوي ، في الموقع الذي تتلاقى فيه رياح الآليزيه (الريـاح التجـارية) مع تيار اليابان • أما في الجنوب الغربي فتكون السماء صاحية عادة ، على العكس •

وعلى مسافة ثلاثمائة ميل في شمال غرب ميدواي كانت هناك منطقة انخفاض جوي تقدم غطاءاً مثالياً لحاملات طائرات الاميرال الياباني ناغومـو ، وكان الضباب على قدر من الكثافة بلغ درجة جعلت هذا الاميرال ، في الثاني من حزيران ، يفقـد التماس ، بواسطة الرؤية ، مع سفنه • وقد كانت هذه هي البرهة التي كان علبه أن يبدل اتجاهه كي ينقض على آتول ميدواي الامريكي • ولكنه كان يسمع من فـوق الضباب هدير محركات طائرات الاستطلاع الامريكية • وظل يتردد لفترة طويـلة، ولكنه اضطر أخيراً لاتخاذ قرار يتخلص فيـه من صمته وأصـدر أمره باللاسلكي

بالاتجاه نحو ميدواي • ولكن الغريب هو أن الامريكيين الذين كانوا ينصتون لكل بت لم يلتقطوا هذه الاشارة •••

وقد كانت طائرات الجزيرة هي التي أبصرت اليابانيين ، في البداية ، وذلك على مسافة سبعمائة ميل، في سمت ٢٧٠ من ميدواي، وذلك في الثالث من حزيران ١٩٤١ حوالي الساعة التاسعة• وقد كان الملازم البحري، جاك ريد ، الذي كان يقود طائرة من نوع كاتالينا ، هــو الذي رآهم ، على مسافة ثلاثين ميلا أمامــه « إنهم أشبــه بمراكب أطفال صغيرة في حوض كبير » وأشار لوجود احدى عشرة سفينة • وبالفعل كانت هي ناقلات جند الانزال •

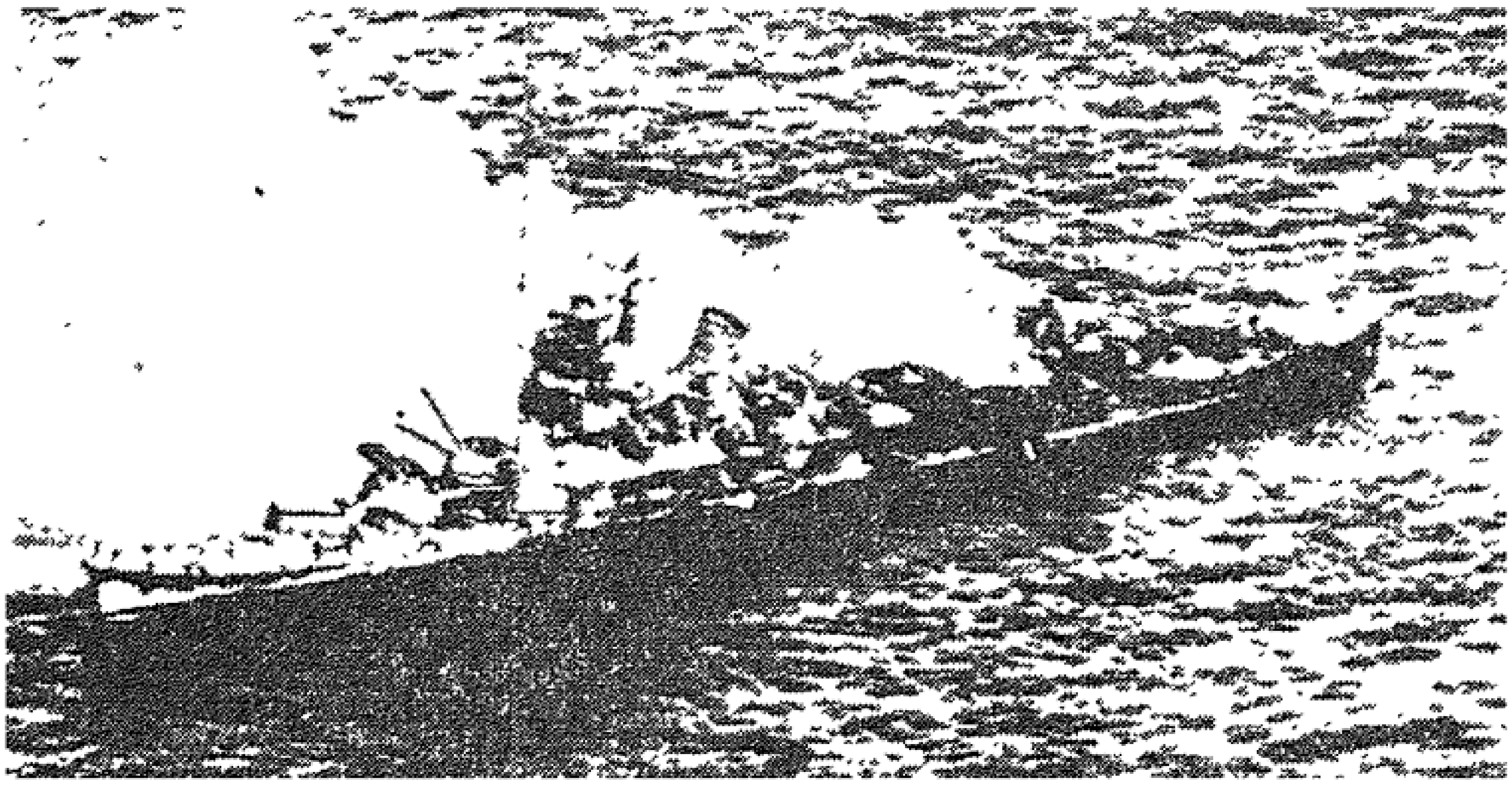

عمود كثيف من الدخان يصعد من الطرادة « موغامي » بعد هجوم الطائرات الامريكية

أكبر مشهد في العــالم :

لقد أوعزت قيادة الجزيرة لتسعة طائرات من طراز ب ٢٧ بالاقلاع فاكتشفت القافلة المعادية في الساعة ١٦ و ٢٤ دقيقة ، وقصفتها على ثلاث دفعات ، ولكن لــم تستطع أية قنبلة أن تعطي نتيجــة حاسمة • وفي الساعة الواحــدة و ٤٥ دقيقة ليلا انطلقت اربع طائرات كاتالينا مجهزة بطوربيدات وهاجمت القافلة اليابانية في ضــوء القمر الساطع ، فأصاب أحد الطوربيدات ناقلة نفط ولكن دون أن يحدث أضــراراً كبــيرة •

وهكذا نشبت المعركة • أما في بيرل هاربور فقد كانت هيئة أركان الحرب في القيادة العليا تتلقّى أنباءها • وقد كتب محرر سجل الوقائع ما يلي : « ربما تعلقت مجريات حرب الباسفيكي قاطبة بأحداث اليومين أو الثلاثة القادمة » •

وفي الثالث من حزيران ، في الساعة ١٨ (توقيت نصف الكرة الغربي وتوقيت الحزمة الساعية + ١٢) كانت حاملات الطائرات الامريكية موجودة على مسافة ثلاثمائة ميل الى شرق الشمال الشرقي من ميدواي ، أو حوالي مسافة ٤٠٠ ميل الى الشرق من النقطة التي كانت تتقدم منها حاملات الطائرات اليابانية بسرعة ٢٥ عقدة في اتجاه قاعدة انطلاق حاملات الطائرات الامريكية •

وقد تلقى فلتشر تقرير الاكتشاف من ميدواي ، ولكنه اعتقد بأن الامر لا يتعدّى استطلاع مجموعة من ناقلات الجند مصحوبة بحراستها •

هذا كما كان فلتشر يعرف مسبقا ان « حاملات الطائرات » المعادية تقترب من ميدواي من طرف الشمال الشرقي وأنها ستقصف الآتول في الرابع من حزيران عند الفجر •

وهكذا أبحر فلتشر منطلقاً نحو الجنوب الغربي في الثالث من حزيران ، في الساعة ١٩ و ٥٠ دقيقة على أمل أن يبلغ عند فجر الرابع منه نقطة تبعد بمقدار ٢٠٠ ميل شمال ميدواي ، وحيث سيصب نيرانه على اليابانيين ، هذا فيما اذا تم الاستهداء الى مجموعة الصدام اليابانية •

وكان فلتشر يفكر ، وهو على حق ، أن وجوده لازال سراً ، وأنه هو الذي سيستغل مفعول المباغتة •

وهكذا سنرى ، اذن ، ان مجموعتي « حاملات الطائرات » المتخاصمتين تقتربان من بعضهما بعضاً في ليل ٣ الى ٤ حزيران • وأخذ فجر يوم الرابع من حزيران ينبلج بعد الساعة الرابعة بقليل • وكانت الرؤية تمتد لمسافة تتراوح بين ٣٥ الى ٤٠ ميلا وكانت الحرارة منعشة وتتأرجح بين ٢٠ و ٢١ درجة مئوية •

وانطلقت من حاملة الطائرات « يوركتاون » عشر طائرات من طراز س ب د في الساعة الرابعة والنصف صباحا كي ترتاد نصف الدائرة الشمالي في نصف قطر مداه ١٠٠ ميل • وفي هـذه الفترة بالذات لم تكن قوة الصـدام اليابانية بقيادة الاميرال ناغومو ، والواقعة على مسافة ٢١٥ ميلا ، قد خرجت بعد من منطقة المنخفض الجوية، وانهم سيطلقون أول موجة من طيرانهم على الآتول •

غير أنه في الساعة الخامسة و ٣٤ دقيقة تلقت محطـة اللاسلكي فوق حاملـة الطائرات آنتربرايز « برقية تقول : ان (حاملات الطائرات) المعادية تحت النظر »• وقد صدرت هذه البرقية من طائرة ب ب ي (B. B. Y) الى قاعدتها في آتول ميدواي• وقد أرسلها العقيدان البحريان هوارد آدي و ويليام شيز ، وقد صرح آدي : « أن المنظر كان كما لو أن الحجاب قد انحسر عـن أكبر مشهد في العالم » فقـد أخـذ الضباب بالتلاشي •

وجاءت برقية أخرى في الساعة الخامسة و ٤٥ دقيقة تقـول : « هناك بضـع طائرات تتجه نحو ميدواي ، سمتها ٣٢٠ ، والمسافة ١٥٠ » •

وتلتها برقية ثالثة في الساعة السادسة و ٣ دقائق : « تتجه حاملتا طائرات معادية نحو ميدواي ، سمتهما ٣٢٠ ، والطريق على ١٣٥ ، والسرعة ٢٥ » •

ويقع هذا الموضع على مسافة ٢٠٠ ميل الى غرب الجنوب الغربي من قوة العمل ١٦ •. وهذه هي المرة الاولى التي يتلقى فيها قائد وحدة أمريكية معلومات عن مكان وجود « الجسور المنبسطة » أي « حاملات الطائرات » اليابانية • وهكذا أصبـح فلتشر من الآن فصاعداً على علم بكل مجريات الامـور ، وأعطى أوامره المناسبة • وكانت الساعة السادسة و ٧ دقائق عنـدما أصدر أوامره الى الامـيرال سبروانس بالاتجاه نحو الجنوب الغربي ومباشرة الهجوم •

فـوق ميدواي :

واليكم كيفية مسار المعركة دون تزويق أدبي عديم الجدوى :

الساعة الرابعة والنصف : الطائرات اليابانية تقلع من فوق حاملاتهـا الاربع • وقد كان هناك ٣٦ طائرة من طراز كات ، و ٣٦ طائرة من طراز ڤال تحرسها ٣٦ طائرة من طراز زيكــه •

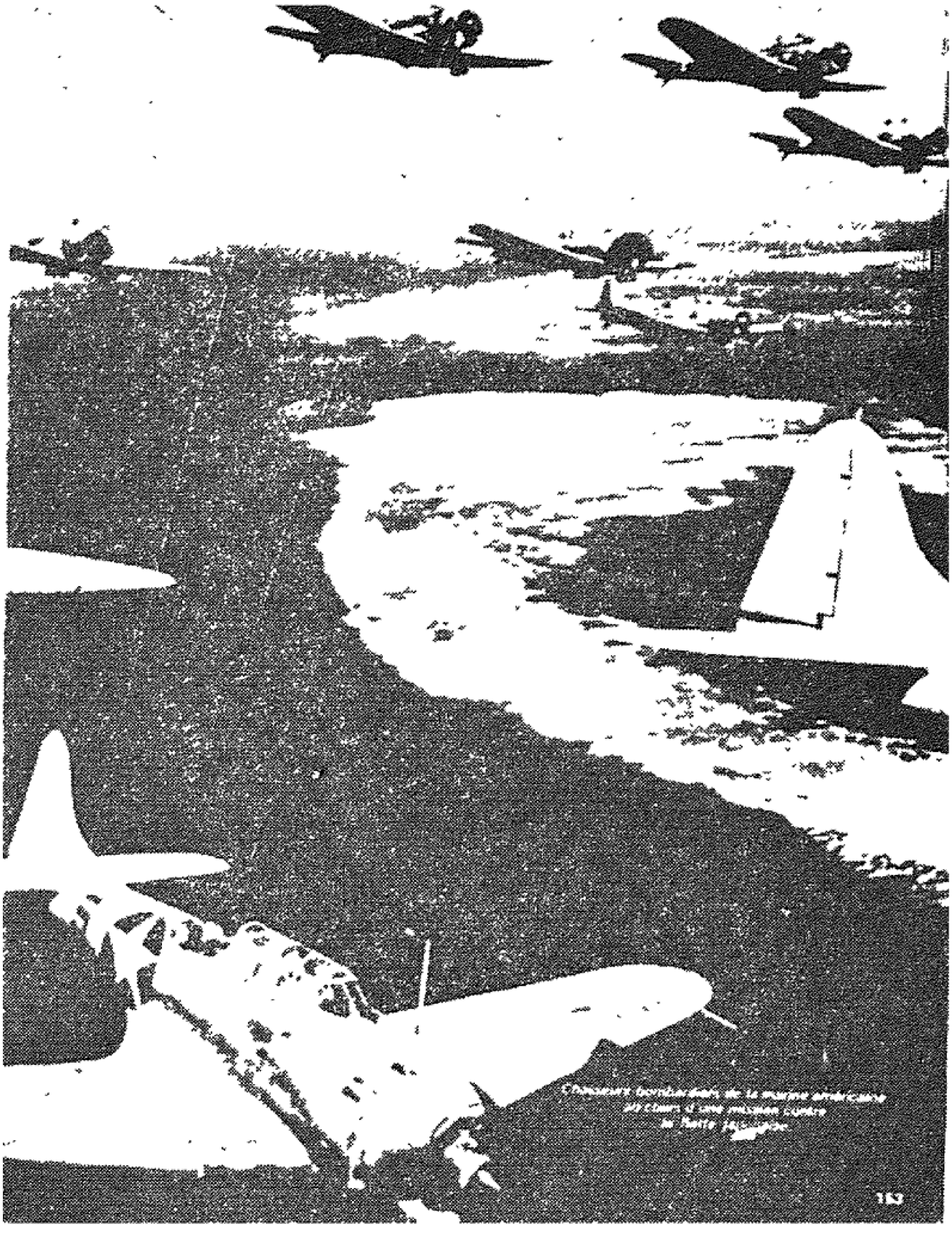

المطاردات القاذفة في البحرية الامريكية خلال مهمة ضد الاسطول الياباني

الساعة الخامسة و ٣٣ دقيقة : رادار جزيرة ميدواي يكتشفها على مسافة ٩٣ ميلا في الشمال الغربي • استنفار •

الساعة ٦ أقلعت كل طائرة صالحة للطيران من قاعدة ميداوي •

الساعة ٦ و ١٦ دقيقة : التقاء سرب المطاردة التابع لجيش البحرية الامريكي، على ارتفاع ٤٠٠٠ م ، أوائل الطائرات اليابانية وهي قاذفات القنابل • وقد صعدت الطائرات الامريكية الى ٥٦٠٠ م وانقضت ولكن طائرات زيكه اليابانية غمرتها •••

الساعة السادسة والنصف : سقوط أول قنبلة فوق ميدواي ، وكانت القاذفات اليابانية تخترق رمي السد الدفاعي فدمرت مركز القيادة ، وأصابت مركز توليد الكهرباء بأضرار خطيرة ، وخزانات بترول جزيرة ساند ، وحصدت سقيفة الطائرات المائية وأحرقت المستشفى الخ••• وكان عدد القتلى قليلا • وانتهى الهجوم في الساعة السادسة والنصف • وكانت خسائر اليابانيين مرتفعة بلغت تقريبا ثلث القوات المشتركة بالمعركة •

الساعة السابعة وربع : حاولت قيادة قاعدة ميداوي تجميع طائراتها المشتتة • وقد كانت الخسائر ثقيلة للغاية فقد خسر الامريكيون ١٧ طائرة بوفالو من أصل ٢٠

إذن كان التفوق من نصيب اليابانيين في الجولة الاولى •

هجوم ميداوي المعاكس :

أصدر الاميرال نيميتز أوامره الى قيادة الجزيرة بالزجّ بكل قواتها ضد حاملات الطائرات والعهدة الى مدفعية الجزيرة بالذود عنها ، وكان من جراء ذلك حدوث زمرة من الهجمات المعاكسة •

ــ في الساعة السادسة والربع : انطلقت ست طائرات نسافة من طراز آفنجر (ت ب ف) وأربع طائرات من طراز ما رودور (ب ٢٦) في الجو قبل بدء الهجوم المذكور ذاته •

ـ الساعة السابعة و ١٠ دقائق : التقت هـذه الطائرات بحامـلات الطائرات « المعادية » واشتبكت مع المطاردات العدوة • ومرت كل الطوربيدات بعيدا نوعا ما من أهدافها • وكانت الخسائر كبيرة في جانب الامريكيين •

ـ الساعة السابعة والربع : تردد الاميرال الياباني ناغومـو ، الذي ترك ٩٣ طائرة بحالة الاحتياط بعـد انطلاق أول موجة من طائراته ، أقول تردد في اطلاقهـا لافتقاره للمعلومات ، وأخيرا قرر العدول عن ذلك نهائيا ، وأمر طائراته بالهبـوط بقصد توفير المكان لاستقبال أول موجة من طائراته العائدة من ميدواي واستعدادا لقصف ثان ضد الجزيرة • واستغرق العمل الضروري لانجاز ذلك ساعة كاملة: وكان قراراً مميتا •••

ـ في الساعة السابعة و ٢٨ دقيقة : وصلت برفيـة الى الاميرال ناغومو مـن احدى طائراته الاستطلاعية • وشاهد قوتي العمل الامريكيتين • وهكذا علم الاميرال الياباني بأن الاسطول المعادي أصبح منه على قاب قوسين أو أدنى • وفي الحقيقة كان لايزال يجهل تركيب القوة العدوة • ولهذا لم يبدل أوامره

ـ الساعة الثامنة و ٩ دقائق : يشير المراقب الياباني الى أن الاسطول المعادي يحوي خمس طرادات وخمس مدمرات •

ـ الساعة الثامنة والثلث : يؤكد المراقب الياباني ، ذاته ، اعتقاده برؤية حاملة طائرات • وقد كانت دون ريب هي « حاملة الطـائرات» يوركتاون • وهنا أخـذ الاميرال ناغومو يتعرف على تفاصيل الموقف ، ولكن بعـد فوات الاوان ، ذلك ان طائراته الاحتياطية كانت عاجزة عن الاقلاع ، اذ كانت مـدارج « حاملات طائراته » مكشوفة بانتظار عودة الطائرات المغيرة على ميدواي • اذن أصبح عليه أن يتعرض لنتائج الهجمات المعادية •

ـ الساعة ٧ و ٥٥ دقيقة : ست عشرة قاذفة ، تابعة لمارينز ميدواي ، تظهر في الجو بحالة انقضاض • فتعرضت لوثبات من طائرات زيكة اليابانية • ولم تصب أي

من قنابلها حاملة الطائرات هـيريو ، ولم يعد من هـذه القاذفات الامريكية سوى ثمانية ، أي النصف •

الساعة الثامنة وعشر دقائق : قامت أربع قلاع طائرة لتقـذف كل منها ٨٥٠٠ رطلا من القنابل فوق اليابانيين من ارتفاع ٦٥٠٠ م ، وعادت كلها سالمة ، ولكن دون أن تصيب واحدة من قنابلها هدفها •

الساعة الثامنة والثلث : وصول احدى عشرة طائرة فانديكاتور ، من اسطول البحرية ، لتنقض على حاملات الطائرات اليابانية فتعرضت بدورها لوثبات طائرات زيكه • ولم تمسَس أية قنبلة امريكية قطع الاسطول الياباني • وعادت تسع طائرات منها الى قواعدها •

الساعة الثامنة والثلث : الغواصة الامريكية نوتيلوس تتعرض لهجوم بقنابـل الاعماق بعد أن هرعت للمعركة على أثر اعتراضها لبرقيات معادية • فقذفت طوربيدا باتجاه بارجة يابانية على مسافة ٤١٠٠ م ، ولكنها أخطأتها •

وهكذا كانت الجولة الثانية لمصلحة اليابانيين •

فقد خسروا اربعين طائرة ولكنهم دمروا نصف عدد طائرات قاعـدة ميداوي ، وكبدوا منشئات الجزيرة أضرارا بالغة • ولو وقـع قصف ثان للجزيرة من جـانب اليابانيين لكان ذلك كافيا لسقوط الجزيرة في أعقاب اقتحام فوري • ولكن سبـق السيف العذل •

معركة حاملات الطائرات :

لقد اتجهت قوتا العمل الامريكيتين نحو العدو في وضع هجومي •

في الساعة السادسة و ٧ دقائق : نسيم خفيف كان يهب مـن جنوب الجنوب الشرقي ، وكان البحر رهواً ، والرؤية ممتازة • نداء الى قيادات المعركة • وهبطت قوة العمل التي يقودهـا سبروانس حتى السمت ٢٤٠ • وبعد أن كانت نية هـذا

الاميرال تأجيل غارة طائراته حتى الساعة التاسعة بلغته أنباء تفيد أن جزيرتي ميدواي تعرضتا للهجوم ، فقرر أن يطلق لها العنان قبل ساعة من الموعد المحدد ، على أمـل أن يباغت اليابانيين ، الذين كانوا منهمكين في املاء خزاناتهم بالبنزين فوق مـدارج حاملاتها • وقد كانت تلك مخاطرة كلها تعقّل •

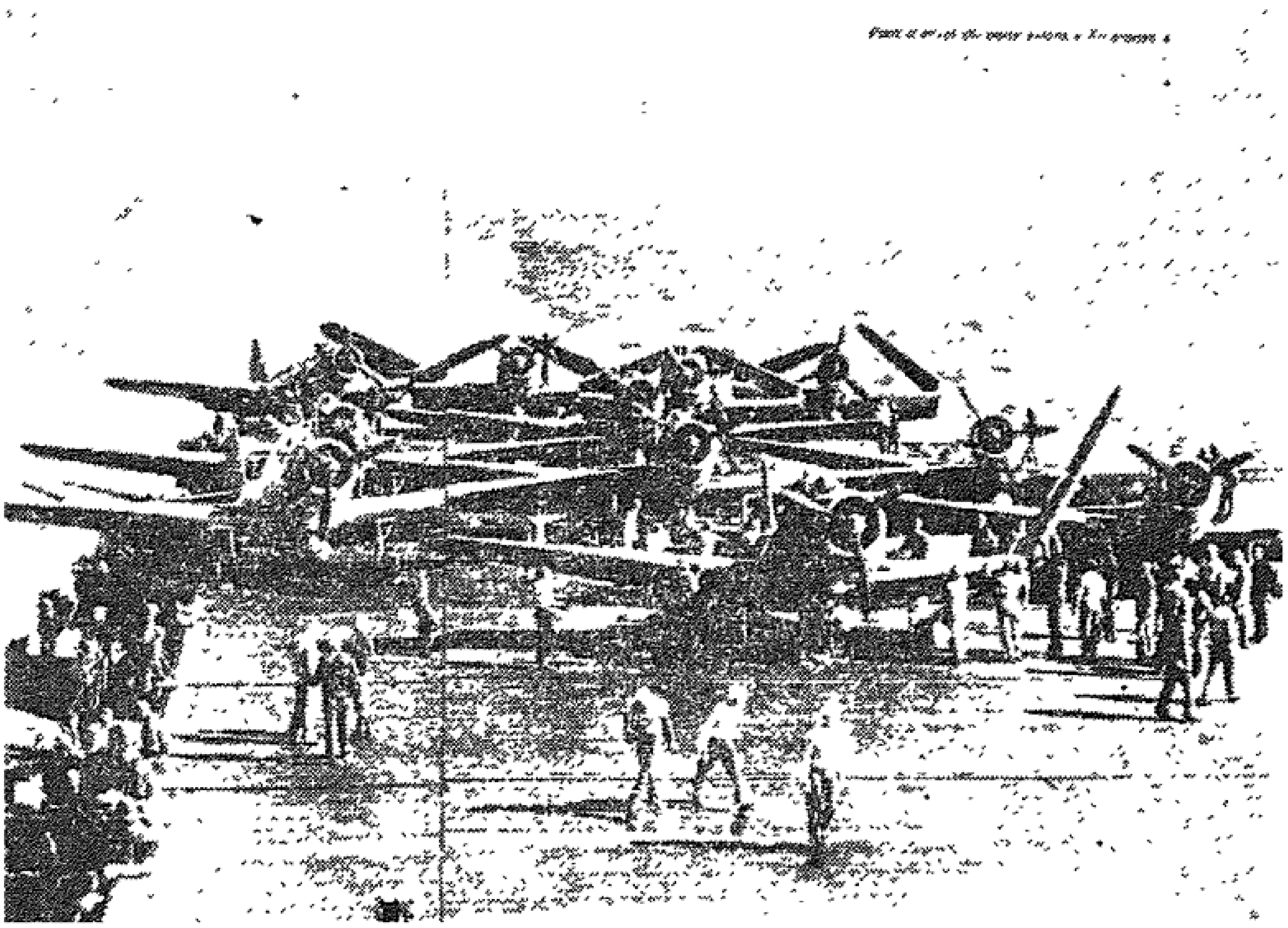

جسر أو سطح اقلاع الطائرات في الحاملة « آنتر برايز »

الساعة السابعة ودقيقتان : الطائرات تقلع من فوق الحاملة آنتربرايز ومن على الحـاملة هورنت •

الساعة السابعة و ٨ دقائق : ما كاد يقلع نصف عدد الطائرات الامريكية مـن فوق حاملاتها حتى كان الاميرال سبروانس مكشوفا من قبل طائرة يابانية مائيـة • وهنا قرر سبروانس اطلاق كل ما لديه من طائرات • وكانت هذه الموجة تضم عشرين طائرة مطاردة من طراز ويلدكات ، وست وعشرين قاذفة انقضاضية من نمط دوتتلس، وتسع وعشرين قاذفة نسافة من طراز ديفاستاتور ومكث فـوق مهابط الحامـلات

الامريكية ١٨ طائرة ويلد كات ، و ١٦ طائرة تقوم بدورية المطاردة ، وعدد مكافىء من الطائرات كبديل لها ٠

الساعة الثامنة و ٣٨ دقيقة : بالنظر الى ان فلتشر لم يتلق أي نبأ اضافي فقد قرر اطلاق نصف قاذفاته من فوق الحاملة يوركتان وسائر نسّافاته (١٧ س ب د ، ١٢ ت د ب ، ٦ ف ٤ ــ ف ٣) ٠

وكان الطيارون يشرفون من ارتفاع ٦٠٠٠ م على أفق يمتد نصف قطره على ٦٠ ميلا ، وذلك بفضل شدة صفاء الطقس ٠

الساعة ٨ و ٧ دقائق : أخذت الطائرات اليابانية العائدة من ميدواي في الهبوط على سطح حاملات الطائرات ٠

الساعة ٨ و ١٠ دقائق : بدأ تواتر برقيات من طائرات الاستكشاف تنذر باقتراب مجموعات جوية منطلقة من « حاملات طائرات » أمريكية ٠

الساعة التاسعة و ٥ دقائق : الاميرال ناغومو يحرف طريقه كي « يشتبك مع القوة المعادية ويدمرها » ٠

الساعة التاسعة و ١٧ دقيقة : تمت عملية هبوط الطائرات فوق مدارج حاملات الطائرات وتمت عملية التحول عن الطريق ٠ وقد كان اليابانيون ، على وجه التحديد ، في المكان الذي يتمناه لهم الاميرال سبروانس : فقد كانت كل قاذفاتهم قابعة منهمكة في إملاء خزاناتها بالوقود وتنطلق مشحونة بالمقذوفات ٠

بداية سيئة :

الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة : لقد أدى تبديل طريق الاميرال ناغومو الى نجاته من القاذفات المنقضة من مجموعة حاملة الطائرات هورنت : فقد فشلت ٣٥ طائرة من طراز س ب د في مهمتها ٠ وهكذا جرى استبعاد هذه الكتيبة كليا من المعركة ٠

الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة : أقبلت كتيبة من « حاملة الطائرات » كورنت

(وهي طائرات نسّافة) للاشتراك في المعركة ، دون حماية من المطاردات ، فتعرضت لهجوم طائرات زيرو الرهيبة التي أفلحت في اسقاط القاذفات الامريكية الواحدة تلو الاخرى • وهكذا تلاشت خمس عشرة طائرة ولم تكتب النجاة الا لرجل واحد من أصل ثلاثين •

الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة : اكتشف سرب من نسافات تابعة للحاملة هورنت العدو أيضا • غير أن الطائرات من طراز ديفاستاتور وعـددها ١٤ والبطيئة للغـاية تركت عشرة منها فريسة للمطاردات اليابانية : وانحرفت كل طربيداتها عن أهدافها •

الساعة العاشرة : وصل بغتة سرب نسافات الحاملة « يوركتان »• ولكن كانت سبعة طائرات من طراز ديفاستاتور فريسة النيران في حين كانت خمس منها تقـذف طرابيدها ، وتم اسقاط ثلاث منها •• ولم تمس أي من القذائف هدفها •

وهكذا لم يعد من الطائرات النسافة، وعددها ٤١ ، والمنطلقة من فوق «حاملات الطائرات » الثلاث ، سوى خمس طائرات، ولم يصب العدو ولو مرة واحدة • ولكن جعلت هذه التضحية النصر في متناول اليـد ، لانها قسرت « حامـلات الطائرات » المعادية على المناورة وحالت بينها وبين اسقاط المزيد من الطائرات الامريكية •

امحوا من الوجود ثلاثة « سطوح منبسطة » :

وانبرت طائرات دونتلس ، بدورها ، مـن فوق حـاملتي الطائرات آنتر برايز و يوركتاون •

الساعة العاشرة و ١٠ دقائق : قام سربان من طائرات دونتلس (بقيادة مـاك كلوسكي ومعه ٣٧ طائرة) بمهاجمـة الحاملتين كاغـا وآكاجي بواسطة انقضاضات بزاوية قدرها ٧٠ درجة وبسرعة ٢٨٠ عقدة • غـير أن أسراب المطاردات اليابانية ، التي كانت تنقض بضراوة على الطائرات النسافة الامريكية ، لم يكن لديها ما يكفي من الوقت للعودة •

---

(٢) المقصود بها حاملات الطائرات .

الساعة العاشرة و ٢٦ دقيقة : اصابة حاملةالطائرات آكاجي بثلاث قنابل • وقد انتهى هجوم النسافات منذ دقيقتين • وقد انفجرت القنبلة الثانية في وسط اربعين طائرة أثناء تموينها فوق المدرج ، وتسببت الثالثة في نسف مخزن الطربيدات ، وأعقب ذلك حريق رهيب • وقد استطاع الاميرال ناغامو تنفيذ عملية الاخلاء بصعوبة في الساعة العاشرة و ٤٧ دقيقة وانتقل مع الناجين الى الطرادة ناغارا ، وظلت « حاملة الطائرات » آكاجي تحترق طيلة النهار وغاصت بتأثير طربيد في اليوم التالي، أي في فجر الخامس من حزيران •

وفي الوقت ذاته : تلقت « حاملة الطائرات » كاغا أربع قنابل مما أدى لانفجار خزان الوقود والاطاحة بالبرج ، هذا كما أصيبت بطوربيد غواصة • وبعد أن انفجرت الحاملة المذكورة غاصت في لجة البحر في الساعة ١٩ و ٢٥ دقيقة •

وفي الوقت ذاته أيضا : قامت سبع عشرة طائرة من فوق الحاملة الامريكية يوركتاون (قائد السرب ليسلي) لتضرب « حاملة الطائرات » اليابانية سوريو • وقد انطلقت الطائرات المذكورة في الساعة التاسعة و ٦ دقائق ، أي بعد طائرات السفن الاخرى بأكثر من ساعة وربع ولكن القائد عرف طريقه بسرعة أكبر • وكانت طائرات الحاملة اليابانية سوريو فوق مدرجها وجاهزة للاقلاع ، ولكن الحاملة المذكورة أصيبت ثلاث مرات بين الساعة العاشرة و ٢٥ دقيقة والساعة العاشرة و ٢٨ دقيقة فاندلعت فيها الحرائق • وبعد عشرين دقيقة تم اخلاؤها من بحارتها ، وعندئذ تدخلت الغواصة نوتيلوس التي كانت ترتاد هذه المناطق ، والتي اجتذبتها أخبار المعركة في الساعة الحادية عشرة و ٤٥ دقيقة ، وخلال ساعة من الزمن أدركت سوريو التي تمكنت من السيطرة على حرائقها • وعندئذ قذفت الغواصة نوتيلوس باتجاهها ثلاثة طوربيدات ، بين الساعة الثالثة عشرة و ٥٩ دقيقة والساعة الرابعة عشرة و ٥ دقائق ، من على مسافة ٢٥٠٠ م انفجرت على اثرها خزانات الوقود وشطرت السفينة الى قسمين •

الحصيلة : ثلاث حاملات طائرات يابانية في حالة الغوص والغرق • وخسرت

حاملة الطائرات الامريكية آنتربرايز خمس وعشرين طـائرة مثلما خسرت الحاملة هورنت ٢٦ بينما بلغت خسائر يوركتاون ١٧ طائرة .

والرابعـة :

ـ فيالساعة العاشرة و ٥٠ دقيقة أبرقالعميد البحري آبـه (Abé) ، **الذي** أنيطت به مهمة القيادة بدلا عن الاميرال ناغومو ، أقول أبرق للاميرال ياماموتو بأنه سينبري لملاقاة عدو يملك حاملة طائرات . وكانت هي يوركتاون . فأصدر أوامره لحاملة الطائرات الرابعة هيريو ، وهي الناجية الوحيدة ، بأن تهرع للهجوم .

ـ الساعة الحادية عشرة ودقيقة واحدة : أطلقت هيريو أول موجة منطائراتها، مؤلفة من ١٨ قاذفة انقضاضية وست مطاردات .

ـ الساعة الثانية عشرة : الاميرال كوندو ، قائد الاسطـول الثاني ، والذي يؤمن التغطية لمجموعة الانزال في الجنوب الغربي ، يخبر بأنه يندفع في اتجاه الشمال مع عمارته الجبارة .

ـ الساعة الثانية عشرة و ٢٠ دقيقة : الاميرال ياماموتو يصدر الاوامرلحاملتي الطائرات » ريوجـو و جـونيو التابعتين للقوات التي تهـاجم دوتش هاربـور ، بالالتحاق « بحاملة الطائرات » هيريو في الجنوب .

ـ الساعة الثانية عشـرة و ١٠ دقائق : الهجـوم على يوركتاون ، ولكـن المطاردات الامريكية قسرت اثنتي عشرة قاذفة على العودة من حيث أتت ، بيـد أن ستا منها استطاعت أن تتسلل وسددت ثلاث ضربات في الهدف ، كانت اثنتان منهـا موجعتين للغاية . فاحترق برج الحاملة الامريكية وتم تدمير رادارها الخ ... فلتشر يأمر باخلائها .

ـ الساعة الثالثة عشرة وربع : الطرادة بورتلند تقوم بقطر يوركتاون .

ـ الساعة الثالثةعشرة و ٤٠ دقيقة : عاد الضغط إلىأربعة مراجل فييوركتاون وأصبحت تسير بوسائلها الخاصة .

ـ الساعة الرابعة عشرة و ٤٠ دقيقة : قدوم الموجة الثانية من فوق هيريو ، والمنطلقة في الساعة ١٣ و ٣١ دقيقة • وقـد حاولت حامـلة الطـائرات والطرادات الامريكية التي تخفرها المنـاورة ، ولكن يوركتاون أصيبت بطوربيدين ومن ثـم جنحت على خاصرتها •

ـ الساعة الرابعة عشرة و ٢٦ دقيقة : قامت قاذفات استطلاع من فوق«حاملة الطائرات » المصابة وأبصرت حاملة الطائرات هيريو وأعطت موضعها على الضبط •

ـ الساعة الخامسة عشرة والنصف : الحاملة آنتربرايز تطلق ٢٤ طائرة مـن طراز س ب د •

ـ الساعة السابعة عشرة : الهجوم على هـيريو التي أصيبت بأربعـة قنابل وغرقت مع أميرالها وكل طائراتها •

تلك هي نهاية المعركة • وبعد راودت خيال الامـيرال ياماموتو ، في احـدى اللحظات، فكرة متابعة المعركة، ولكنه في المساء ، اضطر للانحناء والاذعان أمام الحقيقة• وأخيرا أعطى في الساعة الثانية و ٥٥ دقيقة من صبيحـة الخامس من حزيران أمـراً بالانسحاب بعد أن خسر اربع حاملات طائرات و ٢٥٠ طائرة وأفضل طياريه •

بعد المعركة :

لقد عمل عدد من الطيارين الامريكيين يقل عن المائة على تلاشي أمل اليابانيين الذين كانـوا يحلمون بكسب معركة بحرية كبرى تحقق لهـم الهيمنة على البحـار لحساب أمبراطورية الشمس المشرقة • وبعد هـذا العراك أخذ يناقش كل جـانب حساباته في وسط معلومات مغلوطة ، وبرهن كل منهمـا عن أكبر قدر من الحـذر وتراجع عن أية معركة ليلية • وفي السادس من حزيران فقـط أذاع القائد الاعلى في بيرل هاربور : « أن نصرا كبيراً تلوح بوارقه ••• » •

ولكن كان هناك ظل واحد في اللوحة : وهي خسارة يوركتاون التي تمّ إخلاء ٢٢٧٠ رجلا من الناجين منها ، ثم جرى سحبها ، وأخـيراً تركت وشأنها قبل الأوان

بسبب حرمانها من أي فريق إنقاذ كان ، وبعد أن أصيبت بأربعة طوربيدات سدّدتها اليهـا غواصة يابانية من طراز ١٦٨ــ١ التي ظلت تبحث عنها مدة تزيد عن ٢٤ساعة، الى ان عثرت عليها في الخامس من حزيران في الساعة الثالثة عشرة والنصف • وفـي السابع من حزيران، وفي الساعة السادسة صباحا ، غرقت « حاملة الطائرات »الكبيرة المعطوبة •

أما حاملة الطائرات ساراتوغا المنطلقة من ساحل الولايات المتحدة الغربي فقد وصلت الى بيرل هاربور في السادس من أيار ثم التحقت بقوات الاميرال سبروانس وفي الحادي عشر من حزيران أصدر الاميرال نيميتز أوامره لكل قـوات المحيـط الهادي بالتجمع في هاوائي •

وقد كانت ميدواي ثاني المعارك الكبرى الخمس في المحيط الهادي التي كان العمل خلالها واقعا ، حصراً ، على عاتق الطيران مع دعم من بعض الغواصات • ولقد اضطر ياماموهو لأن ينسحب من المعركة لان الامريكيين دمروا الاسطول الجـوي الياباني على الرغـم من تمتعه بتفوق ساحق في بطاريات المدفعية التي لم تتح لهـا الفرصة لاطلاع قذيفة واحدة من مدافعها •

وكان هناك عزاء وحيد للاميرال الياباني : وهــو ان مجموعة عمليات الشمال تمكنت من احتلال جزيرتي كيسكا وآتّو في أرخبيل آلوشيان •

وقد كانت معركة ميداوي أول هزيمة ساحقة حقيقية أصابت الاسطول الياباني في الأزمنة الحديثـة •

* * *

لايت

LEYTE

٢٣ ــ ٢٥ تشرين الاول ١٩٤٤

أكبر التحام فوق البحر في الازمنة الحديثة والاخير

لقد أصبح وضع اليابان في صيف عام ١٩٤٤ حرجاً للغاية • فقد أصبحت الهجمات تتقدم في كل مكان ، بينما كان هجوم الجنوب الغربي يقترب من الفيليبين •

ولم يكن القادة اليابانيون قطعاً ، هم الذين كانوا البادئين في هذه المعركة • فقد سبق أن قتل الاميرال ياماموتو ، رجل البحر العبقري ، بفعل المطاردات الامريكية خلال رحلة جوية • كما قتل خلفه الاميرال كوغا في بحر الفيليبين في حادث طيران ، هذا في حين انتحر الاميرال ناغومو ، البطل المنتصر في بيرل هاربور ، على أثر كارثة سايبان (Saïpan) في جزر الماريان ، حيث جرى تدمير القوة الجوية البحرية اليابانية • أما ناغانو رئيس اركان حرب البحرية فقد عزل من منصبه •

وهكذا آلت القيادة الى الاميرال تويادا الذي تسلم زمام قيادة الاسطول ، ولم يكن يأمل اطلاقا في احراز نصر ولكنه كان يرغب ، بكل بساطة ، في أن يوقف زحف الخصم الامريكي وأن يوقع به خسائر تكون من الجسامة بحيث تجعله يعدل عن محاولة اجتياح اليابان • وقد رأى تويودا بثاقب بصيرته أن القفزة الامريكية القادمة ، الى الأمام ، إنما تستهدف جزر الفيليبين • وهكذا تبنّى مختارا خطة شو (Sho) ، التي كانت تقوم ، من خلال مشاغلة ماهرة ، على اجتذاب القوات المعادية

من الجانب الذي لن يحدث فيه الهجوم الرئيسي • ولما كان المخطط الامريكي يرمي الى النزول على الساحل الشرقي لجزر الفيليبين ، فقد استدعى الاميرال تويوداعمارة من الشمال الغرض منها اجتـــذاب العناصر الرئيسية في القوات الامريكية اليها ، أي عليها أن تلعب دور « الطـُعـْم » ، وفي هذه الاثناء تجتاز عمارتان يابانيتان أخريـــان الارخبيل من المضائق وتنطلق لتدمير ناقلات الجند الامريكية ، وقد كانت الخطــة جريئة ولكنها مليئة بالمخاطر • وقد ارتضى تويودا بالمجازفة ، وكانت الخطــة على قاب قوسين من النجاح •

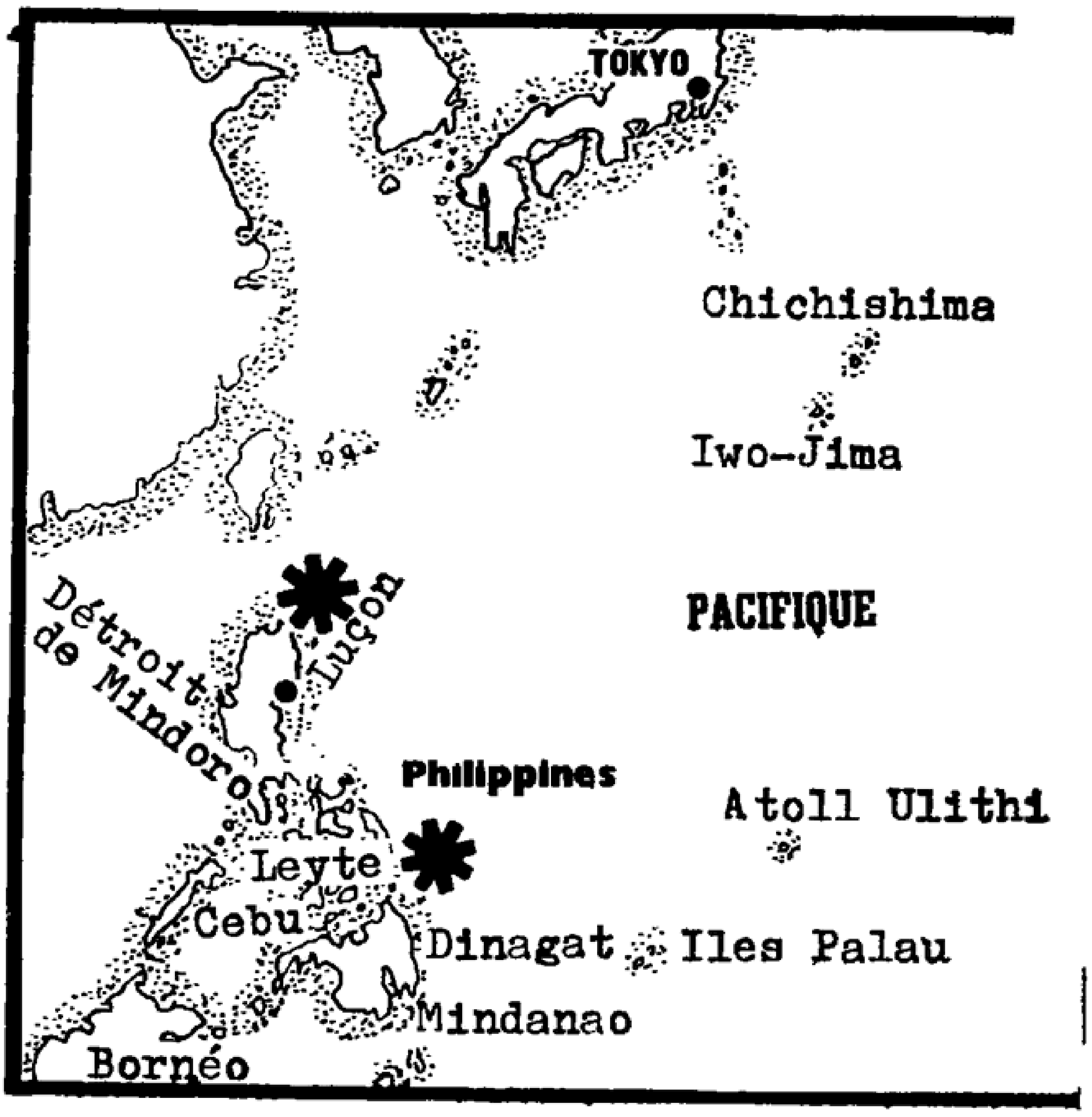

وفي السابع عشر من تشرين الاول ١٩٤٤ ابتدأت عملية الانزال الامريكية في جزيرة سولوان عند مدخل خليج لايت • وفي العشرين منه كانت عمليـــة الانزال في أوجها ، إذ هبط الجيش السادس الامريكي منـــدفعاً بكل قوة في صـــدر الخليج • وأصدر تويادا أمره بتنفيذ خطة شو وحدّد يوم الهجـــوم بالخامس والعشرين مـــن

تشرين الاول ، فهرعت القوات البحرية من سائر أنحاء الامبراطورية نحو أرخبيل الفيليبين باتجاه لايت لخوض أكبر معركة في التاريخ ، هي معركة اليأس ، التي ستخوض غمارها مئات السفن وآلاف الطائرات ، والتي ستنتشر على حلبة تزيد مساحتها عن فرنسا بكاملها •

وكان الجهاز الحربي الياباني على الشكل التالي :

ـ عمارة الاميرال اوزاوا القادمة من بحر اليابان الداخلي ، في اتجاه لايت ، والتي ستمر من شرق الفيليبين : وكانت تتألف من « حاملة طائرات » ثقيلة ، وثلاث « حاملات طائرات » خفيفة ، ومن بارجتين « خنثيين (Hermaphrodites) » أي هما بارجتان وحاملتي طائرات في الوقت ذاته ، ومن طرادات ونسّافات • وكان عليها أن تجتذب نحوها الحد الاقصى من السفن والطائرات الامريكية ، ومهمتها تقتصر على دور الضحية • ولما كانت هـذه القوة هي الوحيـدة من الجانب الياباني التي تضم حاملات طائرات فان الامريكيين سيحسبونها ، بلا ريب ، هي الاكثر خطراً وسعملون على تدميرها في البداية •

ـ عمارة ثانية بقيادة الاميرال تاكيئو كوريتا ، قادمـة من الجنوب الغربي ، والتي عليها أن تجتاز مضيق سان برناردينو ، وأن تلتف مـن خلف جزيرة سامار ، وتهاجم من الشمال ناقلات الجند الامريكية الراسية في لايت • وكانت تشتمل على خمس بوارج ، واثنتي عشرة طرادة ونسافات (سفن طوربيـد) • وكان في عـداد البوارج السفينتان العملاقتـان (Mastodontes) من وزن ٦٠٠٠٠ طن وهمـا موزيشي و ياماتو ، وهما أكبر مثيلاتها في العالم واللتـان لايمكن اغراقهما اطـلاقا حسب اعتقاد اليابانيين • وكان يقع على عاتق أسراب المطـاردات المتمركزة في جزر الفيليبين توفير الحماية الجوية •

ـ عمارة ثالثة قادمة من الاتجاه ذاته ، كان عليها أن تمر من مضيق سوريغاءو وتنقض على الناقلات الامريكية ، في لايت ، من الجنوب • وكان عليهـا أن تتحرك

على شكل نسقين (Echelons) بقيادة الاميرالين شوجي نيشمورا و كيوهيداشيماء ولم تكن تضم سوى بارجتين عتيقتين •

وسيأخذ اليابانيون على عاتقهم المبادهة في العمليات الحربية • وستكون هناك ثلاثة عمليات بحرية :

١ ــ في شمال شرق الفيليبين تجاه رأس أنغانيو •

٢ ــ في سان برناردينو ، ثم تجاه ساحل جزيرة سامار •

٣ ــ في مضيق سوريغاءو •

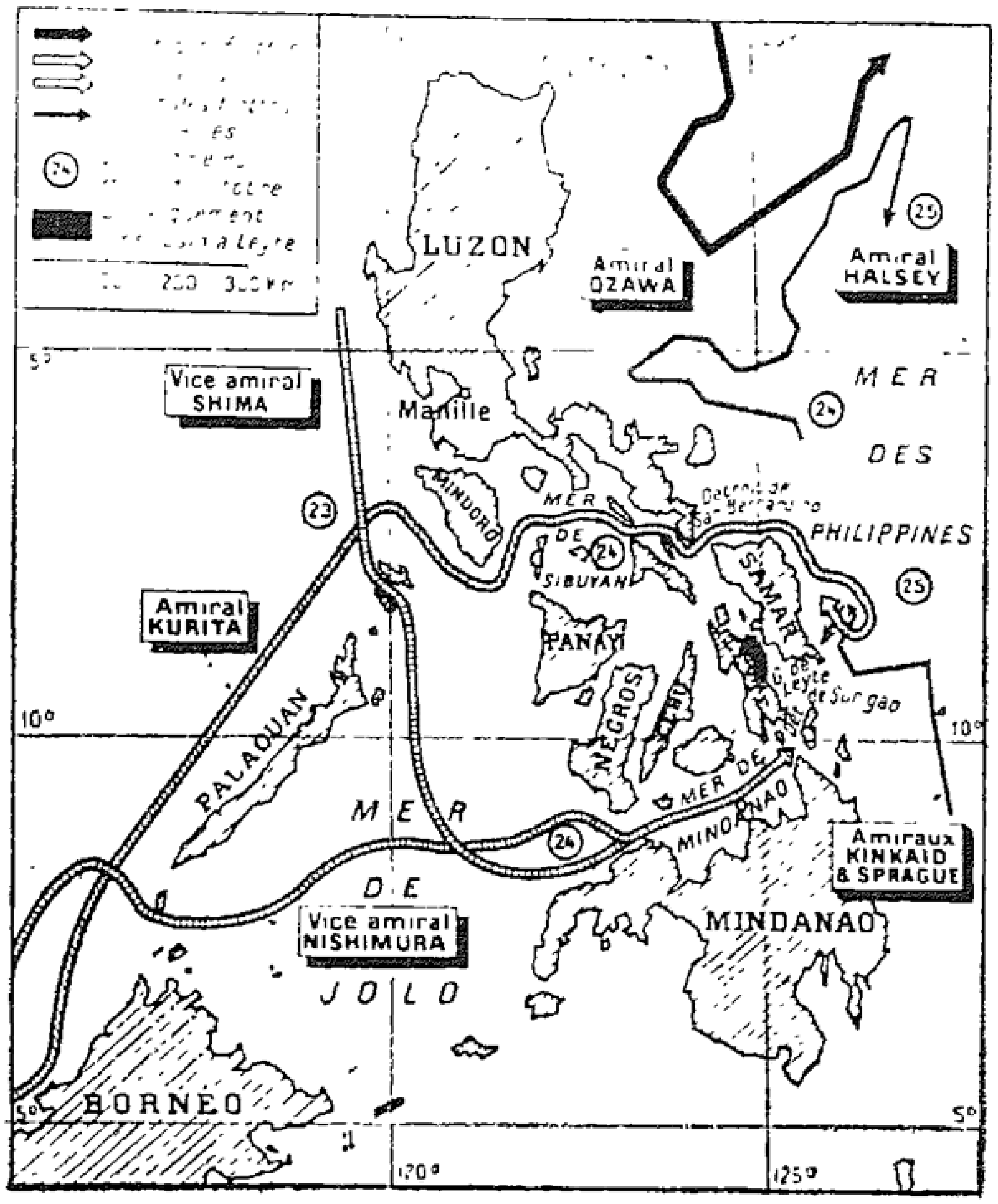

خريطتا معارك لايت البحرية

وستكون معركة مجزأة ، بلا ترابط نوعا ما ، أطلق عليهـا الامريكيون اجمالا اسم معركة لايت •

أما القوات الامريكية فقد كانت ، من جانبها ، مؤلفة من العناصر التالية :

ـ في خليج لايت : سفن نقل ، سفن برمائية والتي ستقـذف على الساحـل بالمئات من الاشخاص ومن العتاد الحربي •

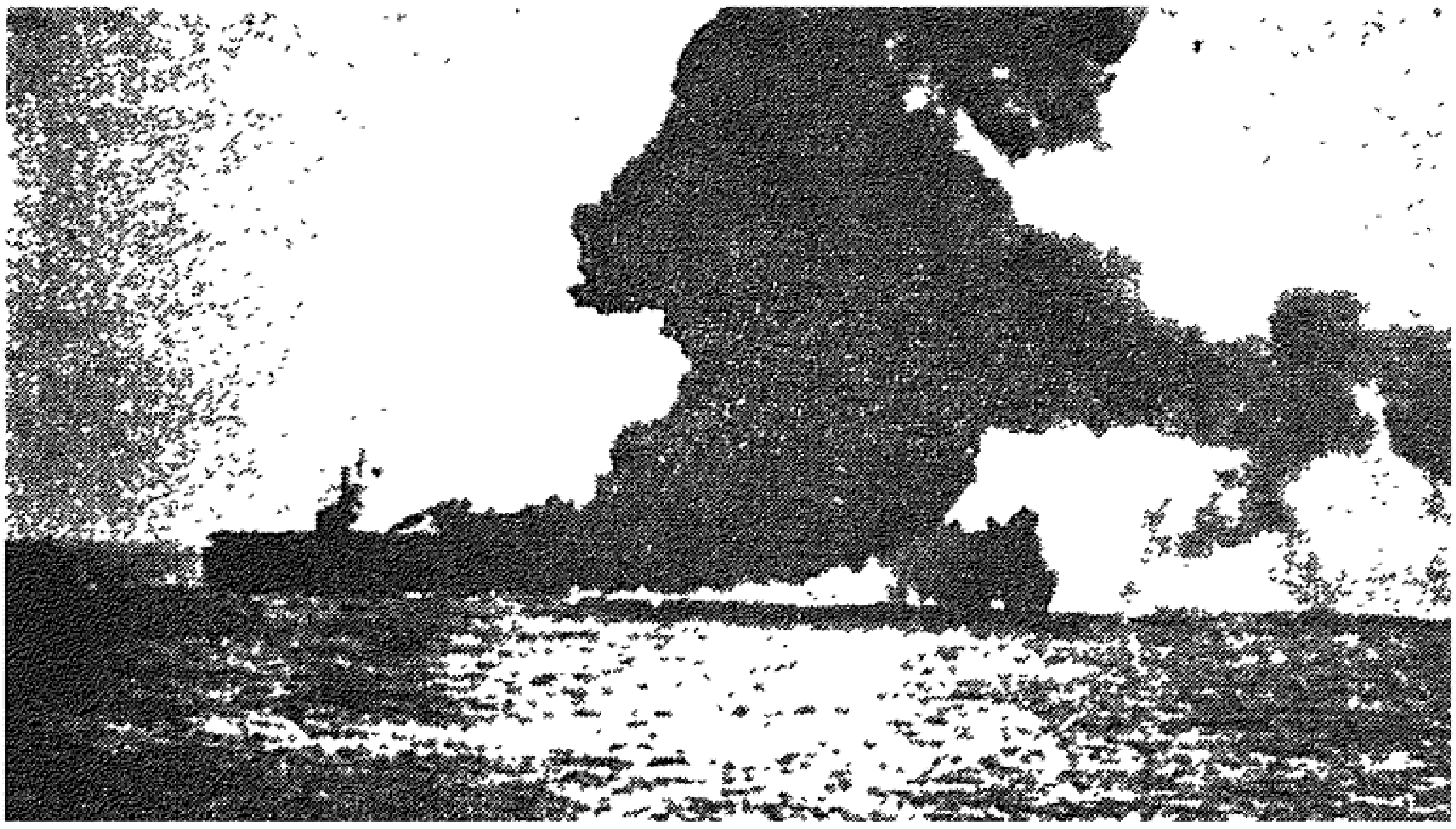

« حاملة الطائرات » الحارسة سان لو بعد أن أصابها الطيران الياباني

ـ الاسطول السابع ، يقوده الاميرال كينكيد (Kinkeid) ، والذي يوفر الحماية الوثيقة لعملية الانزال هذه ، ويضم ست بوارج قديمة ، وست عشرة مـن حاملات الطائرات ومدمرات الخ ••

ـ الاسطول الثالث بقيادة الاميرال هالسي (Halsey) ، وهو أفضل أساطيل الولايات المتحدة ، مهمته المهاجمة التدخلية (Offensive d'intervention) ضد أي عـدو طارىء • كما كان يضم ، هو أيضاً ، ست بـوارج وست عشرة من أحـدث حاملات الطائرات •

لقد كان كل شيء محكماً في هذا الاسطول ما عدا التنسيق في القيادة • فقد كان قاطع المحيط الباسفيكي الاوسط خاضعاً لقيادة الاميرال نيميتز (Nimitz) ، الذي

الذي يعمل الاميرال هالسي تحت إمرته • أما قاطع الباسفيكي الجنوبي الغربي فكان تابعاً لقيادة الجنرال ماك آرثر الذي كان الاميرال كينكيد يخضع لاوامره • وعندما التأم شمل الجميع على مسرح العمليات الوحيد كان من اللازم قيام قيادة وحيدة • ولكن كيف العمل لتحاشي حسابات الكرامة الذاتية ؟ وقد تركت حكومة واشنطن لهاتين القيادتين حرية التصرف • وهكذا كان الاميرال كينكيد مستقلا تماما عن أوامر هالسي ونيميتز مما أدى الى نقص في التنسيق الذي قد يقود الامريكيين نحو الكارثة •

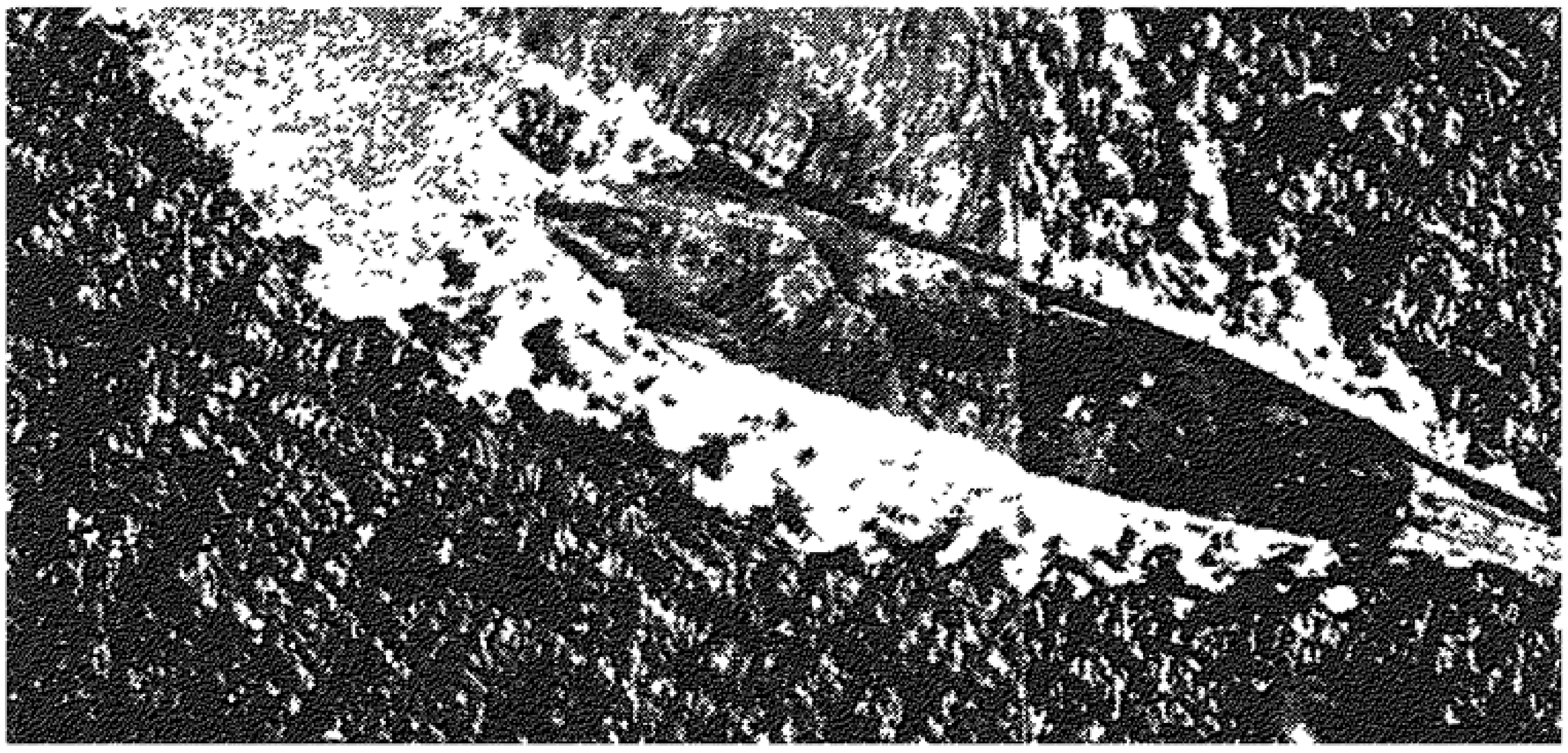

سفينة من طراز « ياماموتو » التي اغرقتها القاذفات الامريكية

وفي مقابل ذلك كان الاميرال أوزاو (Ozawa) يندفع من الشمال ، وفي الوسط كان كوريتا ، ومن اليمين كان الاميرالان نيشيمورا و شيما • ولقد اتجه كوريتا نحو مضيق سان برناردينو ماراً من شمال جزيرة بالدوان • وابتداء من ٢٣ تشرين الاول استطاعت الغواصة الامريكية دارتر أن تكتشف قواته ، فهاجمته دون تردد ، فأغرقت الطرادة الثقيلة آتاغو وهي سفينة الاميرالية ، وأعطبت الطرادة تاكاءو • وهرعت غواصة أمريكية ثانية فأغرقت الطرادة مايا في حين أرسلت غواصة ثالثة الطراد آؤبا باتجاه القاع •

وبينما كان الاميرال كينكيد يراقب مضيق سوريغاءو أخذ الاميرال هالسي على عاتقه مهمة التصدّي للقوة اليابانية الوسطى • وفي الرابع والعشرين من الشهر

راحت الطائرات الامريكية تهاجم اليابانيين على شكل موجات قوية ، فأصيبت البارجة الكبيرةموزيشي ، التي نصب عليها الاميرال كوريتا رايته ، بعشرةطوربيدات فضلا عن عدد من القنابل • وحاولت الوصول الى الساحل ولكنها غرقت قبل أن تدركه • وأصيبت سفن أخرى بأعطاب خطيرة • وهنا ناشد كوريتا مساعدةالطيران البري • ولكن كانت نداءاته بلا جدوى • فأعطى أمراً بالتراجع وانكفأ في اتجاه الغرب • وهنا تصور الاميرال هالسي أن القوة اليابانية الوسطى قد تمت تصفيتها•

فاتخذ تدابير أخرى ، ولكنه هوجم في بداية ما بعد الظهيرة من قبل طائرات يابانية قادمة من الشمال واعتقد أنها طائرات منطلقة من فوق حاملات طائرات ، فتعرض لخسائر ، اذ انفجرت حاملة الطائرات برنستون• هذا كما حسب الاميرال هالسي أن عمارة معادية أخرى وصلت من الشمال، فترك عمارة كوريتا وشأنها وراح يستعد لمواجهة الاخرى •

وفي خلال هذا الوقت كان الاميرال نيشيمورا يتجه نحو مضيق سوريغاءو • ولكن تم اكتشاف أمره ، هو أيضا من جانب الامريكيين ، فاصطدم بقوات الاميرال كينكيد • وهنا نظم الاميرال اولندورف ، وهو القائد التكتيكي لهذه العمارة ، أقول نظم كمينا في الخليج لا بد وان يسقط فيه الاميرال الياباني لا محالة • وعندما دخل نيشيمورا في ليلة ٢٤ الى ٢٥ تشرين الاول في الخليج ، أصبح هدفاً لهجوم أطبق عليه من سائر الجهات شنته المدمرات والزوارق السريعة• فأصيبت البارجة ياماشيتو مثلما غرق عدد من النسافات • وظل نيشيمورا ، الشديد العزم ، يتابع طريقه دون أية بارقة من أمل • فذهبت سفينته نحو قاع البحر • وعندها استلم زمام القيادة العقيد البحري بو (Bau) من فوق بارجته فوزو (Fuso) • ولكن بوارج الاميرال اولندورف الرابضة عند مخرج الخليج تلقته بنيرانها ، وهنا وقعت الكارثة فاشتعلت النيران الكثيفة في بارجة القيادة فوزو ، وغرقت الطرادة ناشي ، في حين أصيبت الطرادة موغامي بالتلف الخطير • ولم تقدّر النجاة ، في كل هذه العمارة، الا للمدمرة شيغورا التي ولت هاربة لا تلوي على شيء •

وقد حاول الاميرال شيما الذي كان يسير خلف نيشيمورا أن يقتحم المضيــق بدوره ، ولكنه أدرك بأنه سيتعرض للتدمير الكامل فانعطف هارباً • وهكذا أمكن تصفية القوة الجنوبية • أما الامريكيون فقد اقتصرت خسائرهم على نسافــة وعلى زورق سريع •

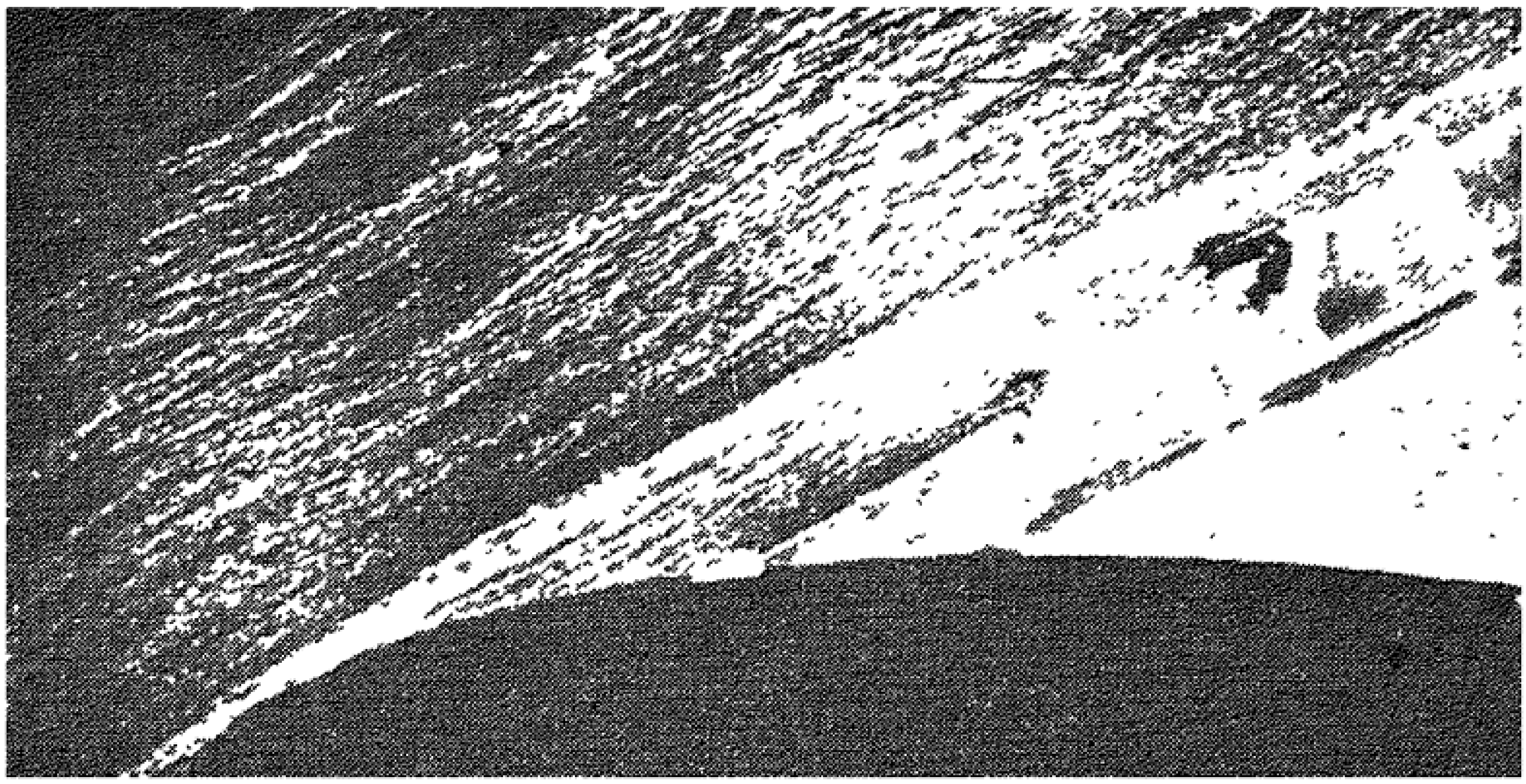

حاملة طائرات يابانية وقد اشتعلت النيران فيهــا

وعلينا الآن أن نحاول معرفة ما يحدث في الشمال • ففي يوم ٢٤ تشرين الاول انبرت عمارة الاميرال أوزاوا وأطلقت طائراتها في الجو • وفي ليلة ٢٤ الى ٢٥ مــه حدّد طيارو الاميرال الامريكي هالسي موقــع القوة اليابانيــة وأحصوها بشكل صحيح • وهكذا أنشبت معــركة رأس أنغانو أظفارها : ففي فجر يــوم ٢٥ تشرين الاول انطلقت مئات الطائرات لمهاجمة قوات الامــيرال أوزاوا الذي لم يكن تحت تصرفه سوى القليل من الطائرات ومن الطواقم الخبــيرة لان خسائر معركة سايبان (Saïpan) (في جزر ماريان) لم يمكن بعد تعويضها • وابتداء من الساعة الثامنة والنصف كانت حاملة طائرات يابانية تتجه نحو الاعماق ، ونال العطب الشديد حاملتين أخريين ، وغرقت طرادة • وأخيراً جاء دور « حاملة طائرات » الاميرال التي لم تلبث أن زالت من الوجود • وقد تمكن الاميرال أوزاوا من مغادرتها وصعد متن الطرادة اويادو (Oyado) ، وانسحب نحو الشمال ، في اتجاه اليابان • هــذا كما تمكنت

السفن المعطوبة من الالتحاق بقواعدها لان الاميرال هالسي أرخى بعض الشيء من شدة حصاره ، ذلك لان حركة مسرحية غير منتظرة ستحدث في الجنوب •

وقد بلغت مسامع الاميرال تويادا ، في مقر قيادته في اليابان ، نبأ حركةانسحاب الاميرال كوريتا ، فأصدر اليه أمرا يحتم عليه الهجوم من جديد ، وفي الواقع كـان كوريتا يستأنف مسيرته نحو الشرق منذ الساعة ١٧ من يوم ٢٤ تشرين الاول ، فعبأ قوات لا تزال تعتبر رهيبة ، تتألف من البارجة الكبـيرة ياماتو ومـن ستة طرادات ثقيلة • وعند هبوط جنح الظـلام اندس في مضيق سان برنار دينو ، وسط بحـر هادىء ، وطقس صحو ، ولم يصادف في طريقه أحدا • واندفعت العمارة اليابانيـة في أوائل ساعات يوم ٢٥ من الشهر المذكـور لتمخر عباب الفيليبين الحـر دون أن يكتشف أمرها : فقد اعتمد الاميرال هالسي على الامـيرال كينكيد بمهمة مراقبـة المضيق في حين كان كينكيد يعتمد على هالسي في القيام بالمهمة ذاتهـا • وفي المساء انزلق اليابانيون خلسة نحو الجنوب بعد الالتفاف حول جزيرة سامار ، متجهين الى ميناء لايت •

وفي فجر الخامس والعشرين فقط استطاعت الطائرات المحمولة التابعةللاسطول السابع أن تكتشفأمر العمارةاليابانية التيكانكلالامريكيينيعتقدونأنها بعيدةجداء ولكن على مسافة قصير كهذه لا تستطيع حاملات الطائرات فعل شيء تجاه البوارج المعادية • وهنا لاذ الاميرال سبراغو (Sprague) الذي يقـود حامـلات الطائرات بأذيال الفرار على الفور • غير أن كوريتا لاحقه بأقصى سرعة وأغرق ، بالمدافـع ، حاملة الطائرات غامبيه باي (Gambier-Bay) وأعطبت ثلاثا من حاملات الطائرات الاخرى فضلا عن عدد من المدمرات • وفي خلال هذا الوقت كان الطـيران الياباني الارضي ينقض بشكل كثيف على مرسى لايت ، فاستنجد الاميرال كينكيـد بزميله هالسي • وتعاقبت برقياته المستغيثة • غير أن هالسي كان بعيـداً للغاية في الشمال وعاجزا عن تقديم عون سريع ، متى سيصل ياترى ؟ ربما بعد فوات الاوان ؟

وعندئذ جرى آخر فصل من المعركة ، والذي لايقل غرابة • فبينما كان الاميرال كوريتا يمسك بأسباب النصر في يديه عمد الى الانسحاب • فقد كان يجهل أن بوارج الاميرال كينكيد كانت تفتقر الى الذخائر ، مثلما ظن أن الناقلات الامريكية قد غادرت أمكنتها ، مثلما كان يخشى من أن يتعرض لهجوم من قبل قوات جوية أمريكية عظيمة لا قبل له بها ، وأن ينقطع اتصاله باليابان في مضيق سان برناردينو ، وهكذا عاد أدراجه • وهكذا نجت الناقلات الامريكية التي كانت لاتزال راسية في ميناء لايت وتحقق فشل مخطط شو بصورة نهائية • وهكذا اجتاز الاميرال الاميرال كوريتا مضيق سان برناردينو في اتجاه الغرب ، وعندها اندفع الطيران الامريكي على شكل هجمات متتالية خلال يوم ٢٦ من الشهر وأغرق طرادتين يابانيتين •

تلك هي خاتمة المعركة التي أطلق عليها اسم معركة لايت : فقد تم اخراج العمارات اليابانية الثلاث من سجل الحساب ، ولن تستطيع البحرية الامبراطورية إطلاقا بعد اليوم أن تتدخل في الحرب بعد ذلك اليوم المشهود ، فقد أبيدت •

وهي في الوقت ذاته ، وعلى الخصوص ، آخر معركة كبيرة في التاريخ ، حتى كتابة هذه السطور •

* * *

المراجع

SOURCES. REFERENCES

Sur un plan d'ensemble, nous avons consulté avec fruit plusieurs ouvrages sur l'Histoire générale de la Marine, notamment celui de Claude Farrère et celui de Ch. de La Roncière et G. Clerc-Rampal, ainsi que les deux volumes classiques de Jacques Mordal : *Vingt-cinq siècles de guerre sur mer,* publiés en 1959.

Sur certaines batailles, nous avons puisé d'intéressants détails dans :

— SALAMINE : Godlsmith, *Abrégé de l'histoire grecque* (1817); Victor Duruy, *Histoire des Grecs* (1888).

— LÉPANTE : Charles Diehl, *Une république patricienne, Venise* (1915).

— INVINCIBLE ARMADA : Jean Merrien, *Les drames de la mer* (1961); H. Forneron, *Histoire de Philippe II* (1882).

— LES DUNES ET LES QUATRE JOURS : Hennequin, *Biographie maritime* (1837); Jean Le Clerc, *Histoire des Provinces Unies des Pays-Bas* (1778).

— AGOSTA ET BEVEZIERS : Eugène Sue, *Jean Bart et Louis XIV, drames maritimes du XVII^e siècle;* Olivier Godlsmith, *Histoire d'Angleterre* (1840)

— LA CHESAPEAKE : Thomas Balch, *Les Français en Amérique pendant la Guerre de l'Indépendance* (1872).

— 13 PRAIRIAL : Pierre Blanchard, *Histoire des batailles, sièges, combats des Français depuis 1792 jusqu'en 1815* (1818); Paul Lécène, *Les marins de la République et de l'Empire* (1884).

— HORATIO NELSON : Rear Admiral Lord Charles Beresford and H.W. Wilson, *Nelson and his time.*

— FOU TCHÉ OU : Un article de L. Garros dans *Historama* 1968.

— TSOU SHIMA : H.W. Wilson, *Les flottes de guerre au combat* (1929).

— CORONEL ET LES FALKLAND, LE JUTLAND : Adolphe Laurens, *Précis d'histoire de la Guerre navale 1914-1918.*

— ATLANTIQUE, PACIFIQUE, MIDWAY, LEYTE : La documentation est tellement abondante que nous ne saurions la citer en entier.

* * *

المعـارك البحرية الكبرى في التاريخ

بقـلم روبير شوسوا

Robert Chaussois

ترجمـة : عبد الرحمن حميـده

دكتوراه الدولة من السوربون

أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

تمهيـد : بقلم العقيد لويس غـارّو

١ ـ سالامين	Salamine
٢ ـ ليبانت	Lepante
٣ ـ الأرمادا التي لا تقهر	L'invincible Armada
٤ ـ لي دون	Les Dunes
٥ ـ الايـام الاربعـة	Les quatre jours
٦ ـ آغوسطـا	Agosta
٧ ـ بيفيزييه	Bévéziers
٨ ـ شيزابيـك	Chesapeake
٩ ـ نيغاباتـام	Negapatam
١٠ ـ الثالث عشر من شهر بريريال	Prairial
١١ ـ هوراسيو نلسون	Horatio Nelson
١٢ ـ نـاڤاريـن	Navarin
١٣ ـ فوتشيئو	Fou Tche Ou
١٤ ـ تسوشيما	Tsou Shima
١٥ ـ كورونل والفولكلند	Cornel et Falkland
١٦ ـ جوتلنـد	Le Jutland
١٧ ـ مأساة المرسى الكبير	Drame de Mers el Kébir
١٨ ـ ماتـاپان	Matapan
١٩ ـ في الاطلنطي	Dans l'Atlantique
٢٠ ـ في الباسفيكي	Dans le Pacifique
٢١ ـ ميـداوي	Midway
٢٢ ـ لايـت	Leyte